

سياسات الزمر الباكهه فء مصر العثمانية

المجلس
الأعلا
للثقافة



المشروع القومي للترجمة

تأليف: چين هاشواى
ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ



418

المشروع القومي للترجمة

سياسات الزُّمر الحاكمة في مصر العثمانية

تأليف : چين هاثواي

ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ



٢٠٠٣

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٤١٨

– سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية

– چين هاثواى

– عبد الرحمن الشيخ

– الطبعة الأولى ٢٠٠٣

ترجمة كاملة لكتاب :

The Politics of Households in Ottoman Egypt.

(The Rise of the Qazdağlis)

تأليف : Jane Hathaway

عن : Cambridge University Press

ضمن سلسلة : Cambridge Studies in Islamic

History, 1997.

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 .

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

13 مقدمة المترجم
21 مقدمة المؤلف
23 التعريف بالكتاب للناشر الأجنبي
25 توطئة
27	ملاحظات المؤلف حول كتابة الأعلام والمصطلحات العربية والعثمانية
29 المختصرات
33	القسم الأول : مكانه الزمرة الحاكمة فى تاريخ مصر العثمانية
35	الفصل الأول : مكانه مصر فى الإمبراطورية العثمانية ...
53	الفصل الثانى : الزمرة العسكرية
53	- تعريف الزمرة العسكرية
59	- مصطلح « تابع »
63	- الزمرة كمفتاح للتاريخ العثمانى
68	- ملاحظة عن المصادر
	الفصل الثالث : التحولات فى المجتمع العسكرى المصرى فى القرنين السابع
79	عشر والثامن عشر
80	- انتقال رؤساء الزمر : من بكوات إلى ضباط فرق
86	- تكوين الزمر داخل الفرق العسكرية
93	- البكلرية فى أواخر القرن الثامن عشر

115	الفصل الرابع : زُمرتَا القازدغلية والجلفية : الظهور ، والمشاركة
115	- أصول الجلفيّة
126	- أصول القازدغلية
	- حكومة الثلاثة : الأغا حسن بلفية ، وإسماعيل بك
132	الدفتردار ، والكخيا مصطفى القازدغلى.....
140	- زعماء القازدغلية بعد موت المؤسس
142	- الجاويش حسن Çavuş
146	- الجاويش عثمان
151	- الجاويش سليمان
154	- الكخيا عبد الله
157	- الكخيا محمد الطويل
158	- الجاويش عبد الرحمن
160	- الخلاصة
	الفصل الخامس : صعود الكخيا إبراهيم القازدغلى وظهور البكرية
175	القازدغلية
175	- خليفة الكخيا إبراهيم
	- إعادة النظر فى العصيان المسلح الذى قام به
176	الجاويش إبراهيم
	- تحالف الجاويش إبراهيم مع الكخيا رضوان
184	الجلفى والتغلغل فى البكرية
192	- الجورجيون والأبخاز (من أبخازيا أو أفخازيا)

205	القسم الثانى : استراتيجيات بناء الزمرة القازدغلية
207	الفصل السادس : تحالفات الزواج ودور النساء فى الزمرة
208	- توثيق التحالف
211	- رئيسة الأسرة « أو المرأة كزعيمة للأسرة » ...
216	- الزوجات وثروة الزمرة
216	- الزوجات كحارسات لأموال الأسرة والزمرة
220	- الزوجات كممتلكات تُورث
225	- خاتمة الفصل
231	الفصل السابع : الممتلكات والمشاركة التجارية
231	- المنزل house (البيت)
237	- الالتزام
239	- الأنشطة التجارية
242	- الزمرة القازدغلية وتجارة البن فى البحر الأحمر
253	الفصل الثامن : القازدغلية وكبير الخصيان السود
	- حدود المصالح الشخصية للزعيم الخصى الأسود
256	فى مصر
258	- قنوات النفوذ : الوكلاء والماليك
	- التغيرات الحادثة فى إدارة أوقاف الحرمين وتأثيرها
263	على الزمر العسكرية
264	- إصلاحات الباشا قره إبراهيم ١٦٧٠
267	- وقف والده السلطان

	- البيك إبراهيم بن ذى الفقار وتجدد نظارة
270	البكوات على أوقاف الحرمين
276	- زمرة الأغا حسن بلفية وأوقاف الحرمين
278	- زمرة الأغا حسن بلفية وكبير الخصيان السود
281	- خصيان البلاط فى الزمرة المصرية
293	الفصل التاسع : نتائج
296	- الزمرة القازدغلية وثقافة النخبة العثمانية
301	- مشكلة الكتابة التاريخية فى أواخر القرن الثامن عشر .
307	المراجع

الخرائط والأشكال التوضيحية

الخرائط

- ١ - خريطة أقاليم مصر 36
- ٢ - القوقاز ومنطقة البحر الأسود 83
- ٣ - القاهرة 233
- ٤ - قرى أوقاف الحرمين في البهنسا والتي كانت نظارتها في
أيدى المجموعة الجلفية 273

الأشكال التوضيحية

- ١ - أصول القازدغلية 31
- ٢ - أصول الجلفية 32
- ٣ - جانب من أصول الفرقة الفقارية 212
- ٤ - جانب من أصول الفرقة القاسمية 213

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

صفحة

قوائم

١/٣ - تكوين الزمرة الحاكمة من خلال الفرق العسكرية (الأوجاقات) 101

٢/٣ - المواضع الأناضولية والإيجية (*) Aegean التي تعود إليها

أصول الإنكشارية كما هي مدرجة ٤٧٨٧ Maliyeden Müdevvar

١٠٥ (١٦٧٧ - ١٦٧٥) و ٧٠٦٩ (١٧٣٧ - ١٧٣٨)

٣/٣ - المواضع غير الأناضولية التي تعود إليها أصول الإنكشارية

كما هي مدرجة ٤٧٨٧ Maliyeden Müdevver (١٦٧٧ - ١٦٧٥)

١٠٨ و ٧٠٦٩ (١٧٣٧ - ١٧٣٨)

:

(*) نسبة لبحر أيجه .

مقدمة المترجم

ملاحظات حول الترجمة العربية لهذا الكتاب

العنوان الأصلي لهذا الكتاب هو :

The Politics of Households In Ottoman Egypt , the Rise of Qazdaglis.

وبعد قراءة الكتاب قراءة متأنية اتضح أن وضع مقابل عربى للمصطلح household ليس بالأمر الهين إن أردنا نقل المعنى الدقيق الذى تقصده الأستاذة المؤلفة ، فهى لا تقصد الأسرة ، وليس المقصود هنا - كما نعرف من فصول الكتاب - أسرات حاكمة كالتى شهدتها التاريخ الأموى أو العباسى ... أو تاريخ الهبسبرج ... وهى لا تقصد « البيت » bayt " كما نفهم مضمونه الآن ، فمن غير المعقول أن يضم البيت كل الأتباع والممالك والخصيان ... إلخ ، وكل الأموال والسلاح والعتاد ... إلخ ، رغم أن بيت زعيم الزمرة كان يستخدم كحصن وقلعة ، وقاعة اجتماعات ، ... إلخ .

لقد جرى استبعاد « بيت » إذن كمقابل للمصطلح households كما استخدمته المؤلفة ، رغم أن الجبرتى حدثنا عن بيت القازدغلية وبيت البلفية وبيت الجلفية ... إلخ ، وكان يعنى تجمعا مصلحيا سياسيا واقتصاديا حاول ربط نفسه بالعاصمة العثمانية استانبول ، ومد جنوره فى القرية المحلية (مصر) فى الوقت نفسه ، رغم أن المؤلفة تشير إلى محاولات بعض هذه التجمعات إحياء السلطنة المملوكية بالاستعانة بروسيا ، للتخلص من العثمانيين .

لم يبق أمام المترجم إلا استخدام الكلمة العربية « زمرة » والجمع « زمر » كمقابل عربى معقول للمصطلح الذى استخدمته المؤلفة Household لنقل المعنى كما

تقصده تماما ، فالزمرة لغة كما ورد في المعجم الوجيز هي : الجماعة ، وتُكمل الصفات الملحقه بالكلمة المعنى المقصود :

زمرة عسكرية ، زمرة داخل الفرقتين المتنافستين (القاسمية والفقارية) ، زمرة صغيرة داخل الزمرة الأكبر ، زمرة الباشا العثماني ، زمرة القازدغلية وهي محور هذا الكتاب (وهي الزمرة التي منها بلوط قابان المعروف بعلى بيك الكبير) إلخ .

لكن لماذا لم نستخدم لفظ « جماعة » والجمع « جماعات » بدلا من الزمرة ؟ الواقع أن لفظ جماعة لفظ محايد وهو أقل دلالة من الزمرة التي تقصدها المؤلفة ، فالزمرة المقصودة لها رأس ، يشتري ممالك ، ويكون « أتباعا » عن طريق المشاركة التجارية ، وتعيين وكلاء تجاريين ، وضم الجنود التابعين له في الأوجاق (الفرقة العسكرية) وكذلك ضم الضباط الأدنى رتبة منه ، وضم الذين رقاهاهم حتى لو أصبحوا بعد الترقية أعلى رتبة منه .. ويعمل كل هؤلاء على الارتباط بمصالح مشتركة ، وأحيانا تكون بينهم صلة زواج أو تسر .. وفي هذا الكتاب قوائم انتساب (وليس نسب) عديدة توضح هذا المعنى ، وتوضح أن الصلات بين أفراد الزمرة متنوعة : مملوك ، تابع ، مجهول الهوية ، زواج ، تسرى ... إلخ .

ولم يكن تكوين الزمرة بالضرورة من وراء ظهر الحكومة المركزية في استانبول ، ولكنه كان يوما تحت بصرها ، ولم يكن بالضرورة ضد رغبتها ، لكنها كانت دائما واعية بالحد الذي يجب أن يتوقف عنده امتداد كل زمرة ، وكانت الزمر غالبا أكثر وعيا بمصالحها ، تلك المصالح التي كانت تتفوق في حالات كثيرة على الانتماء للدولة الأم (العثمانية) ، كلمة « زمرة » - إذن - صالحة تماما للتعبير عما ذكرناه آنفا .

* * *

ننتقل إلى مسألة أخرى في الغاية من الأهمية ؛ لأنها كانت تضلل القارئ وتبعده عن المعنى المقصود ، ونعني بها الخلط بين ما هو « اسم » وما هو « رتبة عسكرية » فالجاويش والكخيا (الكتخدا) والسوباشي ، والأوده باشي (الأوضاباشي) والشوربجي ، والأغا ، ... كلها رتب عسكرية لكن أحدا لم يحجر على الناس تسمية أبنائهم أو أتباعهم بها ، تماما كما هي الحال الآن ، فليس هناك مانع أن يسمى أحد أبنائه لواء أو (عقيد) أو (عميد) ، أو (جاويش) ... إلخ ، ولا تعني تسميته لابنه

بأحد هذه الأسماء أنه بالفعل حامل لهذه الرتبة العسكرية ، كان لابد من وضع حد لهذا الخلط خاصة في كتاب يتناول في جانب كبير منه الرتب العسكرية الحقيقية أو الشرفية ، وعلى هذا جرت الترجمة كالآتي :

– الكخيا عبد الله القازدغلي مقابلاً للصياغة
Abdallah Kahya al Qazdagli

الأوده باشى (الأوضباشى) على الطويل مقابلاً للصياغة Ali odabasi Al Tawil

– الجاويش على الطويل مقابلاً للصياغة
Ali Cavus Al Tawil

... وهكذا رغم أن الجبرتي وغيره من الكتب العربية تستخدم الصياغات

– عبد الله كخيا القازدغلي .

– على جاويش الطويل .

– على أوده باشى الطويل .

والسبب في استخدام الجبرتي وغيره هذه الصياغات المريبة هو التزام الصيغة العثمانية والتركية ، فالأتراك يقولون على جاويش ويقصدون : على الحاصل على رتبة جاويش ، ويقولون إبراهيم كتحدا ويقصدون : إبراهيم الحاصل على رتبة كتحدا (كخيا) وبذلك يختلط الأمر مع إبراهيم جاويش الذي اسم أبيه جاويش ، وحسين أغا الذي اسم أبيه أغا ... وهكذا ، وهذه الصيغة العثمانية لكتابة الرتبة إن التزمنا بها في العربية كانت مبتدأ وخبراً ؛ محمد جاويش : محمد : مبتدأ وجاويش ، خبر ، وليس هذا هو المقصود بالعربية ، فالمعنى يكون صحيحاً بقولنا الجاويش محمد ليكون الجاويش مبتدأ ومحمد بدل ، ويبقى الخبر غير مكتمل لتكملة الجملة (الجاويش محمد فعل كذا وكذا) أما محمد جاويش فتوحى أن الجملة انتهت (مبتدأ وخبر) ، لذلك فقد التزمت بالصيغة العربية المألوفة (اللواء فلان قام بهذا وكذا ، واففتح العميد فلان كذا وكذا) ولم أعتبر ذلك خروجاً عن النص ، خاصة وأن

الكشافات العربية تُضلل القارئ كثيرا بإيرادها على سبيل المثال عبد الرحمن جاويش ، وعبد الرحمن كتحدا كشخصين منفصلين بينما هما شخص واحد تمت ترقيته من جاويش إلى كخيا ، ولم يسلم الذين حققوا كتاب الجبرتي من هذا الخلط خاصة فى الكشافات ... وفى أكثر من مرة نبه الأستاذ الدكتور أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتي من الدخيل) على الفرق بين الأغا كرتبة عسكرية حقيقية والأغا كرتبة شرفية (الأغا الخصى مثلا) والأغا كاسم خالص ، وتخلصاً من هذا اللبس أخذت بأسلوب الترجمة الآنف ذكره .

ويجد القارئ مشكلة صغيرة أيضا فيما يتعلق بالأسماء ، لكن المصرى عادة لا يجدها مشكلة - يعكس القارئ غير المصرى ، فمفهوم طبعاً أن فلان جرجا تعنى أنه تولى التزام جرجا ، وأن فلان منوفية يعنى أنه تولى سلسلة من الالتزامات فى المنوفية ، ولا يعنى أن المنوفية اسم لأمه أو أبيه ، ومع هذا أضفت أحيانا عبارات شارحة بين قوسين .

* * *

نعود الآن لنعرض فكرة موجزة عن فصول الكتاب التى تتعرض لمكانة مصر فى رحاب الدولة العثمانية ، وكيف أن مصر فى نهاية القرن ١٧ لم تعد منطلقاً للقوات العسكرية لخوض معارك البحر الأحمر والبحر المتوسط ، خاصة بعد استيلاء العثمانيين على كريت من البنادقة فى سنة ١٦٦٩ وفشل الحصار العثمانى لقيينا ١٦٨٣ ، وإطاحة الزيديين بالحكم العثمانى فى اليمن ١٦٣٦ ، ومن الآن فصاعداً أصبحت أهمية مصر مقتصرة على إرسال الإرسالية المالية والحبوب ، وبذا تحولت ولاية مصر من عسكريين محترفين إلى موظفين بيروقراطيين ، كما أثر هذا بدوره على طبيعة الزمر العسكرية فى مصر ، بما فى ذلك الزمرة القازدغلية - موضوع هذا الكتاب .

ظهرت الزمرة القازدغلية فى مصر فى منتصف القرن ١٧ وتطورت وامتدت حتى أفرزت على بيك الكبير الذى حاول الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، بل واستمرت حتى قدوم الحملة الفرنسية . وفى ظل التطور الآنف ذكره كان كل من يأتى لمصر يعمل على تسجيل اسمه فى قوات الحامية العثمانية كوسيلة لضمان أجر ثابت ، ويقوم فى الوقت نفسه بممارسة حرفة أو تجارة .

والمفهوم أن البكوات فى غالبهم كانوا ضمن المؤسسة العسكرية العثمانية لكنهم انفصلوا عنها شيئاً فشيئاً ، ويستعرض الكتاب الصراع بين العسكريين والبكوات فى هذه الفترة للسيطرة على موارد مصر الاقتصادية خاصة عن طريق تولى الالتزامات ، أو نظارة الأوقاف ، أو قوافل الحجاج ، أو كل ذلك معا ، وكان من فوائد الانتماء للأوجاقات (الفرق العسكرية) حتى بالنسبة لغير العسكريين هو الإعفاء من الضرائب ؛ مما جعل كل أصحاب الحرف أو المشروعات الصغيرة يلجأون للانضمام إلى الأوجاقات التى أصبح دورها أقرب إلى الشرطة منه للجيش .

كيف كَوْن كل صاحب زمرة زمرة ؟ ما نتيجة الصراع بين ضباط الأوجاقات والبكرية (البكوات) ؟ كيف امتد التنظيم العسكرى فى مصر العثمانية خارج النطاق العسكرى ؟ إن المؤلفه تفرد الفصول الأربعة الأخيرة عن الاستراتيجيات التى اتبعتها الزمر ، وذلك من خلال تحليل عميق ووثائق أرشيفية ثرة .

كان المقر مرتبطا بالرتبة ، فإن التابع الرئيسى يحصل على المنزل والرتبة معا إذا مات رأس الزمرة .

وبيت رأس الزمرة يعرف « بالبيت المفتوح » ، وهى ظاهرة لم تعرفها مصر قبل العصر العثمانى كما تقول المؤلفه بهذا المعنى ، حتى أصبحت الاجتماعات التى تعقد فى هذه البيوت المفتوحة تضارع « ديوان » الوالى العثمانى كمحور أو مركز للسلطة السياسية . وتركز هذه الدراسة على أماكن سكنى الزمرة العسكرية داخل الأوجاقات أو خارجها ، وترتبط ذلك بالحياة التجارية والمصالح الاقتصادية ، وتمركز الحرفيين الذين هم تحت « حماية » العسكريين ، وتذكر بالتفصيل أسباب نقل السكن خاصة بالنسبة للكخياوات (الذين يحملون رتبة كخيا التى ترد أحيانا فى الكتب العربية تحت مسمى كتخدا) ومن الطريف أن تذكر المؤلفه أن أصحاب الرتب العسكرية الذين كانوا يتوقعون قيام اضطرابات ضدهم كانوا يتعمدون الإقامة بعيدا عن أماكن تمركز الحرفيين والتجار ، حتى إذا قاموا بمسيرة اعتراضية للتوجه إلى مقر إقامته ، تفرق عدد كبير منهم قبل الوصول لهذا المقر ؛ لأن هؤلاء العسكريين كانوا يتوقعون أن يكون عدد كبير ممن هم فى المسيرة من المحرضين (بتشديد الرأء وفتحها) وليس لهم مصلحة حقيقية فى المسيرة ، وبدراسة مواقع مساكن الضباط من نوى الرتب العالية

أيضا ، لاحظت أن أحدا منهم لم يقيم بإنشاء مؤسسات خيرية (مساجد وأسبلة .. إلخ) بالقرب من سكنه للسبب نفسه الآنف ذكره ، وإنما كان يقيم هذه المؤسسات الخيرية بعيدا عن أماكن سكناه ، مع استثناءات قليلة ذكرتها الباحثة ، وكان لكل واحد من النخبة العسكرية وغير العسكرية (رجال الدين مثلا) منزل في الأحياء الفقيرة (الحسينية مثلا) يخبئ فيه جانبا من ثروته حتى إذا تم نهب بيته الأساسى وجد فائضا مخبوءا ، وتتعرض المؤلفه بالتفصيل لتداول الالتزامات بين البكرية (مؤسسة البكوات) الذين يفترض أنهم تركوا الحياة العسكرية (رغم أن عددا منهم كان فى الأساس على رتبة كخيا ، ثم رُقى إلى البكوية) ، وضباط الأوجاقات (الفرق العسكرية) ، والصراع على ذلك . ومما يذكر فى هذا السياق أن « الترقية » إلى البكرية كانت فى بعض الأحيان – كما ذكرت المؤلفه – مجرد رغبة لإبعاد الضباط عن مراكز قوتهم ونفوذهم فى الأوجاقات ، كما أن (إبعاد) كبير الخصيان السود عن البلاط العثمانى كان فى بعض الأحيان مساعداً له على تكوين زمرة فى مصر ، ومساعداً له على مد نشاطه الاقتصادى .

وتربط المؤلفه بين انتعاش الزمرة القازدغلية وتجارة البن اليمنى ، كما تربط تدهور أسعار البن اليمنى – نتيجة إبحال الفرنسيين لبُنِ يمنى أنتجته جزر الكاريبى – بتحويل القازدغلية نشاطها إلى التركيز على الحصول على التزامات القرى ، وما نشأ عن ذلك من صراع ، والسيطرة على تجارة البن كانت تعنى بالضرورة السيطرة على طريق الحج .

لقد كان التحالف بين القازدغلية والجلفية (نسبة إلى قرية سنجلف فى المنوفية) تحالفا اقتصاديا فى الأساس ، وعن طريق الهيمنة الاقتصادية حققت الزمرتان سيطرة سياسية فى الفترة موضوع الدراسة .

* * *

والعنصر الثالث الذى عوّلت عليه الزمرة القازدغلية يتمثل فى كبير الخصيان السّود (الزعيم الطواشى الأسود) الذى كوّن بدوره زمرة خاصة به ، ربطها بزمرة أخرى دعماً لها ، وتحقيقاً لمصالح خاصة .

ومن المفهوم أن زمرة كبير الخصيان السود لن تتضمن أى صلة عرقية (صلة دم) فلا نسل من بنين أو بنات ، ولا إخوة ، ولا أب ولا أم ... إلخ ، فكبير الخصيان السود رقيق أفريقى تم عرضه فى أسواق الرقيق بالقاهرة ، وجرى إخصاؤه ، ثم قُدِّم وهو صغير للخدمة فى الحريم السلطانى ، وترقى فى هذا السلك حتى أصبح كبيراً للخصيان السود أو زعيماً لهم .

لكن زمرته قد تتضمن ممالك اشتراهم ، أو « أتباعاً » كونهم من خلال خدمته فى نظارة أوقاف الحرمين ، أو شياخته للمسجد النبوى ، أو وكلاء عينهم للإشراف على تجارته ، ومن المفهوم أن من يرثه فى أمواله لا يرتبط به بصلة دم ، فكلمة التوريث فى هذا السياق لا علاقة لها بأحكام المواريث المعروفة فى الفقه الإسلامى وإنما لها معنى أنثروبولوجى خاص ، وكذلك شجرة نسبه لا علاقة لها بالنسبة المعروفة ، وإنما هى شجرة انتساب affiliation . وأتباع الخصى الأسود ومماليكه يكونون زمرته household ، ولأن هؤلاء الأتباع ليسوا مقيمين معه فى تجمع سكنى واحد ، وربما لا يقيمون معه فى بلد واحد ، لذا فقد كان إطلاق مصطلح « بيت » الأغا الخصى الأسود فيه تجاوز كبير ، والأدق كما ذكرنا أنفا هو « الزمرة » كمقابل للمصطلح الإنجليزى household فى هذا السياق .

وقد شكل كبير الخصيان السود فى وقت من الأوقات مركز قوة خطير؛ إذ كان أحياناً أقوى من رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) نفوذاً ، وذلك أثناء خدمته فى البلاط العثمانى ، أما بعد إبعاده إلى مصر فقد كان وسيلة من وسائل السيطرة العثمانية على الزمر المحلية فى مصر بإدخال عناصر لاشك فى ولائها للبلاط العثمانى فيها ، ومن هذه العناصر « كبار الخصيان السود » .

وترجع خطورة منصب كبير الخصيان السود سواء أثناء خدمته فى البلاط أو أثناء إبعاده فى مصر إلى أنه كان يعايش الأمراء العثمانيين الذين كانوا يقضون سنوات تكوينهم معزولين فى أجنحة الحريم ، حيث كان لأمهات السلاطين الحاليين أو الذين سيتولون السلطنة فيما بعد نفوذ هائل ، وكان كبير الخصيان السود على اتصال بهن بحكم عمله ، وكان وسيلة للاتصال بينهن وبين السلطان وحاشيته ، كما كان يشرف على ميزانية الحريم .

وكان كبير الخصيان السود مرتبطا بمصر من البداية للنهاية ، ففي مصر تم شراؤه ، وفي مصر تم إخصاؤه ، ومن مصر تم إهداؤه للسلطان ليعمل في الحريم السلطاني ، وإلى مصر يعود بعد إبعاده ، و الإبعاد Exile هنا لا يعنى العقاب ، وإنما كان هذا إجراء طبيعيا ، وكان الخصى المبعد يجد في مصر تربة مناسبة لتكوين زمرة والارتباط بزمرة ، فله في مصر « تاريخ » واتصالات سابقة ، وكانت الزمر المحلية تتهاقت لاحتوائه ؛ ليكون حلقة وصل بينها وبين البلاط العثماني .

وكان لكبير الخصيان السود أهمية أخرى اقتصادية ، وأبعاد متشابكة يجدها القارئ مفصلة في الفصل الثامن من هذا الكتاب .

والله من وراء القصد .

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب صعود زمرة القازدغلية ، فهذه الزمرة معروفة - إلى حد كبير - خارج أوساط المتخصصين تخصصاً دقيقاً في تاريخ مصر العثمانية قبل القرن التاسع عشر ، فهي معروفة في الأساس كمجموعة على رأسها على بك المشهور وهو مملوك (رقيق عسكري) جسر في أواخر العقد السادس من القرن الثامن عشر على تأكيد الاستقلال الذاتي لمصر رغماً عن إرادة السلطان العثماني ، لقد لفتت هذه الزمرة الحاكمة الانتباه كمجموعة من المماليك الجورجيين (مماليك من أصول جورجية) الذين سيطروا على البلاد ، ووجدتهم نابليون قابضين على زمام السلطة في مصر عند غزوه لها في سنة ١٧٩٨ . لقد كان من الطبيعي أن تثير الطريقة التي سيطر بها المماليك (العبيد العسكريون) القوقازيون ثائرة السلطنة المملوكية التي حكمت مصر قبل غزو العثمانيين لها في سنة ١٥١٧ ، ذكريات هذا فقد كاد الأمر يبدو - حتى بالنسبة للمتخصصين في هذا الموضوع - إمكان وصف نظام الحكم الذي تسيّدت فيه زمرة القازدغلية بأنه عودة لأساليب الحكم التي سادت أثناء السلطة المملوكية .

لقد أسّس الزمرة القازدغلية ضابط من الإنكشارية في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، وهكذا فما نفتقده في التقييم السابق للزمرة The household هو تقديرنا للسياق والظروف اللذين ظهرت - وتطورت - فيهما قبل سيطرة على بك ، إن هذا السياق التاريخي هو في المقام الأول سياق عثماني ؛ لأن طبيعة الإدارة في الإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر هي التي أملت التغييرات الحادثة في القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر ، وأكثر من هذا فالقازدغلية اشتركوا في التراث (الثقافة) العسكري العثماني في الولايات والذي مهّد تحولاته الأرض لسيطرة الجورجيين في أواخر القرن الثامن عشر .

إننى أحاول هنا توضيح معنى هذا السياق بتحليل تطور القازدغلية فى نطاق الهيكل الإدارى العثمانى المتّسم باللامركزية وظهور تراث (ثقافة) عسكرية وإدارية على مستوى الإمبراطورية تعتمد على قيام الزُمر households ، لإعادة توجيه الأسبقيات من ناحية ، وتكوين الزُمر وتوظيفها من ناحية أخرى تقدم لنا مفاتيح حاسمة لفهم المسار الذى اتبعه القازدغلية ، لكن لوضع القازدغلية – باتزان ضمن هذا السياق لابد لنا أولاً من وضع مصر فى سياق تاريخ الإمبراطورية العثمانية خلال هذين القرنين الحرجيّين .

التعريف بالكتاب

(للناسر الأصلى)

تتحدّى چىن هاشواى ببراهىن ساطعة التفسىرات السائدة عن المآتمع المصرى فى العصر العثمانى فى القرنى السابع عشر والثامن عشر ، والتى مؤداها أن النآبة العسكرية فى مصر فى العصر العثمانى لىست إلا إآىاء للمؤسسات التى كانت سائدة فى عصر سلطنة الممالىك ، فالمؤلفة تؤكد أن الهىكل الأساسى الذى كانت النآبة المصرىة تعمل من آلاله هو الزمرة household المآونة من الرأس الراعى والتابعىن (التوابع) ، آىث تتآذ هنا الزمرة شكل عنقود ؛ إذ ىتاح فىها قبول مزىد من الأعضاء الآدد (المآندىن) من مشارب مآتلفة ، كما تتآذ هذه الزمر (آمع زمرة) أشكالاً مآتلفة .

وترآز الدراسة على زمرة القازدغلىة Qazdağلى التى كانت فى الأساس فرقة أناضولىة كبرىة ضمن فرقة (أوجاق) الإنكشارىة فى مصر ، لقد سىطرت زمرة القازدغلىة على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وباستآدام وثائق الأرشفات التركىة والعربىة والمصادر الأآرى ، ألقآ چىن هاشواى الضوء على الآالة التى استآلت فىها زمرة القازدغلىة التسلسل الهرمى فى الإنكشارىة ، بىنما كانت - أى زمرة القازدغلىة - آآون آآالفات استراتىآىة عن طرىق الزواج والمصاهرة والمشاركة الآآارىة ورعاية آصىان البلاط العثمانى .

إن هذه الدراسة المثىرة سىآون لها آآآىر كبرى على فهم الآارىآ المصرى والعثمانى ، وستآون من بىن القراءات الأساسىة للباحآىن فى هذا المآال ، ولكل المهآمىن بآنور الآارىآ المعاصر .

توطئة

فى بداية مباشرتى لهذا العمل ، استفدت من نصائح وتشجيع كل من : ل . كارل برون Brown ، ومارك كوهين Cohen ، وميشيل كوك Cook ، وهاليل مالكيك malcik ونورمان اتيسكوڤتس Itzkowitz ، وبرنارد لويس ، و أ . ل . أودوڤتش Udovitch ، وقبل كل هؤلاء سيمال كافادار Cemal Kafadar ، فقد راحوا يحفزوننى بما لديهم من بصيرة نافذة ، وإننى ممتنة أيضا لإبراهيم ماركوس Marcus الذى وجه أبحاثى السابقة عن مصر قبل سنة ١٧٩٨ . وكان زملائى المتخصصون فى حقل مصر العثمانية كرماء معى جدا وقدموا لى عوناً كبيراً ، ولا بد أن أخص منهم بالذكر دانيال كريكيلوس Daniel Crecelius ، وبيتر هولت Holt ، وأندريه ريموند André Raymond فرغم أننى تشككت فى بعض النتائج التى توصلوا إليها إلا أننى مدركة تماماً أنه لولا جهدهم العلمى ما أمكننى التوصل لما توصلت إليه ، وهناك زملاء آخرون قدموا لى نصائح متعلقة بمحتوى البحث ونصائح عند إعداد هذا الكتاب للنشر منهم فيليب برون Brown وريتشارد بوليت Bulliet ، وسيتفن ديل Dale ، وكارتر فندلى Findley ، وأولريش هارمان Haarmann ، وفيكتوريا هوبروك Hobrook ، وإيف ليڤن Levin ، وأمى سنجر Singer ، وإيهود توليدانو Toledano ، واثنين من المتابعين فى مطبعة جامعة كامبردج لا أعرف اسميهما ، وقد أعد رون مكين Ron Mclean من قسم خدمات الجرافيك بجامعة أوهايو Ohio الخرائط فى الوقت الذى أمدتنى فيه أقسام المخطوطات والكتب النادرة فى الجامعة بالصور الفوتوغرافية ، وقدم قاسم قره عمر أوغلو Karaömerlioglu مساعدات رائعة عند إعداد الكشاف ، وقدمت ميرجولد أكلاندا Mirgold Acland ومساعدتها إمّا مايز Emma Mayes فى مطبعة جامعة كامبردج إرشادات بهيجة تدل على خبرة فى كل مرحلة من مراحل النشر .

وما كان بإمكانى إنجاز هذا البحث دون كرم من الموجهين والعاملين فى الأرشيف العثمانى The Başbakanlık Osmanlı Arşivi ، والمكتبة السلیمانیة Süleymaniye Library ، ومكتبة قصر طوبكابي وأرشيفه Topkapı Palace Library and Archives ، فى استانبول ، ودار الكتب المصرية فى القاهرة ، وقدمت لى المكتبة الوطنية فى باريس ومكتبة المتحف البريطانى وقسم مجموعة مخطوطات جاريت Garrett فى مكتبة جامعة برينستون Princeton ميكروفيلمات للمخطوطات التى لديها ، ومن المفهوم أنه مما أذننى أثناء البحث والكتابة والمراجعة مجلس مؤسسة فولبرايت ، ومعهد البحوث الأمريكى فى تركيا ، ومعهد الدراسات التركية ، فبفضل مساعدتهم فى فتح الأبواب والحصول على المواد اللازمة للبحث أمكننى مرابعة السير فى هذه الدراسة ، إننى أشكر مكاتب مؤسسة فولبرايت فى أنقرة وإستانبول والقاهرة ، وقنصلية الولايات المتحدة فى إستانبول Sükrü Hanioglu ، وأعاننى مكتب البحث فى ولاية أوهايو Ohio أثناء عملية صياغة مخطوط بحثى وتحويله لكتاب ، وكذلك كلية ولاية أوهايو للإنسانيات .

وأخيرا فإننى أقدم خالص شكرى لبشير Beshir وستيلا Stella ، ولأمى مج هاثواى Meg Hathaway التى غرست فى حب التعليم والتى جعلت التوجه الأكاديمى عندى ليس ممكنا فحسب وإنما مرغوبا أيضا ، وهناك بالإضافة لهؤلاء كثيرون ساعدونى بطريقة أو أخرى دون وعى منهم ودون إدراك منى .

ملاحظة :

ظهرت أجزاء من الفصلين الثانى والسادس قبل صدور هذا الكتاب على النحو التالى :

– الزمر العسكرية فى مصر - (JMES 27) The Military Household in Ottoman Egypt (1995) أدرج فى الفصل الثانى من هذا الكتاب . 39 - 52

– تحالفات الزواج بين الزمر Military فى مصر العثمانية

Marriage Alliances among the Household of Ottoman Egypt . Al . 29 (1995) 133-49

أدرج فى الفصل السادس من هذا الكتاب .

ملاحظات حول كتابة الأعلام والمصطلحات العربية والعثمانية

عند التعامل مع الأعلام والمصطلحات العربية والتركية العثمانية يجد المرء أن عليه أن يختار بين طريقتين في الكتابة ، لكنني حاولت - بدلاً من ذلك - أن أزواج بين طريقتين ، فأسماء كل نوى الشأن من المصريين وألقابهم ، وكذلك كل المسئولين العثمانيين - كتبتها جميعاً بنقلها حرفاً حرفاً وفقاً لطريقة كتابتها بالتركية العثمانية ، أما أسماء الأماكن والمواضع في مصر وكذلك عناوين الكتب العربية وأسماء مؤلفيها العرب فكتبتها بالنقل حرفاً حرفاً وفقاً لطريقة كتابتها العربية ، وعند الإشارة إلى أسماء المؤسسات حاولت أن أختار الصياغات الأكثر تآلفاً مع ما اعتاد عليه القراء في هذا الحقل ، فالمناصب العثمانية مثل قزلباغسى Kizlar Ağasi أو خازندار Hazindar - i Sehriyar كتبتها منقولة حرفاً حرفاً من الصيغة التركية ، أما المؤسسات التي اشتقت أسماءها من العربية والتي وردت عادة في المراجع الثانوية بصيغها العربية (مثل : وقف وأوقاف الحرمين) فأوردناها بشكلها العربي ، وكذلك فعلنا بالنسبة للوظائف المحلية (مثل : صراف وقائم مقام) ، أما المصطلحات المملوكية فترد غالباً في النص وفقاً لورودها أول مرة ولم أجد ضرورة لشرحها وإلقاء الضوء عليها ، أما الألفاظ التي وجدت طريقها للمعاجم الإنجليزية فاحتفظت بها كما وردت في هذه المعاجم مثل : علماء Ulema و Reaya

وقد اعتمدت طريقة الدورية الدولية لدراسات الشرق الأوسط The International Journal of Middle East Studies عند النقل حرفاً حرفاً من العثمانية والعربية إلى الإنجليزية ، وعلى أية حال فقد أخذت حذف العلامات الصوتية فيما عدا الخاصة بحرف العين في أسماء الأعلام والأسماء التركية الشائعة غير المشتقة من اللغة العربية .

المختصرات

AI	Annales Islamologiques
BSOAS	Bulletin of the School of Oriental and African Studies
EI², EI	Encyclopedia of Islam, First & Second Editions
IJMES	International Journal of Middle East Studies
JAOS	Journal of the American Oriental Society
JESHO	Journal of the Economic and Social history of Orient.
MIDEO	Melanges de l'Institut Dominician des Etnes Orientales
WZKM	Wiener Für die Kunde des Morgenlandes.

مترجم به افشاری

مترجم به افشاری

المجاری کریمه

الأغا حسن بلخنة Bilafin

سلي (11)
نسب القادر عليّ
و ارتباطهم

ارتباطات مطهره

ارتباطات سراج الزمره

ارتباطات نجيب ورد

في غير مورد

الأغا علي

الأغا محمد

الأغا سليم

الأغا عجم

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

الأغا محمد

(٩) الانجاء بغير

الخطيئة بغير التوبة

منصور الزائغ

الانجاء بغير الخطيئة

الانجاء بغير التوبة

الانجاء بغير الخطيئة

الانجاء بغير التوبة

الانجاء بغير الخطيئة

ابو مناخير قد يوسف

انجاء
الانجاء بغير التوبة
الانجاء بغير الخطيئة

على

الانجاء

الانجاء بغير الخطيئة

الانجاء بغير التوبة

الانجاء بغير الخطيئة

الانجاء بغير التوبة

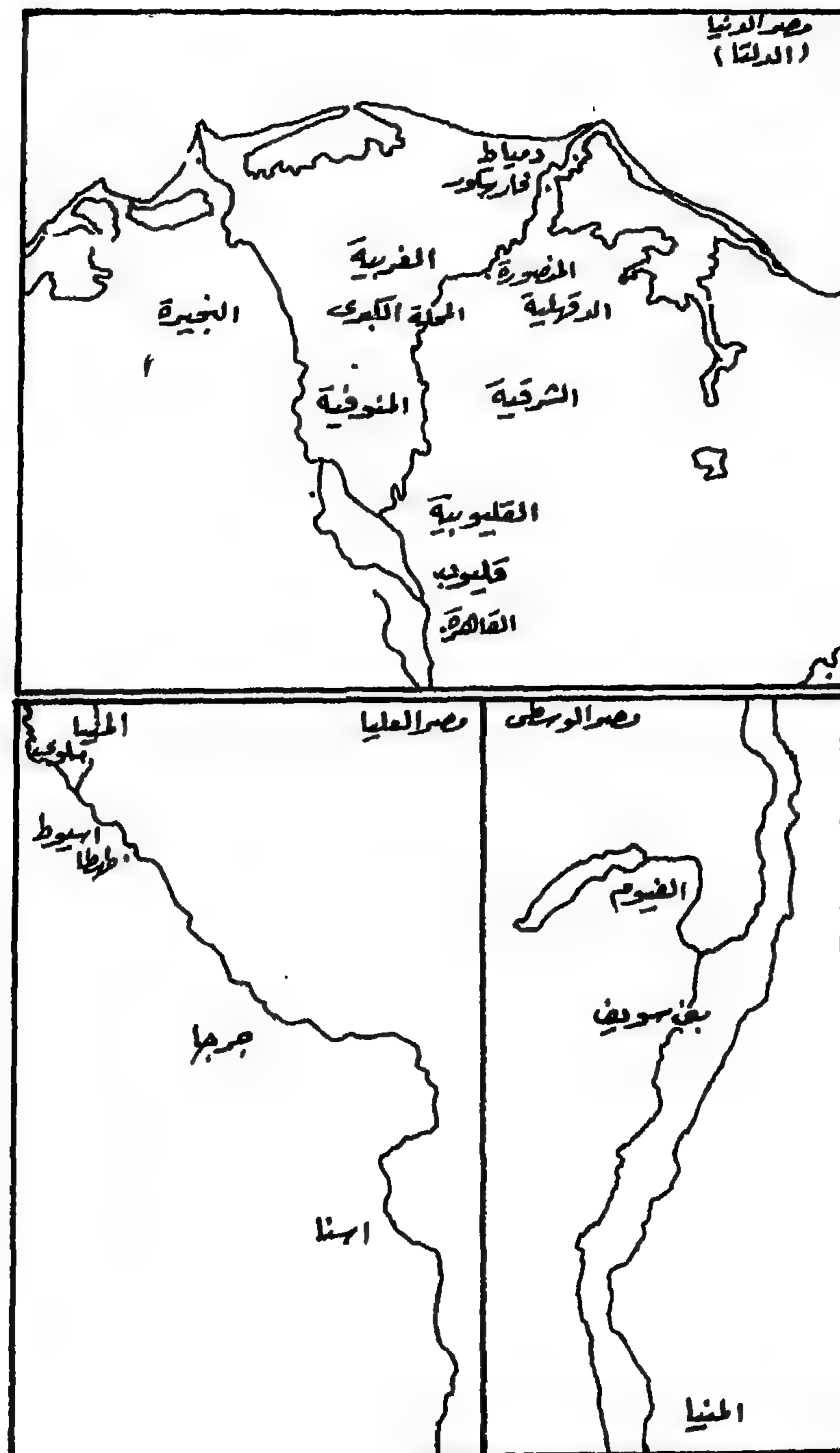
القسم الأول

مكان الزمرة الحاكمة في تاريخ مصر العثمانية

الفصل الأول

مكان مصر فى الإمبراطورية العثمانية

فى صيف سنة ١٥١٦ كان واضحا لمعظم المتابعين لقصر طوبكابى الإمبراطورى العثمانى فى إستانبول - إن لم يكن لمعظم المقيمين فى المدينة بشكل عام - أن السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) يستعد لحملة عسكرية حاسمة ضد واحد من عدوّه الرئيسيين فى آسيا ، وفى بواكير هذا الصيف نصبت خيمة الحرب الخاصة بالسلطان فى أوسكودار Üsküdar على الساحل الشرقى للبووسفور ، وبحلول شهر يوليو كان قد وصل إلى معسكر جنراله سنان باشا فى ملطية Malatya فى شرق الأناضول ، وعلى أية حال فحتى هذا الشهر (يوليو) كان الهدف الذى سيوجه إليه سليم قواته موضع تساؤل ، فالإمبراطورية الصفوية الشيعية ذات الطابع العسكرى التى كانت قد سادت إيران فى بواكير القرن السادس عشر - كانت تمثل تحديا سياسيا وأيديولوجيا للإمبراطورية العثمانية ، مع أنه قبل ذلك بعامين فقط كان السلطان سليم قد ألحق بها هزيمة دامية فى جالديران (كَالديران) فى شمال غرب إيران ، وكان تحرك سنان باشا إلى ملطية Malatya لمواصلة المعركة ضد الصفويين ، وعلى أية حال فقد كان السلاطين المماليك الذين يحكمون مصر والشام والحجاز وجنوب شرق الأناضول قد أصبحوا مُزعجين - بشدة - لسليم ، ورغم أن المماليك كانوا على مذهب السُّنة كالعثمانيين فقد رفضوا دَعْم العثمانيين فى حربهم ضد الصفويين ، كما كان المماليك أيضا حاجزا بائسا ضد الوجود البرتغالى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وكانت العلاقات الدبلوماسية بين العثمانيين والمماليك قد تدهورت فى الأشهر الأخيرة ، فقد تعرّض سفيران عثمانيان للإهانة فى البلاط المملوكى فى القاهرة .



لذا فقد كان لدى السلطان سليم أسباب تدفعه لخوض معركة مع كل من الصفويين والمماليك على حد سواء ، وعلى أية حال فعندما انضم السلطان سليم لجيشه في ملطية Malatya فإنه بدلا من مواصلة زحفه شرقا إلى إيران ، استدار جنوبا عبر بوابات Cilician Gates ، ودخل الشام بقواته ، لقد أصبح واضحا الآن أن سليم ينوى مهاجمة المماليك ، والتطورات السريعة للانتصار العثماني على المماليك معروفة تماما ، لقد التقت قوات سليم بجيش السلطان المملوكي قنصوه الغوري في سهل مرج دابق إلى الجنوب مباشرة من الحدود الحالية بين سوريا وتركيا ، ويُقال إن الغوري أصيب بالسكتة القلبية أثناء المعركة ، ولم يتم التعرف على جثته ، وتروى الأساطير أن الأرواح (الجن) حملت جثته .

وواصل سليم طريقه جنوبا ، فاستولى على دمشق في سبتمبر سنة ١٥١٦ . ودخل مصر في مطلع سنة ١٥١٧ . وفي معركة استمرت ساعة خارج القاهرة اجتاح الجيش العثماني قوات طومان باي خليفة الغوري ، ودخل العاصمة ، وبذا انتهى حكم السلطنة المملوكية^(١) .

وفيما لا يتعدى ستة أشهر من انطلاق سليم من ملطية Malatya أضاف للإمبراطورية العثمانية آلاف الكيلو مترات المربعة . لقد أصبحت الإمبراطورية الآن تضم قلب العالم الإسلامي بما في ذلك الأماكن الإسلامية المقدسة بعد أن كانت كيانا بلقانيا أناضوليا غالب سكانه من المسيحيين ، وأصبح للعثمانيين أيضا وجود مهيم في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وفي البحر الأحمر ، لقد أتاح هذه الإضافات الجديدة فرصا جديدة للإمبراطورية العثمانية كما ضاعفت من مسئولياتها ، وقد أصبحت مصر - في الواقع - هي المسمار المثبت للحدود الجديدة للإمبراطورية ، فطوال قرن ونصف من بداية الحكم العثماني لمصر كانت هذه الولاية هي المنطلق الإستراتيجي للحملة ضد البرتغاليين ، والفتوحات العثمانية في البحر الأحمر والحوض الشرقي للبحر المتوسط . لقد انطلق الفتح العثماني لليمن في سنة ١٥٣٨ من مصر ، واحتاج العثمانيون في نضالهم الطويل المرهق للاستيلاء على كريت من البنادقة لآلاف الجنود من مصر ، وكان غالب ولاية مصر العثمانيين في هذه الفترة عسكريين نشأوا في كتائب الانكشارية ، وغالبا ما كانوا يحكمون ولايات أصغر (من مصر) ، والحقيقة أنه بعد غزو اليمن ظهرت مصر متمتعة بتكافل سياسي مع اليمن ،

فكان والى مصر العثماني يستطيع غالبا أن يتوقع سفره لليمن بشكل متوالٍ ، وفي هذه الفترة كانت نظم حيازة الأرض والنظم الإدارية في اليمن هي حقيقة النظم نفسها في مصر^(٢) .

وكانت مصر أيضا - من منظور أكثر عمليّة - مصدرا غنيا بالمؤن للإمبراطورية ، فقد كانت ولاية مصر تدفع إرسالية مالية سنوية لاستانبول عرفت باسم إرسالية الخزينة *irsaliye - i - hazine* ، وكانت هذه الإرسالية تفوق في قيمتها أية إرسالية ترسلها أية ولاية أخرى^(٣) ، وكانت مصر أيضا تقدم الرجال للمعارك التي تخوضها الإمبراطورية العثمانية ، ليس بالنسبة لمعارك فتح اليمن وكريت فحسب ، وإنما أرسلت أيضا رجالها للانضمام إلى الجيش العثماني في حروبه ضد إيران والنمسا ، وكانت مصر تقدم محاصيل حبوبها الوافرة لإطعام الجيوش العثمانية وإطعام سكان الولايات العثمانية الأخرى إذا ما عانت من نقص محاصيلها ، وعن طريق مصر أصبح العثمانيون قادرين على الاتجار في العبيد السود الأفريقيين عن طريق السودان .

وبانتصار العثمانيين على المماليك أصبحت الإمبراطورية العثمانية صاحبة السيادة على المدينتين المقدستين : مكة والمدينة ، وادّعت لنفسها حقوق من يرعى هاتين المدينتين ، وكان كل من والى دمشق (الشام) ومصر ، مسئولين عن تجهيز قافلة للحج كل عام ، وكانت قافلة الحج المصرية تحمل الحبوب والأموال لفقراء المدينتين المقدستين ، كما كانت تصحب معها المحمل وهو محفّة رمزية تنتقل كل عام إلى مكة ، وكسوة جديدة للكعبة المكرمة أكثر الأبنية قداسة في الإسلام .

وفي نهاية القرن السابع عشر تغير مكان مصر في الإمبراطورية العثمانية تغيرا مهما عامرا بالدلالات ، فلم تعد منطقة انطلاق تتجمع فيها القوات العسكرية لخوض المعارك في البحر الأحمر والحوض الشرقي للبحر المتوسط ؛ فالبرتغاليون لم يعودوا يشكلون تهديدا للسيطرة العثمانية في البحر الأحمر مع بداية القرن حيث راحت قوة البرتغال تتضاءل ، وكانت كانيا (كانديه Candia) عاصمة البنادقة في كريت قد استولى عليها العثمانيون أخيرا في سنة ١٦٦٩ . ومع هذا فقد ظل الجنود المصريون يحملون على عاتقهم مهمة العمليات والحملات العسكرية في الجزيرة (كريت)^(٤) ، لقد انتهت (إذن) أيام المواجهات العسكرية الطارئة الملحة ، وفي هذه الأثناء أدّت

إطاحة الشيعة الزيديين بالحكم العثماني في اليمن في سنة ١٦٣٦ إلى انتهاء مرحلة التكافل بين اليمن ومصر ، وأدى إخفاق الحصار العثماني لقيينا في سنة ١٦٨٣ إلى تسريح القوات العثمانية على الجبهة الأوروبية مما قلص دور القوات المصرية في معارك العثمانيين في أوروبا . ومن الآن فصاعدا أصبحت أهمية مصر معلقة بقدرتها على تسليم الإرسالية المالية والحبوب ، وتمويل المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) ، بذا تحول ولاية مصر من عسكريين محترفين إلى بيروقراطيين ورفاق قصور ، وستصبح هذه المهام الجديدة هي محور الاهتمام وعصب النزاع داخل جماعات الحكم نفسها في مصر .

وواكبت تبعية مصر للدولة العثمانية تغيرات ديموجرافية (سكانية) مهمة ، فسكان مصر - كما نعرف الآن - زادوا في ظل الحكم العثماني حتى بدأت الكوارث الطبيعية والاضطرابات السياسية التي سادت في أواخر القرن الثامن عشر تعكس الاتجاه السائد ، فرغم أن القاهرة قد تقلص وضعها من عاصمة إمبراطورية (لدولة المماليك) لعاصمة ولاية (عثمانية) إلا أنها - مع ذلك - كانت تضم عددا كبيرا من السكان ، كما كانت ذات مساحة كبيرة ، لقد كانت القاهرة وقت الفتح العثماني تضم ١٥٠,٠٠٠ نفس وبحلول عام ١٨٠٠ أصبحت تضم ٢٥٠,٠٠٠ نفس^(٥) ، وامتدت المدينة (القاهرة) جهة الغرب امتدادا كبيرا خلال حوالي ٣٠٠ سنة ؛ لأن النخبة السياسية والتجارية تحركت خارجة من المركز المزدحم بالسكان والذي تمثل القاهرة الفاطمية قلبه ، وفي خارج العاصمة أصبحت المدن التي كانت أسواقا للمديريات ذات أهمية تجارية أو استعادت هذه الأهمية - مثل دمنهور ومنية زفتى ، وأصبح الصعيد أكثر تكاملا كالاقتصاد محلي ؛ لأنه كان يتعين تقديم الحبوب من مزيد من قرى الجنوب للأعداد المتزايدة من المؤسسات الخيرية على مستوى الإمبراطورية (الأوقاف ، والمفرد : وقف) لتمويل مكة والمدينة .

وأدى استيلاء العثمانيين على مصر إلى تدفق شديد ومتباين للبشر في الولاية (مصر) مع أن العثمانيين نقلوا من مصر أعدادا كبيرة من الحرفيين وعلماء الدين المصريين إلى استانبول^(٦) ، فقد بقي عدد كبير من الجنود العثمانيين في مصر بعد الفتح لحماية الولاية الجديدة ، وكان هؤلاء الجنود من أصول تركية أناضولية مختلفة ، وشباب من البلقان تم تجنيدهم وفقا لنظام الدقشمة (ضريبة الدم) ، وهو النظام

العثماني التقليدي الذي يتم بمقتضاه جمع الصبية غير المسلمين من المناطق المفتوحة ، ومجندين أتراك وكرد تم تجنيدهم بطريقة عفوية ، وفى هذه الأثناء وصل البيروقراطيون الناطقون بالتركية المختلفة أصولهم (أعراقهم) إلى القاهرة لينضموا إلى البيروقراطية المملوكية الذين ظلوا محتفظين بمناصبهم بعد سقوط السلطنة ، ونقل الولاة العثمانيون إلى القاهرة أعدادا كبيرة من أتباعهم الذين كانوا محيطين بهم ، وكلما بدأ دور مصر يتغير فى حوض الإمبراطورية العثمانية فى القرن السابع عشر راح رعايا أتراك آخرون يبحثون عن حظهم فى مصر أو على الأقل يلتمسون سبل العيش فيها ، وراح المرتزقة الأناضوليون يبحثون عن أساليب للرزق يمكن الركون إليها على نحو أكثر مما هو فى بلادهم بأن سجلوا أسماءهم فى قوات الحامية العثمانية فى مصر كوسيلة لضمان أجور ثابتة (منتظمة) ، بينما يمارسون فى الوقت نفسه العمل فى ميدان التجارة الصغيرة ، ويحث ضحايا الاضطرابات السياسية فى إستانبول والأناضول عن ملاذ آمن فى مصر ، وأكثر من هذا ففى منتصف القرن السابع عشر بدأ نفى خصيان الحريم الإمبراطورى (السلطانى) بشكل روتينى إلى مصر حيث كدسوا ثروات وجذبوا إليهم عددا كبيرا من الأتباع .

لقد كانت المجموعات العسكرية التى سارت فى ركاب الفتح العثماني مختلفة اختلافا شديدا وواضحا عن النخبة العسكرية فى السلطنة المملوكية ، ومع هذا فلم تكن مختلفة عنها كُليَّة ، لقد أدخل سليم الأول الممالك التى أثبتوا ولائهم للعثمانيين فى الجهاز الإدارى لكل من مصر والشام ، وأكثر من هذا فقبل عودته إلى إستانبول عفا عن عدد من الممالك المهزموين وسمح لهم بالبقاء فى مصر ، ويظهر أن إستراتيجية سليم فى اتِّباع هذه السياسة كانت قائمة على الموازنة بين القوات العثمانية المتمردة غالبا من ناحية والممالك التائبين (الذين أعلنوا ولائهم للعثمانيين) من ناحية أخرى .

وعلى النحو نفسه فإن النظام الإدارى الذى وضعه السلطان سليم وخلفه سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦) لمصر كان يشتمل على عناصر فعالة من النظام الإدارى المملوكى بالإضافة إلى عناصر جديدة تكفى لضمان الهيمنة العثمانية ، وكانت أرض مصر الزراعية فى ظل السلطان المملوكى الراحل مقسَّمة إلى أربعة وعشرين قيراطا موزعة على السلطان والأمراء والعسكر كإقطاع ، أو كحق انتفاع^(٧) ، وهذه

التخصيصات دعمت الفرسان الممالك الذين يقودهم الأمراء ، وكان الأمراء - بمن فيهم السلطان نفسه - عبيدا أعتقهم السلطان السابق ، وكانت رتبهم تختلف وفق عدد الفرسان الذين يمكن أن تكفى إقطاعاتهم لتقديم الدعم (المؤن وخلافه) ، ومن هنا كان هناك أمير عشرة ، وأمير أربعين ، وأمير مئة .

وكان الجنود الفرسان (أجناد ، والمفرد : جندى) ممالك الأمراء والسلطان الحاكم الذى يقودهم ، وعلى هذا فإن إقطاع المملوك من الناحية الوظيفية يشبه نظام التيمار فى مفعوله فى معظم الولايات العثمانية فى أوروبا وفى الأناضول قبل سنة ١٥١٧ . وكلاهما استلهم نظام الإقطاع السلجوقى السابق عليهما زمنًا^(٨) .

واحتفظ العثمانيون عند فتح مصر بالتقسيم المملوكى للبلاد إلى ١٣ قسما تضم ٢٤ قيراطا ، واستبعدوا المصطلح المملوكى « عمل » ذلك المصطلح الدال على القسم [المديرية أو المحافظة حسب المصطلح الموجود الآن - المترجم] لصالح المصطلحات العثمانية (ولاية « فيلايت Vilâyat) وناحية náhiye ، أما جرجا الواسعة فى الصعيد فأطلق عليها المصطلح (إقليم) ، ويشير قانون نامه مصر الذى أعلنه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء the Grand Vizier) إبراهيم باشا فى سنة ١٥٢٥ إلى محافظى أو مديرى هذه الولايات ، أو النواحي ، أو الأقاليم باسم الكشاف ، وهو مصطلح استُخدم للغرض نفسه خلال فترة حكم الممالك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٨)^(٩) ، وعلى أية حال فرغم هذا الإبقاء لم يحاول العثمانيون الاحتفاظ بنظام الإقطاع أو فرض نظام التيمار القريب الشبه منه ، وبدلا من ذلك صادر سليم كل الإقطاعات واستعاض عن حائزها بإداريين معينين برواتب محددة عُرفوا باسم الأمناء emins أناط بهم جمع كل ضرائب الأرض ، وبحلول أوائل القرن الثامن عشر حل مصطلح التزام محل المصطلح السابق ، وفى ظل نظام الالتزام كان العسكريون من ذوى الرتب العالية ، والعلماء من ذوى المكانة (علماء الدين) يجمعون الضرائب الخاصة بوحدة إدارية معينة على أن يدفعوا مقدما المبالغ المطوية من هذه الوحدات لخزانة الوالى ، وبهذه الطريقة أصبحت عوائد كل الوحدات الإدارية ابتداءً من القرى حتى الولاية أو الإقليم أو الناحية بكاملها يتم جمعها بواسطة موظفين يتلقون أجورا على عملهم هذا ، وفى هذه الأثناء بدأ المزج بين الألقاب العثمانية والمملوكية يأخذ طريقه إلى التطبيق على هؤلاء الملتزمين ، وفى أواخر القرن السابع عشر كان الالتزام فى النواحي والولايات والأقاليم داخل مصر غالبا ما يُطلق عليه اسم سنجق Sancaks ، وهو يشبه

كثيرا ما ساد في التقسيمات الإدارية الفرعية في الأناضول والروميلى فى ظل نظام التيمار ، وكان القابضون على الالتزام يطلق على الواحد منهم سنجق Sancak وسنجق بك Sancak bey وبك bey وأمير ، وعلى أية حال لابد أن نؤكد أن هؤلاء البكوات فى قرون الحكم العثمانى الوسطى فى مصر لم يكونوا صورة طبق الأصل من بكوات الممالك أو - حقيقة - للبكوات الكلاسيين فى ظل الحكم العثمانى ، لقد كُونوا بكويّة beylicate عثمانية جديدة من جامعى الضرائب (الملّزمين) (١٠).

وباختصار فإن الإدارة فى مصر العثمانية ليست استمراراً للنظام الإدارى فى أواخر عصر الممالك ولا هى فرض للنظام الإدارى العثمانى الكلاسى ، وإنما هى إستراتيجية إدارية جديدة تحمل عددا من الملامح من كل من النظام المملوكى والنظام العثمانى التقليدى ، وهذا النظام الجديد (المختلط) يحاول التوفيق بين العسكر العثمانيين والممالك السابقين . لقد كان الممالك منتظمين فى ست فرق (أوجاقات regiments) كانت مهمتها الأساسية حماية garrisoned مصر (١١) ، كان منها ست كتائب من الفرسان - الشركس - وهم مكوّنون من ممالك من أتباع الأمير المملوكى خاير بك الذى تعاون مع قوات العدو (القوات العثمانية) والذى عينه العثمانيون أول وال (عثمانى) لمصر ، وكان من المتوقع أن يكون حكام الولايات الداخلية فى مصر أو نواحيها من رتبة سنجق بك Sancak beyi الذين يشبهون كثيرا نظراءهم فى المناطق المركزية للإمبراطورية ، وكما فى مناطق الإمبراطورية المركزية كان من المتوقع على نحو ما أن يكون قادة الفرق (الأوجاقات) أو الأغوات من الذين تمت ترقيتهم إلى هذه الرتبة سنجق بك Sancak beyi .

وربما لم يكن هناك مفر من أن يكون نظام الإدارة المملوكى العثمانى المهجن غير مُتمشٍ مع خطة قانون نامه مصر الصادر فى سنة ١٥٢٥ ، وكان حكم الأقاليم والنواحي والولايات الداخلية يكاد يكون مساويا لحكم الإمارات المملوكية (السابقة) ، رغم أن الراتب أو الأجر كان هو المقابل للقيام بمهام السنجق بك Sancak beyi وليس منح الأراضى ، وقد رُقّى الأمراء الممالك السابقون وبعض المجندين القوقازيين الجرد إلى رتبة السنجق بك ، حتى أنه فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ظهرت مجموعة جديدة من البكوات كطبقة بغض النظر عن الانتماء العسكرى لفرقة (أوجاق) ، ولا شك أن الرغبة فى كبح تأثير هذه المجموعة كانت وراء إقامة الحكومة العثمانية

لفرقة (أوجاق) سابعة فى سنة ١٥٥٤ ، وقد شغل هذه الكتيبة الجديدة (المتفرقة) Müteferrika خلاصة النخبة العسكرية الإمبراطورية وذراريهم ، وبعد تكوين هذه الفرقة (الأوجاق) بفترة وجيزة صدر الأمر الإمبراطورى باستثناء كل الفرق (الأوجاقات) الأخرى خلا المتفرقة من الترقية لرتبة سنجق بك Sancak beyi^(١٢) وفى أعقاب (قانون) إصلاح الأراضى الصادر سنة ١٥٥٣ ، الهادف إلى كبح تحويل عوائد الأراضى كمؤسسات الأوقاف بواسطة النبلاء المحليين^(١٣) ؛ ظهر أن هذه الإجراءات تعكس رغبة الدولة العثمانية فى إحكام قبضتها المركزية - أكثر فأكثر - على مصر . لقد دلّت كل الظواهر على أن الحكومة العثمانية المركزية راحت تعمل على عثمانة البكرية وعلى إيجاد رباط مؤسسى بين البكرية والجهاز العسكرى العثمانى Ottoman Soldiery ، وعلى أية حال فإن بكوات المتفرقة والجاويشية "Çavuş Origin" بدأوا أخيرا فى مد جذورهم فى التربة المحلية ، وبدأوا فى تجنيد الأتباع لصالحهم ، وربما يفسر هذا ذكر الحوادث فى بداية القرن السابع عشر لبكوات من أصول مختلفة : عبيد (ممالك) قوقازيين ، ومجندين من البوسنة والأناضول ، بل وبكوات من المصريين من أهل البلاد native ، ولم يكن هذا المزيج العرقى ليؤدى إلا إلى المساهمة فى إحداث الفرقة فى الولاية (مصر) ؛ ذلك لأن بكوات المتفرقة العثمانيين والجاويشية وأتباعهم تناحروا مع العناصر الأخرى لشغل المناصب واقتسام العوائد .

هذا الانقسام قد يكون هو الكامن وراء ظهور عصبتين (فريقين ، أو زمرتين) فى النخبة العسكرية فى القرن السابع عشر : الفقارية (نسبة إلى ذى الفقار) والقاسمية (نسبة إلى قاسم) ، وقد اندمجتا مع فريقين (زمرتين) بدويين قديمين ، إذ اندمجت الفقارية مع نصف سعد واندمج القاسمية مع نصف حرام Harám وامتدت المنافسة بين الزمرتين (الفريقين) فى القرن السابع عشر لتشمل المجتمع المصرى ، وتجاوزت مجال العسكريين لتضم البدو والحرفيين .

وظلت أصول هذا الانقسام (التشرذم) غامضة ، فلم تكن هناك زمرة مملوكية بالمفهوم النمطى ، تلك الزمرة التى كان يكونها السلطان المملوكى ليجمع أتباعه فى مواجهة زمرة سلفه ، ويربط ثلاثة مؤرخين حوليين — على الأقل — ممن كتبوا باللغة العربية بين ظهور هذا الانقسام الآنف ذكره والفتح العثمانى لمصر ، وهؤلاء المؤرخون الحوليون يرجعون ذلك لروايات أسطورية متعلقة بالعرق أو الأصل وربما كان لهذه الحكايات - فى الحقيقة - بعض الأساس^(١٤) ، وثمة أدلة ثانوية تشير إلى أن اسم

الفقارية يرجع إلى شعار الخليفة على بن أبى طالب وهو سيفه ذو الفقار، والذي كان يظهر واضحا على كثير من أعلام المعارك العثمانية خاصة أعلام الإنكشارية^(١٥) ، وهذه النظرية تتفق مع الحكايات الأصلية التي تؤكد أن الفقارية - على عكس القاسمية - وقفوا إلى جانب العثمانيين ، أما مصدر دعوى القاسمية فأكثر غموضا ، فربما كانت هذه المجموعة لها صلة بالأسرة القاسمية الحاكمة التي حكمت اليمن بعد هزيمة العثمانيين (فى اليمن) سنة ١٦٣٦ . وعلى أية حال فبنهاية القرن السابع عشر كانت الأصول التاريخية للفرقتين قد دخلت غياهب النسيان ولم تبقَ إلا الأساطير والزخارف ، لذا فعندما ذكر المؤرخ الحولى عبد الرحمن الجبرتي أن طريقة تمييز كل زمرة (فريق) عن الآخر كانت أن يرفع الفقارية علما أبيض وأن يكون لرماحهم عُقد بينما يرفع القاسمية علما أحمر وأن يكون لرماحهم أقراص (جمع : قرص)^(١٦) .

وهناك سبب للاعتقاد أن هذا كان مجرد وسيلة من الوسائل بقيت للتمييز بين الفريقين .

ورغم مقاصد قانون نامه مصر أصبحت الروابط بين المؤسسة العسكرية والبيكرية غير ودودة مع نهاية القرن السادس عشر ، وفى أواخر السلطنة المملوكية كانت الصلة قد انقطعت بشكل مباشر وبوضوح - فى غالب الأحوال - بين الممالك الفرسان والأمراء المُفَتَّحين ، وفى المناطق المركزية للدولة العثمانية ، وجدنا أيضا خطأ محددًا يتطور ليفصل بين ضابط الأوجاق (أو الفرقة العسكرية) ومنصب السنجق بك sancak beyi . وعلى أية حال فإن هذه الروابط المعول عليها لم تعد موجودة فى مصر ، وفى أواخر القرن السادس عشر أصبح للبيكرية قليل من العلاقات المباشرة مع الفرق (الأوجاقات) regiments ، بينما كان البكوات نوى وضعية أعلى على نحو ما من أى من ضباط الفرق (الأوجاقات)^(١٧) ، هذه الفجوة بين البكوات من ناحية ، والضباط من ناحية أخرى أوجدت صراعات شديدة على النفوذ والعوائد بين المجموعتين ، وأدى انتشار الالتزام بحلول القرن السابع عشر إلى تفاقم النزاع بين العسكريين Soldiery والبيكرية ، لقد حرم الالتزام مصر من التمايز المنطقي التام بين العسكريين والبكوات والذي كان قد ساد - أى هذا التمايز - فى ظل نظام الإقطاع المملوكى ، أو الذى ربما يكون قد ساد فى ظل نظام التيمار العثمانى ، وفى ظل

النظام المملوكى (أيام السلطنة المملوكية) كان العبد (المملوك) المحرّر يرتقى إلى رتبة قائد فرسان ، وكان يتلقّى إقطاعاً كهبة ليعول الفرسان (وخیولهم) الذين يقودهم ، وفى ظل النظام العثمانى الكلاسى كان السنجق بك يتولى مجموعة من التیمارات تعرف باسم السنجق Sancak ، ولم يكن الإنكشارى - وهو من المشاة - يستطيع أن يكون لديه حق انتفاع بمخصصات كمخصصات الفرسان وإنما كان يتلقّى راتباً نقداً وعیناً (مؤناً) من الخزانة الإمبراطورية ، وعلى أية حال فمع إدخال نظام الالتزام انضم البکوات للعسكريين Soldiery كموظّفين يتقاضون راتباً ، ونظراً لأن ازدياد رواتب الإنكشارية كان أمراً غير مؤکد فى أواخر القرن السادس عشر وجدناهم هم وبقية العسكريين العثمانيين يجدون الحافز الكافى للدخول فى صراع للحصول على التزام ، فالالتزام الذى يمنحه السلطان يتيح للبکوات والعسكر دافعين مشتركين للمنافسة ؛ ليس فقط للاستمتاع بعوائد الالتزام نفسه وإنما أيضاً الرضا السلطانى (الإمبراطورى) الذى يتيح لمن حصل على الالتزام الاحتفاظ به دون إزعاج (أى دون أن ينتقل إلى غيره) ، وباختصار فإن الفجوة بين البکوات والعسكريين كانت ملمحاً محدداً فى المجتمع العسكرى لمصر العثمانية نتيجة رفض العثمانيين السماح لمصر بالارتباط بالأعراف التى سادت فى أواخر العصر المملوكى ، أو - من ناحية أخرى - الأخذ بالنظام العثمانى الكلاسى .

وزاد الضغط على العسكريين فى نحو نهاية القرن السابع عشر عندما فاضت الولاية (مصر) بالجنود الأناضوليين ، سواء من الجند السلطانى (الإمبراطورى) أو المرتزقة ، فانتهاء الحرب التى طال أمدها فى كريت سنة ١٦٦٩ ، وتفكك قوات الجيش بعد فشل الحصار العثمانى لقيينا سنة ١٦٨٣ . - أدى إلى تسريح عدد كبير من الجنود من العاصمة الإمبراطورية مما أدى لانتشارهم فى أنحاء الإمبراطورية ، وكان يطلق على هؤلاء المبعدين عن العاصمة الإمبراطورية إلى الولايات اسم الكابيكوللارت Kapikullart ، ومما غدّى هذا الفيض عدم الاستقرار الذى ساد فى الأناضول . وتذكر الحوايات المصرية أنه منذ وقت باكر يعود للعقد السادس من القرن السابع عشر (سنى الستين منه) كانت مجموعة من الجنود الأناضوليين الأفظاظ يجرون فى شوارع القاهرة وقد تملكهم سُعار القتل والتدمير^(١٨) ، وفى مصر وجدنا عدداً كبيراً من هؤلاء الجنود المسرّحين يتحولون إلى مرتزقة تم ضمهم بواسطة جماعات منظمة من الجنود العثمانيين ، أرسلوا إلى الولاية (مصر) فى مهام خاصة ، ونتيجة هذا

التدفق نَعَم عسكريو الإنكشارية وكتائب الغربان Azeban Crops خاصة الضباط بثقل فى المجتمع العسكرى فى مصر ، لم ينعموا بمثله قبل ذلك ، لقد بدأوا يتحدثون البكوات للحصول على العوائد المتاحة ولم يستطيعوا تجنب الدخول فى منافسة للحصول على الالتزامات ، وقد كانت الرغبة فى الحصول على الالتزامات قد زادت فى نهاية القرن السابع عشر عندما أخذت الإمبراطورية العثمانية بنظام توريث حيازة الالتزام مدى الحياة المعروف باسم المالكان málíkáns ، وعلى أية حال فإن النوع الوحيد من الالتزام الذى لم يكن ضباط الفرق يستطيعون الوصول إليه هو حكم الولايات والنواحي والأقاليم ، فهذا المنصب كان قاصراً على السنجق بك ، وكان يجدد سنوياً ، ومع هذا فإن ضباط الفرق كانوا قادرين على منافسة البكوات فى الثروة والمكانة بمد جذورهم فى التربة المصرية ، وحصولهم على الامتيازات المربحة الأخرى ، وممارستهم التجارة .

والسمة المميزة لهذا البروز الجديد للعسكريين خلال هذه السنوات هى أن الأغوات - وهم الضباط الأعلى رتبة فى الفرق العسكرية - لم يكونوا يرقون إلا نادراً إلى رتب البكوية ، وكان هذا النوع من الترقية فى حقيقة الأمر بمثابة عقاب لهم ؛ إذ كان الهدف منه هو إبعاد الضابط عن قاعدته فى الفرقة (الأوجاق)^(١٩) ، وعلى أية حال فقد كان من الممكن أن تتيح هذه الترقية للضابط فرصة الحصول على التزام كبير فى الأقاليم أو النواحي أو الولايات الداخلية ولشغل وظائف مربحة كمسئول خزانة أو قائد لقافلة الحج . فالقائد الجونوليانى (من أوجاق الجمليان Gönüllüyan) القوى حسن أغا بلفية Bilifya يعد مثالا بارزا على ذلك ؛ إذ تمكن من جعل بعض أتباعه أغوات ، وجعل بعضا من هؤلاء الأغوات بكوات ، ياتباعه مثل هذه الإستراتيجية .

إلا أنه لم يكن كل المسجلين فى الفرق من الجند المخلصين (غير المخادعين) ، فقد كان من الممكن لأى مواطن من أى فئة (بل لأى مواطنة) أن يدرج اسمه فى أحد الفرق (الأوجاقات) ولم يكن هذا ممكنا فحسب ، بل كان مطلوبا أيضا ، وبهذه الطريقة يصبح المواطن جنديا شرفيا ويقبض الراتب الشهري المخصص للفوج (الكتيبة) الذى سجل اسمه فيه ويعفى من الضرائب ، ويعمد الجنود (العاملون) من جانبهم إلى الالتحاق بالحرف كوسيلة لزيادة دخولهم ؛ إذ لا يعولون على رواتبهم الحكومية التى لا يعول عليها ، وكان أوجاق الإنكشارية هو الذى يسىء استخدام هذا

الامتياز على نطاق واسع ، فقد كان الإنكشارية يجبرون حرفيي القاهرة بشكل متتابع على قبول هذه الفرقة ، وبذا يحققون لأنفسهم دخلا مربحا وكبيرا (يعول عليه) مقابل إدراج أسماء الحرفيين في سجلات أصحاب الرواتب في الفوج ، وبحلول القرن الثامن عشر كان هناك حوالي ١٤٠٠٠ من المقيمين في القاهرة ، أو ما تتراوح نسبتهم ما بين ٥٪ إلى ٦٪ من سكانها - مدرجين في سجلات الأفواج العثمانية^(٢٠)، ونكاد نكون على يقين أن جزءاً قليلاً فقط من هؤلاء كانوا مقاتلين فعليين .

وباختصار فقد انتقلت الإمبراطورية العثمانية من مرحلة الغزو العسكري إلى دولة بيروقراطية جامعة للعوائد والدخول خلال القرن السابع عشر ، حيث اتسم هذا القرن بمركزة موظفي الدولة والعاملين في خدماتها في الولايات ، وفي مصر تطور العسكريون من مشاركين في المعارك الإمبراطورية والتجديدات العسكرية الخاصة في الولايات إلى مجموعات محلية ذوات مصالح ، ولهم وضعهم الحصين ، والحقيقة أن أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر في مصر شهدت مرحلة امتد فيها نفوذ العسكريين خاصة ضباط الفرق بطريقة لم يسبق لها مثيل ، ففي جانب كبير من هذه الفترة كان يهيمن على مصر ثلاثة على رأسهم القائد فوج الجونوليان (الجمليان Gönüllüyan) حسن أغا بلفية ، وهو شخصية ماهرة سنعرف عليها في هذا الكتاب ، أما شريكاه فهما صهره إسماعيل بك وشخص آخر تحت حمايته وهو الضابط الإنكشاري الكخيا مصطفى القازدغلي ، وكان هؤلاء الثلاثة على رأس فريق الفقارية أحد الفريقين اللذين اقتسما مصر عسكريا وحرفيا وقبليا منذ بداية القرن السابع عشر على الأقل .

وكان الكخيا مصطفى القازدغلي - تابع الأغا حسن بلفية - هو الذي أسس الزمرة الحاكمة التي ستهكم مصر طوال قرن بعد ذلك ، بل إنه عند حلول أواخر القرن الثامن عشر كانت مجموعة القازدغلي تكاد تعرف بأنها زمرة الكخيا مصطفى ، وكانت الرتب العليا فيها من مجموعة من البكوات يكانون يكونون جميعا من المماليك (العبيد) الجورجيين (من أصول جورجية) ، وفي هذه الأثناء كانا قد فقدوا كثيرا من أهمية تنظيمها المؤسس ، وقل دخل أتباعهما من العامة والبكوات ، مثلها مثل الفرق العسكرية ، وعلى أية حال فقد كان بعض الضباط الإنكشارية من الرتب العليا لا يزالون نوى أهمية للحفاظ على النظام في القاهرة .

وتُظهر كل الشواهد أن تحولاً حدث في صفوف العسكريين في مصر خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ، وبينما رجحت كفة البكرية في النصف الأخير من القرن الثامن عشر وأصبح هذا الرجحان ملحوظاً من قبل الدارسين ، إلا أن الظروف والملابسات التي سبقت ذلك وكانت سبباً له ظلت بعيدة عن الدراسة المتأنية إلى حد كبير ، حقيقة إن ما قد نسميه الفترة الوسطى في حكم العثمانيين لمصر وبالتحديد الفترة من ١٦٥٠ إلى ١٧٥٠ ظلت - نسبياً - بمثابة مياه خلفية غير مكتشفة (منطقة منعزلة غير واضحة المعالم) في تاريخ مصر العثمانية ، فهيمنة البكرية في أواخر القرن الثامن عشر ارتبطت بالظروف والملابسات التي سادت في فترة أواخر السلطنة المملوكية (أى فترة ما قبل الفتح العثماني لمصر) أكثر من ارتباط فترة حكم العسكريين (الفرق العسكرية) السابقة مباشرة لفترة حكم البكرية بها (أى فترة نهاية السلطنة المملوكية) وعلى هذا فإن البكرية الجورجية (البكوات المماليك من أصل جورجي) تُعتبر إحياء أو - في بعض الحالات - استمراراً لممارسات الإمارات المملوكية ، ومن هنا فقد تميز عمل المجموعة الصغيرة من الباحثين الذين أولوا اهتماماً فائقاً لبنية النخبة العسكرية في مصر العثمانية بالإلحاح على ربط مصر العثمانية بمصر المملوكية عبر البكرية ، وصحب هذا الميل إلى الإشارة لأواخر القرن الثامن عشر باعتباره ذروة تطور البكرية .

ولنضرب مثالا واحدا بهذا الاستعداد لتحليل المجتمع العسكري العثماني في مصر بالمصطلحات نفسها لمجتمع المماليك السابق عليه بالدراسة الرائدة التي أعدها ب . م . هولت P.M.Holt التي اعتمدت في الأساس على المصادر العربية والتي وضعت أسس الدراسات الحديثة للنخبة العسكرية في مصر العثمانية ، ففي مقال يتناول أفكاراً أساسية عن البكرية المصرية في القرن السابع عشر ، نجد هولت يُصور لنا إدخال كتائب المتفرقة إلى مصر في سنة ١٥٥٤ . باعتباره مثل إدخال كتائب الخاصكية Khassakiyya في السلطنة المملوكية ، وكانت الخاصكية مكونة من مماليك السلطان نفسه (العبيد التابعين له شخصياً أو الذين هم من ممتلكاته) ومن بينهم كان يتم اختيار الأمراء الجُدد^(٢١) ، وعلى هذا فالمتفرقة فيهم شبه ظاهري من الخاصكية ، ماداموا هم الحراس الشخصيين للوالى العثماني ، وظلت البكرية لعدة سنوات

قاصرةً عليهم ، بل إن هذه الكتيبة (المتفرقة) كان لها الاسم نفسه لكتائب المتفرقة في العاصمة الإمبراطورية (العثمانية) ، وكانت المتفرقة المصرية ، كالمفرقة في العاصمة العثمانية ، يتم شغلها من جنود القصر - لا من سواهم - وبذا كانت نخبة من الحاشية العثمانية في مصر ، وأكثر من هذا كما رأينا ، فقد تم استحداثها في مصر كجزء من محاولة عثمينة إدارة الولاية (مصر) .

ومعنى أن نصف هذه الفرقة (الأوجاق) ، بأنها مجرد عودة لنظام الفرقة الأخرى التي كانت موجودة زمن السلطنة المملوكية ، هو إساءة فهم لغرضها الحقيقي في المجتمع العسكري العثماني في مصر .

وهذه الدراسة تعمل على التمعّن في هذه الفترة الوسطى للحكم العثماني في مصر من سنة ١٦٥٠ وحتى سنة ١٧٥٠ ، اعتقاداً منا أن أسباب التغيرات المختلفة في صفوف العسكريين المصريين يمكن أن توجد في سياق التاريخ العثماني والمحلي ، ولقد ذكرت آنفاً الحالة التي برز فيها العسكريون خلال أواخر القرن السابع عشر نتيجة تغييرات أساسية في طبيعة الإمبراطورية العثمانية وما صاحبها ، أو لازمها من تغيرات في الولايات التابعة لها ، وللهدف نفسه قصدت أن أتفحص تكون المجتمع العسكري في مصر خلال هذه الفترة المهمة لأكشف عن جذور هيمنة البكرية في أواخر القرن الثامن عشر ، إنها فترة جديرة بالدراسة في حد ذاتها أيضاً ، فالتحليل الدقيق للبنى (جمع : بنية) التي عملت من خلالها التشكيلات والتكوينات العسكرية ، والتداخل بين رتبها (مراتبها المختلفة) ، والتحالفات الإستراتيجية بين تكوينات الفرقتين المهيمنتين - كل هذا سيليقي الضوء على طبيعة المجتمع العسكري ومكانه ضمن المجتمع العثماني ككل .

وقد اخترت أن أركز في دراستي على زمرة household أسسها في أواخر القرن السابع عشر الكخيا مصطفى القازدغلي فلم تكن زمرة القازدغلي ببساطة واحدة من بين التجمعات (المجموعات) العسكرية التي مارست الانتقال من سيطرة الفرق العسكرية إلى سيطرة البكرية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بل إن الأقرب للصحة أن هذه الزمرة كانت في طليعة هذا الانتقال وباعثة له ، إن قصة التغيرات التي نقلت مصر خلال قرن من القيادة العسكرية الثلاثية إلى البكرية المملوكية الجورجية هي إلى حد كبير قصة ظهور وتطور الزمرة القازدغلية .

الهوامش

(١) عن الفتح العثماني لمصر وأثاره انظر :

— محمد بن أحمد بن إياس ، ترجمة : ديليو . آتش . سالمون

An Account of the Ottoman Conquest: Salmon of Egypt in the year A. H. 922
(A.D. 1516) London, 1921 .

— محمد بن أحمد إياس

Journal d'un bourgeois du Caire

ترجمة : جاستون وايت Weit ، ٢ مج (باريس ١٩٥٥)

— جان لوييس باك — جرامون

Jean - Louis Bacque - Grammont Les Ottomans , Les Safavides et Leurs Voisins

(إستانبول ، ١٩٨٧) ص ص ١٨ - ٩٩ ، ٢٠٦ - ٢٠٧

P. M. Holt , Egypt & the Fertile Crescent - 1915-1922 : A Political history (Ithaka
and London, 1966) pp. 3 - 45.

G. W. F. Stripling : The ottoman - Turks and the Arabs, 1511- 1574,

Illinois Studies , in the Social Sciences, Vol. xxvi, no. 4 (Urbana, Il, 1942)

(٢) شمس الدين عبد الصمد ، دخول العثمانيين الأول إلى اليمن ، حرره عبد الله محمد الحبشي
(بيروت ، ١٩٨٦) ص ٨٦ وما بعدها .

(٣) عن إرسالية الخزينة tribute انظر :

Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Develop-
ment of Ottoman Egypt , 1517 - 1798 (Princeton, 1962 pp. 283. ff.

(٤) انظر على سبيل المثال أرشيف ياسباكانليك العثماني في استانبول - الدفاتر المهمة ٩٩ ، رقم ٧٥
(١٦٨٩ / ١١٠١) .

Başbakanlık Osmanlı Arsivi, Mühimme Defteri.

(5) André Raymond, " La Population du Caire et de l'Egypte à l'époque Ottomane et
sous Muhammad Ali " in Memorial Ömer lutfi Parkan (Paris, 1980)

(6) Ibn Iyan, *Journal d'un bourgeois du Caire*, Vol.1.PP. 79 ff' Gaston Weit, " Personnes déplacées " *Revue des Etudes Islamiques* 27 (1959) 9 - 21.

(٧) عن نظام الأرض في السلطنة المملوكية انظر : حسنين ربيع :

The Size and Value of Iqtā in Egypt 564 - 741 / 1169 - 1341 " in Michael Cook (ed.) *Studies in the economic History of the Middle East : From the Rise of Islam to the Present day*, (oxford , 1970)

A.N. Poliak, " some notes on Feudal System of the Mamluks " *Journal of the Royal Asiatic Society* (1937) 97 ff.

وعن المجتمع المملوكي انظر :

David Aylon, *l'Esclavage du mamelouk* (Jerusalem 1951)

وانظر أيضا دراسته :

Studies on the Structure of the Mamluk Army " Parts - 1 - 3 1955) 203 - 228, 448 - 76 and 16 (1957) 57 - 90.

(٨) عن الإقطاع السلجوقي ، انظر على سبيل المثال :

Claude Cahen., " l'Evolution de l'Iqta du Ixe au xiiie Siècle " in Claude Cahen, *les Peuples musulmans dans l'histoire médiévale* (Damascus, 1977) .

وعن نظام التيمار العثماني انظر على سبيل المثال :

Halil Inalcik : *The Ottoman Empire :The Classical age* , 1300 - 1600

ترجمة : Norman Itzkowitz & Colin Imber (London , 1937) pp. 114 - 118 .

(9) Heinz Halm, *Ägypten nach den Mamlukischen Lebens registern*, 2 vols (Wiesbaden, 1979) Vol. 1 pp. 60 ff.

كانت الولايات الفرعية المصرية (النواحي) البالغ عددها ١٢ هي :

المنوفية ، والقليوبية ، والغربية ، والمنصورة ، والشرقية ، والبحيرة ، والجيزة ، والفيوم ، وأطفيح ، Alfih ، والعشمونية Ushmunayan ، ومنفلوط ، والبهنسا ، وجرجا . وعن تبني العثمانيين للنظام المملوكي

انظر :

- *Misir kanunnânmesi* " in Omer Lütfi Barkan xvve - xvi inct asırlarda Osmanlı imparatorluğunda Ziroû ekonominin hukuki ve mali esasları, Istanbul Üniversitesi Edehiyat Fakultesi Yayınlarından No 256 (Istanbul, 1943) vol . 1 , Chapter 105 -

- Shaw, *Financial and Administrative Organization*, pp. 28 ff, 60 - 62.

- P. M. Holt, " the Beylicate in Ottoman Egypt during the 17 the Century," *BSOAS* 24 (1961) .

(١٠) الكلمة "Beylicate" نتجت عن إضافة لاحقة لاتينية للمصطلح التركي Bykik وهي تشير إلى منصب Post اليك . وهي كلمة شائعة في الدراسات الثانوية عن مصر العثمانية .

(١١) وهي جاويشية Çavuşan ، وجمليان Gönüllüyan والتفكجية Tüfenkciyan ، Çerakise ، (الشركس) ، الإنكشارية (المستحفظان) والعزبان Ázeban

(١٢) الدفاتر المهمة Mühimme Defteri ، رقم ٤٨٧ (١٥٦٤/٩٧٢) ورقم ٩ (١٥٧٦/٩٨٤)

(13) Stanford J. Shaw, "The Land Law of Ottoman Egypt (960 / 1553) ; A Contribution to the Study of Landholding in the Early years of Ottoman Rule in Egypt , Der Islam 38 (1962) 106 - 37

(١٤) انظر على سبيل المثال ، أحمد جلي (شلي) بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، نشر أ.أ. عبد الرحيم (القاهرة ، ١٩٧٨) ص ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٧ مج (القاهرة ، ١٩٥٨ - ١٩٦٧)

- أحمد كتحدا عزبان الدمرداش ، الدرّة المصانة في أخبار الكنانة ، المتحف البريطاني - مخطوطات شرقية Ms. Or - ١٠٧٣ - ١٠٧٤ ، ص ص ٢ - ٥

(15) Zdzislaw Zygmuntski, Jr. Ottoman Art in the Service of the Empire (N.y, 1929 pp. 45 - 51 , 69 ff.

Fevzi Kurtoğlu, Türk Bayragi ve Ay Yıldı 2 (Ankara, 1938) pp. 74 - 7

Riza Nour (رضا نور) "l'Histoire du Croissant " Revue de Turcologie (1933) 117/346

(١٦) الجبرتي ، عجائب .. مج ١ ، ص ٧١ .

(١٧) هناك استثناء خلال أواخر القرن السادس عشر عندما احتكرت كتائب المتفرقة حديثة التكوين البكرية .

انظر الفصل الثالث ، ص ٤٢ من النص الإنجليزي .

(١٨) انظر الفصل الرابع ، حاشية ٤٢ .

(١٩) انظر الفصل الرابع ، حاشية ٥٢ ، منذ أن أصبح حسن بلفية بك حتى أصبح قادرا على شق طريقه مجددا في الفرق العسكرية (الأوجاقات) .

(20) Daniel Creceius, The Roots of Modern Egypt : A study of the Regimes of Ali Bey al- Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dahab, 1760 - 1775 (Minneapolis and Chicago , 1981) p. 21

اقتبسها :

ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة في مصر في العصر العثماني ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس . (١٩٧٥) ص ١٦٨ .

(21) Holt, Beylicate, 223

الفصل الثانى

الزُمرة العسكرية

تعريف الزمرة العسكرية :

مع بداية الزمرة العسكرية المعروفة بالقازدغلية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر لم تكن هى الوحيدة على السّاحة ، وإنما كانت واحدة من زُمرٍ عسكرية كثيرة فاعلةٍ فى القاهرة العثمانية ، فقد كانت الزُمرة العسكرية هى الوحدة الأساسية فى المجتمع العسكرى المصرى ، كما هو مفترض ، كما تطورت هذه الزُمر فى ظلّ الحكم العثمانى ؛ لذا فمن الضرورى أن نعرّف هذه الظاهرة - ظاهرة الزُمرة العسكرية - قبل أن نواصل دراسة قيام القازدغلية . لم تكن الزُمرة العسكرية مجرد جماعة ترتبط برباط القرّبى أو النسب ، رغم أن هذا ممكنا ، بل وعادةً ، كانت الزُمرة العسكرية تضم أعضاء من أسرة Family المؤسّس (مؤسّس الزُمرة) ، وعلى أيّة حال فقد كانت الزُمرة العسكرية تضم زعيمها أو رأسها ، ومن يتمتّعون « برعايته » سواء كانوا أقرباء أو أنسباء له أم لا ، وكان يمكن لأفراد الزُمرة المختلفة أن يتحالفوا معا ليكونوا عُصبة أو فرقة Faction ، فقد كان الفقارية والقاسمية وهما عصبتان أو فريقان سيطرا على مصر خلال القرن السابع عشر وجزء من القرن الثامن عشر - كل منهما مكونًا من تجمعٍ من الزُمر households المتحالفة .

واعتادت الدراسات الثانوية عن مصر العثمانية التى نُشرت طوال أكثر من خمس وثلاثين سنة مضت أن تُعرّف هذه الزُمر العسكرية بأنها زمر مملوكية أو جماعات مملوكية جديدة ، وهذا لا يفترض أن الإدارة العسكرية لمصر العثمانية

كانت استمرارا لم يلحقه التغيير للنظام المملوكى فالمؤرخون يسلّمون بالتغييرات الإدارية التى ذكرنا خطوطها العريضة فى الفصل السابق ويسلّمون أيضا بتدفق مجموعات مختلفة من الأفراد العسكريين إلى مصر سواء ممالك أو غير ممالك ، والمؤرخون متمسكون بأنه حتى طريقة التجنيد والتدريب العسكرى للمجموعة المحيطة برئيس الزمرة ظلت باقية كما هى على الحالة التى كانت عليها أيام السلطنة المملوكية : فقد كان العبيد والمرتزة - على حد سواء - يتم إلحاقهم بزمرة الأفراد (النبلاء) الطموحين ، ويتلقون تدريبهم داخل هذه الزمرة ، وكان هؤلاء الأمراء أو النبلاء أصحاب الزمر يتأسسون بنظام الجماعات العسكرية للسلطين الممالك ، ومن هنا فقد كان يُنظر لزمرة المملوك كملح أساسى فى المؤسسة العسكرية لمصر العثمانية .

ومع هذا فإن مفهوم « الزمرة المملوكية Mamluk household » ودلالته ، قلما كان موضع تمعن ودراسة فى المصادر الثانوية ، بينما تتناول هذه المصادر نشاطات وأعمال هذه الزمر المملوكية المختلفة ، دون أن تناقش - إلا نادرا - صحة هذا المصطلح نفسه ، إن كتب هولت P. M. Holt وميكل وينتر Michael Winter ، وستانفورد شو Stanford Shaw تشير بطريقة أكثر غموضا إلى الزمر المملوكية كما لو أن هذا المصطلح لابد وأنه مفهوم لا يحتاج إلى بيان دلالاته ، لقد أخذ دانيال كريسيليوس "Daniel Crecelius" على عاتقه أن يذكر لنا الخطوط العريضة لتكوين البيت المملوكى "Mamlukbayt" ، بينما سلط أندريه ديموند André Raymond الضوء على محل إقامة الزعماء الممالك فى القاهرة ، أما جبريل بيتربرج Gabriel Piterberg فكاد يضع الزمرة household فى سياق عثمانى بتركيزه على أهمية العضوية فى الزمرة فى المجتمعات التركية - المونجولية العسكرية Turko Mongol military Societies بشكل عام ، وعلى أية حال فإنه يؤكد أن طريقة تجنيد العبيد جعلت من الزمر المملوكية فى مصر طبقة ذات شكل خاص^(١) ، وحاول ديفيد أياون David Aylon أن يصف ممارسات الزمرة العسكرية وتكوينها فى العصر العثمانى كما فعل بالنسبة للزمر العسكرية فى السلطنة المملوكية ، والحقيقة أنه اكتشف أن طرق استخدامات الزمرة العسكرية فى العهد العثمانى تختلف بشكل أساسى عن الزمرة العسكرية فى عصر الممالك^(٢) ، ورغم ذلك فإنه أصر على أن الزمرة العسكرية التى تغيرت فى العصر العثمانى ظلت ظاهرة مملوكية ، وحقيقة الأمر أن طريقة تناوله للمجتمع العسكرى فى مصر العثمانية تأثرت

باقتناعه أنه مملوكى فى كل عناصره ، لقد كان الأمر بشكل عام أن المؤرخين ادَّعوا أن الزُّمر العسكرية فى مصر فى العهد العثمانى كانت ميراثا مملوكيا ، حتى ولو لم تعد تعتمد اعتمادا كليا على تجنيد العبيد (المماليك) ، فإنها - رغم هذا - ظَلَّت تستلهم نُظم الزُّمر العسكرية فى عهد السلطنة المملوكية .

وَأعتقد أن إعادة التأكيد على هذا المصطلح وما يُفترض من جذوره يمكننا من إلقاء الضوء على المجتمع العسكرى فى مصر فى العصر العثمانى بما يعكس - بشكل أكثر صدقا - ملامحه ويجب أن يتمحور هذا التركيز الجديد على المفهوم الصعب (غير الثابت) لعودة ظهور نظام الزمرة العسكرية المملوكى فى العصر العثمانى فى مصر ، لقد كانت هناك بالتأكيد زُمر عسكرية فى مصر فى العصر العثمانى من النوع الأنف وصفه ، لكننا لا نستطيع أن تثبت أنها استلهمت بشكل مباشر من تكوين الزُّمر العسكرية فى عهد السلطنة المملوكية ، أو أن الزمر العسكرية المملوكية كانت هى وحدها نون سواها مصدر إلهام الزمر العسكرية فى العهد العثمانى ، تنحو نحوها وتقلدها ، ومن ناحية أخرى فإن الزُّمر العسكرية هى الملمح الأساسى الذى يفسر المجتمع العثمانى ككل فى الأعوام التى تلت حكم السلطان سليمان الأول (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ، ومن الطبيعى أن يكون النموذج الأصيل لزُمرة النخبة العثمانية (الزمرة العسكرية العثمانية للنخبة) هى نفسها الزمرة العسكرية للسلطان نفسه ، والتى وصلت لتطورها الكامل خلال حكم السلطان سليمان^(٣) كانت مقر الزمرة الإمبراطورية فى قصر طويقابى Topkapi ويضم مقر الخدم والعاملين داخل المقر - المطابخ ، والحدايق ، ومجالس الاستشارات الخاصة وأجنحة الحريم يحرسها الخصيان (الطواشية) - بالإضافة إلى المقار العسكرية ، ومدارس تدريب الحرس والخدم على السلاح بالإضافة أيضا إلى التدريب العسكرى للخدم الخصوصيين والحرس الشخصيين بأنواعهم المختلفة ، لقد كان كثير من هذه الفصائل العسكرية - مثل : البلطجية (حاملى البلطات Baltacis) والبستانية (الجنائنية Bastancis) - يقوم بلور مزيج : أى يؤدون عملهم المدنى بالإضافة لأداء أدوارهم العسكرية^(٤) .

وبينما كانت الزُّمرة العسكرية الإمبراطورية (السلطانية) بلا شك هى الزمرة المميّزة المبجلة فى إستانبول ، وفى نطاق الدولة العثمانية ككل ، إلا أنها كانت تواجه

منافسة ، أو على الأقل محاولة التمتع بالنفوذ نفسه والسلطان نفسه اللذين تتمتع بهما ، من الزمر العسكرية الأقل درجة ، وذلك على الجبهتين (أى داخل استانبول نفسها ، وعلى مستوى الدولة العثمانية ككل) لقد نافستها الزمر العسكرية للوزراء Uliziers والزمر العسكرية للولاة (حكام الولايات أو الأقاليم) ، وكان كثيرون منهم قد بدأوا مهامهم فى القصر السلطاني نفسه^(٥) ، وكانوا من جماعات الجند (العسكر) الذين اندمجوا فى ثكنات الإنكشارية المركزية (على المستوى الإمبراطورى) فى العاصمة العثمانية ، وقد عقد تكوين المجموعات gangs خلال ثكنات الإنكشارية التقاليد التى كان إنكشارية إستانبول يعتبرونها امتدادا لزمرة السلطان (الذين يعيشون فى نطاق بيته) فمصطلحات الزمرة (البيت السلطاني بمفهومه الواسع) خاصة العاملين فى المطبخ تحدد الرتب والوظائف ، كانت الفرقة Corps تُعرف باسم الأوجاق (الوجاق Ocak) (المعنى الحرفى هو الموقد hearth) كما كان فى مصر ، بينما كان الشوربجي Çorbaci (مسئول الشورية أو الحساء) والـ Aşçibasi (رئيس الطباخين) من رتبة الضباط ، وكان الإنكشارية يعبرون عن تمردهم بقلب الجلل (الأوانى) الخاصة بهم مشيرين بذلك إلى رفضهم طعام السلطان ، وبالتالي رفضهم لمكانهم فى نطاق زمرة (بيته بالمعنى الواسع للكلمة)^(٦) ، ومن الناحية العملية فإنه بعد القرن السادس عشر عندما تفرقت المصالح الإمبراطورية بين عدد كبير جدا من الجماعات ذات المصالح فى القصر والعاصمة ، زادت التوترات بين هذه المجموعات المحلية المتصارعة .

وكان لهذا النوع نفسه من التوترات وجود فى الولايات العثمانية ؛ إذ كانت دور الولاة (دور بالمعنى الواسع للكلمة والذى أثرنا ترجمتها بالزمرة لقربها للمعنى المقصود) تحاكي القصر السلطاني فى إستانبول ، وإن كان ذلك على مستوى أصغر ، لكن أى زمرة لوال كانت تنافسها زمر من النخب المحلية ، وكانت النخبة المحلية فى مصر تتكون فى الأساس من البكوات وضباط الفرق ، وكان فى مقدور الموظفين الرسميين العثمانيين - مثل الإداريين الذين قضوا فترة طويلة فى الإدارة أو الخصيان الذين تركوا الخدمة فى العصر السلطاني - أن يكونوا ضمن هذه النخبة ، وكان النبيل من هؤلاء يكون لنفسه - على نحو نمطى - حاشية من العبيد (المماليك) والخدم والزوجات والمحظيات والحراس والأتباع المختلفين

يتجمعون في مقر إقامته ، وكانت حاشية الوالى متجمعة في قلعة القاهرة ، بينما كان البكوات يجمع كل واحد منهم حاشيته في قصره وكان كثيرون من البكوات يمتلكون قصورا في مناطق مختلفة مجاورة للقاهرة ، وكانت النخبة تميل للتمركز في مناطق معينة في المدينة (القاهرة) ، فأمرأء عصر أواخر السلطنة الفاطمية كانوا يفضلون إقامة بيوتهم في القاهرة الفاطمية وإلى الجنوب منها مباشرة وبالقرب من بركة الفيل في جنوب غرب القاهرة ، وسار نبلاء الفترة العثمانية على النمط نفسه ، رغم أنهم راحوا يُفضلون بشكل متزايد بركة الفيل حتى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما انتقلت صُرة إقامة النخبة إلى بركة الأزبكية في الشمال الغربى^(٧) ، وتشير حوليات هذه الفترة - بشكل نمطى - لمثل هذه الإقامة حيث تتجمع الزمرة متخذة شكل عنقود باسم بيت bayt ، ومثل هذا التكوين (أو مثل هذه البنية) هى التى يضعها غالب المؤرخين فى اعتبارهم عندما يتحدثون عن الزمرة المملوكية Mamluk household وهم على وعى بأنه ليس كل أفراد حاشية النبيل من العبيد (المماليك) .

بل إن مجموعات الأتباع كان من الممكن أن تتشكل فى ثكنات الجنود العثمانيين فى مصر ، على نحو قريب الشبه جدا مما كان يحدث فى ثكنات الإنكشارية فى إستانبول ، وفى هذه العملية (عملية تكوين المجموعات) كان الضابط يقوم بزرع الأتباع بين الجنود فى الأوجاق (الفرقة) فى الكتائب Crops التى يقودها^(٨) ، ويُقدّم لنا تاريخ مصر فى العصر العثمانى أدلة كثيرة على وجود هذه المجموعات (التكتلات) كان على رأسها - بشكل نمطى - ضباط من الرُتب الأدنى ممن لم يكن لديهم المال (أو المكانة) الذى يمكنهم من تأسيس بيوت houses مُترفة خارج الثكنات ، وقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر قيام زعيمين - عدوانيين بشكل خاص - فى ثكنات الإنكشارية : كچك محمد küçük وإفرانج أحمد Ifrange ، وكان كلاهما من رتبة الباشوداباشى başodabaşı وتعنى هذه الرتبة القائد الأساسى للثكنات (أوده Oda) ، وهى الوحدة الفرعية الأصغر فى كتائب الإنكشارية^(٩) ، ولاشك أن التكوين الهرمى (الهراركى) لحياة الثكنات ونسق الحياة فيها قد سهّلا محاولتهما لجذب الأتباع من بين من هم تحت قيادتهما ، وعادة ماكان يُطلق على هؤلاء الأتباع فى نطاق الأوجاق reginment اسم الطرف taraf أو الطائفة أو الجماعة ، فى الحوليات ، رغم أن هذه المصطلحات يمكن أن تعنى أيضا تجمعات عسكرية واجتماعية أخرى^(١٠) ، وهذه

المصطلحات لا تتناسب - بسهولة - مع الزمرة household المملوكية ، بل إن الحوليات تفترض أن هذه المجموعات gangs كانت مرتبطة بمقر الإقامة ؛ لأنه إذا ما أصبح لدى الضابط المال الكافى وتمت ترقيته إلى الرتبة الكافية ، فإنه يقوم - كإجراء طبيعى - بترك التكنات ، ليقوم بشراء أو بناء أو مصادرة بيت house فى أحد ضواحي القاهرة حيث يكون زمرة household خاصة به من العسكر والخدم^(١١) .

وعلى هذا فقد كانت هناك فى هذا الوقت ثلاثة أنماط من الزمر households تعايشت معا على المستوى المحلى : زمرة الوالى وغيره من الإداريين العثمانيين الحاليين والإداريين العثمانيين السابقين ، وزمرة النبلاء المحليين ، والزمرة أو المجموعات داخل التكنات ، وعلى أية حال فقد كانت هذه الزمر جميعا متداخلة ، فقد أصبح المسئولون العثمانيون الذين كونوا زمراً فى مصر من النبلاء المحليين ، تماما كما فعل رجال التكنات الأقوياء الذين تركوا تكناتهم وكونوا زمرا مصطنعة فى بيوتهم وحولها ، وفى هذه الحالة الأخيرة كان يمكن استخدام الزمرة كأداة للحراك الاجتماعى خلال الكادر (الإطار) العسكرى أو على الأقل كأداة للتأكيد على الوضعية الاجتماعية المؤثرة ، وفى الحالة الأولى تستخدم كأساس لتجمع (تلاقى) المصالح الإمبراطورية والمحلية بإتاحة الفرصة للمسئولين الإمبراطوريين لممارسة تأثير محلى واختيار أشخاص بارزين جدد على المستوى المحلى .

وباختصار فلم تكن الزمرة household محدّدة تحديدا صارما كما لم تكن وجودا استراتيجيا (ثابتا غير قابل للتغير) ، فقد كانت هناك أنماط كثيرة مختلفة نوعا وحجما فى مواقع مختلفة ، وأكثر من هذا فقد ظلت الزمر households تتطور باستمرار وتمتد من خلال الزواج ، والاندماج ، والانفصال نتيجة التنافس بين أفرادها ، لقد تطورت الزمر households لتخدم حاجات مجتمع اشتدت فيه المنافسة ، كان يأتيه بشكل متتابع أعضاء جدد من أماكن نائية طاردة ، فقد كانت الزمرة المتحلقة حول البيت أو داخله بالنسبة للجندى الأناضولى أو القوقازى الذى وصل حديثا لمصر وسيلة للتأقلم وتكوين العلاقات الاجتماعية والتعليم ، كما كانت تمثل له درجة من درجات الأمان المالى ؛ لأنه كان من الممكن لعضو الزمرة أن يعتمد على راعى الزمرة (حامياها) لتسهيل طريقه للترقى فى المجموعة العسكرية ، أو إعانته بالتزام أو إلحاقه بحرفة أو إشراكه فى مضاربة تجارية . وبالنسبة لرأس الزمرة household

كانت الزمرة وسيلة فعّالة لجمع الثروات بالحصول على الالتزامات والمناصب لأتباعه ،
فثروة الزمرة the household ومكانتها وقوتها العسكرية تمكّن أعضائها من ممارسة
ضغط على الوالى العثمانى وعدد من الرّسميّين الآخرين ، وكذلك على التجار
والحرفيّين الذين يجدون من المربح أن ينسبوهم إليهم ، لقد كانت الزمرة تحمى - على
المدى البعيد - مصالح مؤسّسها ، وعند موت مؤسس الزمرة (راعيها أو رأسها)
يدّعى قيادتها أو زعامتها أكثر الأعضاء قربا من الراعى المتوفّى (من كان محل ثقته
أكثر من غيره) أو الأعلى رتبة ، وهذا يضمن استمرار سيطرة الزمرة على مصادر
الثروة غير المستقرّة ، وبينما كان من الممكن أن تتنافس الزمر على المناصب وعلى
السيطرة على مصادر الدخل ، فقد كان من الممكن أيضا أن تكون تحالفات مربحة
فيما بينها ، فقد كان يمكن للزمر الصغيرة نسبيا ذات الموارد المحدودة أن تتحالف مع
الزمر الأكبر والأكثر ثراء بحثا عن الحماية ، وحتى الضباط الأقل رتبة كان بإمكانهم
تكوين أتباع فى التكنات بل وربما داخل منازلهم البسيطة ، وكان يمكن لهذه الزمر
الصغيرة أن تجمع الثروات وتدخل ضمن رتب النخبة من خلال تحالفات إستراتيجية
واستثمار العوايد .

مصطلح « تابع » :

وعلى هذا يظهر بوضوح أن مصطلح « الزمرة المملوكية Mamluk household »
يضلّلنا عن حقيقة المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية ؛ لأنه يستثنى
المجموعات (التكتلات أو الزمر) فى التكنات ، ويتجاهل السّوابق والنظائر المصرية
فى أنحاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية ، وأكثر من هذا فإن المؤرخين الحوليين ،
وأفراد هذا المجتمع لم يستخدموا هذا المصطلح لإطلاقه على أنفسهم (إن جاز لنا
الحكم من خلال كتاباتهم) ففى حوايات القرن السابع عشر والثامن عشر كان
مصطلح (مملوك) يشير ببساطة للعبد العسكرى ، وأكثر من هذا فإن مصطلح
« مملوك » وغيره من المصطلحات الدالة على الزمرة household مثل : بيت ، وطرف ،
وطائفة لم يتم دمجها أو توحيدها (فى مصطلح أو مفهوم واحد) .

فالمصطلحات التي استخدمتها هذه المصادر تدل على غير ذلك ؛ إذ تعنى أن الزمرة household تضم غير الممالك بالإضافة للممالك ، فالمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي يستخدم تباعا عبارة « أتباع وممالك » ليشير إلى حاشية نبيل ما ^(١٢) ، وقد أكد الباحث جبريل بيتربرج Gabriel Piterberg - اعتمادا على استخدام الجبرتي - أن التابع (مفرد : أتباع) لابد أنه يعنى « غير المملوك » ، أما ديقند أيلون Aylon فعلى العكس منه يرى أن التابع هو ببساطة مرادف للملوك ^(١٣) ، وأمىل إلى أن المصطلح لا يشير إلى العبودية (كون حامله مملوكا) وإنما يشير إلى أى تابع سواء أكان مملوكا أو غير مملوك ، وهذا المعنى كامن فى طريقة استخدام الجبرتي لكلمة « تابع » ، فالجبرتي يصف نسب Lineuge بولوت Bulut كابان (قابان) النبيل الشهير فى أواخر القرن الثامن عشر المعروف بعلى بك الذى ثار ضد السلطان العثمانى فى سنة ١٧٦٨ بأنه « ... الأمير الكبير على بك ... وهو مملوك الكتخدا إبراهيم تابع الجاويش سليمان تابع الكتخدا مصطفى ^(١٤) ولا تترك السجلات التاريخية أى شك فى أن على بك كان مملوكا للكخيا إبراهيم القازدغلى ، وعلى أية حال فإن وضع الكخيا إبراهيم وراعيه الكخيا سليمان لازالا بعيدين كثيرا عن مثل هذا اليقين (لا زالا محل شك) ، ويبدو - فى ظل هذه الظروف - أن الجبرتي كان يستخدم بحذر لفظ « تابع » عندما يكون غير متأكد من كون الشخص الذى يتحدث عنه مملوكا أم لا .

وتميل المصادر الروائية العربية والعثمانية الأخرى لتأييد هذا التفسير لمصطلح « تابع » ، ويشير الرحالة التركى فى القرن السابع عشر إيقليا جلى (شلبى) عدة مرات للتابعين والرفاق tevābi ve havadarlar ، وفى هذه الأثناء أشارت الروايات عن الفتح العثمانى لليمن فى سنة ١٦٣٦ . إلى أتباع وألزام atba wa alzām أى ملازمون ^(١٥) ، وأكد الكاتبان على أن هؤلاء الأتباع كانوا ضمن الحاشية أكثر من تأكيدهم على أنهم كانوا ممالك (بالمعنى الاصطلاحي للكلمة) أم غير ممالك .

ومع هذا فإن « التابع » ليس ببساطة مصطلحا ملائما للشخصيات العسكرية التى قد تكون مملوكية أو غير مملوكية ، فالأصح أن هذا المصطلح يبدو واقعا فى قلب تكوين المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية ، وليس هناك ما هو أوضح من هذا النوع من الوثائق ذى الأهمية الفائقة لعمليات العسكر فى مصر ، وأعنى بها سجلات

الرواتب التي كانت تعدّها الإدارة العثمانية في أوقات المعارك الحربية^(١٦) ، ففي هذه السجلات ليست هناك إشارات محدّدة لشخص رقيق (مملوك) أو شخص حرّ بالمولد ، فكلمة مملوك لا وجود لها في هذه السجلات ولا وجود أيضا للكلمة التركية « قول Kul » أو أى لفظ آخر معبر عن العبد (المملوك) ، ومن ناحية أخرى نجد كلمة « تابع » تطلق على الجندي الذي يتجلّى أصله كرقيق (مملوك) بنسبته نسبة عامة (فلان بن عبد الله) ، كما تطلق أيضا على الجندي المعروف الأب ، وكانت الإدارة العثمانية تحدّد هوية الجندي لا بالنسبة لوضعه كرقيق (كمملوك) وإنما بالنسبة لمن هو « تابع » له (حاميه أو رأس زمّرتة) .

ولنصدر حكما صائبا عن مدى تتابع ذكر « التابع » في سجلات الرواتب هذه لابد أن نلاحظ أن عدد الجنود الذين ينتمون إلى الزمر يزداد ازديادا كبيرا في كل الفرق (الأوجاقات) في الفترة من أواخر القرن السابع عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر ، فمن بين ٢٠٠٠ جندي مدوّنين في سجلات الرواتب في السنوات من ١٦٧٥ إلى ١٦٧٧ ، نجد ٧٥١ كُتب إزاء كل واحد منهم لفظ (تابع) ، ومن بين ٣٠٠٠ مسجلين في سجلات سنة ١٧٣٧ - ١٧٣٨ ، نجد ١٥٦٨ « تابع » ، لقد ازدادت نسبة عدد « التابعين » بحوالى ١٥٪ ، وأكثر من هذا فإن عدد الزمر households ، وكذلك حجمها يبدو وكأنهما (عدد الزمر وحجمها) قد بلغا الذروة بين كتاب الإنكشارية والعزبان .

ومن الواضح أنّ نوع الشخص الموسوم بالتابع هو أنه تابع عسكري ارتبط بعلاقة تبعية براعيه (حاميه) أو لنقل ارتبط به بعلاقة انتساب ، وكان هؤلاء الرعاة Patrons الذين ظهروا في قوائم الدفع (سجلات الرواتب Pay lists) وفي الحوليات يتكوّنون من مجموعة متباينة المستوى تباينا كبيرا ما بين ضباط من رتب عليا إلى ضباط من رتب أدنى ، وبكوات ومسؤولين إمبراطوريين (عثمانيين) وموظفين (بيروقراطيين) ومنتسبين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (أشراف) وغيرهم ، ولابد أن لفظ (التابع) كان ينطبق على تنظيمات مختلفة من تنظيمات الانتساب (الأنف ذكرها) ، ومع ذلك فإن التبعية العسكرية Military Clientage من هذا النوع بدت أكثر قوّة من نوع الانتساب الذي كان ينعقد بين شاعر من شعراء البلاط وحاميه

(راعيه) الإمبراطورى (العثمانى) أو ذلك الانتساب - على سبيل المثال - المنعقد بين الشركاء التجاريين ، وكان التابع Client يتفق مع راعيه (حاميه Patrom) فى حمل لقبه his sobriquet وأحقاده طوال أجيال متعاقبة ، وعلى هذا يمكننا أن نقول بإطمئنان أنه بينما (التابع) عميل Client مؤكد لراعيه ، فإنه ليس مجرد « عميل » وإنما أكثر من ذلك Client .

ويمكن إلقاء مزيد من الضوء على مضمون « التابع » فى المجال العسكرى بملاحظتنا الاستخدام المعتاد لهذا المصطلح فى كل من المصادر التركية والعربية ، فتابع - نمطيا - مصطلح جغرافى يستخدم لتحديد أجزاء أو مناطق إقليم بعينه ، والأمر السلطانى الصادر فى سنة ١٧٢٣ . على سبيل المثال يشير إلى قرية بلفية Billifya التابعة لولاية البهنسا الفرعية Vilayet-i Bahnasaviye'ye tabi^(١٧) ويمكن ترجمة هذه الفقرة التركية حرفيا كالتالى : (قرية Billifya تتبع ولاية البهنسا الفرعية « مديرية ») ، والمضمون هو أن Billifya تابعة للبهنسا ، وبالتالي فهى من بين مجموعة القرى التى تضمها ولاية البهنسا (الولاية الفرعية) ، وقياسا على ذلك يمكننا أن نفهم كلمة (تابع) فى سياق الولاء العسكرى (أو التبعية العسكرية military Clientage) لتعنى الجندى المعتمد على ضابط أو بك أو مسئول والذى - أى الجندى - هو من بين مجموعة الجنود (العساكر) الذين يرعاهم هذا الشخص (ضابطا كان أم بك ..) ، وبعبارة أخرى فإن التابع هو عضو فى زمرة household راعيه أو بطانته entourage ، والحقيقة أن هذا المصطلح (تابع) كما بين لنا كتاب رفعت أبو الحاج - لا ينتمى إلى المصطلح المملوكى بأية حال ، وإنما يشير ببساطة إلى أى عضو فى أى زمرة ، سواء كان هذا العضو - رجلا أو امرأة - مملوكا أم لا^(١٨) ، وكى نركز على معنى العضوية ، فإن (التابع) يختلف عن المفهوم الذى تشير إليه الكلمة التركية شيراك أو چيراك çirak ، فهذا المصطلح الأخير يشير إلى شخص تحت حماية أو رعاية ذى نفوذ نبيل كان أم مسئولا ، بون أن يكون - بالضرورة - عضوا فى بطانته أو زمرته ، حقيقة إن الاعتماد على الوثائق الرسمية والحوليات المحلية لتبيان مضمون كلمة (تابع) كمصطلح عام generic يدل على أعضاء حاشية أو زمرة النبيل بغض النظر عن وضعهم كمماليك (عبيد) يعطينا انطبعا أن الانتماء للزمرة أو الحاشية قد حجب الانتماء المملوكى (انتماء السيد بمماليكه) فى المجتمع العسكرى المصرى فى أواخر القرن السابع عشر .

الزمرة كمفتاح للتاريخ العثماني :

مفهوم الزمرة - مع ما يسمح به هذا المفهوم من تباين واسع المدى - بدءاً من الائتلافات غير الرسمية نسبياً داخل الثكنات العسكرية إلى التحالفات داخل محل إقامة الراعي (الحامي) وحوله تلك التحالفات العامة بالتفاصيل - تقدّم لنا إطاراً أكثر مرونة وأكثر دلالة يمكن من خلاله تحديد المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية أكثر مما يمكننا من الفكرة التقليدية المتمثلة من النظام العسكرى للمملوكية الجديدة ، فبتركيزنا على الزمرة ، household كوحدة للتنظيم الاجتماعى استجذبت فى حد ذاتها أكثر من كونها ظاهرة مملوكية متوارثة (عن عصر السلطنة المملوكية) ، يسمح لنا أيضاً أن نوائم العناصر المتباينة تبايناً لا جدال فيه والتي تشارك فى تكوين (بناء) الزمرة : العساكر (الجنود) والبكوات ، والمماليك (العبيد) القوقازيين ، والمسلمين الأناضوليين الأحرار بالمولد ، والنساء ، والتجار ، والحرفيين ، والعلماء ، والأشراف . والتركيز على الزمرة household يمكننا أيضاً من إدراج مصر فى التكوين (البناء) الذى اتبعته الدولة العثمانية ككل خلال الفترة التى أعقبت موت سليمان الأول ، فالصفة المميزة لانتشار السلطة الإمبراطورية كانت هى ازدهار نظام الزمر الذى انتقل من المركز السياسى خاصة ، خاصة من ولاية الولايات ومسئولى القصور ذوى الرتب العالية ، مثل هذه الزمر كانت هى النموذج الأسمى الذى احتذاه الأعيان nota-bles المحليون عند إقامتهم زمرهم ، وزمر الأعيان هذه هى التى سادت المجتمعات المحلية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر^(١٩) ، وكان من المتوقع أن يتكون الأعيان فى مصر فى جانب منهم من نبلاء عسكريين ، وكان أمام هؤلاء النبلاء العسكريين نماذج متعددة من الزمر المكوّنة من نخبة مقيمة معهم ممثلة فى الزمر التى كوّنوها الموظفون العثمانيون ذوو الرتب العليا الذين أرسلتهم إستانبول لإدارة الولاية ، وبطبيعة الحال كانت زمرة الوالى العثمانى هى التى تأتى فى المقام الأول ، لكن كان هناك عدد من الأشخاص الإمبراطوريين الآخرين أسس كل منهم زمرة ، فعلى سبيل المثال كان لقاضى عسكر (رئيس القضاة) زمرة ، وكان لرئيس الجماعة المنحدرة من نسل النبی صلى الله عليه وسلم (نقيب الأشراف) زمرة^(٢٠) ، وقبل هؤلاء جميعاً كان لرئيس الخصيان السود المنفى من الحريم الإمبراطورى زمرة^(٢١) ، وكانت عادات الرعاية (أو المحسوبية أو الانتساب Patronage) المتبعة فى الزمرة قد خلقت أرضية

مشتركة بين المسئولين الإمبراطوريين فى الموقع (مصر) وفى إستانبول ومع النبلاء المحليين ، فقد راح نوى الحيثية من الطموحين المحليين يبحثون عن العمل لحساب (لصالح) المركز الإمبراطورى بالانضمام إلى زمر المسئولين الإمبراطوريين فى القاهرة ، وكان المسئولون الإمبراطوريون بدورهم يدخلون أتباعهم (محاسبيهم) فى زمر النبلاء المحليين ، وهكذا أصبحت الزمرة بمثابة رابطة nexus بين المركز والولاية .

وعلى النحو نفسه ، كان تكوين الزمر كعازل للسلطة المحلية صورة طبق الأصل من الزمر الإمبراطورية التى تمزقت سلطتها المركزية وتقسّمت ، فعندما كان المسئولون والجنود العثمانيون يضربون بجنورهم فى الولايات التى تمركزوا فيها ، لم يكن من النادر أن يجدوا أنّ ولاءهم لمصالحهم فى البقعة التى تمركزوا فيها تنافس ولاءهم للسلطان ، وعندما كان هؤلاء الأشخاص يكونون جماعات تابعة وثروات وممتلكات فى الولاية ، أو بتعبير أكثر إيجازا عندما يكونون زمرا - فإنهم يصبحون أعيانا محليين بالفعل - وسوف أستخدم هذا المصطلح (محليين) هنا ليكون له معنى فضفاض - وعندما يصبح المسئول العثماني من الأعيان المحليين فى مصر لم يكن من الضرورى أن يشرع فى الحديث باللغة العربية بطلاقة ، ولم يكن من الضرورى أن يعتبر مصر بلده الأصلي ، بل على العكس قد يشير إلى العاصمة الإمبراطورية أو لولاية أخرى كبلد أصلى له ، فكل ما كان يحتاج إليه هو أن يجعل مصر قاعدة لعملياته ، وقد نفّذت بالفعل مجموعة كبيرة ومتنوعة من البشر هذا النوع من الإقامة Localization فى مصر ، كان منهم مسئولون عثمانيون وجنود ومرتزقة افتتحو محلات تجارية فى أسواق القاهرة واشتروا لأنفسهم ممالك ، ولدينا سبب للاعتقاد بأن عددا كبيرا أسس زمرا شبيهة بما وصفناه أو التحقوا بها (كانوا أعضاء فيها) .

فقد كان تكوين الزمر القابلة للنمو - أكثر من النضال للحصول على الممالك - هو الدافع الأساسى الذى دفع النبلاء فى مصر بدورهم لإتاحة الفرصة لهم لفهم أن تكوين الزمرة أصبح أكثر أهمية من ثراء الممالك ، ولم تكن أى زمرة لتقدر على البقاء دون أن يكون لها مصدر دخل ثابت نسبيا ، فعلى سبيل المثال لاحظ المؤرخون أن البكوات كانوا - على نحو نمطى - يستمدون دخولهم من الضرائب الزراعية (الالتزام) بينما ضباط الأوجاقات يعتمدون على الضرائب

المفروضة فى المدن (الالتزام الحضرى Urban tax Farms) كالجمارك ، واستمر هذا حتى بواكير القرن الثامن عشر ، عندما بدأ الضباط يحصلون على الالتزام الزراعى^(٢٢) rural tax Farms ، وكانت الإستراتيجيات الاقتصادية للزمرة فيما عدا هاتين الإستراتيجيتين الآنف ذكرهما (الالتزام الزراعى أو الحضرى) لا توضع فى الاعتبار ، وجمعت زمرة القازدغلية جانبا من ثروتها من التجارة فى البن من المخا - الميناء اليمنى - عبر المدينتين المقدستين - مكة والمدنية - ومن ثم إلى مصر ، وأثناء التطور الباكر لهذه الزمرة (القازدغلية) بدا أن قيادتها وتحالفاتها اعتمدت جزئيا على السيطرة على العوائد من هذه التجارة والمشاركة فيها ، وكان انهيار أسعار البن اليمنى نحو منتصف القرن الثامن عشر ؛ بسبب تدفق البن من المستعمرات الفرنسية فى الكاريبى ورخص أسعاره - سببا فى قرار زمرة القازدغلية لاقتحام مجال البكرية^(٢٣).

وعلى النحو نفسه كانت الزمرة هى التى تصوغ الملامح الأساسية لحياة النخبة (التى لم تحظ بدراسة متأنية) خاصة ما يتعلق بالزواج ومواضع الإقامة (المقر) ، فروابط الزواج التى ربطت زمرتين أو تشرّبت (استوعبت) الأتباع الذين لا جنود لهم (المقصود غير الأقوياء) ، كانت هى الإستراتيجية المفسّرة (المفتاح) لأى رأس (زعيم) زمرة ، فعن طريق هذه الزيجات يزداد عدد أعضاء الزمرة ، كما أن هذه الزيجات تصوغ التحالفات السياسية ، وتتيح للزمرة موارد جديدة للثروة ، وأكثر من هذا فعن طريق الزواج تشارك زوجات الزعيم ومحظياته وأخواته وبناته فى النفوذ وتشارك فى ثروة الزمرة^(٢٤).

وربما كان أكثر ملمح من ملامح الزمرة وضوحا هو البيت house أو مبنى آخر يكون مكانا للتجمع ومعقلا للسلطة (القوة) السياسية ، وعادة ما كان الضباط من نوى الرتب العليا والبكوات ، والمسؤولون العثمانيون يجمعون حاشيتهم ويطانتهم بمن فى ذلك زوجاتهم ومحظياتهم فى مقرّات تأخذ شكل البلاط ، وغالبا ما كانت مساكن النبلاء المتحالفين تتجمع (تتخذ شكل عنقود) فى مساكن متجاورة ، وعلى سبيل المثال فبحلول منتصف القرن الثامن عشر كان الشاطئ الجنوبى لبركة الأزبكية فى غرب القاهرة تسود فيه مساكن القازدغلية وحلفاؤهم^(٢٥) ، وفى أواخر القرن الثامن عشر حلت مساكن رؤوس القازدغلية محل الديوان (مجلس الوالى) فى القلعة ،

كمحور للسلطة السياسية^(٢٦) ، وعلى أية حال ففي أوقات الاضطرابات السياسية كان يمكن لزعيم الزمرة استخدام المقر the house كحصن يواجه منه أعداءه ، أو يختبئ فيه طلبا للنجاة منهم ، أو إخفاء الثروة إن كان لابد من الفرار^(٢٧) .

أما الأكثر صعوبة في تعريفه وتحديدده فهو الزمر الأصغر (الأقل عددا) والأقل ثروة ، ونعني بها تلك الزمرة التي يكونها الضباط الأقل رتبة أو المسئولون الأقل درجة ، وهي الزمر التي تلتحم في ثكنات قلعة القاهرة أو في بيوت (مقرات) أصغر نسبيا ، ويمكن للمرء أن يحدث أن هذه الزمر الصغيرة كانت - إلى حد ما - أقل تنظيما من البيوتات الكبيرة (رغم استخدام كلمة homes هنا إلا أن المعنى أقرب ما يكون للزمرة الصغيرة) فما دام كثيرون من العساكر (الجنود) لديهم محلات تجارية أو حتى مساكن داخل أسواق القاهرة أو بالقرب منها^(٢٨) وبالتالي لم يكونوا يميلون إلى التجمع بشكل نظامي في مكان مركزي إذا لم يكن تجمعهم لازما للقيام بتجريدة عسكرية أو لاستلام رواتبهم ، لقد كان المركز الأساسي لزمرة الضابط ذي الرتبة الأدنى عادة هو حجرة داخل الثكنات العسكرية (أوده Oda) حيث يكون قائد الثكنة بمثابة سرّة أو قطب يتحلق حوله أتباعه ، وبحلول القرن الثامن عشر كان قائدو الثكنات أو الأودا باشى odabasis من بين رؤساء الزمر العديدين بين الإنكشارية والعزبان^(٢٩) ، وكانت الزوجات والبنات أعضاء في هذه الزمر لكن بشكل عرضي جدا ؛ ذلك أن ميدان تنافسهن الرئيسي هو بيوت أزواجهن أو آبائهن نوى المكانة .

وظلت أسس (قواعد) الزمر في الممتلكات المشتركة والاشتراك في التجارة وتحالفات الزواج غير مكتشفة حقيقة فيما يتعلق بمصر في عهد العثمانيين^(٣٠) ، مع أن هذه القضايا تُعد أساسية لفهم تكوين الزمرة ، إنها تقدم لنا مساعدة في الغاية من الأهمية لفهم إستراتيجيات تكوين الزمر ، ولتحديد كل زمرة لمداها ، هذه الاعتبارات توسّع مجال الزمرة فيما وراء التجمعات السكنية الكبيرة المملوءة بالمماليك وبالتالي فهي أكثر شمولاً ، وأكثر صدقا في الدلالة على إعادة بناء الزمر العسكرية في مصر في العهد العثماني . إن الالتفات إلى مثل هذه المسائل يقدم لنا مفتاحا لطبيعة التجمعات في الثكنات ، فإذا أمكننا بسهولة الإطّلال على المجرى الرئيسي للتاريخ المؤسس أدركنا ضرورة هذا لتقييم المجتمع العسكري في مصر العثمانية ،

لقد كانت هذه الزُمر الأقل هي اللبنة التي يتكون منها المجتمع المصري ، ففي مثل هذه المجموعات التي تكونت في الثكنات كانت بدايات القازدغلية الذين حكموا Controlled مصر معظم القرن الثامن عشر حتى الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ .

ولنعطى ثقلاً حقيقياً لمثل هذه الإستراتيجيات المختلفة للزمر ، وبالتالي لنفهم على نحو ما الرابطة بين تجمعات الثكنات (زمر الثكنات barrack Conglomerates) والزمر المتكوّنة في مقار إقامة زعماء الزمر (وحولها لابد أن نأخذ بتعريف أكثر شمولاً للزمرة العسكرية military household التي لم تكن تحتذى بشكل صارم النموذج الذي كان سائداً أيام السلطنة المملوكية ، وإنما كانت تركز على الحاشية العسكرية mill- tary entourage كأداة للتأقلم الثقافي والحراك الاجتماعي ، إننا بتناولنا هذه الوظائف للزُمر على مدى واسع بدءاً من التجمعات المرنة إلى تجمعات الزمر العنقودية التكوينية الراسخة في مقر إقامة - يمكننا أن نتجاوز حدود ومفاهيم المصطلحات المملوكية (التقليدية) لنصل إلى نظرة أكثر دقة للمجتمع العسكري الذي جرت العادة على وضعه تحت عنوان (المجتمع المملوكي) ، وفي الوقت نفسه نستطيع أن نضع المجتمع العسكري في مصر العثمانية في سياقه العثماني بإعادة صياغته كتيارين إقليميين قائم على ثقافة النخبة القائمة بدورها على الزمرة ، والتي وجدت في كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، والتي جعلت ولايات الإمبراطورية متكاملة مع المركز الإمبراطوري .

هذا ما أمل تحقيقه في هذه الدراسة ، فالزُمرة - واضعين في اعتبارنا تباين تكويناتها ووظائفها - هي الإطار الذي أنوى تطبيقه على المجتمع العسكري في مصر العثمانية ، وتستخدم الفصول التالية عملية تطور الزُمر ونشوتها ، وانحلالها ، كعدسات Lens ننظر من خلالها للتغيرات الحادثة خلال هذا المجتمع منذ منتصف القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر عندما انتقل المجتمع العسكري المصري من مجتمع يسوده ضباط الفرق regimental officers إلى مجتمع يكاد يتفرد بحكمه البكوات المماليك ، إن هذه العملية مُتضمنة تماماً في الزمرة القازدغلية التي كانت هي نفسها قد مارست انتقالاً من زمرة نشأت في الثكنات يقودها ضابط إلى زمرة كاملة (نابتة الريش) على رأسها مماليك مُعتقون (محررين) وأعضاؤها مماليك محررين .

ملاحظة عن المصادر :

إن اتّسام الكتابات التاريخية التي تتناول مصر في العهد العثماني بالإرباك راجع إلى اعتمادها بشكل غير متجانس على مصادر راجعة إلى آخر القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر ، خاصة حوليات عبد الرحمن الجبرتي المتعددة الأجزاء المعروفة باسم « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » والتي ألفها في بواكير القرن التاسع عشر ، وربما كان من الطبيعي أن يعتمد على مصادر تعود لتلك الفترة باحثون مثل دانييل كريسييليوس Daniel Crecelius وجبريل بيتربيرج Gabriel Piterberg ؛ إذ أن اهتمامهم هو شرح الأحوال في أواخر القرن الثامن عشر ، بل وحتى ديفد آيلون David Ayalon يُقيم دراسته عن المؤسسات المملوكية الجديدة Neo Mamluk - - بشكل كامل - على ما أورده الجبرتي ، بينما ميكل ونتر Winter يحسم قضاياه بالرجوع لمصادر سابقة على الجبرتي ، ويورد في الوقت نفسه أمثلة من الجبرتي ، أما بيتربيرج Piterberg فهو - بالإضافة لذلك - يستخدم روايات غير دقيقة لمعاصر الجبرتي - الشاعر إسماعيل الخشاب (٣١) .

وحوليات الجبرتي فيها ميزات ، فهي واضحة وبليغة وتم نشرها في عدة طبقات ، وأكثر من هذا فبالنسبة للأحداث التي تلت صعود الكخيا إبراهيم القازدغلي يمكن التعويل على حوليات الجبرتي ، وهي - أي حوليات الجبرتي - بالفعل المصدر الروائي العربي الوحيد والجاد المتاح لنا فيما يتعلق بهذه الفترة ، ومن المعروف الآن أن الجبرتي استعار كثيرا من مادته المتعلقة بفترة زمنية أسبق من أحمد جلبي (شلبي) ومن حوليات أخرى (٣٢) ، والذي لا يوضع في الاعتبار كثيرا هو أنه بحلول الوقت الذي كتب فيه الجبرتي حولياته ، كانت جوانب بواكير القرن الثامن عشر وما قبل ذلك بطبيعة الحال ، قد اختلطت بالفعل بالخرافات وبما هو غير حقيقي . فحكايات البكوات الكبار والضباط ذوي الرتب العليا من الفقارية والقاسمية قبل حلول السيطرة القازدغلية - كانت قد أصبحت جزءا من المعارف الشعبية التي يتذكرها الناس بشكل غامض ومبهم ، وقد تناول الجبرتي موضوعه بشكل أنجح بكثير مما فعل الخشاب الذي قدم لنا رواية مشوّهة لهذه الأعوام الباكورة ، فعندما وصف الخشاب على سبيل المثال أصول زمرة القازدغلية ، كان من الواضح أنه لم يكن على وعى كامل بمؤسس الزمرة الكخيا مصطفى ، فقد ذكر أن القائدين الأولين هما الكخيا مصطفى

ومملوكه الكخيا إبراهيم ، وأكثر من هذا فقد بدا غير واع تماما بالترتيب النظامي لرتب الأوجاقات فلم يذكر أى رتبة دون الكخيا رغم الحقيقة التى مؤداها أن معظم زعماء الزمرة قد جمعوا سلطانهم (نفوذهم) وهم فى الرتب الأدنى درجة ، وبشكل عام فإن الخشاب كان يميل لاستخدام مصطلح (مملوك) كنوع من السلال Catch all يضع فيها كل نبلاء مصر العسكريين ، كما كان يستخدم المصطلح نفسه بحرية ليطلقه على النبلاء فى مراحل سابقة ممن قد لا يكونوا ممالك بالمعنى الحرفى للكلمة^(٣٣) ، إن الأثر النهائى هو صبغ صعود البكرية من أصول مملوكية فى أواخر القرن الثامن عشر برنين تاريخى a historical resonance قد لا يكون له وجود ، وإعطاء انطباع أن الممالك كانوا أكثر انتشارا فى القرن السابع عشر وبواكير القرن الثامن عشر فى المجتمع العسكرى المصرى ، مما قد يكون فى الحقيقة أمرا واقعا .

إن طبيعة هذه الفترة الوسطى للحكم العثمانى فى مصر يمكن - وهذا طبيعى - تمثّلها بشكل أكثر صدقا فى مصادر تم تأليفها فى هذه الفترة نفسها ، إن مدى الحوليات من هذه الفترة والمتاحة لمؤرخ مصر العثمانية أصبحت مؤخرا محل اهتمام^(٣٤) ، وبشكل عام فإن هذه الحوليات تمخضت عن مدرستين تاريخيتين مختلفتين : المدرسة الأكثر انتشارا هى المدرسة البيروقراطية التى أفرزت روايات تاريخية مرتبطة ارتباطا شديدا بتتابع الحكام وهى تراعى مراعاة شديدة تتابع الأحداث^(٣٥) ، وتنتمى حوليات الجبرتي (عجائب الآثار ...) بالإضافة لأربع حوليات أخرى استخدمتها فى الدراسة التى بين يدي القارئ لهذه المدرسة ، وقد تم تأليف هذه الحوليات الأربع فى القرن الثامن عشر وبالتالي فهى مرتبطة نسبيا بالأحداث التى يهتم بها هذا الكتاب ، وحوليتان من هذه الحوليات الأربع مكتوبتان باللغة العربية ، إحداهما : مجهولة المؤلف بعنوان (أخبار النواب) والثانية : كتبها أحمد جلبى (شلبى) بعنوان (أوده إشارات Awdah Isharat) وهناك حوليتان باللغة التركية : تاريخ مصر Tarih-i Misir لعبد الكريم بن عبد الرحمن ، وتاريخى مصرى القاهرة (تاريخ مصر القاهرة) لمحمد بن يوسف الحلاق^(٣٦) .

والطائفة الثانية من المراجع الروائية هى التى وصفها الجبرتي نفسه باعتبار كاتبها من العسكر العاديين Common Soldiers ، ففي المقام الأول تأتى مجموعة من الحوليات مكتوبة باللغة العربية تعرف باسم شامل هو « مجموعة الدمرداش » وتتكون

من ثلاثة تواريخ تم تأليفها في بواكير القرن الثامن عشر^(٣٧)، وهذه التواريخ الثلاثة كلها مرتبطة بكخيا فرقة (أوجاق) العزبان Azeban ، ومن هنا كانت الصفة « عسكرى » أو جندى Soldier ، وعلى أية حال فهذه الصفة « عسكرى » صفة مضللة ؛ لأن هذه الأعمال (التواريخ) هي في حد ذاتها روايات وأخبار منقحة مصقولة تعرض لنا وعيا بيروقراطيا عاليا لكاتبها ، وعلى أية حال فقد كان هناك وعي بيروقراطى للفرق regiments في مواجهة وعي الإدارة المالية ، ومن هنا فإن مؤلفي هذه التواريخ الآنف ذكرها كانوا متوافقين مع الطقوس العسكرية ومع تفاصيل الإجراءات العسكرية (بما في ذلك المعارك الحربية) ، وقد استخدمت مجموعة التواريخ الثلاثة الأخيرة منسوبة - نسبة غير حقيقة - إلى أحمد الدمرداش ، وهي بعنوان (الدرّة المصانة في أخبار الكنانة)^(٣٨) .

والمقابلة المفيدة لهذه التواريخ المحلية تتمثل في التواريخ الإمبراطورية التي ألفها مؤرخو البلاط العثماني الرسميون (S. Vak'anüvis) ، وعدد من هذه التواريخ الإمبراطورية الرسمية تضمّنّها كتاب الإمبراطورية العثمانية ذو الأجزاء المتعددة والذي كتبه المستشرق النمساوى جوزيف فون همر - بوجستال^(٣٩) Jo-sef Von Hammer - Purgstall وهذه التواريخ الشاملة لا تركز على المنطقة موضوع الدراسة كتركيز التواريخ المحلية ، إلا أن مؤرخي البلاط كانوا غالبا ما يلقون الضوء على الظروف المحلية بوصفها في سياقها من التاريخ العام للإمبراطورية ؛ إذ كان يمكنهم كشف سر الحكايات الطويلة والخرافات التي يوظفها مؤرخو الولايات (المؤرخون المحليون) ، وكان مما يحقق الغرض نفسه غالبا وصف الزوار القادمين من إستانبول لمصر سواء في مهام رسمية أو غير رسمية ، ومن الأمثلة على ذلك تلك الأقسام التي تتناول مصر من خلال رحلات رحالة القرن السابع عشر الشهير إيقليا شلبى (جلبى) Evliya Celebi والتاريخ الذى كتبه الباحث صمدانى زاده سليمان أفندى Semdani Zade Flndikhih Süleyman الذى عاش في القرن الثامن عشر^(٤٠) ، وقدم لنا مثل هذا المنظور العريض نفسه الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر ، وربما كان أكثرهم أهمية في هذه الفترة الرحالة اللاهوتى البريطانى ريتشارد بوكوك R. Pococke الذى كان حاضرا في مصر والكخيا إبراهيم القازدغلى في ذروة سلطته^(٤١) ، وكان ريتشارد في الحقيقة ضيفا على عثمان بك ذى الفقار المنافس الرئيس للكخيا إبراهيم ،

وكان وصف روكوك للكوادر العسكرية في مصر دقيقا ، وقد تناول هذه الكوادر قبيل التحول من سيادة الفرق Regimental Preponderance إلى سيادة البكرية ، وفي هذا الصدد فإن رحلته قد تستخدم لإصلاح المفاهيم الخاطئة التي قال بها من كتبوا عن أواخر القرن الثامن عشر قبل الرحالة الفرنسي قولني Volney .

وراء المراجع الروائية نجد عالم الوثائق الرحب الذي لا قرار له ، وبالنسبة لهذا الكتاب حاولت اكتشاف الوثائق التي تشير إلى علاقة مصر بالعاصمة الإمبراطورية لكونها تتيح فهما أعمق لمؤسسات مصر العثمانية ، وللسياق العثماني للأحداث المحلية التي تناولتها التواريخ المحلية بتفصيل شديد ، وكانت مجموعة الدفاتر المهمة (مهمى دفترى) التي تسجل أوامر السلطان للولاة وغيره من المسؤولين العثمانيين في الولايات هي أهم المصادر الأرشيفية ، وهذه الدفاتر الوثائقية محفوظة في الأرشيف العثماني في إستانبول Başbakanlık Osmanlı Arşivi ، وكانت الأوامر النمطية الصادرة من السلطان تُوجّه للوالى أو للوالى بالإضافة إلى المسؤولين البكوات الرئيسية (عادة أمير الحج ، ومسئول الخزانة) والضباط ، وفي حالات نادرة كان يُفرد النبلاء المؤثرين بالخطاب ، وبالنسبة للقرن الثامن عشر هناك مجموعة من الدفاتر (مجموعات الوثائق) خاصة بمصر تحت عنوان « دفاتر مهمة - مصر » ، وعلى أية حال فلكى نبحت الحوادث السابقة على القرن الثامن عشر لم يكن أمامنا خيار سوى متابعة مجموعات الوثائق الهامة (مهمى دفترى)^(٤٢) ، وعلى أية حال فقد أثمر الجهد نتائج مفيدة ، فعلى سبيل المثال وجدنا معلومات كثيرة في هذه الدفاتر عن الأحوال التي سادت خلال القرن السابع عشر في منطقة غرب الأناضول حيث ترجع أصول زعماء القازدغلية .

أما الزعيم الخصي الأسود الذى تناولنا نفوذه في الزمر العسكرية المصرية في الفصل الثامن فيفتح لنا جبهة أرشيفية جديدة تماما ، ومعظم مادتي المتعلقة بهذه الشخصية الماكرة استقيتها من أرشيفات قصر طوبقابي Topkapı ، وتحوى هذه الأرشيفات خليطا هائلا من الوثائق تضم ما يتعلق بزعيم الخصيان السود وغيره من خصيان (طواشية) القصر المخزون ، ووثائق وقف ، وتوجيهات سلطانية ، وسجلات المداخل والمصروفات ، بل وحتى نسخ من أحكام المحاكم الشرعية في القاهرة ، وبهذه الأرشيفات أيضا عدد من الوثائق متعلقة بالنبلاء المصريين .

ويقدم لنا أرشيف Basbakanlik وثائق أكثر تركيزا على الإحصاءات في شكل سجلات مالية ، وهذه الوثائق تقع في أنواع « فئات » ثلاثة : على سبيل المثال ، حيازة الأرض ، والأجور والرواتب ، والمداخيل والمصروفات الخاصة بالمؤسسات المختلفة ، وقد بحثت في نوعين من الوثائق في مجموعة وثائق Maliyeden Müdevver النوع الأول هو « مقاطعة دفترى » يضم العوائد التفصيلية المتوقعة من التزام القرى village tax farm (المفرد : مقاطعة) في كل أنحاء مصر خلال سنى العشرين من القرن الثامن عشر ، ولهذه الوثائق (الدفاتر) أهمية طبوغرافية كبيرة بالإضافة لأهميتها المالية مادامت « الروايات » الطبوغرافية عن نهاية عصر السلطنة المملوكية كانت مُفتقدة في مصر العثمانية ، ولكن هذا السجل (الدفتر) ذو أهمية خاصة لهذه الدراسة ؛ لأنه يقدم لنا أسماء وألقاب الملتزمين (جامعى الضرائب من الفلاحين Tax farmers) وبالتالي يبين لنا مدى انتشار ضباط الفرق كملتزمين rural tax farmers بحلول العشرينات من القرن الثامن عشر .

وأخيرا فإن مجموعة وثائق Maliyeden Müdevver تضم دفاتر كثيرة للرواتب العسكرية لكل الفرق (الأوجاقات) السبع في مصر ، وهذه السجلات (الدفاتر) تعد مصدرا وحيدا لتكوين هذه الفرق ، وما بداخلها من زمر عسكرية military entourages ، وقد تفحصت اثنين من هذه السجلات (الدفاتر) بالتفصيل : سجل (دفتر) منها يتناول فترة قريبة من بداية الفترة التي أتناولها في كتابى هذا ، وسجل (دفتر) فى حوالى آخرها .

الهوامش

(١) انظر على سبيل المثال

Holt, " Beylicate " 218, 225; Holt, Egypt on the Fertile Crescent, pp.73,85, 90-92. Michael winter " Turks, Arabs Mamluks in the Army of Ottoman Egypt " WZKM, 72 (1980), 90-100; Shaw, Financial & Administrative organization ,pp.37, 63, 194; Crecelius, Roots of Modern Egypt, pp.,30-1 André Raymond. " Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire au xvii^e Siècle " JESHO 6 (1963) 58 - 103, Gabriel Pillierberg, " The Formation of an Ottoman Egyptian Elite in the 18th Century. IJMES 12 (1990) 280.

(2) David Ayalon, " Studies in al-Jabarti I: Notes on Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans " part 2, JESHO 3 (1960) 290-9. Ayalon's most significant Finding is that the "Open house" (البيت المفتوح) of the Ottoman Era had no Parallel in the Mamluke Sultanate (p. 297).

ليس لنظام البيت المفتوح العثماني نظير في السلطنة المملوكية .

(3) Leslie P. Peirce, The imperial Harem : Women a Sovereignty in the Ottoman Empire (N.Y & Oxford , 1933) ; Gülru Necipoglu- Kafadar, Architecture, Ceremonial, & power. The Topkapi Palace in the 15th & 16 the Centuries (N.Y., 1991).

(4) I.H. Uzunçarşih, Osmanlı Devletinin Saray Teşkilatı (Ankara , 1945), especially pp. 432-39, 465-87; Uzunçarşih, Osmanlı Devleti Teskilatindon Kapukulu Ocakları, 2 vols (Ankara, 1934 -1944) Vol. I, pp. 60-65, 137 -8,478 vol.II p.198 El², S.V. Bostandji " by I. H. Uzunçarşili, El², S.V. " Adjami Oghlan " by Harold Bowen .

(5) Metin Kunt, The Sultan's Servants : the transformation of Ottoman Provincial government 1550 - 1650 (N.Y., 1983) ' Rifaat A. Abou - el - Hajj , " The Ottoman Vezir and Pasha Households, 1683 -1703 : A preliminary Report " JAOs 94 (1974) 438 - 47 .

(6) Uzunçarşih, Kapulu Ocakları , vol. 1, pp. 167 - 71 , 234 - 7, 254 - 9 .

(7) Roymond, " Essai de géographie " , Andre' Raymond, " Les Quartiers de Résidence de l'élite de l'époque mamelouke Ottomane (XIV - Xviii^e Siècle)

بحث مقدم لمؤتمر « الماليك في المجتمع المصري » عُقد في باد همبورج Bad. Homburg ، ألمانيا، ديسمبر ، ١٩٩٤ .

(٨) أحمد جليبي (شلبي) ، والجبرتي يشيران إلى الزمرة الكبيرة للجوايش عثمان çovus القازدغلي في هذه الحال انظر عجائب الآثار للجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٢ ، وأحمد شلبي (أوده Awdah) ص ٦٠٨

(٩) عن كجك محمد Küçük Mehmed انظر على سبيل المثال الدمرداش : الدرّة ، ص ص ١٤ ، ٢٦ ، وأحمد شلبي : أوده Audah ص ص ١٩٠ وما بعدها ، والجبرتي : عجائب الآثار ، مج ١ ، ص ص ١٢٠ وما بعدها (١٩٦٣) BSOAS 26 (1676 - 1694) . P. M. Holt " the Career of Kūchuk Muhammad " 269 - 87 .

وعن أفرانج أحمد ، انظر عبد الكريم بن عبد الرحمن : تاريخي مصر (بالتركية) ، استانبول ، مكتبة سليمان ، MS Hekimoglu Ali Paşa , 705 Fos 128r - 146v .

أحمد شلبي ، أوده ، ص ص ٢٢٩ وما بعدها ، والجبرتي : عجائب الآثار ، مج ١ ، ص ص ١٠٧ وما بعدها ،

André Raymond, " Une "Revolution au Caire sous les Mamelouks : La Crise de 1123 / 1711 " Al. 1 (1966) 95 - 120 .

(١٠) على سبيل المثال ، فإن زمري entourages زعيمى القازدغلية الأولين : الكخيا مصطفى ، والجوايش حسن Cavus كان يُطلق على كل منهما (طرف) أو (طائفة) . انظر الجبرتي : عجائب الآثار ، مج ١ ، ص ١٠٧ ، ٢٢٨ ، عبد الكريم : تاريخي مصر (Fo . 135 v) . ومن الطريف أن تجمعات مشابهة لوحظت في الجيش السوفييتي السابق في ألمانيا الشرقية ، انظر :

" Bad Blood in Germany " : The Soviet Army - Can't leave soon enough " Newsweek, November 12, 1990 , p. 42 .

(١١) عن بيت الجوايش عثمان القازدغلي ، انظر الجبرتي : عجائب الآثار ، مج ٢ ، ص ٤٨

Doris Behrens - Abouseif, Azbakiyya and its Environs ; From Azbak to Ismail, 1476 - 1879 (Cairo , 1985) pp. 55 - 62' Raymond, " Éssai de géographie " 74 .

(١٢) انظر على سبيل المثال ، الجبرتي : عجائب الآثار ، مج ٢ ، ص ٩٠ (الجمع : أتباع ؛ لكن يتم استخدام توابع في بعض الأحيان) .

(13) Piterberg, "Formation of an Ottoman Egyptian Elite" 279 ,Aylon."Studies in al - Jabarti" part 2, 279 - 83.

(١٤) عن " Studies in al - Jabarti " Aylon Part 2, 279

(١٥) إيفيليا جليبي (شلبي) :

Evliya Çelebi Seyahat namesi , 10 vols (Istanbul , 1888 - 1938) vol. VII, p. 722,

(١٦) درست بالتفصيل سجلين من هذه السجلات :

Istanbul , Başbakanlık Osmanlı Arşivi, Maliyeden Müdevver 4787 (1086 - 8) and 7069 (1150) .

ولزيد من التفاصيل عن محتوى هذه الوثائق انظر الفصل الثالث من كتابنا هذا ، ص ص ٢٧-٤٦

(17) Istanbul, Başbakanlık Osmanlı Arşivi, Mühimme - Misir, vol .V, No 18 , dated 1146 (1733) .

(18) Abau - el - Hajj , " Vezir & Paşa Households" P. 441.

(19) Kunt, The Sultans' Sevvants

خاصة الفصل الخامس والخاتمة، وانظر أيضا :

Abau - el - Hajj " Vezir & Paşa Households " 446 - n . 37 .

(٢٠) ظل نقيب الأشراف يتم تعيينه من استانبول حتى القرن الثامن عشر ، عندما راحت أسرة البكرية في احتكار هذا المنصب .

(٢١) انظر :

jane Hathaway " The Role of the Kizlar Ağasi in Seventeenth- Eighteenth Century Ottoman Egypt " SI 75 (1992) , 141 - 58 .

(٢٢) انظر على سبيل المثال :

Shaw, Financial & administrative Organization , pp. 28 - 36 , , 102 - 133 ' André Raymond , Artisans et Commerçants au Caire au xxiie siècle , 2 vols . (Damascus , 1973 - 4) vol , II, pp. 612 - 57 , 710 - 26, 772 - 5

(٢٣) انظر الفصل السابع ، ص ص ١٣٤ - ١٣٧ .

(٢٤) انظر الفصل السادس ، وأيضا :

Jane Hathaway, " Marriage Aliances among the Military Households of Ottoman Egypt " Al 29 (1995) , 133 - 49.

(25) Raymond . " Essai de géographie " 37 ff; Behrens - Abouseif , Azbakiyya and its Environs , pp. 94ff.

(٢٦) انظر على سبيل المثال ، الجبرتي : عجائب الآثار ، مج ٤ ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(27) Hathaway " Marriage Alliances" : 18 ff .

(28) André Raymonde , " Soldiers in Trade : the Case of Ottoman Cairo". British society for Middle East Studies Bulletin 18 (1991) 21 ff .

(٢٩) انظر الفصل الثالث ، ص ص ٤١ - ٤٢ .

(٣٠) لدراسة الظاهرة في أوروبا في العصور الوسطى انظر :

Carol Lansing , The Florentine Magnates :

Lineage and Faction in a Medieval Commune (Princeton, 1991)

خاصة الفصول من الثاني إلى الخامس - في " Soldiers in Trade " التي اقتبسناها آنفا ، قام André Raymond بداسة فائقة الوراثة .

(٣١) إسماعيل الخشاب ، تذكرة لأهل البصائر والأبصار مع وجه الاختصار ، باريس ، المكتبة الوطنية ، مخطوطات عربية ، ١٨٥٨ .

(32) P.M. Holt "Ottoman Egypt (1517 - 1793) : An Account of Arabic historical Sources" in P.M. Holt (ed .) , Political and Social Change in Modern Egypt (London, 1968) .

Danial Crecelius " Ahmad Shalabi ibn "Abd Al - Ghani and Ahmad Kakkhudao "Azaban Al - Damurdashi :

Two Sources for Al - Jabarti's Aja " ib al ather " in Daniel Crecelius (ed.) Eighteenth Century Egypt : The Arabic Manuscript Sources (Claremont , CA 1990)

واستعار الجبرتي أيضا على نطاق واسع من حوليات الدمرداش التي ناقشناها فيما بعد .
(٢٣) رغم أن جبريل بيترييرج Piterberg كان واعيا بعدم دقة الخشّاب إلا أنه قَبِلَ قوله أن الكخيا إبراهيم القازدغلي كان مملوكا (انظر : 281 Piterberg " Formation of an Ottoman Egyptian Elite " and n . 32.

وهذا الانطباع عن الكخيا إبراهيم يجد صداه في رواية الرحالة الفرنسي فولني Volney الذي يصور الكخيا إبراهيم الذي لم يطلق عليه أبدا لقب القازدغلي الذي لا أصل له ، والذي تسبب في « ثورة » أعادت الممالك للسلطة ، وكان فولني مقتنعا أن إبراهيم نفسه مملوك . انظر :

Volney (Constantine - François Chasseboeuf) Travels throught Syria & Egypt in the years 1783 , 1784 & 1785 . Trans. from the french, 2 vols (London, 1805) vol. 1 pp. 90, 104 - 5, 152 .

(٢٤) تبقى معالجة هولت معالجة موثقة

Holt, " Ottoman Egypt " ; P.M. Holt, " al - Jabarti's introduction to the history of Ottoman Egypt " BSOAS 25 (1962) , 38 - 51 , Stanford Show " Turkish source - materials for Egyptian history " in P.M. Holt (ed .) , Politibs & Social Change in Modern Egypt (London, 1968) .

هناك مجموعة جديدة من المقالات التاريخية عن مصر في القرن الثامن عشر جمعها Crecelius (٢٥) عن الدراسة المفصلة ، انظر .

Jane Hathaway " Sultans , Pashas, Taqwims & Mühimmes : A Reconsiderations of Chronicle - Wrighting in 18 th Century Ottoman Egypt " in Crecelius (ed) Eighteenth Century Egypt .

(٣٦) لمؤلف مجهول : أخبار النُواب من بولة آل عثمان من حين استولى السلطان سليم خان عليها (إلى ١٧١٦/١١٢٨) إستانبول ، مكتبة طويقابي (مخطوطات Ms Hazine 1623) أحمد شلبي بن عبد الغني ، أودا إشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (إلى ١٧٣٧/١١٥٠) نشرة عبد الرحمن عبد الرحيم . القاهرة ١٩٧٨ . عبد الكريم بن عبد الرحمن ، تاريخ مصر (بالتركية) (إلى ١٧١٦/١١٢٨) إستانبول ، المكتبة السليمانية ، (مخطوط Ms Hekimoglu Ali pasha 705) محمد بن يوسف حلاق - تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) (إلى ١٧١٥/١١٢٧) ، مكتبة جامعة استانبول (T. y . 628)

(37) Al - Jabarti is quoted in Holt " al Jabarti's introduction " 39

الحوليات التي نحن بصددتها هي :

- مصطفى بن إبراهيم المدّاح القنالى Al - Qinali مجموع لطيف يشتمل على وقائع مصر القاهرة (إلى ١٧٣٩)

- مؤلف مجهول : كتاب مجموع الدرّة المصونة في وقائع الكنانة (إلى ١٧٥٤ - ١٧٥٥)

- أحمد الدمرداش : الدرّة المصونة في أخبار الكنانة (إلى ١١٦٩ / ١٧٥٥ - ١٧٥٦) .

لمعرفة الوصف الكامل لهذه الحوليات انظر :

Holt, " Ottoman Egypt" And Holt " The Career of Kuchuk Muhammad " , 269 - 87

توجد حولية المدّاح القنالى al - Qinali تحت عنوان « تاريخ وقائع مصر القاهرة ، كنانة اسمه تعالى - في أرضه - موجود في دار الكتب المصرية / مخطوطات / ميكروفيلم رقم ٢٧٩٧٠

(٢٨) هذا اسم واحد من الكخيات من كتائب العزّاب وقت كتابة الحولية . من غير الواضح ما إذا كان الكخيا نفسه أو أحد أتباعه هو كاتب الحولية ، ويزعم القنالى أنه « تابع » المتوفى حسن أغا الدمرداش العزّابى .

(39) Josef Von Hammér - Purgstall, Geschichte des osmanischen Reiches, 10 vols (Pest, 1827 - 35)

الترجمة الفرنسية في ٨٠ مجلد ، ويوجد أيضا تحت عنوان :

Histoire de L'empire Ottoman (Paris, 1835 - 43) .

والـ Vak' anūvises الذى تعرض له Von Hammer هو بالنسبة للفترة التى نتحدث عنها فى كتابنا هذا : محمد رشيد . وكشك شلبى زاده Kūçukçelebizade ,

إسماعيل عاصم (١٧٧٢ - ٨) ، ومحمد صبحى (١٧٢٠ - ١٧٤٣)

وسليمان عزّى (١٧٤٤ - ١٧٥١) وأحمد واصف (١٥٧٢ - ١٧٧٤) .

وعن هؤلاء المؤرخين انظر :

Franz Babinger , Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke (Leipzig, 1927) pp. 268 - 70 , 293 - 9, 287 - 8 , 335 - 7.

وكان فون همر Von Hammer مدركا بما فيه الكفاية أهمية استخدام الحوليات التركية التى تتناول الولايات مثل : الحلاق (الذى يسميه Sohnes Jusufs) ، عندما تقدم هذه الحوليات رواية مفصلة للحوادث .

(٤٠) إيفليا شلبى ، سياحة تامه ، مج ١٠ ، حمدانى زاده سليمان أفندى ، تاريخ صمدانى زاده ، نشره منير أكتيب Aktepe ، ٤ مج فى ٢ (استانبول ١٩٧٦) ولا بد أن يذكر المرء أيضا مصطفى على : وصف مصطفى على للقاهرة فى سنة ١٥٩٩ ، نشره وترجمة أندرياس تيتز Andreas Tietze - (قيينا ، ١٩٧٥) . ورغم أنه أُلّف قبل الفترة التى نؤرخ لها فى هذا الكتاب إلا أنه يلقي كثيرا من الضوء على مؤسسات مصر فى العهد العثمانى .

(41) Richard Pococke , Adescription of the east and some Other Countries, 2 vols (London , 1743)

وصدر له ملخص مع إضافات بعنوان :

Travels of Richard Pococke, L.L.D., F.R.S. , Through Egypt , Interspersed with Marks and Observations by Capain Norden (Philadelphia - 1803)

Mühimme

(٤٢) لمعرفة شيء عن الدفاتر المهمة

انظر :

Shaw, " Turkish Source Materials " Stanford J. Shaw," The Ottoman Archives as a source for Egyptian history " JADS 83 (1963) , 447 - 52 .

Türkiye Cûmhûriyeti Başbakanlık Devlet Arşivi Genel Müolür lügu , Baş bakanlık Osmanli Arşivi Rehberi (Ankara, 1992); Atilla Çetin, Baş bakanlık Arşivi kılavuzl (Istanbul, 1979) , Mid-hat Sertoglu, Muhteva Bakummdan Baçvekalet Arsivi (Ankara, 1955) .

الفصل الثالث

التحوّلات فى المجتمع العسكرى " المصرى " فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

والخطوة الأخيرة لإعداد المسرح لظهور زمرة القازدغلية هى تحديد الاتجاهات العامة فى المجتمع العسكرى فى مصر خلال الفترة التى وصلت فيها هذه الزمرة للشهرة . لقد انتهينا إلى أن فترة أواخر القرن السابع عشر وبواكير القرن الثامن عشر شهدت نفوذاً غير مسبوق لضباط الفرق (الأوجاقات) *regimental officers* ، حقيقة إن زعامة الزمرة قد راحت تتأرجح بين البكوات والضباط خلال القرن السابع عشر والثامن عشر ، ومعنى ذلك تأرجح النفوذ بين هاتين الطائفتين (البكوات والضباط) فى هذه الفترة المذكورة ، ورغم أن الطائفتين كانتا مرتبطتين اسمياً من خلال إمكانية ترقية الأغا إلى بك كما كان يحدث فى العاصمة (إستانبول) إلا أن هذا الترقى لم يكن أبداً راسخاً رسوخاً تاماً إلا كوسيلة لإبعاد الضباط المؤثرين (نوى النفوذ) عن مراكز نفوذهم ، فالحقيقة تفيد أنه كان هناك توتر مؤكّد بين المجموعتين (البكوات والضباط) منفصلاً تماماً عن الولاءات للزمر ، فكل مجموعة من المجموعتين (الضباط والبكوات) كان متاحاً لها مصادر مختلفة للدخل : البكوات متاح لهم الالتزام *tax farms* فى الريف ، بما فى ذلك حكم الولايات (المديریات) والنواحي وهو منصب مُربح (يُدر عائداً) ، والضباط كان متاحاً لهم الالتزام فى المدن *Urban tax farms* كالالتزام بجمارك موانئ البحر الأحمر والبحر المتوسط ، ومن الطبيعى والأمر كذلك أن تنظر كل مجموعة (البكوات والضباط) للأخرى بعين الشك فيما يتعلق بتجميع الثروة .

انتقال رؤساء الزمر من بكوات لضباط فرق

إدخال الحكومة العثمانية لفرقة المتفرقة لمصر فى النصف الثانى من القرن السادس عشر - يبدو أنه جعل البكرية فى ذروة القوة (السلطان) والنفوذ بعملها على إضفاء الطابع المحلى على ضباط المتفرقة الذين صعدوا إلى رتبة البكوية ، فبدأوا فى تجنيد أتباعهم من الفرق التى كانوا فيها سابقا^(١) . وفى حوليات مصر العثمانية التى كتبت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ بكوات بعينهم فى الظهور قُرب نهاية القرن السادس عشر ، وكان هؤلاء فى غالبهم - كما هو مسلّم به - من المتفرقة المحليين والجاويشية Cavuşan الذين أتوا إلى مصر من القصر الإمبراطورى ، ومع هذا فإنهم يبدوون كذلك مثل الأمراء الممالك السابقين الذين سُمح لهم بالبقاء فى مصر فاشترى عبيدا (ممالك) من القوقاز لإلحاقهم بزمرهم to their household ، وبحلول سنَى الثلاثين من القرن السابع عشر كتب إيفليا جلى (شلى) أنه يوجد كثير من الشركس فى مصر^(٢) .

لقد كان كل النبلاء العسكريين فى مصر ينافسون على الرياسة ، تلك الظاهرة (الرياسة) التى كان معناها الدقيق موضوعا لبعض الاستنتاجات والتخمينات ، فالرياسة كم وصفها هولت Holt تبدو شكلا غامضا (غير محدد) من السلطة ، واليك القائد أو الضابط القائد يدعى الرياسة ، وكان يُشار إلى ذلك فى الحوليات بعبارة « انتهت إليه الرياسة »^(٣) ، وكلما أدّى توازن القوى فى مصر إلى انتقالها مرة أخرى من البكرية إلى الفرق (الأوجاقات) مرة أخرى كلما تغير بالتالى القابضون على (الرياسة) ، وعلى هذا ففى بواكير القرن السابع عشر قبضت مجموعة من العسكر على « الرياسة » ، بينما شهد منتصف القرن التالى الضابط الإنكشارى الكخيا إبراهيم القازدغلى وهو يشارك فى الرياسة مع الضابط العزبانى (من فرقة العزبان) الكخيا رضوان الجلفى^(٤) Jalfi ، وفى أواخر القرن الثامن عشر أصبح « الرياسة » قصرا على البيك الزعيم القازدغلى ، ومع هذا فإن التدقيق فى الحوليات يفيد أن « الرياسة » ليست تعبيراً مجرداً وإنما هى جماع منصب الرئيس Collective headship الذى يضم الضباط من نوى الرتب العليا والعوائد المالية المتراكمة لهم ، هذه المناصب التى تكون جماع منصب الرئيس يظهر أنها تتمثل فى قادة الفرق السبع بالإضافة إلى شاغلى مناصب البكرية الأساسية : قائد الحج ، والدفتردار (مسئول الخزانة)

وأخيرا شيخ البلد أو رئيس القاهرة headman of Cairo والسبب في أن الأفراد مثني وثلاث ، يدعون انتهاء الرياسة إليهم ، ربما كان يكمن في اختلافهم في الثروة والأهمية والمنصب ، وعلى هذا فدلالة عبارة « انتهت إليه الرياسة » ربما كانت لا تعنى أن الشخص الذى تشير إليه العبارة هو وحده القابض على زمام الرياسة ، وإنما قد تعنى أنه الأغنى والأقوى (من بين آخرين) .

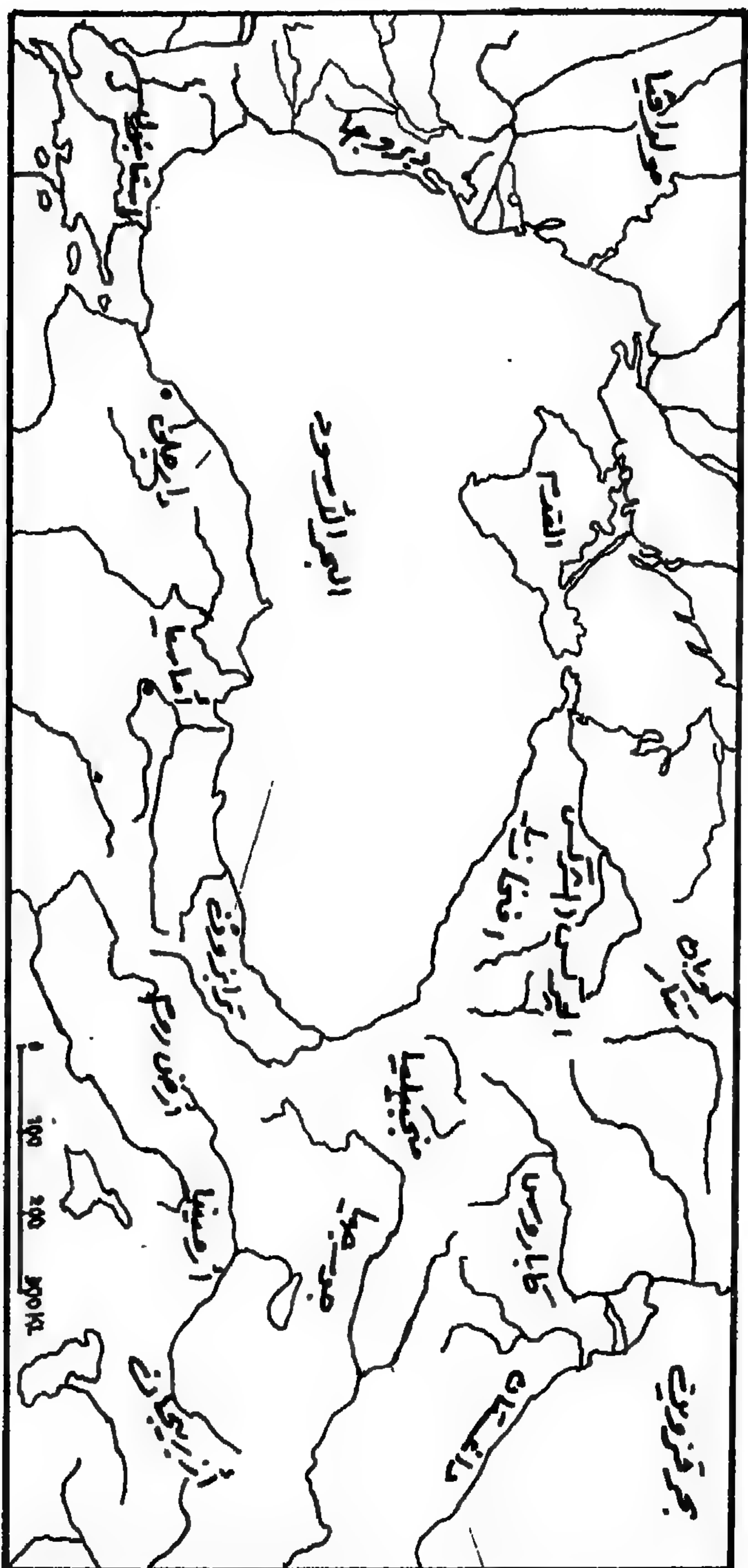
وبنهاية القرن السابع عشر بدا أن البكوات قد لعبوا دورا أكثر بروزا فى الإدارة المصرية وما صاحب ذلك من تجميع ثروات كبيرة ، وفى هذه الفترة بالتمام بدأت الحوليات تُسجل تمردات عسكرية بعد عقود من الهدوء الظاهري^(٥) ، وكان أحد أسباب التمردات العسكرية - بلا شك - هو زيادة نفوذ البكوات ؛ إذ طوّر البكوات من مصالح أتباعهم فى المتفرقة والجاويشان مما أدى إلى تضائل فرص الجنود الأقل ارتباطا بهؤلاء البكوات ، وكان أكثر من تأثر بهذا الوضع فرق الفرسان الثلاثة : الجونوليان Gönüllüyan ، (الجمليان) ، والتوفنكيان Tüfenkciyan ، والشركس Cerakise ، ورغم أن هذه الفرق كان يطلق عليها غالبا اسم فرق السيباهى ، إلا أن أفرادها لم يكونوا يتلقون مخصصات الخيالة ممثلة فى حق الانتفاع ، لكنهم كانوا يعتمدون على الرواتب الشهرية التى كانت أقل من أى رواتب يتقاضاها أفراد الفرق (الأوجاقات) الأخرى ، وكما نما الالتزام قلّت قدرة الخزانة على دفع الرواتب فى أوقات العسر ، وبالتالي عانى جنود فرق الخيالة وبلغ الأمر ذروته فى سنة ١٦٠٩ م ، عندما أعلن الجنود المتمردون من فرق الخيالة Sipahi ولاهم للإمبراطورية العثمانية وعينوا هم أنفسهم - سلطانا لهم (خاصا بهم) ، وقد قمع الوالى العثمانى التمرد بالتعاون مع البكوات ، الذين زاد نفوذهم بالتالى^(٦) .

وفى الأعوام التى أعقبت تمرد السباهية (فرق الخيالة) استعرض بكوات مصر قدرتهم على عزل أى والٍ يهدد مصالحهم ، وفى هذه المرحلة فرض الفريقان الفقارية والقاسمية نفسيهما على الحوليات التى تناولت تاريخ مصر ، وثمة عنصر عرقى فى هذا الانقسام^(٧) ، فالواقع أن أحد التفسيرات قد يكون السبب فى النزاع بين البكوات الذين أتوا من القصر الإمبراطورى فى استانبول من ناحية وأولئك الذين يعودون إلى زمرة الأفراد المماليك الذين تعاونوا مع العثمانيين أثناء الفتح العثمانى وبعده ، ورغم أن هذا الانقسام إلى فقارية وقاسمية كان أبعد مايكون عن الوضوح إلا أن الفريق

الأول (الفقارية) كان يحوى عناصر تركية وأخرى من البلقان ، أما الفريق الثانى (القاسمية) فيضم القوقازيين^(٨) كما تشير كل الشواهد .

حقيقة إن بعض التعالى العرقى الشركسى ظهر بين عناصر من فريق القاسمية خلال العقود الأولى من القرن السابع عشر ، فالقاسمى رضوان بك أبو الشوارب سمى اثنين من أبنائه « خوشقدم » ، وهى من الأسماء التى تذكرنا بأسماء سادت فى عهد السلطنة المملوكية^(٩) ، وادعى لقب رضوان بك « الكبير » ومول عملا يرجع نسبه فيه - من خلال السلطان المملوكى برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٩ هـ) لقبيلة قريش العربية التى ينتمى إليها النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وكان الهدف من هذا العمل فيما يبدو إثبات أن القاسمية هم الأولى بقيادة قافلة الحج بسبب إخلاصهم للمدينتين المقدستين^(١٠) .

وحاولت الحكومة العثمانية السيطرة على هذين الفريقين (القاسمية والفقارية) بتقسيم مناصب الحكم والإدارة بينهما ، فأبقت رئاسة قافلة الحج للفقارية والدفتردارية للقاسمية ، أما من ناحية الواقع الفعلى فإن بعض السلاطين والصدور العظام (رؤساء الوزارات) كانوا يحابون فريقا على حساب الآخر وفقا لمصالحهم ، وفى هذه الأثناء راح كل فريق يبذل قصارى جهده لشغل المناصب ، لقد كانت رئاسة قافلة الحج على نحو خاص مرغوبة لإتاحتها فرص التجارة الحجازية واليمينية ، بل والتجارة مع الهند أيضا لأن شبه الجزيرة العربية كانت محطة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط ، وبعد أن اغتصب اثنان من البكوات الشركس من القاسمية المنصبين خلال العقد الرابع من القرن السابع عشر نقل البلاط العثمانى دعمه للفقارية ممهدا المسرح لظهور الزعيم الفقارى البارز رضوان بك . لقد تولى البيك رضوان منصب قيادة قافلة الحج لحوالى ربع قرن رغم جهود السلطان مراد الرابع لإزاحته عن منصبه هذا^(١١) ، وخلال هذه الأعوام رسخ الفريق الفقارى وجعل منه قوة هائلة ، ولوازنة القوى ظهر أن العثمانيين قد طعموا الفريق القاسمى بجنود بوسنيين من العاصمة ، وتشير الحوليات التركية لأحمد بك بوشناق (Bosniak) ، وأخيه شعبان ، وابن أخيه إبراهيم بك أبو شنب باعتبارهم ينى كابى Yenî Kapi ، وهذا اللقب (ينى كابى) يكاد يشبه حى الينى كابى على ساحل مرمرية فى استانبول القريب من قصر أم سلطان^(١٢) ، وقد أتاح موت رضوان بك فى سنة ١٦٥٦ . الفرصة لأحمد بوشناق



منطقة العقول والبحر الأحمر

لتدعيم سلطان القاسمية ، وبازياد النزاع بين الفريقين اندلعت سلسلة من المعارك الدموية بينهما شملت كل أنحاء ريف مصر خلال سنة ١٦٦٠ . بلغت ذروتها بمذابح نصبها القاسمية للفقارية المهزومين ، لقد غدا البلاط العثماني بسرعة حذرا من إسفاف البكوات فسارع للتخلص من المنتصر أحمد بك بوشناق^(١٣) .

لقد أدّى هلاك عدد كبير من البكوات في سنة ١٦٦٠ ، ومحاولة الحكومة العثمانية كبح جماح من تبقى منهم بعد ذلك إلى ظهور فراغ في النخبة العسكرية في مصر حتى أن ضباط الفرق راحوا يستعدون لمثله ، وبغض النظر عن فساد البكرية فإن عددا من التطورات مكنت الضباط من الوصول إلى صدارة النخبة العسكرية في الولاية ، وقد أضاف فيض الجنود القادمين من العاصمة والمرتزقة المسرّحين في هذه الأعوام للعسكرية المصرية قوة عددية ، وقد انضم عدد كبير منهم أيضا لزُمر households الضباط . كما هو واضح من سجلات الرواتب (انظر الجدول ١/٣) .

وراح الضباط من ناحيتهم يوسعون مواردهم المالية ، وأصبحت سيطرتهم على جمارك مصر مؤدية لربح وفير بشكل غير عادي خلال القرن السابع عشر مع قدوم البن من اليمن وما نتج عن ذلك من حركة تجارية في البن عبر البحر الأحمر ، وقد شارك ضباط كثيرون تجارا من عدد من البلاد ممن يتاجرون في البن والبحار عبر البحار ، وجعل ازدهار تجارة البن الضباط يرغبون في الحصول على الالتزام في القرى المصرية التي تنتج الحبوب التي تأخذها قافلة الحج إلى الحجاز ، فرغم أن هذه الحبوب كانت موجهة أساسا لفقراء المدينتين المقدستين ، إلا أن جزءا منها كان يتم مبادلة البن به في الحجاز^(١٤) ، وكان هناك ضباط بالفعل يقبضون على التزامات قرى على نطاق محدود في العقود الأولى من القرن السابع عشر^(١٥) ، وفي حوالى نهاية القرن شجع استقدام نظام « المالكين Malikane » أى نظام حيازة الالتزام طوال الحياة أعدادا متزايدة من الضباط ليصبحوا ملتزمين للقرى ، لقد كانت القرى - نسبيا - موردا آمنا للدخل فقد كانت التزامات القرى أساس ثروة كثير من الزُمر .

واستفاد الضباط أيضا من حقيقة أن البلاط العثماني اعتبرهم محل ثقة أكثر مما كان يعتبر البكوات ، واعتبرهم أكثر انضباطا (من السهل إدارتهم) أكثر من البكوات ، لقد كانت واجبات وحيازة الضباط أكثر تحديدا ووضوحا من واجبات البيك

وحيازته ، وعلى هذا ففي النصف الأخير من القرن السابع عشر أناطت الدولة بالضباط عددا كبيرا من الواجبات على سبيل الامتياز ، لقد كان على كثيرين من هؤلاء الضباط أن يعملوا في الإشراف على الأوقاف (المفرد : وَقْف) ومؤسساته الخيرية ، لقد بدا أنه من المعتاد أن يُعين الوالى العثماني في مصر أغا الإنكشارية ناظرا لوقف أى مسجد في الولاية^(١٦) ، وكانت أوقاف الحرمين الأربعة العثمانية (الإمبراطورية) الضخمة هي الأكثر أهمية بكثير وكانت عوائدها تأتي من مختلف أنحاء الإمبراطورية وكان يشرف عليها (يتولى نظارتها) كبير الخصيان السود للحريم السلطاني^(١٧) ، وعلى أية حال فقد كان عدد كبير من القرى المصرية موقوفة على المدينتين المقدستين وتنقل غلالها إليها في موسم الحج ، ولهذا السبب كان المشرفون على البقعة the spot (موضع الوقف) ويقال لهم المتولّين mutevellis (المفرد : متول) يتم اختيارهم من بين النخبة العسكرية في مصر ، ورغم أنه لم يكن هناك تفكير في رتب هؤلاء المشرفين (المتولّين) فقد ساد البكوات في هذه المناصب الإشرافية حتى أواخر القرن السابع عشر ، وعلى أية حال فحتى هذا الوقف كان نقل الإشراف إلى ضباط بعينهم من الإنكشارية والعزبان يتم عن طريق أوامر سلطانية ، وكان الإشراف على هذه المواقع حافزا كبيرا للضباط للحصول على التزامات القرى الموقوفة على الحرمين^(١٨) .

وشهد القرن السابع أيضا تغيرا في ميزان القوى بين الفرق (الأجاوقات) السبع ، فبينما ظلت كتائب الخيالة الثلاثة هي الأدنى في الفرق ، فإن الثروة النسبية والنفوذ النسبي للفرق الأربع الأخرى قد تغيرا ، فكلما غدت النخبة العسكرية أكثر توطئا وأكثر مددا بالأفراد الذين يأتونها من العاصمة العثمانية أصبحت المتفرقة - التي كانت في وقت من الأوقات زبدة الفرق والطريق للنفوذ السلطاني - أقل أهمية وأقل عددا ، وبحلول نهاية القرن السابع عشر أصبحت الرتب التي كانت في وقت من الأوقات قصراً عليهم (على المتفرقة) لأتباع الضباط من الفرق الأخرى (انظر الجدول ١/٣) ، كما أصبحت كثير من الامتيازات التي كانت قصراً عليهم مثل : الهورد horde ؛ أى الحق في فرض ضريبة على المواكب الاحتفالية من حق كتائب الإنكشارية والعزبان التي ظهرت الآن كفرق في صدارة الساحة المصرية^(١٩) ، فدائما - الآن - كانت أكبر الفرق - وهي الإنكشارية - هي التي حلت محل المتفرقة كأكبر

الفرق ثراءً وأكثرها نفوذاً ، لقد استفادت الإنكشارية والعزبان من حقيقة أنها غير مرتبطة بديوان الوالى كما كان الحال بالنسبة للمتفرقة والجاويشان Cavuşan ، وإنما كانت تعتمد على قوتها المنفصلة فى ثكناتها فى قلعة القاهرة ، ونعم الإنكشارية أيضا بشبكة أتاح لهم نفوذا كبيرا بين الأقسام التجارية للقاهرة حيث كان كثير من الحرفيين والتجار تحت « حمايتهم » وأدى ارتباطهم بالجماهير إلى دعم دورهم فى حراسة Policing القاهرة وحفظ النظام العام ، وكان أغا الإنكشارية بحلول القرن الثامن عشر يقوم بمعظم وظائف المحتسب فى الأسواق كالتفتيش على الموازين والمقاييس ، والأخلاق العامة ، وسلوك الأقليات الدينية^(٢٠) ، وأدى إرسال جنود إنكشارية لحراسة قافلة الحج ومشاركة الإنشكارية بكثافة فى المعارك خارج مصر إلى إتاحة الفرصة لهم للقيام بارتباطات تجارية خارج مصر لم تنعم بها الفرق الأخرى ، وكاد الإنكشارية يسيطرون تماما على الجمارك وتجارة البن ، وكانت الفرقة الوحيدة التى كان يمكنها بمعنى من المعانى تحدى نفوذ الإنكشارية فى نهاية القرن السابع عشر هى فرقة العزبان التى كانت قد حلت فى هذا الوقت محل المتفرقة كثنائى أكبر فرقة فى مصر ، ونعم العزاب - كالإنكشارية - بالقوة اعتمادا على قواعدهم فى القلعة منفصلين عن ديوان الوالى ، كما أنهم أيضا أشرفوا على أحد الأوقاف السلطانية الكبيرة والعديد من الالتزامات فى القرى ، بالإضافة إلى حقهم فى الهورد horde (فرض الضرائب على المواكب الاحتفالية) ، وفى بداية القرن الثامن عشر اندلع نزاع طويل ومزير بين الإنكشارية والعزبان خرج منه الإنكشارية قوة هائلة أكثر من أى وقت مضى .

تكوين الزمر داخل الفرق العسكرية :

يظهر تكوين الزمر ملازما تلازما طبيعيا لزيادة أعداد الفرق (الأوجاقات) وزيادة أنشطتها - وتظهر المقارنة بين سجلين من سجلات الرواتب فى آخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر زيادة أعداد العساكر ممن كانوا أتباعا للضباط وغيرهم من الشخصيات البارزة ، بينما راح الضباط الأدنى رتبة - يجمعون بشكل متزايد - الأتباع الخاصين بهم ، على أية حال فقبل أن نكشف عن الأدلة التى

نستخلصها من هذين السجلين لابد من كلمة عن بنية هذه الفرق (الأوجاقات) ،
والترتيب التصاعدي (الهيداركي) فيها .

كان لكل من الفرق السبع في مصر طبيعة محدّدة كما كانت كل فرقة من هذه
الفرق تمارس دورا محددا في إدارة الولاية ، وكانت فرقتان هما : المتفرقة
والجاويشان Çavuşan - تضمنان خيالة ومشاة - قد ارتبطتا بديوان الوالى ، وكانت
المتفرقة في البداية هي الأعلى مكانة بين الفرق كلها ، وكانت (المتفرقة) تتكوّن في
الأساس من ممالك الوالى ، فإذا شغرت إحدى الرتب فيها تمّ شغلها - مباشرة -
عن طريق القصر الإمبراطورى ، وكانت المتفرقة فرقة كبيرة تماما ؛ إذ لم يكن ليفوقها
عددا سوى الإنكشارية ، وكانت فرقة الجاويشان Çavuşan أقل - بكثير - عددا ،
وأقل مكانة ، وكانت تتكون في الأساس من الممالك المهزومين (أمام قوات
السلطان سليم) والذين أعلنوا ولائهم للسلطان العثماني ، وكانت الشواغر في
هذه الفرقة يتم شغلها من أعضاء من فرقة الخيالة الثلاث ، وكانت فرق
الخيالة هذه الجولونيان (الجمليان Gönüllüyan المتطوعون) ، والتوفنكيان
Tüfenkciyan (التفكجيات أو التفكجية ، وتعنى : الرماة بالبنادق) ، والشركس هي
الأقل عددا والأدنى راتب من بين الفرق (الأوجاقات) السبع ، وكان يُنَاط بهم القيام
بالأعمال الروتينية غير المرغوبة مثل : تسليم الرسائل وجمع الضرائب من
الجهات والنواحي وحفظ النظام في الريف ، وظلت رتبهم مزيجا من رتب المتطوعين
وأتباع الضباط في الفرق الأخرى ، وعلى أية حال فقد ظهر أن كتائب الشركس
قد تميزت بنسبة عالية من أبناء البكوات والضباط يشغلون رتبا فيها (أى في
كتائب الشركس)^(٢١) .

وكانت فرقتا المشاة : الإنكشارية (المستحفظان) والعزبان متزاملتين في قلعة
القاهرة ، وكانت ثكنات الإنكشارية ومركز تجمعها عند بوابة الإنكشارية ، كما كانت
ثكنات العزبان ومركز تجمعهم عند البوابة المعروفة باسمهم ، وكانت هذه الثكنات
ومراكز التجمع بعيدة تماما عن القسم من القلعة الذي يُعقد فيه ديوان الوالى ، وكان
الإنكشارية إلى حد بعيد هم أكبر الفرق العسكرية في مصر ؛ إذ بلغ عددهم في نهاية
القرن الثامن عشر عدة آلاف ، وكان عددهم يزداد بشكل دورى ؛ لأن استانبول كانت
ترسل لهم أعدادا جديدة - تجمعهم من أى مكان تتراوح ما بين مئات قليلة إلى ألفين ،

وكان الإنكشارية يؤبنون أنساقا معقدة من الخدمات : لقد كانوا مسئولين عن حفظ النظام فى القاهرة ، وحراسة الأسواق والموانئ ، وبالإضافة لهذا كانوا يؤمنون قافلة الحج وهى فى طريقها للمدينتين المقدستين وفى أثناء عودتها ، وكانوا أيضا مستعدين للقيام بحملات عسكرية داخل مصر كما يشاركون فى المعارك الإمبراطورية (خارج مصر) من يرسلهم الوالى للمشاركة فى هذه الحروب ، أما العزبان فكانوا يقدمون خدماتهم فى الأساس كحراس لحصون الحدود كما هو دورهم فى الإمبراطورية العثمانية عامة ، وكان يمكن تواجد حاميات العزبان فى الإسكندرية ودمياط ورشيد وخان يونس والعريش وبحيرة البرلس وبنى بسويف وغيرها من المواقع الهامة وكذلك خارج بوابات القاهرة الفاطمية^(٢٢) .

وكان الاسم الاصطلاحي للفرقة هو : (أوجاق Ocak) وهى كلمة تعنى حرفيا المصطفى أو الموقد ، وأحيانا كان يطلق عليها اسم بولوك bölük ، وكان كل أوجاق (وجاق) - مع إمكانية استثناء المتفرقة والجاويشان^(٢٣) - يتكون من عدة أقسام divisions كل قسم منها يطلق عليه أيضا اسم بولوك ، وهو أمر يسبب الخلط ، وكل بولوك يتكون بدوره من عدة ثكنات أو أودات (أودات Odas) ، وأعلى الضباط رتبة وهو القائد الرسمى للأوجاق هو الأغا ، وعلى أية حال فقد كانت السلطة الفعلية غالبا فى يد قائمقامه (Li Lieutenant) أو الكخيا (كتخدا Kethüda) Kähya ، وكان أكثر رتب الأوجاق شيوعا فى معظم الكتاب هو فيما يبدو رتبة الجاويش (الشافوس) ، وكون قادة الأوجاقات صفا أعلى من الضباط (الاختيارية) وهم أولئك الذين يلبسون عباءة ، واسعة الأكمام مفتوحة من الأمام تعرف بالتركية والعربية باسم : دلامه dolama وحرقتها المصادر الأوروبية إلى دولمان^(٢٤) dolman ، وكان على رأس كل بولوك بولوكباشى bölükbaşı أو سربولوك Ser bölük ، وكان على رأس كل أوده (أوضه Oda) أوضبباشى Odabaşı أو سر أوده Ser Oda ، ولا يلبس الجنود من رتبة أوضبباشى (أوده باشى) ومن دونهم الدلامة وإنما يلبسون سروالا واسعا يعرف بالفارسية : شلفر Shalver حُرّف بالعربية إلى سروال^(٢٥) Shirwal وكانت رتبة الشوربجى Corbaci (المعنى الحرفى : صانع الحساء) رتبة غير واضحة ، وكانت بين الإنكشارية الإمبراطورين تساوى ضابط أورطة Orta ، وهو أعلى من الأوضبباشى Odabaşı ، وفى مصر كان الشوربجى أكثر أهمية نسبيا فى كتائب العزبان ، كما كان الأوضبباشى والجاويش أكثر أهمية فى كتائب الإنكشارية .

وعندما كانت الفرق (الأوجاقات) تُستدعى للمشاركة في معركة إمبراطورية يقوم كتبة الإدارة العثمانية بإعداد سجل رئيسي يضم أسماء ومرتببات كل أفراد الأوجاقات السبع المشاركين في المعركة ، ويعرف هذا السجل بالتركية العثمانية باسم : ميقياسيب دفتري mevâcib defteri (سجل الرواتب) أو أسامي دفتري Esâme defteri (سجل الأسماء) وقد لا يحوى مثل هذا السجل ما هو أكثر من اسم الجندي والراتب إلا أنه - على أية حال - قد يضم في أحيان قليلة معلومات أخرى : كاسم والد العسكري وحاميه أو حاميه (راعيه) فقط ، وأصله وربما مهنته .

وسجلات الرواتب هذه هي بلا شك مصدر إحصائي دقيق يُعول عليه ، إلا أن كمية المعلومات التي تقدمها عن كل عسكري غير موحدة ، وأكثر من هذا فإن العساكر الذين ترد أسماءهم في السجل هم الذين يشكلون القوة الرسمية التي تشكل - نمطيا - من عُشر إلى ربع العدد الإجمالي لكل أوجاق^(٢٦) Ocak ، وعلى أية حال فإن هذا لا يعنى أن من وردت أسماءهم في هذه السجلات هم الذين يذهبون فعلا للمعركة ، فعادة إرسال « بَدل Proxy » لميدان المعركة ، كانت ممارسة واسعة الانتشار^(٢٧) ، يمكن إذن اعتبار الأسماء المدرجة في سجلات الرواتب كسجلات لأفراد الأوجاقات الذين يتسلمون رواتب ، وحتى هذا يجب أن نضع في اعتبارنا أيضا أن كُتاب هذه السجلات كانوا غالبا ما ينسخون من سجلات سابقة ويضيفون معلومات جديدة يحصلون عليها من قادة الكتائب ، لقد كان عدد من المسجلين في هذه السجلات أفرادا معروفين من مصادر أخرى .

وتصبح مسألة التفسير أكثر صعوبة عند تناولنا الأبعاد الإحصائية ، فالأصول الجغرافية على سبيل المثال غير مسجلة بالنسبة لغالبية العساكر ، وإذا اكتشفنا أن هناك تركيزا قليلا على الأناضولين ، أوجب أن نعتبره مؤشرا لاتجاه أوسع ؟ لقد جازفتُ بذلك ، لكن هذا لا يصل أبدا إلى درجة اليقين ، والسبب نفسه لا يستطيع المرء أن يكون متأكدا تماما من أن الاتجاهات (التوجهات) المستخلصة من هذه القوات المقاتلة تنطبق على الأوجاقات ككل ، وباختصار فإن سجلات الرواتب تعطينا انطبعا بالاتجاهات العامة بين العسكر (من حيث انتمائهم العرقي) أكثر من كونها إحصاءات حاسمة ونهائية .

أول هذين السجلين اللذين يهماننا في هذا الصدد هو : سجل الرواتب (ميخاسيب دفتري) المؤرخ ١٠٨٦ - ١٠٨٨ (١٦٧٥ - ١٦٧٧) ويضم ٢٠٠٠ عسكري ليخوضوا معركة غير محددة في السجل ، لكن هذا التاريخ يتوافق مع الحملة العثمانية ضد حصن كامنيسز Kameniecz البولندي في سنة ١٦٧٨ ، والسجل الثاني هو سجل الأسماء (أسامي دفتري) المؤرخ في ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ - ١٧٣٨) ويضم ٣٠٠٠ عسكري ليخوضوا معركة ضد النمسا من المفترض أنها المعركة التي تمخضت عن إعادة استيلاء العثمانيين على بلجراد^(٢٨) وتُظهر المقارنة بين السجلين زيادة عدد العساكر سواء من كان منهم مملوكا أم مسلما حُرّاً بالمولد ممن كانوا أعضاء في الزمر كما تشير كلمة « تابع » ، وبحلول سنة ١٧٣٧ ظهر أن عضوية الزمرة أكثر ما تكون شيوعا في كتائب الإنكشارية ، وكان التغير في رؤساء الزمر بناء فقد كان عدد أقل من العساكر تابعين لمسؤولين عثمانيين (إمبراطوريين) مثل أفراد الأسرة السلطانية المالكة والصدور العظام (رؤساء الوزارات) وكبار الخصيان السود ، وكان لابد من توقع هذا الاتجاه الذي يعنى اللامركزية في إدارة الولايات في الإمبراطورية العثمانية بشكل عام كما يزيد من تأقلم النخبة العسكرية مع البيئة المصرية ، ويلاحظ أيضا وجود تغير هام في رتب هؤلاء الضباط الذين يرأسون الزمر households خاصة في فرق (أوجاقات) المشاه ، وكان الأغوات في القرن السابع عشر ممثلين تمثيلا جيدا بين رؤساء الزمر في كل الأوجاقات أما رتب البولوكباشي فكانت بسائدة في كل الأوجاقات ماعدا الأوجاقين التابعين لديوان الوالى ، وسجل ١٧٣٧ - ١٧٣٨م - على أية حال - يعكس تغيرا في هيئة الزمرة في أوجاقى المشاه ، والآن فإن قيادة الزمرة أصبح يسودها الكخيات ، والجاويشية ، والأوضباشات ، وكذلك الشوربجية بين العزاب ، وتؤكد الأرقام الانطباع الذى تقدمه لنا المصادر الروائية عن زيادة نفوذ هؤلاء الضباط خلال الأعوام الواقعة بين تاريخي هذين السجلين من سجلات الرواتب ، وكان زعماء القازدغلية في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر من كخيات الإنكشارية وجاويشيها ، وشهدت هذه الفترة نفسها ارتفاع شأن اثنين من الأوضباشية (حامل رتبة الأوده ياشي) الإنكشارية الحاسمين هما : كچك محمد Küçük ، وافرنج أحمد ، وفي هذه الأثناء أسس الشوربجي إبراهيم الصابونجي من كتائب العزبان

زُمرَة سادت هذه الفرقة (العزبان) طوال معظم العقدين الثاني والثالث من القرن الثامن عشر^(٢٩).

لكن هذه النتائج يمكن أن تعنى أيضا أن الزُمر التي يرأسها الضباط الأدنى رتبة كانت نتيجة طبيعية لنمو كتائب الإنكشارية والعزبان ، وفي الفرق (الأوجاقات) الكبيرة المؤلفة من عدة آلاف نجد أن أكثر وحداتها انضباطا هي أصغرها خاصة الأودات Odas (المفرد : أوده أو أوضه) إذ كان من الممكن لأي أوضباشي أو شوريجي أن يجد أتباعا ممن هم تحت قيادته ، و « أتباع المعسكر هؤلاء يمكن أن يؤدوا دورا كمحور لزمرة فخمة ، يقوم الضابط بتجميعها طوال فترة ترقيه من رتبة إلى رتبة من جاويش (شافوس) إلى كخيا ، وينقل زمرة (حاشيته) إلى مقر خاص به .

وتؤكد الأدلة المستقاة من فرق الخيالة الثلاث - الجونوليان (الجمليان) والتوفينكيان (التفكجية) والشركس - الانطباع الذي مؤداه أن الزُمر تتكون خلال الفرق (الأوجاقات) ، وبينما كانت نسبة المشاركة في زمرة أثناء الخدمة في الفرق منخفضة في السبعينيات من القرن السابع عشر (- ١٦٧٠) فإن هذه المشاركة قد زادت إلى حوالي ٥٠٪ بحلول سنة ١٧٣٧ . ففي هذه الفرق (الأوجاقات) الصغيرة لم توجد التقسيمات الفرعية وكانت الأوده (أوضه) لا وجود لها ، وكان معظم رؤساء الزمر في كلا السجلين الآنف ذكرهما أغوات أو بولو كباشات bōlūkbaşı ، وعلى أية حال ففي الوقت نفسه نجد حقيقة مؤداه أن لا يوجد أفراد في هذه الفرق « تابعون » أو « رعاة » لأفراد خارج فرقهم ، سواء ضابط في كتيبة أخرى أو مسئول إمبراطوري ، وبدلا من ذلك نجد أن فرق الخيالة تبدو منكفئة على ذاتها خلال القرن الثامن عشر ، وفي حالة فرق الخيالة - وإلى حد ما فرق المشاة - كان تكوين الزمرة لا يمثل بالتمام انتهازية الضباط الطموحين ، بقدر ما يمثل رد فعل التقلبات المصاحبة لعدم المركزية ، والأهم من ذلك عدم التيقن من استلام الرواتب (في مواعيدها) ، وبينما نظر الضباط للزُمر كفرص لزيادة دخولهم ، راح العساكر يوجهون وجوههم لضباطهم لإعاشتهم (للحصول على ما يُقيم أودهم) .

أما البكوات فكانوا - بشكل واضح - لا وجود لهم - إلا قليلا - كرؤساء زُمر في كل الفرق (الأوجاقات) باستثناء كتائب المتفرقة في الفترة من ١٦٧٥ إلى ١٦٧٧ ،

وهذا الاستثناء لا يدعو للدهشة ، وهو يفيد أن ضباط المتفرقة السابقين سادوا البكرية في العقود التي تلت إدخال هذه الفرقة إلى مصر ، ومن المفترض أنهم أعدوا أخلافهم لتولي الرتب في الفرقة ، والندرة الشديدة لرؤساء الزمر من البكوات في سجلات الرواتب يمكن أن يشير إما إلى أن هؤلاء البكوات قد أبعادوا أتباعهم عن قوائم المقاتلين أو أنهم كونا أتباعا خارج نطاق الفرق ، وكان هذا غالبا بشراء الممالك ، وفي الوقت نفسه عكس نقص أتباع البكرية وجود فجوة بين البكرية والفرق العسكرية ، وفي الحوليات كان الملوك أو أي « تابع » آخر يرقى - نمطيا - من رتبة أغا (قائد فرقة) إلى رتبة البكرية ، وقد نستنتج أن ممالك البيك كانوا يتلقون رتب الأغوات ورواتبهم وهم يكملون تدريبهم للوصول للبكرية ، وأن هؤلاء البكوات لم يضعوا أعدادا كبيرة من أتباعهم في سجلات الفرق العسكرية (الأوجاقات) ولم يعملوا على حصول عددا كبير من هؤلاء الأتباع على رتب هذه الفرق العسكرية ، والسبب نفسه كانت البكرية غير متاحة في العادة للضباط دون رتبة أغا ، الذي تنتهي ترقيته - نمطيا - عند رتبة كخيا ، وهؤلاء الضباط الأدنى رتبة كانوا - على العكس - يعتمدون في تشكيل زمرهم على المسجلين في سجلات الفرق (الأوجاقات) ، وحتى العشرينات من القرن الثامن عشر كان الضباط فيما دون رتبة الأغا قد واجهوا - تقليديا أو مؤسسيا - عقبة لدخولهم البكرية .

فالفجوة بين الأغوات والرتب الأخرى في الفرق (الأوجاقات) التي ينتمون إليها انتماء ظاهريا ، ربما تكون قد أسهمت في ازدهار الكخيات بحلول أواخر القرن السابع عشر ، ففي هذا الوقت بدأ الكخيات في السيطرة على كتائب الإنكشارية والعزبان والشاويشية (الجاويشية Çavuşan) ، وكان قائد زمرة القازدغلية طوال العقود الأولى من ظهورها إما شاويشية (جاويشية Çavuş) أو كخاوية في فرقة الإنكشارية ، ورغم أن أغا الإنكشارية ظل شخصا مهما للمحافظة على النظام العام إلا أن سلطته السياسية كانت تابعة لسلطة الشافوس Cavus (الجاويش) والكخيا ، وخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان منصب الأغا وكذلك الوالي Wali (رئيس البوليس Chief of Police) هو حفظ أتباع النبلاء القازدغلية .

أما بالنسبة للتكوين العرقي (الإثنى) للأتباع في سجلات الرواتب هذه فإننا نجد أن أكثر التغيرات وضوحا في هذا الفيض من الأناضوليين المسلمين الأحرار

بالمولد ، والممالك القوقازيين خاصة الجورجيين ، والاتجاه الأوضح والذي يتخذ سمة عامة هو الانتقال من السكان الغربيين إلى السكان الشرقيين ؛ إذ حل العساكر القادمون من شرق الأناضول والقوقاز محل عساكر الأناضول والبلقان ، وهذا الاتجاه - بلا شك - كان له أثر كبير مع تغير الأولويات العسكرية للإمبراطورية العثمانية في بواكير القرن الثامن عشر ، فبعد هزيمة العثمانيين عند قيينا وما صاحبها من خسائر كثيرة في المجر أصبحت الاشتباكات العثمانية مع إمبراطورية الهابسبرج أقل عددا ، لقد تحول اهتمام الإمبراطورية العثمانية الآن إلى الإمبراطورية الصفوية المناوئة في إيران ، وإلى الإمبراطورية الروسية التي كانت دائما مصدر تهديد ، ومن هنا أصبحت طرق الجيوش التي ستخوض المعارك تتجه إلى شرق الأناضول والمناطق القريبة منه ، ومن هنا أصبح أسرى الحرب والمجندين في غالبيتهم من نوى الأصول الشرقية (شرق الأناضول وما يجاوره) .

وعلى أية حال فقد كان كثيرون من أفراد المجموعات القوقازية يتكونون من ممالك جورجيين اشتراهم النبلاء العسكريون في مصر ، ويكاد يكون من المؤكد أن وجود هؤلاء الجورجيين راجع لتغير أوضاع مملكة جورجيا المسيحية في القرن الثامن عشر ، لقد كان القسم الشرقي من مملكة جورجيا تحت سيطرة صفويي إيران الذين استخدموا الممالك الجورجيين بأعداد كبيرة في القرن السابع عشر ، وبعد تفسخ الإمبراطورية الصفوية في سنة ١٧٢٢ م انتهز المسئولون العثمانيون وولاة الولايات ونبلاؤها الفرصة لشراء ممالك جورجيين بأعداد كبيرة لم يسبق لها مثيل .

البكلية في أواخر القرن الثامن عشر :

استمرت هيمنة ضباط الفرق (الأوجاقات) وخاصة الإنكشارية حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وفي هذا الوقت أضعفت سلسلة من التغيرات الاقتصادية موقف الضباط ؛ فقد أدّى إدخال نظام توريث الالتزام (المالكان Malikâne) في أواخر القرن السابع عشر إلى أن أصبح الالتزام الزراعي يتيح مداخيل أكثر ثباتا ، ومن ثمّ راح ضباط الإنكشارية يبذلون قصارى جهدهم للحصول على هذه الالتزامات ، وأكثر

من هذا فقد كان الالتزام الزراعى قد أصبح بديلا جذابا للاستثمار فى تجارة البن اليمنية التى أصبحت نتيجتها تنطوى على المخاطرة بشكل متزايد ، ففى بواكير القرن الثامن عشر دخل البن من المستعمرات الفرنسية فى الكاريبى إلى البحر المتوسط وبدأ ينافس البن اليمنى ، ورغم أن هذا البن القادم من المستعمرات الفرنسية فى الكاريبى كان أقل جودة من بن المخا (اليمنى) إلا أنه كان أرخص سعرا ، وسرعان ما أصبح المزيج من البن الكاريبى والبن اليمنى مشروب المصريين من نوى الدخول المتوسطة ، ونتيجة هذا هبط سعر البن اليمنى^(٣٣) وراح الضباط الإنكشارية الذين كونوا ثرواتهم من تجارة البن اليمنى يتجهون بشكل متزايد إلى الحصول على الالتزامات الزراعية ، وعلى أية حال ففى هذا الميدان (ميدان التنافس للحصول على الامتيازات الزراعية) كانوا أقل تميزا من البكوات الذين بإمكانهم الاحتفاظ بأكثر الالتزامات ربحية ، وتولّى حكم الجهات والنواحي والولايات الفرعية (الأقاليم) ، وحتى الضباط الذين تولّوا التزامات القرى وجدوا مصالحهم مرتبطة بمصالح البكوات وتابعة لها ؛ إذ كانت الإدارات الفرعية فى أيدي البكوات ، حيث تقع هذه القرى^(٣٤) ، وبحلول منتصف القرن الثامن كانت البكرية قد استعادت مرة أخرى هيمنتها على مجموعة ضباط الفرق (الأوجاقات) .

ومنذ هذا الوقت حتى الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ م . كان المجتمع العسكرى المصرى محكوما بالبكوات القوقازيين خاصة الجورجيين من أصول مملوكية ممن ينتمون إلى زمرة القازدغلية الأكبر ، وبالإضافة لهذا فقد حصل هؤلاء البكوات على قدر كبير من الاستقلال الذاتى الفعلى عن الحكومة العثمانية المركزية ، ولم يعد الولاة العثمانيون يمارسون أى سلطة حقيقية على الولاية بل كانوا - من الفور - يُبعدون إلى الريف ويخضعون لشروط البكوات ، وكان على بك بولوت كابان Bulut Kpan المشهور قد وصل بالسيطرة البكرية القازدغلية إلى ذروتها ، بقتله أو نفيه كل منافسيه من الزمر المنافسة ، وفى سنة ١٧٦٨ م . وصل به الأمر إلى تأكيد استقلاله عن السلطان العثمانى فسك العملة باسمه وأمر بالدعاء له فى خطبة الجمعة ، وغالبا ما يعتبر الباحثون حكم على بك وخلفائه إحياء لاستخدامات السلطنة المملوكية ؛ لأنه خلال ثلاث سنوات راح البيك الزعيم ومماليكه يحكمون الولاية واحتكروا المناصب وكسبوا العوائد المالية عندهم ، وباختصار فإن بك استحدث بكرية مملوكية جديدة^(٣٥) .

هذا المشروع (استقلال على بك) الممثل فى إقامة بكورية مملوكية جديدة فى أواخر القرن الثامن عشر متناغم مع الحالة التى نظر فيها المؤرخون للعلاقة بين الفرق (الأوجاقات) العسكرية فى مصر وبكورية القرن الثامن عشر ، فلأن العثمانيين هم الذين أدخلوا الفرق (الأوجاقات) لمصر فقد كان من المفهوم أنها المهيمن الطبيعى على المجندين العثمانيين التقليديين : المرتزقة الأناضوليين والبلقانيين والجنود المجموعين وفق نظام ضربية الدم (الدقشومة) وهى الطريقة العثمانية التقليدية لجمع الصبية من مناطق البلقان المفتوحة ، وعلى النقيض من هذا فقد كان يُنظر للبكرية باعتبارها خالفة السلطنة المملوكية ، ويبدو أن ب . هـ . هولت قد أصل هذه النظرة ، وفى مقال أساسى أكد هولت أن منصب صنجق بك Sancak beyi فى مصر العثمانية كان فى الحقيقة استمرارا للمنصب المملوكى أمير مئة الذى يشير إلى أن حامله لديه إقطاع يعول مئة فارس ، بينما عرُف التحولات فى نظام حيازة الأرض واستيعاب العناصر الجديدة فى صفوف العسكرية فى مصر بأن راح يُقابل المناصب والمؤسسات المملوكية والعثمانية ، وعلى هذا فقد ناظر بين فرقة (أوجاق) المتفرقة ، والخاصكية ، فالأولى ؛ كانت حارسه للوالى العثمانى ، والثانية ؛ كانت حارسه للسلطان المملوكى ، وازن بين أمير قافلة الحج فى عهد السلطنة المملوكية وأمير قافلة الحج فى العهد العثمانى ، وبين الدفتردار العثمانى والخازندار كبير المملوكى ، والقائمقام العثمانى ، ونائب الغيبة فى عهد السلطنة المملوكية^(٢٦) .

وهناك نظرة أخرى تناقض هذه النظرات التى عقدها هولت Holt ، فقد يشير المرء أن كل هذه المناصب والوظائف فى الحقبة العثمانية - فيما عدا أمير قافلة الحج - قد وجدت فى إستانبول وربما كانت بنت ظروف إمبراطورية معاصرة أكثر من كونها إحياء للسلطنة المملوكية الميئة ، ومع هذا فإن هذه المناصب العثمانية كانت بلا شك متوائمة بالفعل مع مصر بسبب وجود نظائر مملوكية لها .

واعتقاد هولت Holt أن البكرية العثمانية قد ساندت أو على الأقل أحييت المؤسسة المملوكية اعتقاداً يشاركه فيه إلى حد كبير الباحثون الذين عاصروه والذين أتوا بعده ، حتى ستانفورد شو Shaw الذى اهتم فى الأساس بالأمور المالية وواصل الحديث عن « الميراث المملوكى » الذى وصفه أخيراً بأنه « المؤسسة الموازية » للإدارة العثمانية^(٢٧) ، ويشير دانييل كريسيلىوس Crecelius « إلى إحياء البكرية المملوكية فى

القرنين السابع عشر والثامن عشر « التي وصفها بأنها نظام من نظم الحكم الذاتي^(٢٨) ، ويعتبر كينيث كونو Kenneth Cuno على بك بولوت كابان مؤسس مجتمع مملوكي جديد ، وبالتالي فهو الممهد للأتوقراطي محمد علي باشا الذي حكم مصر في مطلع القرن التاسع عشر^(٢٩) .

وفي دراسات أكثر حداثة أصبحت الأرقام المتعلقة بالأصل العرقي والوضع الرقي أكثر تحديدا ووضوحاً عند تعريف مصطلح (المملوك) ، ومن هنا وجدنا ميشيل ونتر Winter يذكر مرارا - لكن دون حسم - الصلة بين الوضع الرقي (المملوكي) والعرق (الجنس) القوقازي ، ورتبة البكوية (البكلرية)^(٤٠) ، وجسبريل بيتربرج Piterberg يُسلم بأن العناصر غير المملوكة (غير الرقية) خاصة الأناضوليين دخلوا البكلرية حتى قبل مرور فترة طويلة في القرن السابع عشر ، لكنه جعل ما اصطلح على تسميته « النخبة المغلقة » من البكوات المماليك بحلول أواخر القرن الثامن عشر^(٤١) ، وأدلة كلا المؤلفين هي « الفجوة » بين المجندين الأحرار بالمولد من ناحية ومماليك مناطق الإمبراطورية الوسطى والقوقاز ، هذه « الفجوة » توازي الفجوة الأخرى بين البكلرية ، والفرق (الأوجاقات) ، فجوة بقدر ما رأينا المماليك يسودون في البكلرية والرتب العسكرية الأعلى ، بينما المسلمون الأحرار بالمولد يتراجعون في الرتب أو يعملون في الكتابب المعاونة ، ويؤكد ونتر Winter أن هذا التقسيم وجد في وقت باكر من القرن السابع عشر محددًا هذا الفصل على أساس أن النبلاء والمسئولين العثمانيين تتنازعهم فئتان : الروم أوغلاني Rûm Oglani ؛ أى المجندين الأحرار بالمولد من المناطق المركزية في الإمبراطورية ، والمصريّة (أو المصريين Misirlis) الذين راح يضمّن فيهم نخبة البكوات ، والضباط الذين راح عدد المماليك منهم يزداد شيئاً فشيئاً بمرور الوقت^(٤٢) ، وتفسير ونتر Winter ليس دقيقا كل الدقة في حكمه على استخدام مصطلح (المصرية) والمصطلحات المرتبطة به في الأوامر الإمبراطورية الصادرة عن السلطات العثمانية ، فحتى القرن الثامن عشر يظهر أن السلطان كان يستخدم عبارة « مصر كولاريم Misr Kullarim » ؛ أى (خدمة المصريين my Egyptian Servants) ليعنى به كل المؤسسة العسكرية دون فاصل بين مماليك ومسلمين أحرار بالمولد ، وضباط وأفراد مدرجين في سجلات الأوجاقات ، والسبب نفسه يبدو أن مصطلح (مصر عسكريّة Misir askerleri) أى عساكر مصر

كان يتضمن كل القوة المقاتلة في الولاية بغض النظر عن الرتبة والوضع Status (أى إن كان العسكرى مملوكا أم حرا بالمولد) وكلا المصطلحين يُصنّف ممالك وروم أوغلانى Rum oglani ، أما النبلاء الأكثر بروزا مثل : أمير الحاج والدفتردار فكانت الأوامر الإمبراطورية توجه لهم الخطاب مباشرة (أى تنص على مناصبهم) وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بدأت الأوامر الإمبراطورية فى استخدام المصطلح العربى (مصريون) للإشارة إلى النخبة العسكرية مدركة تنامى الإدارة الذاتية autonomy للفرق العسكرية للولاية^(٤٣) .

وبشكل عام فإن معظم المؤرخين يفترضون ضعفا متواسلا للفرق (الأوجاقات) أمام البكرية التى أظهرت نفسها حاجزا مترابطا بين العبيد (الممالك) من ناحية ، والمسلمين الأحرار بالمولد من ناحية أخرى^(٤٤) إنهم - أى هؤلاء المؤرخين - لا يفترضون أن مصر فى العصر العثمانى قد احتفظت (أو استعادت) روح العبودية (روح نظام الممالك فى أواخر عهد السلطنة المملوكية) فى شكل عبيد (ممالك) تم إعتاقهم ، وتمثل هذا فى أن الممالك المُعتَقين كانوا هم المفضلين لشغل الرتب العسكرية العليا ، بينما غير الشركس وغير الممالك بمن فى ذلك أبناء الأمراء كانوا غالبا مُبعدين عن المجتمع العسكرى^(٤٥) ، وكانت العسكرية فى مصر العثمانية ذات تركيب شديد التعقيد تضم ممالك وغير ممالك من أصول عرقية مختلفة ، ومع هذا فإن هؤلاء الباحثين يميلون إلى تصوير الأمر على أنه تسيد البكوات الجورجيين (من أصول جورجية) فى نهاية القرن الثامن عشر فى محاولة مدروسة منهم لإحياء أولويات السلطنة المملوكية فى ظل الحكم العثمانى .

ومضمون هذا التصور المتعلق بإحياء نظم السلطنة المملوكية فى ظل الحكم العثمانى لمصر يعنى أن تراث السلطنة المملوكية استقر فى حقبة البكرية العثمانية ، وعلى هذا فإن هذا الانطباع يُسهم فى دعم فكرة الانقسام بين البكرية من ناحية والفرق (الأوجاقات) من ناحية أخرى ، وتلك الفرق (الأوجاقات) كانت منذ البداية سند السلطة العثمانية ونصيرها فى مصر ، وإذا كانت البكرية تمثل استمرارا أو إحياء للحكم المملوكى - كما افترض هولت Holt - فلا بد إذن أن يكون البكوات مسئولين عن مساندة أو إحياء تراث الزمرة العسكرية على النسق الذى كان سائدا فى عصر السلطنة المملوكية ، ومن هنا فما يسمى الزمرة المملوكية Mamluk

household في مصر العثمانية من الطبيعي أن ترتبط بالبكرية ، وعندما لاحظ المؤرخون تكوين الزمر من خلال الفرق (الأوجاقات) وأن الممالك أُلحِقوا بسجلات الرواتب في الفرق (الأوجاقات) ، انتهوا إلى أن هذا أحد علامات انهيار الفرق ، وما عاصره من ارتفاع شأن البكرية في وقت متأخر من القرن الثامن عشر ، ووفقا لهذه الخطة فإن الزمرة - التي من المفترض أنها ميراث مملوكي - هي بنية Structure أو تكوين غريب على الفرق (الأوجاقات) ، إنها تقطع تكويناتها الداخلية - الأدوات (المفرد : أوده أو أوضه أى الثكنات) والبولوك böyük (الأقسام الفرعية في الثكنات) - بالسماح بالتسلل إليها من خارجها ، وعلى هذا فإن تفسخ الفرق (الأوجاقات) وتفوق البكرية وتكوين الزمر هي الملامح المتداخلة لتطور المجتمع العسكري في مصر خلال القرن الثامن عشر ، وأكثر من هذا أنها مرتبطة بالحقيقة التي مؤداها أن أعداداً متزايدة من الممالك كانوا يدخلون هذا المجتمع العسكري ويصلون فيه إلى الذروة في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، وباختصار لقد بدا أن تفوق البكرية والممالك هو أوج تطور النخبة العسكرية في مصر ، حقيقة لقد كتب دانييل كريسييليوس Crecelius وجبريل بيتربيرج Piterberg بهدف شرح هذا التفوق وتفسيره ، وميشيل وينتر Winter رغم أنه بدأ منطلقاً من نقطة أبعد في التاريخ إلا أنه وجد أقوى المسوغات للتأكيد على أن البكوات الممالك أصبحت نخبة متقربة Arabized ، كما ظهر على لسان العامة من المصريين كما يتبدى من التعليقات الساخرة التي أوردها الجبرتي ذاماً القوات العثمانية التي وصلت إلى مصر في سنة ١٨٠١ م . للمساعدة في إخراج الفرنسيين (٤٦) .

هذا الاستغراق في تناول بكورية القرن الثامن عشر في سياق ارتباطها بالإمارة المملوكية يعطى صعود البكرية نظرة غائبة (يجعل بكورية القرن الثامن عشر تتطلع إلى إعادة نظم السلطنة المملوكية) كما لو أنها لم تعد تستطيع - على نحو ما - تجنب الانزلاق إلى عصر سابق (عصر السلطنة المملوكية) ، كما لو كان من غير المهم أن تستوعب النخبة العسكرية في مصر الحقائق العثمانية الجديدة ، وبشكل عام فإن إصرارنا على أن حقبة البكرية العثمانية ما هي إلا عودة لبكرية السلطنة المملوكية يعنى الإصرار على صوغ الملامح الأساسية للمجتمع العسكري المصري كمجتمع مملوكي في جوهره متجاهلين الأنماط العثمانيين الممكنة للمؤسسات نفسها ،

ولابد للمؤرخ أن يقلل من شأن التغيرات الأساسية في نظم الأرض التي كانت الإمارة المملوكية تقوم عليها ، وفي خليط المتقدمين للبكرية ، والرتب - إذا لم يكن الوظائف - المنطوية على عوامل البكرية وفعاليتها ، وهذا يعنى أنه يجب على المؤرخ أن يستمر في القول أن هذه التغيرات لم تغير بشكل أساسى الطبيعة المملوكية للبكرية ، إننى أخاطر بالقول أن السلطنة المملوكية كانت قد مارست فتنتها في كل المجالات الفرعية في مصر العثمانية ، حتى إن معظم المؤسسات الكبرى في المجتمع العسكرى المصرى في العهد العثمانى كان يُنظر إليها على أنها مؤسسات مملوكية جرى إلحاق تعديلات فيها (جرى تكييفها مع الحقبة العثمانية) .

حتى حالة على بك المؤسس الظاهري لبكرية مملوكية جديدة في أواخر القرن الثامن عشر تشير إلى عيوب هذا المشروع الموازى للنظام الذى كان سائدا أيام السلطنة المملوكية - وأعنى به الزمرة وسيطرة البكرية - لم يكن على بك نهاية سلسلة طويلة من المسيطرين البكوات ، وإنما الأقرب للصحة أنه كان مملوكا للكخيا الإنكشارى الطموح إبراهيم القازدغلى ، لقد بدأ الكخيا إبراهيم وكخيات آخرون من جيله يرفعون من أتباعهم إلى البكرية منذ الثلاثينيات من القرن الثامن عشر وكان هذا بلا شك بهدف الحصول على أكبر الالتزامات الزراعية وأكثرها ربحا أعنى حكم الولايات الفرعية والجهات داخل مصر^(٤٧) ، وعلى هذا كان التحول إلى القيادة البكرية خلال زمرة القازدغلية هو - منطقيا - عمل الجيل السابق على علي بك وهو جيل ضباط الإنكشارية المقدامين الذين وجهوا أتباعهم للبكرية ، وهذا التحول فى حد ذاته يدمر المشروع الذى به طوت البكرية الفرق (الأوجاقات) تحت جناحيها ؛ لأنه فى حالة القازدغلية نجد أن الزمرة التى تطورت داخل أوجاق (فرقة) الإنكشارية ثم سيطرت عليها قد تغلغت ووصل بها الأمر للسيطرة على البكرية ، والحقيقة أنه فى حالة زمرة القازدغلية نجد أن الزمرة اتحدت مع الرؤساء الأوضباشيين Odabasi وتشير سجلات الرواتب أنه كان من الممكن تكوين الزمر تماما داخل الفرق العسكرية (الأوجاقات) ، وكان تكوينها يتبع التدرج الهرارى داخل الفرقة (الأوجاق) ، وبينما تغص سجلات الرواتب بممالك الضباط فليس هناك سبب يجعلنا نعتقد أن هؤلاء الممالك قد استغلوا ميزة كونهم ممالك لإفساد تكوين الفرق (الأوجاقات) .

وأكثر من هذا فإنه يمكن اعتبار البكرية القازدغلية فى القرن الثامن عشر نتيجة اتخاذ القرارات الحاسمة داخل الزمرة ، فالقازدغلية لم توجه حركتها ببساطة من الالتزام الحضرى urban للالتزام الزراعى ؛ أى لم تتحول ببساطة من زمرة أوجاقية إلى زمرة بكيرية ؛ إذ أن الإنجاز المميز لهذه الزمرة القازدغلية هو قدرتها على كسب السيطرة على ضباط الفرق ، وعلى البكرية فى آن واحد ، وبذا كانت زمرة القازدغلية قادرة على الاحتفاظ بمصادر دخلها التقليدية وأضاف فى الوقت نفسه المزيد من المصادر الواعدة المتاحة للبكرية ، ومن خلال السيطرة على مثل هذه المناصب المهمة كأغا الإنكشارية والوالى Wàli فإن القازدغلية كانت قادرة أيضا على وضع يدها على نبض أسواق القاهرة ، وكان لها اليد العليا فى حفظ النظام العام ، وفى الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر أصبح ضباط الإنكشارية طبقة دنيا بين القازدغلية التى سادها البكوات .

وما دام اضطلاع القازدغلية بالبكرية بدأ من فرقة الإنكشارية ، فلا بد من تناولها فى سياق تطور الزمرة الباكر داخل كتائب الإنكشارية ، ومن هذا المنطلق يصبح واضحا أن هيمنة القازدغلية على البكرية لم تكن ممكنة لو أن الزمرة لم تسيطر على هذه الكتائب (الإنكشارية) ، وفى الفصلين التاليين محاولة لشرح تطور الزمرة القازدغلية خلال كتائب الإنكشارية ، ومن خلال تغلغلها فى البكرية ، وفى هذا السياق فإن توظيف القازدغلية للبكرية هو مسألة تطوير للزمرة وهذا فى حد ذاته ليس ابتعادا راديكاليا عن تاريخ الزمرة السابق على ذلك ، بل إن هذا التأكيد يتضمن أن بكيرية أواخر القرن الثامن عشر ليست نتيجة منبثقة من إحياء ممارسات السلطنة المملوكية ، وإنما نتيجة طبيعية لتطور القازدغلية والزمرة الأوجاقية الأخرى .

جدول ١/٣ تكوين الزمرة داخل الأوجاقات ، وفقا لما ورد في سجلات

Maliyeden Müdevver ٤٧٨٧

(١٦٧٥ - ١٦٧٧) ورقم ٧٠٦٩

(١٧٣٧ - ١٧٣٨)

الفرقة (الأوجاق)		المتفرقة		الجاويشية		الجونوليان (الجمليان)		التوفنكيان (التفكجية)	
تاريخ السجل	٧-١٦٧٥	٨-١٧٣٧	٧-١٦٧٥	٨-١٧٣٧	٧-١٦٧٥	٨-١٧٣٧	٧-١٦٧٥	٨-١٧٣٧	٧-١٦٧٥
إجمالي عدد العساكر في السجل	٢٥٩	٢١٦	١٢٩	٢١٦	١٢٩	٢١٣	١٢٩	١٨٦	١٠٩
عدد المدرجين في الزمر (تابع)	١٨٨	١١٠	٥٨	١٠٤	٤٣	٩٥	٤١	٩٤	٤١

رتب رؤساء

الزمرة / العدد

الإجمالي للأتباع

حسب الرتبة :

٢٠/٢٢	٦/٤	٤/٥	٢/١	٢/١	٢/١	٤/٢	٢/٢	٢/٢	● بكوات
٣/١	٠/٠	٠/٠	٥/٢	٢/٢	٢/٢	٠/٠	٣/٣	٠/٠	● كشاف
٨٧/٤١	٥٦/٢٣	١٢/١٠	٢٦/١٣	١٢/١٠	١٢/١٠	٩/٧	٩/٨	١٢/١٠	● أغات
٨/٧	١/١	٥/٤	٢/٢	١/١	٢/٢	٢/٢	٢/٢	٠/٠	● كخيات
١٢/١٠	٢/١	٢٤/١٧	٢٨/١٢	٤/٤	٢/٢	٢/٢	٠/٠	٢/٢	● جاويشية

● شوربجية	١/١	٠/٠	٠/٠	١/١	٠/٠	٢/٢	٠/٠	٩/٧
● بولوكباشى	٠/٠	٠/٠	١/١	٠/٠	١٥/١٠	٢٢/١٣	٢١/١٦	٢٧/١٢
● أوضاباشى	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠
● مسئولون								
● إمبراطورين	١٢/١٢	١/١	٥/٢	١/١	٠/٠	٢/٢	٢/٢	٠/٠
● علماء دين	١٣/١٧	٧/٢	٢/٢	٥/٢	١/١	٩/٥	٠/٠	١١/٥
● وأشرف								
● وبيروقراطيين								
● آخرون	٣٦/٢٦	٨/١٢	٧/٧	٢٥/٢٢	٥٥	٢٤/٢٠	٢/٢	٢٥/١٧
● ممالك	٢١٨	٦٢	٦٨	٧٣	٦٢	٨٨	٦٣	٨٠
● غير ممالك	١٢٥	١١٢	٥٢	٩٦	٦٠	٨٧	٦٤	٨٩
● أناضوليون								
● منتسبون إلى	٤	٢	٠	٩	٠	٣	٠	١١
● لوجقات أخرى								
● رؤساء زمر	٢٧	٨	١٨	١	٠	٢	٢	١
● أتباع	٥٧	٥	١٧	٢	١٨	٢	١١	١

تابع جدول ١/٣

العزبان		الإنكشارية		الشركس		الفرقة (الأوجاق)
٨-١٧٢٧	٧-١٦٧٥	٨- ١٧٢٧	٧ - ١٦٧٥	٨-١٧٢٧	٧-١٦٧٥	تاريخ السجل
٨٤٧	٢٥٩	١٢٦٢	٨٧٤	١٦٨	٨٨	العدد الإجمالي للعساكر في السجل
٢٥٦	٧٦	٧٢٦	٣٠٢	٧٣	٤٣	عدد الزمر (تابع)

رتب رؤساء

الزمرة / العدد

الإجمالي للتابع

حسب الرتبة

١٣/١١	٩/٥	١٣/١١	٢١/١٥	٤/٣	٣/٢	● بكوات
١/٢	٠/٠	٠/٠	٥/٤	٠/٠	٤/٤	● كشاف
٢٥/٨	١٧/١٤	٢٢/١٠	٥٤/٢٢	١٠/٧	٦/٥	● الأغات
٦٨/٢١	٦/٦	١٣٦/٢٦	٢١/١٢	٢/٢	٣/٣	● كخيات
٦٠/٢٤	٩/٨	١٩٨/٤٩	٢٥/١٤	٣/٣	٦/٥	● الجاويشية

٢١/١٩	٠/٠	٦/٦	٠/٠	١/١	٠/٠	● الشرجية
٧/٥	٨/٥	٤٧/٢٣	٧٠/٢٣	٢٩/٢٠	١٧/١٤	● البولوكباشى
٦٦/٢٢	٥/٥	١٢٦/٢٤	٠/٠	٠/٠	٠/٠	● أوضاباشى
						● مسئولون
٠/٠	٢/٢	٢/٢	٧/٢	٠/٠	١/١	● إميراطوريون
						علماء
٥٤/٢٠	٦/٦	٣٠/١٧	١٢/٨	٢/١	١/١	● وبيروقراطيون
						وأشراف
٣٦/٣٥	١٦/١٢	١٤٥/٧٢	٦٠/٢٤	٢٠/١٣	٤/٤	● آخرون
٢١٠	١١٣	٤٦٧	٤٤٣	٨٧	٥٩	● ممالك
٢٨٦	١٣٤	٥٤١	٢٧٠	٦٥	٢٣	● غير ممالك
						● أناضوليون
٥٩	١٢	٦٧	٣٦	١	٠	● منتسبون لفرق
						(أوجاقات) أخرى
٢٣	٣	٢٣	٩	٦	٤	● رؤساء زمر
٢٩	٧	٥٠	٧	١	٩	● أتباع

جدول ٢/٣ الأناضوليون والذين ترجع أصولهم إلى
مناطق بحر إيجه بين الإنكشارية كما هم مسجلون

في سجلات Maliyen Müdevver

٤٧٨٧ (١٦٧٥ - ١٦٧٧) و ٧٠٦٩ (١٧٣٧ - ١٧٣٨)

عدد الجنود		المدينة أو الاقليم أو الانتساب
١٧٣٧ - ٨	١٦٧٥ - ٧	
١	١	أكساري Aksaray
٠	١	ألاكا هيسار (حصار Alaka Hisar)
٢	١	ألانيا Alanya
١	١	أنطاليا Antalya
١	٠	عرب كير Arabkir
٤	٠	عينتاب " Ayntab `Gazian tep
١	١	خيوس (كيوس) Chios
١	٠	كوريم (شوريم) Corüm
١	٠	دربند Derbend
٦	٣	ديار بكر
٦	٣	أدرين Edrine
٣	٠	إرغلي Ergli
٨	٤	أرض الروم (أرزوروم Erzurum)
١	٠	جليبولو Gelibolu
١	٠	هاربوت Harput

تابع جدول ٢/٣

عدد الجنود		المدينة أو الاقليم أو الانتساب
١٧٣٧ - ٨	١٦٧٥ - ٧	
١	١	إسبرطة
٥	١	استانبول
١	٠	أزميد Izmid
١	٠	أزمير
١	١	قره حصار Kara Hisar
١	٠	كرمان (قره مان Karaman)
١	٠	قصطمونو Kastamonu
٢	٦	قيصري Keyseri
١	٢	قازدغي
١	٠	كوشاداسي Kuçadasi
١	٠	لاظ LAZ.
٦	٠	مالاطيا Malatya
		ماراشي (Maras) أو (قهرمانماراس
١	٠	(Kahramanmaraş
٠	١	مرسين Mersin
١	٢	ميدلي Midilli (ليسبوس)
١	٠	نغده Negde
٠	١	عثمانكك Osmankik

تابع جدول ٢/٣

عدد الجنود		المدينة أو الاقليم أو الانتساب
١٧٣٧ - ٨	١٦٧٥ - ٧	
١	٠	بازار كيك
٠	١	الروميلى (غرب الأناضول وشرق البلقان)
١	١	تكه Teke
١	١	توكات Tokat
٠	١	ترکمان Turkmen
٠	١	أوسكودار Üskudar

جدول ٣/٣ الأصول غير الأناضولية بين الإنكشارية

كما هي مسجلة في دفاتر Maliyeden Müdevver

٤٧٨٧ (١٦٧٥ - ٧) و ٧٠٦٩ (١٧٣٧ - ٨)

عدد الجنود		المدينة أو الاقليم أو الانتساب
٨ - ١٧٣٧	٧ - ١٦٧٥	
٤	١	أفخازيا Abkhazia
١	٠	Akkerman
٣	٣	ألبانيا Albania
١	١	الجزائر (٢٠) Algeria
٠	٣	أرمينيا
١	٠	Aydos
١	٩	بغداد (٢١)
٠	٢	بلغراد
٧	٩	البوسنة
٨	٥	شركاسيا
١	٠	قبرص Cyprus (؟)
٠	١	دمشق
٠	١	Frank
١٧	٩	جورجيا
١	٠	الحجاز
٠	١	المجر (هنجارية)

تابع جدول ٣/٣

عدد الجنود		المدينة أو الإقليم أو الانتساب
١٧٣٧ - ٨	١٦٧٥ - ٧	
١	٠	Iskodra (؟)
١	٠	يهود
٦	٠	Kurd كرد
٠	١	الموصل
١	٠	Nablus (؟)
١	٠	Sidon
١	٠	Silistre (؟)
١	٠	طرابلس (؟)
٢	٠	Temeçvar
		أوسكوب Üsküp
٠	٤	(بسكوبج في مقلونيا)
٣	٠	غير محدد

الهوامش

(١) هذا الاتجاه يصدقه سجل الرواتب ١٦٧٥ - ١٦٥٧ - سجل ٤٧٨٧ Maliyeden Müdevver .
انظر جدول ١/٣ .

(٢) ايقليا جلبى (شلبى) سياحة نامه Seyahatnamesi مج ٧ ، ص ٧٢٢

(٣) انظر على سبيل المثال ، عجائب الآثار للجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٣٤ .

(4) Holt, Egypt and Fertile Crescent ,pp. 90, 93.

ميز الدمرداش (الدرة ، ص ١٨٥) بين « الرياسة » riâsa فى الإنكشارية و « الرياسة » فى العزبان .
وعن إبراهيم ورضوان انظر الدمرداش (الدرة ، ص ٥٦٠) .

(٥) انظر على سبيل المثال شمس الدين محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، الروضة الزاهية
فى ولاية مصر والقاهرة ، القاهرة ، دار الكتب - قسم المحفوظات ، ميكروفيلم رقم ١٦٤٠ ، غير مرقم
Holt, " Beylicate " 216 - 218 .

(٦) ابن أبى السرور ، الروضة الزاهية ، عن حيازة محمد باشا « كول كيران (قول كيران)
" Kul Kiran

Holt , "Beylicate " , p.118

(7) Michel Winter " Ali Efendi's Anatolian Campaign Book' : A defence of the Egyptian
Army in seventeenth century " Turcia 15 (1983) 267 - 309

(٨) أشار ملتن Meltin إلى اضطرابات عرقية بين « الغربيين » من البلقان والأناضول ، « والشرقيين »
من القوقاز والكروستان . انظر مبحثه (Ethnic regional) (Cins) فى المؤسسات العثمانية فى القرن ١٧
IJMES 5 (1974) 233 - 9 .

(9) The Reigns of the Mamluk Sultans al - Ashraf Qaytbay and Qansuh al-Ghuri in Egypt
(Seattle and London , 1993) pp. 19-24 , 47, 94 - 101

(١٠) مجهول المؤلف ، نسبة شريفة ورياسة منيفة تشتمل على ذكر نسب الجراكسة من قریش .

Princeton Univ. Lib., Garrett Manuscript Collection, MS. 186

H.P.M. Holt " The Exalted Lineage of Ridwan Bey" : Some observations on 17 th century

Mamluk Geneology " BSOAS " (1959) 224 - 7 .

(١١) انظر على سبيل المثال ، الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) ١٤٢ - ١٥٢

أحمد جليبي (شلبي) أوضا (أودا) حرص ١٤٧ - ١٤٨ وعن دور رضوان بك في استعادة الكعبة
سنة ١٦٢٠ . انظر ثريا فاروقى Suraiya Faroghi

Pilgrims and Sultans : The Hajj under the Ottomans (London & N.Y., 1994) pp.11, 115 - 119 .

(١٢) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) Fos. 156 r, 162 v.

ينى كابيلي Yeni Kapili تشير أيضا إلى باب الجديد في قلعة القاهرة . انظر الحلاق ، تاريخ مصر
القاهرة (بالتركية) Fos . 179 v . 320 v.

عبد الكريم ، تاريخ مصر (Fo. 78 v.) وعلى أية حال لم تستخدم أى من الحوليات العربية (باب
الجديد) كنسبة

(١٢) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) (Fos. 173 v. 320 . v.)

أحمد جليبي (شلبي ، أوده) أوضا (ص ص ٥٨ - ٥٩ .

(١٤) انظر

Pococke , A Description of East, vol. 1 p. 204 .

Michel Tuchscherer " Le Pélerinage de L'emir Sulayman Gawis al- Qazdugi, Sirdar de la
Caravane de la Mekke en 1739 " Al 24 (1988) 175.

(15) Shaw, Financial and Administive Organizations , pp. 30 , 39 .

وانظر أيضا

El²s.v, " Malikane " by Irène Beldiceanu - Steinherr .

(١٦) انظر الفصل الثامن

(17) Uzunçarsih, Osmanli Deretinin Salay Teskilatt, pp. 173 ff .

(١٨) انظر الفصل الثامن ص ص ١٤٨ - ١٥٠

(19) Shaw , Financial Op. cit., pp. 121, 194 .

(20) Raymond, Artisans et Commercantd. vol. II. pp 606 - 10 .

(٢١) وعلى هذا ، ففي سجل الرواتب المؤرخ ١٧٣٧ - ١٧٣٨

(Maliyeden Müdevver 7069) تم إدراج أعداد كبيرة من العساكر على هذا النمط :

(Mehmed / Ahmed Bey / Veledi) وعن طبيعة وواجبات الأوجاقات انظر :

Misr Kanunna

Osmanli imparatorlugunda-shaw , Financial ... op. cit. pp. 189 ff. : فى

(٢٢) المراجع القائمة الكاملة انظر :

Shaw, Financial ... p. 211

- وعلى هذا فالعساكر المدرجون في هذا السجل كسكندرية أو برأسية قد يكونون عساكر حاليين أو سابقين في فرق العزبان في هذه المواقع : اسكندرية ، البرلس ... الخ
- (٢٣) في سجلات الرواتب نجد أعضاء الفرق (الأوجاقات) قد وردوا مسجلين وفقا للترتيب الهجائي للاسم الأول . ولوجود التقسيمات الفرعية .
- (٢٤) وفقا لما ذكره ميشيل توشيرر M. Tuchsoherer فإن الدلّامة (يكتبها dolma) يتم ارتداؤها فوق القفطان kaftan . انظر " Pélérinage " ١٨٤ (وتحدث أيضا عن عباءة زعيم البدو) .
- (٢٥) الدمرداش ، الدرة ، ص ١٦ .
- (٢٦) أعلى النسب كانت بين الإنكشارية والعزبان ، وانظر أيضا :
- Roots of Modern Egypt by Crecelius . p . 21.
- (٢٧) أوضح شو Show هذه الممارسة .
- Financial ... op . cit pp. 209 - 10 .
- (٢٨) إستانبول ، أرشيف الصدارة العظمى .
- (Maliyeden Müdevver 7487 (1086 - 8) and 7069)
- إنني ممتنة للبروفسير كولن هيود Colin Heywood لمقابلته المعركة الأسبق .
- (٢٩) الدمرداش ، الدرة ، ص ص ١٤٥ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩١ - ١٩٩ ، ٢١٢ - ٢١٣ ، ٢٣٢ .
- (٣٠) الجنود من الجزائر يمكن أن يكونوا أناضوليين ما دام معظم أفراد الحامية الجزائرية قد تم تجنيدهم من الأناضول .
- (٣١) العساكر البغداديون قد يكونون مماليك جورجيين .
- (٣٢) انظر الفصل الخامس ص ص ١٠١ - ١٠٢ .
- (33) Raymond, Artisans et Commerçants vol. 1, pp. 156 ff .
- (34) Pococke , A Description of the East . vol. 1 , p . 164
- (٣٥) انظر على سبيل المثال :
- Creclius Roots of Modern Egypt pp. 28 ff .
- Kenneth M. Cuno, The Pasha's Peasants : Land, Society & Economy in Lower Egypt , 1740 - 1858 (Cambridge, 1922) pp . 27 ff.
- (36) Holt, " Beylicate" 223.
- (37) Shaw, Financial ... Op. Cit . pp. 33, 37 , 186 .
- (38) Creclius, Roots .. op . cit pp. 2 - 23.
- (39) Cuno, The Pasha's Peasants pp. 27 ff .
- (40) Winter, Turks, Arabs & Mamluks p. 106.
- (41) Piterberg, Formation of an ottoman Egyptian Elite 281 - 2 .

(42) Winter, Ali Efendi's Anatolian Campaign Book 272 ff.

(٤٣) على سبيل المثال :

Mühimme ilMisir , Vol . 1, No 64 (1121/ 1709) vol. VII , nos . 214

(Mid - Receb 1168 / 1755) and 229 (Late Ramazan 1168/1755)

(٤٤) يستخدم Greceilius « البكرية المملوكية » و « دولة المماليك » على نحو تبادلي ليشير إلى كيان سياسي محكوم ذاتيا . (Roots of Modern Egypt, pp. 28, 29)
وانظر أيضا :

- Winter " Turks, Arabs & Mamluks, " 100 .

- Piterberg " Formation of an Ottoman Egyptian Elite " 281 .

(٤٥) كان الرقيق الأسود موضع ازدراء ، انظر على سبيل المثال :

David Ayalon " The Ciacassirns in the Mamluk Kingdom " JAOS 49 (1949) 135 - 47.

David Ayalon , Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom : A Challenge to Medieval Society (London , 1956).

(46) Winter, " Turks .. op . cit " 121 - 122 .

يذكر أن هذا الجيش يضم محمد علي باشا الذي سيلعب دورا فيما بعد والذي ذمه الجبرتي ، وهذا الاقتباس غير محايد ، بل منحاز بشدة .

(٤٧) أحمد شلبي (جلبي) ، أوده (أوضا) ص ١٤٥ يسجل ما يُعد أول إشارة فيما أعلم لأحد ضباط الأوجاقات (الفرق) يرقى تابعا لمرتبة البكرية في سنة ١٧٢٧ ، عندما جعل الإنكشاري الكخيا حسين الدمياطي من تابعه مصطفى أغا الوالي ، صنجق بك Sancak Beyi لجرجا والمنيا في صعيد مصر .

الفصل الرابع

زُمرتا القازدغلية ، والجلفيّة : الظهور ، والمشاركة

بينما كانت زمرة القازدغلية تتخذ إطارها داخل فرقة (أوجاق) الإنكشارية كانت زمرة الجلفيّة تلقى بظلالها على تطورها ، وتوازيها ، وقد ظهرت زمرة الجلفية بعد ظهور القازدغلية بعدة عقود ، لكنها - أى زمرة الجلفية - سادت فرقة (أوجاق) العزبان فى الوقت نفسه الذى أحكمت فيه زمرة القازدغلية قبضتها على كتائب الإنكشارية ، لقد صاغ الجلفية تحالف تبعية دامت طويلا مع القازدغلية تمكّنت - القازدغلية - بموجبه من تحقيق مشروعها وتشكيل أسلوبها فى الحكم خلال منتصف القرن الثامن عشر ، لكن تحالف التبعية هذا الذى عقدته الجلفية مع القازدغلية لم يتم إلا بعد عدة أعوام كانت فيه الجلفية مترددة بين القازدغلية ومنافسيها الرئيسيين ضمن كتلة الفقارية (بيت ذى الفقار) ، ودراسة الجلفية مسألة مفيدة بالنسبة للمؤرخ فى مقابل المجموعة القازدغلية ، وربما كانت مثالا على دور القازدغلية أنفسهم ، مع أن الجلفية كانت زمرة أصغر بكثير وأقل تعقيدا من أن يُعتمد عليها كزمرة مساعدة ، وكى نفهم كيفية تفاعلات الزمرة القازدغلية فى مرحلتها الباكرة لابد من فهم تفاعلات الجلفية فى مرحلتها الباكرة أيضا .

أصول الجلفيّة :

ظهر اسم الجلفية للمرة الأولى فى سجلات الأوامر السلطانية imperial المعروفة باسم الأوامر المهمة mühimmes فى سنة ١٧١٥م^(١) ، لقد كانت هناك ثلاثة ملامح بارزة تميز هذه الزمرة وربما تحدّد إلى حد كبير سلوكها داخل المجتمع العسكرى

المصرى ، أول هذه الملامح : أن الجلفية ظهرت كزمرة صغيرة وغير معقدة التركيب نسبيا ؛ إذ كانت لا تشتمل إلا على سلسلة انتساب offillation رئيسية واحدة ، لذا فلم يكن يسودها الاضطراب بين الأفرع المتنافسة ، والملح الثانى : أن الجلفية لم تنتم إلى أى من الفريقين الكبيرين المتنازعين الفقارية والقاسمية ، رغم أن الجلفية أبدت تعاطفاً مع بعض فروع الفقارية خاصة القازدغلية وزمرة نو الفقاربك ، ولا شك أن غياب هذا النزاع فى الولاء قد أسهم فى تكوين الخاصية الثالثة للجلفية وهى أن زعماءها لعبوا دور الوسيط بين الفريقين المتنازعين الفقارية والقاسمية ولعبوا دور الوسيط بين المتنازعين داخل الفريق الواحد ، وباختصار فقد ترك الجلفية انطباعاً أنهم مساعدون أو حلفاء مثاليون ، وهو الدور الذى لعبوه - حقيقة أكثر من مرة وأخيراً لعبوه لدعم القازدغلية .

وأصول زمرة الجلفية غامضة واختلطت بالأساطير اختلاطاً كبيراً ، ويمكن أن نجد رواتين أسطورتين فى الحوليات العربية التى كتبت فى بواكير القرن التاسع عشر ، فالجبرتى فى ترجمته للكخيا على الجلفى يؤكد أن عليا حصل على لقب (انتساب) جلفى Jalfi ، إذ يقول ما معناه : (أغا البنات)

لأن الأغا محمد ، مملوك الأغا بشير القزلار Kizlar وأستاذ The master الكخيا حسن (الجلفى أستاذ على) ، كان من بين توابعه رجل يُسمى منصور الزاتاهارشى al - Zataharci السينجالفى al-Sinjalfi من قرية مصرية تسمى سنجلف Sinjalf ، كان ثريا وله ابنة اسمها خديجة فزوجها للأغا حسن فأصبحت معروفة بأسم الست الجلفية^(٢) .

ولابد أن الأغا بشير القزلار al-kizlar كان واحداً من كبار الخصيان السود الخمسة الذين حملوا الاسم " بشير " وربما كان هو أول من حمل هذا الاسم منهم (الحاج بشير) الذى شغل المنصب (كبير الخصيان السود) من سنة ١٧١٧م إلى سنة ١٧٤٦م ، وكان لصلة الكخيا حسن الجلفى بالأغا الحاج بشير مضامين أعمق وأكبر بالنسبة لوظيفته ككبير للخصيان السود فى مصر كما سنرى فى الفصل الثامن - أهميتها للجلفيين أنفسهم والأكثر أهمية بالنسبة للجلفيين هو زواج الكخيا حسن من

- ابنة منصور الزاتاهارشى Zataharci ، ولقب الزاتاهارشى لقب غامض مُحير ، فاللاحقة التركية (شى) أو (جى Ci) تعنى نسبة إلى مهنة ، وإن لم يكن الأمر كذلك ففي الأمر خطأ فى النسخ ، وقد تكون التسمية الصحيحة زاهر جى Zahireci وهى رتبة دنيا فى كتائب الانكشارية الإمبراطورية (العثمانية) ، وعلى أية حال فحكاية الجبرتي تتضمن أن الكخيا حسن كان أول جلفى خالص استنادا إلى زواجه من ابنة منصور .

ويقدم لنا الشاعر إسماعيل الخشاب فى حويلته - ذات القيمة الأقل بكثير التى كتبها بناء على طلب الفرنسيين - رواية مختلفة عن خرافة تأسيس الجلفية ، باع بائع زيت (معصرانى) زيت سمسم لعسكرى (جندى) ، ثم استضاف هذا البائع العسكرى فى بيته وأدى له خدمة ، وبعد ذلك بثلاثين يوما مات العسكرى ، فاشتري بائع الزين بيته ، وبعد أن عاد بائع الزيت إلى مدينته (بلده his balad) سينجلف Sinjalf حيث قضى فترة من الزمن ، رجع للقاهرة وبدأ يشتري الممالك ، الذين سجلهم فى الفرق (الأوجاقات) وتقدم للحصول على التزام ، وكان أحد هؤلاء الممالك الذين اشتراهم هو الكخيا سليمان الجلفى ، الذى يبدو أن الخشاب يظنه أعظم زعماء الجلفية وأستاذ master الكخيا رضوان الجلفى الذى تسيد مصر بشراكتة مع الكخيا إبراهيم القازدغلى حوالى منتصف القرن الثانى عشر^(٣) ورواية الخشاب تتفق مع رواية الجبرتي فى الدور المحورى الذى لعبته قرية سينجلف فى ولاية المنوفية فى دلتا النيل ، فالاسم جلفى يمكن فعلا أن يكون مشتقا من اسم هذه القرية مادام المسئولون العثمانيون - بل والخشاب نفسه - يبدو قد عامل بادئة اسم القرية القبطية Coptic (المقصود المصرية) سن أو سين أو ساند Sin or Sand كبادئة منفصلة وربما كلمة مستقلة^(٤) والحقيقة أن هذه القرية قد تكون معروفة بين العامة باسم جلف بتعطيش الجيم أو بدون تعطيش Jalf or Galf رغم وجود (جلف) فى ولاية Subprovince بهنسا فى صعيد مصر ، وإذا كانت الجلفية تحذو حذو الزمر الأخرى والأفراد الآخرين الذين يحملون أسماء تنسبهم لقرى مصرية ، ففي هذه الحال يكون هذا اللقب (الجلفى) مشيراً إلى إدارة التزام قرية سينجلف Sinjalf ، ومن المحتمل أن تكون الزمرة

(الجلفية) قد حصلت على هذا الالتزام من منصور الزاتاهرجى Zataharci أو تاجر الزيت (٥) ، وربما كانا هما شخصا واحدا (أى أن منصور هو نفسه تاجر الزيت) ، وإن كان اسمه فعلا Zāhireci ، فربما كان منصور هذا أحد ضباط الإنكشارية حصل على التزام وكان أيضا - وفى الوقت نفسه - يمارس أعمالا تجارية صغيرة . إن قيام التاجر بدور مركزى فى مؤسسة الزمرة قد وضعت الجلفية فى الوقت نفسه فى صفوف الزمر التجارية وغيرها من الزمر غير العسكرية التى انضمت للنخبة فى بواكير القرن الثامن عشر مثل الشرايبيه Sharaybis والفلاحين والفكهانية (Fruiterers) Manavs ورواية الجبرتى عن أصول الجلفية أكثر توثيقاً من رواية الخشّاب ، والمصادر الأرشيفية بالإضافة لحوليات أخرى تشير إلى أن الكخيا حسن هو أول من حمل اللقب چلفى ، وهناك أمر سلطانى فى سنة ١٧١٥م يعين اسم الأوضاباشى شاهين الجلفى Jal'fi'nin Şahin Odabaşı كواحد من سبعة متمردين فروا من مصر فى أعقاب الحرب الأهلية سنة ١٧١١ . وصدرت ثلاثة أوامر تباعا أسمته فيها " شاهين أوضاباش و ، التابع الجلفى " (٦) ويعرفه الدمرداش بأنه الأوضاباشى (الأوده باشى) Odabaşı شاهين الذى أصبحت رتبته " ثالث " thalith (الثالث رتبة عسكرية دنيا) " أثناء حياة الكخيا الجلفى " (٧) . وهذا الكخيا لا يمكن إلا أن يكون هو حسن ، فهو الجلفى الوحيد الذى ظهر فى حولية الدمرداش ، والذى كان قد مات منذ عهد قريب ، وعلى هذا فلقب " الجلفى " الوارد فى مجموعة الوثائق العثمانية المعروفة بالمهمة Mühimme لا بد أنه يشير بالتحديد للكخيا حسن ، والحقيقة التى مؤداها أن الأوامر السلطانية Imperial لم تطلق على " الجلفى " أبدا اسمه الأول (حسن) ولقبه (انتسابه) أمر استثنائى غير عادى ، ما دامت النسبة إلى أسماء الأماكن (المدن أو القرى ... إلخ) هى الاستثناء وليست القاعدة فى سجلات الوثائق المعروفة بالمهمة إلا إذا كان من المفترض أنه ينعم بارتباطات قوية مع الزعيم الخصى الأسود Chief Black Eunuch .

ومع هذا فإن الكخيا حسن يكاد يكون شخصية غامضة ، وربما كان مشهوراً بتوسيعه المشهد الحسينى وتجديده ، وهو المسجد المؤسس فى القرن الثالث عشر . والذى يضم ضريحا يفترض أنه يضم رأس الحسين ابن الخلفية على (رضى الله

عنهما) ، والواقع - أى المسجد - خارج باب القاهرة المعروف بباب الفتوح ^(٨) ، وعلى أية حال فمن الناحية السياسية نجد أن أهم أدواره تجلت فيما يمثل التراث الجلفى عامة وهو توسطه فى النزاع بين الفريقين المتنازعين (الفقارية والقاسمية) وفى سنة ١٧١٢ م تدخل الكخيا حسن فى نزاع بين زعيم القاسمية إسماعيل بك بن إيواظ Ivaz ، وذى الفقار أغا (أصبح بك بعد ذلك) أحد أتباع مجموعة البلفية ، حول قرية قيما العروس Qiman Al - Arus فى البهنسا التى كانت من أوقاف الحرمين ، ^(٩) ورتب حسن تسوية يحصل بمقتضاها ذو الفقار على نصف عوائد القرية طوال حياة الكخيا حسن ، وشروط هذه التسوية تشهد على النفوذ الواسع والمصداقية والمكانة التى لا بد أن الكخيا حسن كان يتمتع بها ، ويذكر الجبرتى أن حسن ترقى من شوربجى Carbaci فى فرقة (أوجاق) العزبان إلى كخيتفى سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١ م قبل موته بعام واحد ^(١٠) ، ويبدو كذلك - والأمر على هذه الحال - أنه أسس زمرة وهو لا يزال شوربجياً ، ولا نعرف عن هذه الزمرة إلا القليل ، فعلاوة على الأوده باشى شاهين الذى اختفى من التاريخ فى أعقاب هروبه من مصر ، كان أتباع حسن المعروفون هم - فقط - الشوربجى إبراهيم - وهو شخصية غامضة - والشوربجى على (الذى أصبح كخيا بعد ذلك) ، وبطبيعة الحال كان هذا الأخير هو الأكثر أهمية بكثير فى تطور الزمرة الجلفية ^(١١).

وبينما يظهر أن الكخيا حسن كان مملوكاً فإننا لا نستطيع الجزم بوضع الكخيا على الذى كان يوصف ببساطة بأنه " تابع " الكخيا حسن ^(١٢) وبغض النظر عن وضعه فيظهر أنه كَوْن حاشية من السراجين الأناضوليين الأحرار بالمولد ، والسراج : مصطلح يعنى حرفياً المسئول عن السروج أو صانعها هو فى معظم الحالات من المرتزقة الأناضوليين أو البلقانيين المستأجرين كحراس شخصيين ويعتمد عليهم لأداء خدمات عسكرية غير نظامية بين الحين والحين ، وفى قرون أسبق كان السراج يقوم بمهام المراقب الليلى ^(١٣) . وكان كل أتباع الكخيا على المسجلين فى سجل رواتب ١٧٣٧ - ١٧٣٨ ، وقد أتوا من مدن الأناضول ^(١٤) ، وأكثر من هذا فالدمرداش يزعم أن الكخيا على رفض أن يضيف المرتزق لآظ Laz إبراهيم إلى زمرة لأنه - أى على - كان لديه بالفعل عدد كاف من السراجين ^(١٥) ، ويبدو أيضاً أن زمرة الجلفية كانت

تضم عددا قليلا نسبيا من القيادات من الممالك المعتنقين (المحررين) الذين يعتمدون على مجموعات كبيرة من السراجين الأناضوليين ، وفي العقود الأولى من القرن الثامن عشر عندما كان العزبان يتنافسون مع الإنكشارية للوصول للمكانة الأرقى ، وتكوين زمر أكبر ، لابد أن يكون السراجون قد أصبحوا محط أنظار الضباط الأعلى رتبا كمورد متوفر ورخيص نسبيا للقوى البشرية .

لقد خدم على الجلفى وهو لايزال شوربجيا راعيه (حاميه His Patran) الكخيا حسن ، كخازندار Treasurer ، ومن خلال هذا المنصب بدا أنه حقق نوعا من الخبرة المالية والمصداقية فى قرية قيماى العروس المتنازع عليها ، وكان له دور فى استقرار الأمور بين ذى الفقار ، وإسماعيل بك بن ايواظ Jvaz ، وكان ذو الفقار مدينا لعلى الجلفى بتوفير مورد رزقه (١٦) ، وأدت وساطة على إلى الربط بين الجلفية وزمرة ذى الفقار بك الذى ظهر كزعيم لفرقة الفقارية ، وعندما أصبح ذو الفقار شيخ بلد للقاهرة رد أفضال الجلفية عليه بأن جعل الشوربجى على والشوربجى إبراهيم (تابع آخر لحسن الجلفى) كخياوين على التعاقب فى كتاب العزبان فى ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ و ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ - ١٧٣٠ م ، ووقفت هذه الترقية أمام طموح الكخيا يوسف البركاوى أحد زعماء شعب الفقارية التى تنافست مع الجلفية على الزعامة بين العزبان (١٧) وعلى هذا فبينما توثقت علاقة على الجلفى بزمرة ذى الفقار دخل فى خصومة مع البركاويين (بكسر الباء) الذين تصدوا له .

وخلال تولى الكخيا على منصب "كخيا الوقت" ظهر أول تحالف بين زعماء الجلفية والقازدغلية ، وعلى أية حال فالتحالف الباكر يناقض بنية التحالفات القازدغلية الجلفية التى أتت فى وقت لاحق ، لأنها أخذت شكل التحالف المتبادل مع عثمان بك تابع ذى الفقار بك ، ومثل هذا التحالف لم يكن ليتصوره زعماء القازدغلية فى فترة لاحقة ، أولئك الزعماء الذين كانوا فى الغالب أعداء ألداء لعثمان بك ، وفى أواخر سنى الثلاثين من القرن الثامن عشر حول عبد الله القازدغلى الكخيا الإنكشارى بقية الزمرة القازدغلية بضم جهوده إلى جهود عثمان بك ذى الفقار الذى كان أميرا للحاج فى ذلك الوقت ، فبطلول عام ١٧٣٧/١٧٣٨ سيطر الكخيا عبد الله ، وعثمان بك ذو الفقار

والكخيا على الجلفى والدفتردار إبراهيم بك قطامش على رئاسة الأوجاقات (الفرق) السبعة بالإضافة لمنصبى إمارة الحاج والدفتردارية ، وربما اتخذ عبد الله موقفه هذا الذى خرج به عن خط مجموعته كى يحصل على نفوذ وقوة يمكنه من الوقوف فى وجه القوة المتزايدة للزعيم القازدغلى الأوده باشى إبراهيم (أصبح بعد ذلك جاويشاً Cavus ، ثم كخيا) الذى ظهر كمنافس رئيسى لعثمان بك ذى الفقار .

بل إن الجلفية حافظوا على روح الحياد رغم تحالفهم مع الكخيا عبد الله من ناحية وعثمان بك ذى الفقار من ناحية أخرى ، وتوسط الكخيا على - محتذيا بتوسطه هذا النموذج الذى جرى فى قيماى العروس - فى المعركة بين عثمان بك ذى الفقار والأوده باشى إبراهيم القازدغلى بخصوص قرية طهطا التابعة لولاية أسيوط فى صعيد مصر^(١٨) ، وتم تعيين على كاشف (الكاشف على) أحد أتباع عثمان بك حاكما للإقليم فى سنة ٧٣٨ م . ومن ثم توغل فى طهطا وقتل شيخ البلد وكان حامل هذا اللقب هو شيخ القرية البدوى ، ولجأ ابن الشيخ (المقتول) إلى الأوده باشى إبراهيم الذى عرض تخليص الإقليم من عثمان بك وعين كاشفا فى زمرة هو (أى زمرة الأوده باشى إبراهيم) ، وعلى أية حال فقد اعترض عثمان بك اعتراضا صريحا على هذه المحاولة المكشوفة لإخراجه من السوق بلا حمص ، وأخيرا رتب الكخيا على الجلفى تسوية يقوم بمقتضاها عثمان بك بإحلال كاشف آخر من زمرة محل على كاشف (الكاشف على) وأن يعترف بابن شيخ البلد (المقتول) كخليفة لوالده فى منصبه (كشيخ بلد) ، وبهذه الطريقة ظلت إدارة طهطا فى زمرة عثمان بك بينما أصبح مرشح الأوده باشى إبراهيم رئيس القرية .

والحقيقة أن حياد الجلفية وجهودهم فى الوساطة بدت معرقة لقدرة الحكومة العثمانية على التأثير فى النبلاء grandes الذين يسيطرون على عوائد مصر من خلال الرئاسة (انتهاء الرئاسة إليهم) ، وكان التكتيك العام للحكومة المركزية خلال هذه الأعوام هو تجاهل كل القابضين على زمام " الرئاسة " لاسترداد عوائدهم (دخولهم أو ريعهم ...) وخلال الثلاثينات من القرن الثامن عشر كان عثمان بك ذو الفقار محل غضب فى استانبول ، فبالإضافة لفشله فى استرجاع عقارات أستاذه Hismaster

المتوفى فقد كان أهمل إرسال الحبوب إلى المدينتين المقدستين كما أهمل إرسال الأموال السنوية Tribute التي ترسلها مصر إلى إستانبول^(١٩) ، ودبر مصطفى باشا والى مصر العثماني وقت النزاعات التي حدثت في طهطا مؤامرة ضد عثمان بك ، وغيره من القابضين على زمام الرياسة ، لكن الكخيا على عقد تسوية أحبط بها المؤامرة^(٢٠) ، وكرر خليفته سليمان باشا العظم الخطة ونجح في قتل الكخيا على باستخدام البركاوية منافسيه القدماء (أي منافسي الكخيا على) .

وأدت ظروف مقتل الكخيا على الجلفى إلى تغييرات كثيرة في طبيعة زمريته التي كانت مكونة في غالبها من السراجين الأناضوليين ، والحقيقة أن هذه الحادثة (مقتل الكخيا على) اوجت لنا بالكثير عن كيفية دخول هؤلاء السراجين للزمر ، لقد كان القاتل الحقيقي لعلى كخيا هو شخص اسمه لاز إبراهيم من المفترض أنه أحد أبناء منطقة تقع في شمال شرق الأناضول معروفة باسم : لازليستان Lazistan ، وقد وصفه الدمرداش بأنه سراج والى جرجا ، وكان لاز إبراهيم قد قتل جنديا في جرجا ، وهرب إلى القاهرة وتوسل إلى الكخيا على أن يجعله في خدمته " مثل أبو مناخير فضة يوسف عندما قتل جنديا في دمياط^(٢١) . . . وقد جعلته أنت من العزيان made him an Azab^(٢٢) ورفض الكخيا على متعللا بأن لديه عددا كافيا من السراجين ، فلجأ لاز إبراهيم الذي اعتراه السخط لمنافس الكخيا على ، الضابط العزبانى الكخيا أحمد البركاوى تابع المتوفى الكخيا يوسف البركاوى الذى كلفه - بموافقة والى العثماني - بقتل الكخيا على الجلفى ، ويستطيع المرء أن يخلص - من هذا المثل أن السراجين كانوا قتلة وقطاع طرق كونوا روابطهم الخاصة بهم مع حمايتهم من الضباط النافذين واليكوات رغم انتسابهم إلى فرقة (أوجاق) أو أخرى ، وفي كتاب العزيان حيث كان عددهم أكثر كان من الواضح أنهم يرقون إلى رتب الجاويشية^(٢٣) Cauus ، وقد قدم السراجون للكخيا على وكذلك لمنافسيه البركاوية بديلا جذابا عن الممالك لسهولة استجلابهم ، ومع هذا فقد كانت ارتباطاتهم ببرعاتهم (حمايتهم) - كما هو واضح - لا تقل عن ارتباط السيد (الأستاذ) بالعبد ، والأمثلة من السراجين الواردين في الحوليات تبين أنهم خدم يدافعون عن أسيادهم بعزم حتى الموت ، بل ومستعدون للقتل من أجلهم^(٢٤) .

ورغم انتشار السراجين الأناضوليين فى زمرة الكخيا على الجلفى فى كتائب العزبان فقد ظهرت مسافة معينة بين هؤلاء العزبان المدرجة أسماؤهم فى سجلات العزبان ، وتابعى الكخيا على الأكثر نفوذا وهما الشوريجى سليمان والشوريجى رضوان ، حقيقة إن هذين الضابطين قد يكونا مملوكين لمؤسس الزمرة الكخيا حسن ، (٢٥) وفى سنة ١٧٣٩م. لاحت الفرصة للجلفية للسيطرة على كتائب العزبان عندما قهر عثمان بك ذو الفقار الكخيا أحمد البركاوى فى السيطرة على الأوجاق (فرقة العزبان) كانت خطة عثمان بك هى جعل الشوريجى سليمان " كخيا الوقت " فى كتائب العزبان من ترقية الشوريجى رضوان للبكرية ، لكن الأنفار وواجبى الرعاية Rank , File أُصروا على قتل الشوريجى رضوان إن تم تعيينه سنجقا ، فاختر عثمان بك بدلا من ذلك أن يجعل رضوانا كخيا الوقت " وأرضى سليمان قائلا أنه سيجعله يتولى المنصب بعده (أى يخلف رضوانا فيه) (٢٦) ، ومن الواضح أن الشوريجى رضوان الجلفى كاد يركب موجه التأييد العام Popular فى منصب "كخيا الوقت " ، لكن المحاربين من الأنفار وواجبى الرعاية قبلوه على مضض .

ومن الممكن أن يكون لإخراج المدونين فى القوائم عدة أسباب ، ربما يكونون قد عملوا لصالح مجموعة البركاوى فى الوقت الذى ربما كانوا فيه يعتبرون رضوان قد عمل كثيرا جدا لصالح عثمان بك ذى الفقار ، وبالإضافة لهذا ربما يعكس حنقهم النزاع (الصراع) التاريخى بين كبار ضباط الفرق (الأوجاقات) من ناحية والضباط ذوى الرتب الدنيا والأنفار وواجبى الرعاية من ناحية أخرى ، والأشد كيدا هو التوريط الذى مؤداه عدم تقديم البكرية الحماية لمواجهة سخط هؤلاء المدرجين فى السجلات enlisted men ، وخلال القرن الثامن عشر وجدنا البكرية تتفوق على سلطة الأوجاقات (الفرق) ، وعلى أية حال فإن البكرية حتى هذه النقطة بدت وكأنها لا تزال ينقصها السلطة المهيمنة الشاملة ؛ أى ظل وضعها إلى حد كبير كما كان عليه حالها فى القرن السابع عشر عندما كان ضباط الفرق (الأوجاقات) ذوو النفوذ يتم ترقيتهم للبكرية لإبعادهم عن قواعد قوتهم .

وقد أتبع الكخيا سليمان الجلفى نفسه لرضوان نتيجة هذه الأحداث المؤسفة ، وعندما فعل هذا راعى التقاليد الجلفية التى قد نسميها " رفقة الأضعف - Weaker Cam " ، وعندما أصبح لدى الزعيم الجلفى تابعان بارزان بدا الواحد منهما قانعا بدعم الآخر له ، وعلى هذا فبينما خلف الكخيا إبراهيم الجلفى رفيقه على "ككخيا الوقت " فى كتائب العزبان فى الفترة من ١٧٢٩ إلى ١٧٣٠م. ظل على متسيِّداً ، ومن بين أتباع الكخيا على الكخيا سليمان ، وهو على النحو نفسه خلف الكخيا رضوان ككخيا الوقت ، ومع هذا فلم يتحدَّ أبدا سيادة رضوان ونفوذه (٢٧) وهذه العناية الواضحة فى الحفاظ على خط التتابع أو خط تولى السلطة أنقذت الزمرة الجلفية من النزاع على السيادة وهذا النزاع الذى أحدث الاضطراب فى معظم الزمر الأخرى بما فيها القازدغلية .

وحاول الكخيا رضوان كرأس جديد للزمرة القازدغلية أن يواصل الالتزام بالتقليد الجلفى الثانى وهو القيام بدور الوسيط بين الفقارية ومناوئهم ، وعلى أية حال فبحلول الأربعينات من القرن الثامن عشر كان النزاع بين عثمان بك ذى الفقار وإبراهيم القازدغلى (الذى أصبح الآن شافوساً " جاويشا " إنكشاريا) قد اتسع بحيث كان من المستحيل على الجلفية أن يواصلوا الاحتفاظ بأى قدر من الحياد مهما قل ، وفى نزاع سنة ١٧٤٣م. حول ناحية فرشوط فى ولاية جرجا فى صعيد مصر ألقى الكخيا رضوان المدين بمنصبه لعثمان بك ذى الفقار - بكل ثقله إلى جانب لقد اتسع نزاع فرشوط بالطريقة نفسها التى اتسع بها النزاع السابق حول طهطا ، لقد كان يدير فرشوط الشيخ همام شيخ الهوارة البدو الذين كانوا قوة فعالة ومنتشرة فى صعيد مصر ، وعندما تم قتل شيخ هوارة فرشوط دفع الشيخ همام " حلواناً " Hulvan (مبلغ من المال للحصول على الالتزام الذى كان يتولاه المتوفى) للجاويش إبراهيم القازدغلى الذى كان ينوى تعيين كاشف من زمرته فى فرشوط واعترض والى جرجا (ولم يكن هو سوى على كاشف " الكاشف على " الذى كان يشتهى فى فترة سابقة الاستحواذ على طهطا) على عثمان بك الذى منع الجاويش إبراهيم من تعيين كاشف من طرفه ، وسرعان ما تدخل الكخيا رضوان الجلفى كما لو كان ينتهز الفرصة للوساطة ، وعلى أية حال فقد كانت طريقته فى التوسط أقرب ما تكون للتهديد فقد ركب إلى منزل

عثمان بك وبصحبته مئة مرتزق Levends ، ويواصل الدمرداش الرواية « لقد كان عثمان بك - بوصفه سنجقاً - يحمل في يده مروحة من سعف النخيل ، ضرب بها خوذة Kavuk الكخيا رضوان »^(٢٨) وكانت هذه الإهانة سبباً في مهاجمة الجاويش إبراهيم مباشرة لعثمان بك ، وطرده من مصر ، وقد يكون المقصود من إهانة رضوان (تلك الإهانة التي ألحقها به عثمان بك) هو أن البيك يريد أن يبين له أن خداعه مكشوف ، وقد وفق رضوان أموره باتخاذ جانب الجاويش إبراهيم القازدغلي ، وذلك بخلاف موقف من سبقاه : الكخيا على والكخيا حسن اللذان واصلتا التمسك بنوع من الولاء التعاهدي مع ذى الفقار .

ورغم هذا فمما يدعو للدهشة هو أن الجلفية مع تحالفاتهم - فى البداية مع بيت ذى الفقار ثم مع القازدغلية ، فإنهم كانوا يتوقعون - بشكل روتينى - أن يقوموا بدور الوساطة ، والحقيقة أن هذا الدور قد يكون ناشئاً عن طبيعة هذه التحالفات التى كان فيها الجلفيون دائماً تابعين أو مساعدين ، فهل أسست هذه الزمرة لتكون رابطة للوسطاء والمحايدين ولم يكن المقصود من تأسيسها أن تسيطر على مصر ؟ إن هيمنة الجلفية على كتائب العزبان تشير إلى أن الزمرة راغبة فى القيادة ، وكانت قادرة على الاحتفاظ بها إذا حازتها ، فقد حاول الجلفية تجنيد أعضاء لا يقلون أهمية عن أعضاء أى زمرة قائدة أخرى ، ولندكر هنا العدد الكبير من السراجين الذين ضمهم الكخيا على للزمرة ، فالأقرب صحة أن الجلفية وهم غير قادرين على التسلل للبكرية أو الكتائب الإنكشارية ، وجدوا لأنفسهم مكاناً ملائماً فى السيطرة على كتائب العزبان وفى تكوين علاقات قوامها القيام بالدور المساعد للزمر التى تتسيد المؤسسات الأكثر أهمية ، هذه التحالفات - على أية حال - كانت تتطوى على مخاطرات ، فالجلفية لم تستطع منع المنافسات بين الزمر التى تحالفت معها من الهيمنة على حيادهم الظاهرى (أى حياد الجلفية الظاهرى quasi - neutrality) ، ومن هنا كان نبذ عثمان بك ذى الفقار للكخيا رضوان مع أن عثمان بك كان فى وقت من الأوقات فى جانب الجاويش إبراهيم القازدغلي .

وأكثر من هذا ففى هذا المجتمع كان التحالف يخلق دائماً إمكانية حدوث تنافس بين المتحالفين مستقبلاً ، فعند موت الجاويش إبراهيم القازدغلي بعد نزاع فرشوط

بأثنى عشر عاما بدأت زمرة رضوان فى مواجهة غيره الكخيا عبد الرحمن القازدغلية ، ومنذ هذا الوقت أصبح الجلفية أقل فرعية لتجمع القازدغلية ومع هذا استمر دورها فى التوسط ، وخلال حكومة الأثنين المكونة من زعيمى القازدغلية إبراهيم بك ومراد بك فى نهاية القرن الثامن عشر توسط الكخيا المدعو محمد أرنادقود Arnavud الجلفى (خادم إبراهيم بك القازدغلى) مع آخرين بين أحد مماليك مراد بك وبين جمهور من العامة الساخطين (٢٩) .

أصول القازدغلية :

القازدغلية شركاء الجلفية الرئيسيون تعود نشأتهم لعدة عقود قبل حلفائهم الأصغر (الجلفية) إذ يمكننا قراءة اسمين لجنديين ملحق بكل منهما اللقب (النسبة) قازطاغى Qaztagı فى سجلات كتائب الإنكشارية لسنة ١٦٧٥ (٣٠) ، وعلى أية حال فبحلول عام ١٧٣٧ أصبحت (قازطاغى) تشكل أكبر مجموعة مفردة بين كتائب الإنكشارية ، وفى دفتر الرواتب اللاحق نجد ٥٤ إنكشارياً (أو ٤,٣٪) إما يحمل لقب قازطاغى ، أو تابعى (تابع) قازطاغى ، أو تابعى (تابع) فلان القازطاغى (٣١) ، وهؤلاء القازطاغيون لا يمكن إلا أن يكونوا ممثلين للزمرة التى اعتادت المصادر العربية على تسميتها بالقازدغلية Qazdoghli or Qazdughli التى نشأت فى كتائب الإنكشارية من بواكير القرن السابع عشر إلى منتصفه ، وبدأت إحكام هيمنتها على مصر كلها تماماً بحلول منتصف القرن الثامن عشر ، وفى المصادر الروائية العربية عادة ما تكتب (قازدغلى) أما سجلات الرواتب التركية فتكتبها (قازطاغى) وفى حوليتى وعبد الكريم (قازطاغلى) مما يوضح بجلاء أن هذا اللقب نسبة adjectival Form إلى قازضاغى أو جبل إداً Ida فى غرب الأناضول (٣٢) ، وعلى هذا فالاسم قد ينطق كازدغلى (بالكاف) أو قازدغلى (بالقاف) ، ولاندرى إن كان يُنطق بالفعل على هذا النحو فى مصر القرن الثامن عشر ، ولا ندرى أيضاً كيف تحول الاسم إلى شكله هذا قازدغلى ، فكيفية تحوله موضع نقاش ، ومن المؤكد أيضاً أن الجيم (g) المشبعة اللينة

(Soft or yumuşak) تنطق كالجيم (g) المشبعة (المعطشة hard) بين كثيرين من المرتزقة من الأناضوليين أنفسهم ، وكان هذا النطق من خواص مناطق شرق الأناضول التي أتى منها عدد كبير من المرتزقة ، والاختلافات في طريقة إملاء الكلمة قد جعل المرء يشك في أن الاسم التركي كان يكتب في بعض الأحيان بشكل خاطئ من قبل ناسخ لُغته الأولى هي العربية مما يجعله غير متآلف مع الأصوات في اللغة التركية وكيفية كتابتها ولا يدري دلالتها الجغرافية ، والحقيقة أن تحولا جذريا مشابها يحدث تباعا في الحوليات العربية في هذه الفترة ، فالكلمة التركية داغ dağ (جبل) تتم كتابتها (دال Dal) حتى في الكتابات التركية ، ومن ناحية أخرى قد يكون تحويل الحرف اللين (المتحرك) من الألف a إلى الضمة غير المحدودة (u) وقد يكون هذا ناتجا عن خطأ بسيط في النطق ربما يكون راجعا لنبرة أناضولية من نوع ما ، هذا من ناحية ، أو لنبرة قاهرية مرتبطة بلهجة أهل القاهرة من ناحية أخرى ، وربما يكون الأمر في أعوام لاحقة أن الاسم مشتق في جانب منه من الكلمة التركية أوغلو Oğlu وتعنى : ابن ، وبالتالي يكون الاسم لاطوغلى يعنى (ابن لاط) .

ويؤكد الجبرتي في ترجمته لمؤسس الزمرة القازدغلية الكخيا مصطفى أنه رومي الجنس ، وكلمة " روم " و " رومي " خلال هذه الفترة تشير - نمطيا - لمناطق الامبراطورية العثمانية التي كان البيزنطيون يحكمونها قبلهم ، أعنى البلقان ومناطق الأناضول الغربية مع تركيز خاص على العاصمة الإمبراطورية (العثمانية) (٣٣) ، وعلى هذا فليس هناك سبب يدعونا للشك في أن الكخيا مصطفى القازدغلى سُمى باسمه هذا ، لأنه أتى إلى مصر قادما من الكازداغى Kazdağı وهي جزء من سلسلة جبلية على طول ساحل خليج إدرميت Edremit في بحر إيجه ، وهذا السلسلة تختلف عن سلسلة أولوداغ Uludag القريبة من بورصة Bursa ، فهي ليست خضراء مورقة وإنما صخرية شديدة الانحدار، ومع هذا تكسوها الغابات بكثافة ، والقسم الأعلى من كازداغلى يتكون من صخرة حادة جرداء (٣٤) ، وبين سلسلة الجبال هذه والبحر يوجد سهل ساحلى مزروع بأشجار الزيتون ، وأقرب المدن الكبيرة إليه هي إدرميت Edremit وبين الحين والحين يلتقى المرء بمركز كبير لإنتاج زيت الزيتون (٣٥) .

ومن الناحية التاريخية لعب الكازداغى دورا مهما فى صناعة الأخشاب فى الإقليم ، فقد تولى رجال القبائل التركمانية البدوية المعروفون باسم يوروك Yürük والذين استقروا فى هذه المنطقة فى القرن الخامس عشر مهمة قطع الأخشاب واعتنقوا العلوية Alevism التى توقر الإمام عليا رغم أنهم ليسوا شيعة ، وعرفت سلالة هؤلاء البدو بالتهتاسيين (٣٦) tahtacis ، ولا نستطيع أن نجزم بما إذا كانت الزمرة القازدغلية فى مصر تعود فى أصولها إلى هذه القبائل أم لا ، وعلى أية حال فيظهر أن أخشاب من كازداغى وصلت إلى مصر خلال الحقبة العثمانية (٣٧) ، وأكثر من هذا فقد كان العثمانيون يحبذون - بشكل روتينى - إلحاق جنود لخوض المعارك الإمبراطورية من بين مجموعات قبلية أخرى خاصة الكرد وتركمان المناطق الشرقية فى الأناضول ، وفى وقت متأخر من القرن السابع عشر أصبحت مناطق الأناضول الغربية - خاصة بجا Blga وكاريسى Karesi الواقعتين شمال شرق الكازداغى - هى المورد الأول لتكوين العسكرية الإمبراطورية عوضا عن المناطق السابقة (٣٨) ، ومن المؤكد أن خشونة الحياة البدوية وعدم اتساعها بالاستقرار فى سلسلة جبال الكازداغى قد جعل العمل فى خدمة السلطان أكثر جاذبية فى نظر هؤلاء الجبليين .

وتشير سجلات الرواتب إلى ورود عدد قليل جدا من القازدغلية بين العدد الثابت من الأناضوليين المرسلين إلى مصر بحلول منتصف السبعينيات من القرن السابع عشر ، وعقب ذلك راحت أعدادهم تزداد ، وفى هذه الأثناء ظهرت الأدلة على عدم استقرار النسبة وكذلك عن بواقع الهجرة (إلى مصر) فى منطقتى كاريسى Karesi وإدرميت Edremit فى وقت متأخر من القرن السابع عشر ، ونعلم من خلال عدة أوامر (سلطانية) نحس حركات تمرد بين الجنود أحدثت الدمار والخراب فى المنطقة فى السبعينيات والثمانينات من القرن السابع عشر (٣٩) ، وكان هؤلاء الجنود فى غالبهم ممن تم تسريحهم بعد معارك السلطان محمد الرابع فى أوروبا خاصة بعد الهزيمة أمام أسوار قيينا فى سنة ١٦٨٣ ، وعندما لم يستطع هؤلاء الجنود أن يجدوا أعمالا مربحة فى الأناضول راح كثيرون منهم يبحثون عن فرص فى مصر وغيرها من الولايات العربية .

لقد كان هناك خيط رفيع يفصل بين العسكرية الإمبراطورية (العثمانية) والمرتزة (قطاع الطرق) ، ما دامت أية أزمة اقتصادية من هذا النوع يمكن أن تنقل أى طرف منهما إلى موضع الطرف الآخر ، لكن خلال هذه العقود نفسها استقبلت مصر دفعة من العسكريين الإمبراطوريين (العثمانيين) تمت تعبئتهم وإرسالهم لمواجهة مشاكل خاصة فى الولاية (مصر) وكانت بعض هذه الكتائب أو المفرزات de-tachments ناتجة عن الجهود الإصلاحية لأسرة كوبرلو Küprülü (كوبريللى) التى خرج منها الصدور العظام (رؤساء الوزارات grand viziers) وفى سنة ١٦٧٠ خاصة عند حركة الإضراب أمر الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) كوبرولو فاضل أحمد باشا ٢٠٠٠ جندى بالتوجه لمصر بقيادة الليفنتانت (الكخيا) قره إبراهيم باشا لإصلاح الأمور المالية فى الولاية ^(٤٠) ، ومما يؤكد هذا الاتجاه العام أن أندريه رايموند Ray-mond اكتشف تشكيلا من الجنود العثمانيين Imperial (كاييكولو Kapikulu) فى سجلات التوريث فى أرشيفات المحكمة الشرعية بالقاهرة بين عامى ١٦٧٢ ، ١٧٢٦ ، وكثيرون من هؤلاء العسكر أتوا من الأناضول وليس بالضرورة - كما يظهر - من كازداغى ^(٤١) ، وتشير المصادر الروائية إلى أن هؤلاء العسكر الإمبراطوريين العثمانيين كانوا قد بدعوا فى إزعاج المجتمع القاهرى وإحداث الفوضى فيه منذ بواكير الستينات من القرن السابع عشر (١٦٦٠ - ١٦٦٩) ، ومن هنا وجدنا عددا من الحوليات تعدد من جديد ما أحدثه فى العقد السادس من القرن السابع عشر (١٦٦٠ - ١٦٦٩) خمسة من الجنود الأفظاظ من البلاط الإمبراطورى (العثمانى) والذين عُرفوا فى العربية باسم : الذرب Zurub ، وهى جمع معرب من الكلمة التركية زوربا Zorba بمعنى متمرّد ^(٤٢) .

وعلى هذا فسجلات رواتب سنة ١٦٧٥ تشير إلى مواضع أناضولية ينتمى إليها الجنود بنسبة ٤:٥٪ بين الإنكشارية والعزبان (انظر جدول ٢/٣) ولا بد أن يكون بعضهم على الأقل من عساكر الإمبراطورية (العثمانية) وركب الكخيا مصطفى القازدغلى - من ناحيته - الطرف المستدق بين العسكرى الإمبراطورى (السلطانى) والمرتزق الانتهازى ، لقد كان بالفعل قد رسّخ أقدامه فى مصر فى العقد الخامس من القرن السابع عشر (١٦٥٠ -) إذا كان لنا أن نأخذ بما جاء فى الأمر السلطانى

الصادر في سنة ١٧٥٣ م، والذي يشير إلى أحد " القازدغلية هو القازدغلي مصطفى من الأوضاباشية (من الرتبة أوده باشى) قيّم المدرسة الباسياتية Basyatiyya في مكة (المكرمة) قبل صدور الأمر بمئة عام هجرى^(٤٣) ، وفي سنة ١٦٥٥ م ، لابد أن يكون مصطفى القازدغلي في حوالى الأربعين من عمره ، ويمكننا أن نحدس أنه كان قد وصل لمصر قبل ذلك بعدة سنوات ، ومن الممكن أن يكون مصطفى قد حصل على رتبة أوضاباشى (أوده باشى) فى كتائب الإنكشارية الإمبراطورية (العثمانية) قبل قدومه إلى مصر وأنه كان واحداً من الأوضاباشية الإمبراطوريين (العثمانيين) الذين استقروا فى مصر وكون معهم تشكيلا متماسكا من الأوضاباشية فى مصر ، وعندما ظهر مصطفى بن محمد " قازطاغى " فى سجل رواتب سنة ١٦٧٥ م . مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا السجل (القوائم) غالبا ما كان يشتمل على بيانات قديمة (غير متجددة) فمن المعقول أن يكون هو نفسه مؤسس الزمرة (القازدغلية) ، لقد كان واحداً من اثنين قازدغلية فى هذا السجل ، أما الآخر (الثانى) فهو على بن محمد الذى قد يكون أخاه ، ويخبرنا الجبرتي أنه عند وصول مصطفى إلى مصر أصبح سراجاً لقائد الجونوليان (الجمليان Gönüllüyan) الأغا حسن بلفية Bilifya ، ولا ندرى إن كانت رتبة الأوضاباشى (الأوده باشى) فى فرقة (أوجاق) الإنكشارية فى مصر ملازمة (أو تساوى) منصب سراج ، لقد رأينا أنه فى كتائب العزبان أن هذا المنصب أكثر ارتباطاً برتبة أعلى هى جاويش (شاقوس Çavuş) كذلك فإنه من غير الممكن أن نقرر ما إذا كان الأغا حسن قد جند مصطفى أو ما إذا كان مصطفى قد تطوع للانضمام إلى زمرة الأغا حسن ، والسراج - كما لاحظنا آنفاً - يبدو أنه مرتزق دفعته غالباً ظروف ارتكاب جريمة للارتباط بزمرة^(٤٤) ورغم أننا لا نملك دليلاً على أن مصطفى القازدغلي ارتكب جريمة فربما يكون قد التحق بزمرة الأغا حسن بموافقة (أى موافقة مصطفى) وبرغبته الشخصية ما دامت لها هذه البنية العامة ، ومن ناحية أخرى فإن حالة تونس Tunisia تقدم لنا دليلاً على أن ضباط الأوجاقات جندوا عساكر أناضولين لتكوين حاشية لهم^(٤٥) ، وفى هذه الحال قد لا يكون على مصطفى أن يتوسل إلى الأغا حسن طالباً حمايته Patronage على نحو ما توسل لاهظ إبراهيم أو أبو مناخير فضة يوسف" وإنما قد يكون حسن أغا قد عمل على اكتسابه لجانبه ، كذلك لا نستطيع أن نجزم بما إذا كان قد تم تجنيده للزمرة قبل وصوله لمصر

أم بعد وصوله إليها . على أية حال ، فإنه يبدو واضحاً أن ضباط الأوجاقات (الفرق) قد استغلوا تدفق الأناضوليين على مصر في القرن السابع عشر - سواء كانوا عساكر إمبراطوريين حاليين أو سابقين أو كانوا مرتزقة مستقلين (يعلمون لحسابهم) - كوسيلة جاهزة لتكوين زمرهم ، وكان عمل سرّاج - مهما كان ارتباطه بالأوجاقات (الإمبراطورية) - هو الوسيلة الشائعة للدخول في المجتمع العسكري المصرى ، وبهذا المعنى كان الكخيا مصطفى القازدغلى نموذجاً نمطياً لقادم أناضولى جديد للزمر العسكرية فى مصر .

وإذا اعتمدنا على سجلات الدفع ، فإن الكخيا مصطفى القازدغلى ربما يكون قد جند سرّاجين - سواء أكانوا من الأناضول أم من غيره - فى زمرة ، وسجل الدفع المؤرخ لسنة ١٧٣٧ يدرج ١٤ عسكرياً من غير الممالك تحت عنوان هو " تابعى قازطاغى " أى تابع قازدغلى ، وبينما هذا التعبير قد يشير إلى التبعية لأى زعيم قازدغلى أو حتى لأى شخص من كازداغى ، فإن الكخيا مصطفى هو المقصود طالما أن عدة حوليات تشير إليه ببساطة بـ " القازدغلى " ^(٤٦) والأهم أن سجل سنة ١٧٣٧ يعطينا انطباعاً بأن العمود الفقرى للقازدغلية طوال العدة عقود الأولى من وجودها تتكون من مسلمين أحرار بالمولد :

جدول ١/٤ الممالك وغير الممالك فى الزمرة القزذغلية

رأس الزمرة	ممالك	غير ممالك	غير معين
قازطاغى	٤	١٤	٧
الكخيا عثمان	١	٢	١
الكخيا سليمان	-	-	١
الباش جاويش عبد الرحمن	١	-	١
الباشا جاويش على	-	١	٢
الجاويش سليمان	-	-	٢
الجاويش حسن	-	٢	-
الجاويش حسين	-	٢	١

غير معين	غير مهاليك	مهاليك	رأس الزمرة
١	١	—	الجاويش عثمان
١	٤	١	الجاويش سليمان
١	—	—	الجاويش يوسف
١	—	١	السرّ أوده عبد الرحمن
١	—	—	السرّ أوده أحمد
—	—	١ (٤٧)	عثمان

وباختصار فإن ظهور زمرة القازدغلية يرجع في الأساس إلى فيض المسلمين الأحرار بالمولد - وكان كثيرون منهم من الأناضول الذين انضموا إلى شبكة الزمرة في مصر خلال القرن السابع عشر، والاتجاه الطبيعي للأوجاقات (الفرق) للاندماج في الزمر لعب أيضا دورا في ظهور هذه الزمرة القازدغلية ، وفي الوقت نفسه فقد كانت كثرة أتباع الكخيا مصطفى علامة باكرة على صعود الكخيا إلى مراتب القيادة في الإنكشارية فتفوق على القيادة " الطبيعية " للضباط الأدنى رتبة ، كل هذه الظواهر كانت دلائل مشيرات إلى الظهور المهيمن للعسكرية الأوجاقية في أواخر القرن السابع عشر .

حكومة الثلاثة : الأغاحسن بلفية ، وإسماعيل بك الدفتردار ، والكخيا مصطفى القازدغلي :

كان الأغا حسن بلفية راعى (حامى) زمرة الكخيا مصطفى القازدغلي هو المظهر الحى لقوة الضابط الأوجاقى خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر ، ووفقا لما يقوله الجبرتي فإن الأغا حسن واصل ترقية سرّاجه حتى حصل على منصب كخيا المستحفظان " (٤٨) وأثناء استحوازه على منصب كخيا إنكشارى ، كوّن مصطفى القازدغلي السّاق (العمود) الثالث لحكومة ثلاثية على رأسها الأغا حسن وصهره

(زوج ابنته) الدفتردار الفقارى إسماعيل بك ، وكان هؤلاء الثلاثة يُسيرون أمور مصر لتحقيق كل الأغراض العملية أثناء حكم الوالين العثمانيين إسماعيل باشا (١٦٩٤-١٦٩٧) وقره محمد باشا (١٦٩٩ - ١٧٠٤) ، والحقيقة أن الدمرداش يشير إلى ولاية إسماعيل باشا بأنها دولة إسماعيل باشا وحسن بلفية^(٤٩) ، وكما سنرى فربما تكون البنية العملية الحاسمة لزمرة الأغا حسن - قد خدمت كنموذج (أو نمط) احتذاه حليفه القازدغلى .

وكان الأغا حسن بلفية شخصا أقرب إلى الغموض ، ويذكر الجبرتى أنه كان روميا rūmi ، ولكنه لم يذكر متى أتى إلى مصر ، وأول تاريخ ذكره الجبرتى عند ترجمته للأغا حسن هو ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤ - ١٦٧٥ . وهو التاريخ الذى أصبح فيه الأغا حسن فى كتائب العزبان^(٥٠) ، وعلى أية حال فإن وثيقة وقف (وقفية) مؤرخة فى ١٦٧٥ تحمل توقيع ككخيا جاويشى سابق Çavuşan Kâhya^(٥١) وفى سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ - ١٦٧٧ وفقا لما ذكره الحلاق كان قد رُقّى إلى البكرية^(٥٢) ، وهذا النوع من الترقية المشكوك فيه كان مألوفاً فى القرن السابع عشر كطريقة لإزاحة ضباط الفرق (الأجواقات) ذوى النفوذ غير العادى عن ميادين الصراع ، وكان حسن أغا قادراً بشكل واضح على الهرب من البكرية بسرعة ، فالجبرتى يحدثنا عن تعيينه متفرقه باشى Müteferrika Başî فى سنة ١٠٨٩/١٦٧٨ ، ثم أغا جونوليان (جمليان) Gonul- (luyani) فى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م . ومجموعة الوظائف الأوجاقية التى تولاهم الأغا حسن تكاد تسمه - بالتأكيد . أنه قدم من القصر الإمبراطورى مادام أغوات الأوجاقات (الفرق) وكل ضباط المتفرقة - فى ذلك الوقت - كان يتم إرسالهم من استانبول^(٥٣) ، وأكثر من هذا فقد رأينا أن كلا من المتفرقة والشافوسية (الجاويشية Çavuşan) كانا قريبين من والى مصر . بل إن الأغا حسن كان أيضاً تابعاً لشخص اسمه الجاويش محمد قياه^(٥٤) Qiyala الذى كان ملتزماً لشبرا قياه Qiyala فى ولاية الغربية ، وهى قرية من أوقاف الحرمين ، وتولى الأغا حسن نفسه التزام بلفية ، وهى قرية موقوفة فى البهنسا ويبدو أنه أسس منطقة نفوذ فى قرى الأوقاف الأخرى القريبة^(٥٥) ، وهذا النوع من السلطة المساندة على قرى الأوقاف يشير إلى روابط قوية بالزعيم

الخصى الأسود للحريم العثماني السلطاني (Kizlar Ağasi or Darüssaade Ağasi) الذى يشرف على الأوقاف من إستانبول .

وربما كان خط (انتساب) بلفية - قباله Bilifya - Qiyala line يعود إلى واحد أو آخر من الزعماء الخصيان السود أو أحد وكلائهم ، فمن كانوا يعملون على تأمين تدفق نظامى لعوائد الأوقاف بتعيين أتباعهم فى التزامات جمع عوائد الأوقاف ، وربما كانت حماية (رعاية) الزعيم الخصى الأسود قد ضمنت قصر المناصب الإدارية المهمة على وكلائه أو أتباعه ، وربما قام الجاويش محمد قباله Qiyala والأغا حسن بلفية كل من ناحيته بتنفيذ هذه الاستراتيجية إما بتجنيد الأتباع من المركز الإمبراطورى ، أو بالتعاون معهم بمجرد وصولهم لمصر ، ثم تمكينهم من المناصب التى تمكنهم من تكوين قواعد للنفوذ والقوة ، وقد يوضح هذا السبب فى قيام الأغا حسن بتوجيه مصطفى القازدغلى إلى كتائب الإنكشارية بدلا من ضمه إلى إحدى الأوجاقات (الفرق) التى كان يقودها حسن أغا نفسه .

إن حكومة الثلاثة التى كونها الأغا حسن بلفية مع الكخيا مصطفى القازدغلى وإسماعيل بك الدفتردار تمت خارج الصراع الصامت بين زمرة البلفية والزعيم الفقارى إبراهيم بك ابن ذى الفقار ابن خشداش إسماعيل بك (مملوك الأستاذ master نفسه) ذو الفقار بك الذى حاول تحقيق مشروع توسيع نطاق الفقارية ، هذا الصراع لعب دورا كبيرا فى توضيح طبيعة الزمرة البلفية والاضطراب (التذبذب) بين الولاءات للرتب rank والولاءات للفرق Factional (ليس المقصود الأوجاقات أو الفرق العسكرية) فى وقت كان فيه تكوين المجتمع العسكرى المصرى فى حالة سيولة in flux (أى لم تكن معاملة شديدة الوضوح) .

كان إبراهيم بن ذى الفقار قد عُين أميراً للحاج فى سنة ١٦٩١م. محل الزعيم القاسمى القوى إبراهيم بك أبو شنب ، وفى هذه الأثناء احتفظ إسماعيل بك زوج ابنة الأغا حسن بمنصب الدفتردار ، وبالسماح للفقارية بالاحتفاظ بالمنصبين خرجت الحكومة العثمانية عما جرت عليه عاداتها من تقسيم المناصب بين الفقارية والقاسمية ، ولتابعة السير فى اتجاه السيادة الفقارية المطلقة حاول ابن ذى الفقار التأثير فى كتائب الإنكشارية التى كان القاسمية حتى ذلك الوقت يتحكمون فيها ، لقد تخلص من

ثلاثة ضباط من القاسمية ، وبهذا أفسح الطريق لعودة الضابط الباش أوده باش (الباش أوضاباشى) كچك محمد Başodabaşı الطموح ذى الرتبة الأدنى (٥٦) ، وكان كچك قد طُرد من الأوجاق مرة فى سنة ١٦٨٠ م. ومرة فى سنة ١٦٨٦ م. بسبب معاندته لمصالح الضباط الأعلى رتبة (٥٧) .

وبدا تعاون كچك محمد مع ابن ذى الفقار فى البداية مُريكا ، فالباش أوضاباشى يظهر فى حولية الجبرتى وفى الدراسات الثانوية الأخرى كبطل شعبى يدافع عن العسكر والناس ضد تجاوزات النبلاء من عسكرين وبكوات (٥٨) . بل إنه يظهر وقد لعب دورا شخصيا مهما فى سقوط أحد ضباط القاسمية وهو فى منصب كاتب كبير (كاتبى كبير Katib - I Kabir) سليم أفندى ، ويظهر من أمر صدر فى سنة ١٦٩٦ أن هذا الباش أوضاباشى اقترض من سليم ٣٠٠٠ قطعة ذهبية (أشرقى ألتون Şerif altun) وكان أيضا مدينا لضابطين آخرين من الإنكشارية ومسئولين من مسئولى الجمارك (٥٩) ، ورغم العداوة الشخصية التى كان يكنها كچك محمد لسليم أفندى ، فربما كان سليم هذا هو بالضبط نموذج الضابط عالى الرتبة المستغل ، والذى كان كشك محمد يحظى بالمديح لمواجهته له ، حقيقة إن الدمرداش جعل من الكخيا مصطفى القازدغلى - العدو الرئيسى لكچك محمد - المرتب لطرده سليم أفندى من الإنكشارية باتهامه باحتجاز جانب من رواتب الجنود لنفسه (٦٠) .

ومن النظرة الأولى بدت مجموعة البلفية قابلة لمكيدة ابن ذى الفقار وكچك محمد ، ووقف إسماعيل بك وحسن أغا ليربحوا ماليا من برنامج ذى الفقار الخاص بتسييد الفقارية وهيمنتها فما أن تولى ذو الفقار إمارة الحج فى سنة ١٦٩١ م ، حتى عمل بعد ذلك بوقت قصير على نقل الإشراف المحلى على أوقاف الحرمين من ضباط الإنكشارية والعزبان إلى البكوات - بل وقصر غالبيها على البكوات الفقارية (٦١) ، وكانت هذه المواقع (المناصب) مقصورة على ضباط الأوجاقات فقط فى سنة ١٦٧٠ م، كجزء من إصلاحات قره إبراهيم باشا ، إن توقيت الاضطلاع بالبكرية يجعل المرء يشك أن هذا كان من تدبير ابن ذى الفقار فى محاولة لإضعاف ضباط الأوجاقات نوى الرتب العليا ، ومثل هذه الاستراتيجية استكملها وألحقها بالتخلص من الضباط القاسمية ومناصرة

كچك محمد ، وفى هذه الأثناء كانت الضغوط الفقارية الخانقة على منصبى إمارة الحج والدفتردار صارمة لم تنقطع معظم سنى التسعين من القرن السادس عشر مما ساعد على تأمين السيطرة الفقارية على عوائد الأوقاف مادام الإشراف على الأوقاف مرتبطاً بالبكرية ، وقد استفاد إسماعيل بك الدفتردار الذى طال مكثه فى منصبه من هذا الاحتكار ، وكذلك استفاد أيضا الأغا حسن الذى كان التزامه يشمل البهنسا التى كانت من أوقاف الحرمين ، والواقع أن كلاً من الدمرداش والجبرتى قالوا بتأمر الأغا حسن مع إبراهيم بك ذى الفقار والوالى العثمانى ، يقول الجبرتى أن ابن ذى الفقار حبك مؤامرة بمساعدة الأغا حسن بلفيه وحث والى مصر فى ذلك الوقت لتعيين الكخيا رجب Receb مستحفظان وسليم أفندى بيكين Beys (سناجق Sanagiq) (٦٢) ، ويبدو أن الأغا حسن كان منحازاً على نحو ما إلى جانب كچك محمد ، فعندما طرد الباش أوضاباشى من كتائب الإنكشارية فى سنة ١٦٨٦م ، جعله الأغا حسن (شوربجى) فى الجونوليان (٦٣) Gönülüyan (أوجاق الجمليان) .

لقد ضاعت الفرصة من مصطفى القازدغلى ، الكخيا الإنكشارى للإشراف على أحد أوقاف الحرمين نتيجة مشروع إبراهيم بك ابن ذى الفقار رغم اشتراكه فى إزاحة الضباط القاسمية من كتائب الإنكشارية ، وعلى أية حال فقد أدت إزاحة الضباط إلى التعجيل بنضال الضباط الأعلى رتبة والأدنى رتبة بين مصطفى كخيا وكچك محمد ، وخسر الكخيا مصطفى توا ، فقد نفاه كچك محمد إلى الحجاز ، ولم يُسمح له بالعودة للقاهرة إلا فى سنة ١٦٩٤م (٦٤) ، عندما نجح الأغا حسن بلفية فى حث إبراهيم بك ابن ذى الفقار على السماح له بالعودة ، وعند عودته أمر مصطفى الساخط أحد السكبانات Sekban (المرتزقة) فى طلخا باغتيال كچك محمد .

وانتهت مغازلة إبراهيم بك بن ذى الفقار بعد ذلك بفترة غير طويلة عندما تأمر مع والى فى محاولة قتل الزعيم القاسمى إبراهيم بك أبى شنب - سلفه فى إمارة الحاج ، وهناك عدة روايات عن اختباء أبى شنب خوفاً من مثل هذه المؤامرة فى جناح حريمه ولم يظهر إلا بعد تعيين والٍ عثمانى جديد وتعيينه قائم مقام (٦٥) .

وقد مات بعد ذلك بفترة قصيرة فى طاعون ١٦٩٦م. كما حدث الشئ نفسه لإبراهيم بك بن ذى الفقار .

وعلى أثر موت إبراهيم بك بن ذى الفقار ، لم تختبر مجموعة البلقية برنامجها الصارم فى تأييد الفقارية ، بل على العكس فقد رأى المنافسون إفساد العلاقة بين أتباع ابن ذى الفقار المتبقين وأنصار البلقية ، وعلى هذا اجتمع الأغا حسن بلقية ، وإسماعيل بك ، والكخيا مصطفى على خلع إسماعيل باشا (١٦٩٤ - ٧) لدعم أيوب Eyub بك عتيق ابن ذى الفقار ، ضد أحد أنصار إسماعيل بك^(٦٦) ، وفى هذه الأثناء يركز الدمرداش على مواصلة الأغا حسن الاهتمام بالعلاقة الفاعلة مع القاسمية خاصة إبراهيم بك أبا شنب ، لقد طلب الأغا حسن - على سبيل المثال - من أبى شنب الاشتراك فى عزل إسماعيل باشا ، وبعد موت الأغا حسن فى سنة ١٧٠٤ ظهر زوج ابنته إسماعيل بك مشاركا فى السلطة مع أبى شنب^(٦٧) ، لقد ظهر حسن أغا مع أبى شنب كطرفين يوازنان القوى بين الفقارية والقاسمية ، وهو ما كانت الحكومة العثمانية نفسها تبحث عليه ، وبدا هذا التعهد شائعا بين رؤساء الزمر فى أواخر القرن السابع عشر ، إلا أن مشروع إبراهيم بك بن ذى الفقار الخاص بالسيادة الفقارية هدد هذا التوازن فى القوى .

لكن بدعم من الباش أوده باشى كچك محمد ، راح ابن ذى الفقار أيضا يعمل على كبح قوة الضباط من ذوى الرتب العالية (الاختيارية) الذين كان الأغا حسن يمثلهم الأول، لقد أدرك ابن ذى الفقار تهديد البكرية فى صمود ضباط الأوجاقات (الفرق) ، بحلول القرن السابع عشر كان الضباط يتسللون إلى التزامات القرى المصرية^(٦٨) ، وهى العملية التى لم يكن من الممكن تسهيلها إلا باحتكار الضباط الإشراف المحلى على أوقاف الحرمين ، وعندما حاول المسئولون العثمانيون الحصول على عوائد من الريف ، فإنهم كانوا يتجهون مباشرة إلى هؤلاء (الاختيارية) وأحيانا كانوا يفوضونهم ويعتبرونهم وكلاء لهم أو مندوبين عنهم Vekils ، وإذا ما حصل هؤلاء الضباط على التزامات استراتيجية فى القرى ، تحكموا فى تدفق الحبوب من قرى الصعيد المنتجة لهذه الحبوب ، ولم تكن أهمية هذه الحبوب ترجع - فقط - لكونها

عوائد تدفع عينا وإنما كانت أيضا تصدر في موسم الحج للحجاز حيث يتم توزيعها على فقراء المدينتين المقدستين ، كما كان يتم مقايضتها بالبن^(٦٩) ، إن الأهمية المالية والتجارية الهائلة لقرى صعيد مصر لم تكن لتضيع من ابن ذى الفقار عندما حاول أن يناور الاختيارية بمناورات أبرع من مناوراتهم ولم يكن الأغا حسن ليسمح بضياها منه فهو الضابط صاحب الالتزام ، وهو في الصدارة - في هذا الميدان - بلا منازع .

ويستطيع المرء أن يقول - إذن - إن النقطة التي عندها كون الأغا حسن وابن ذى الفقار - شركة كانت هي النقطة التي يصنف فيها الولاء للفرقة Factional Loyalty (في هذه الحال للفقارية) ضمن (أو في نطاق) الولاء للرتبة rank ، الولاء للبكرية في مقابل الولاء للضباط ، حقيقة إن التوتر بين الولاء للفرقة (الفقارية) Factional Loyalty والولاء للرتبة بدا يدعم سياسات النخبة ويمدها بالوقود اللازم في فترة متأخرة من القرن السابع عشر ، وعلى أية حال فالعسكرية المميزة لزمرة البلفية كانت في أنها لم تسمح لأي ولاء من الولاءين أن يطغى على الآخر ، فمن ناحية أصر الأغا حسن على الاحتفاظ بنظام الفرقين Two - Faction System (الفريق الفقاري والفريق القاسمي) ومن المفترض أن ذلك لصالح النظام ، ومن ناحية أخرى فإن زمرة الأغا حسن ربطت استراتيجيا بين الضباط والبكوات ، فكثير من البكوات كانوا هم أنفسهم ضباطاً سابقين وسمح لهم جميعا بالاشتراك في التسابق للحصول على الالتزامات ، ويعد إسماعيل الدفتردار حالة من الحالات ؛ فقد كان أغا قبل زواجه من ابنة الأغا حسن ، وقام بدور الضابط الذي يتولى الالتزام (أى أنه كان ضابطا وصاحب التزام في أن واحد) ، وكان مع اثنين من الكخياوات الإنكشارية - يعمل وكيلا Vekil للوالى العثمانى حسن باشا في جمع العوائد من قرى الفيوم والغربية ، وأدى المهمة نفسها في قريتين من قرى جرجا لرئيس مساعدى الرزنامجى Ruznameci (أمين سجل يوميات الخزانة)^(٧٠) .

لقد كانت المنافسة بين زمرة البلفية وزمرة إبراهيم بك بن ذى الفقار - في هذا الوقت منافسة بين نوعين من الزمر مختلفين اختلافا أساسيا ، فزمرة ابن ذى الفقار

ووضعت نصب أعينها هدفا هو الزمرة نفسها ، وتشير الظواهر إلى تفضيلها السيادة
البكرية beylical Supreumacy ، أما مجموعة البلفية فعلى العكس فقد استسلمت للفكرة
التقليدية عن توازن القوى بين الفريقين .

فرغم ثروتها ونفوذها وتأصلها في ظاهرة الضابط المتولى الالتزام Officer / tax Farmer فإنها لم تترد في دمج البكوات في الزمرة باسم النفعية (البرجماتية) ، وفي عقود
لاحقة ستتبنى القازدغلية شكلا مغايرا لهذه الاستراتيجية النفعية (البرجماتية) في
بناء الزمرة ، ولابد أن كچك محمد كان واحدا من البلفية الذين جمعوا بين مهام
الضابط ومهام تولى الالتزام رغم أن سكبانه his Sekban في طلخا - الذى حثه
مصطفى كمال يقا - على قتل كچك محمد - هو دليلنا الوحيد على أن مصطفى كان له
ممتلكات في الريف ، والكخيا مصطفى هو إلى حد بعيد أكثر الشخصيات الثلاثة في
مجموعة البلفية غموضا ، لقد كان دائما موجودا في الأحداث الخطرة - كعزل
إسماعيل باشا - ومع هذا فمدى سلطته لم يكن محددا بوضوح كافٍ ، وتعطينا
الحواليات انطبعا أن الأغا حسن وإسماعيل بك كانا أهم الثلاثة ، فعندما شغل قره
محمد باشا (١٦٩٩ - ١٧٠٤ م) نفسه بملذّاته ، ترك مهمة جمع العوائد ودفع
الرواتب لإسماعيل بك الدفتردار والأغا حسن بلفية وليس للكخيا مصطفى بالتحديد (٧١) ،
ومع هذا فإن عبد الكريم يشير إلى إسماعيل بك والكخيا مصطفى باعتبارهم رأس
(زعيمى) الفقارية (٧٢) ، ومن الواضح أن القصر الإمبراطورى في إستانبول كان
مدركا لشهرة مصطفى وأهميته ، وفي صياغة لأمر سلطان في سنة ١١١٠ هـ /
١٦٩٩ م يخاطب السلطان كل نبلاء مصر (ذوى الحيثية) لأداء الواجبات التى أناطها
السلطان بهم - يفرد أغا الجمليان حسن " والاختيار مصطفى في أوجاق
المستحفظان " (ورد ذكر إسماعيل بك الدفتردار في السياق بطبيعة الحال) (٧٣) ،
ومثل هذه الصياغة غير معتادة إلى حد كبير ، فهؤلاء الأشخاص الذين أفردهم الأمر
السلطاني هم الذين تعترف بهم الحكومة المركزية (في إستانبول) كقوة تنفذ
بها الأوامر .

وكان الكخيا مصطفى بلا شك يعتبر شخصا ذا نفوذ بسبب مكانته فى كتائب الإنكشارية ، فنحن نعلم أنه جمع ستمئة تابع على الأقل فى هذه الكتائب ، فالجبرتى يذكر أن الستمائة تابع للكخيا مصطفى القازدغلى قد انضموا إلى كتائب العزبان مع بداية الحرب الأهلية سنة ١٧١١^(٧٤)، وأكثر من هذا فعندما عُزل كچك محمد فإن الكخيا مصطفى ومن بطرفه his party حكموا الأوجاق بيد من حديد وأمعنوا تقتيلا ونفيا وطردا فى مناوئهم^(٧٥)، وأحد أفراد هذه المجموعة وهو الشوربجى مصطفى بن الحصرى زاد من القوة المالية للإنكشارية بنقل دار سك العملة من ديوان الوالى ، ليجعلها داخل بوابة الإنكشارية فى القلعة وأخذ على عاتقه وظيفة " أمين دار الضرب " ^(٧٦) ، ولابد أن هذه الاستراتيجية تمكن الإنكشارية من مواجهة تخفيض قيمة البارا para المصرية (العملة الفضية) وبذا يتم مواجهة تخفيض رواتبهم^(٧٧) ، وبذلك كانت زمرة القازدغلية عند موت مؤسسها فى سنة ١٧٠٤م. قوة كثيرة العدد متينة الاقتصاد داخل أوجاق الإنكشارية .

زعماء القازدغلية بعد موت المؤسس :

أكانت زمرة القازدغلية برعاية الكخيا مصطفى خلال الفترة من منتصف القرن السابع عشر إلى فترة متأخرة منه - موجودة؟ هذه مسألة مختلف فيها ، فإذا كان مصطفى واحدا من بين العدد الكبير من العساكر الأناضوليين Kapikulu ، فهو إذن مجرد واحد بين عدد كبير من العساكر القادمين من منطقة كازداغى Kazdagi فى غرب الأناضول ، ومن المقبول أن تكون مجموعات من المهاجرين القازدغلية قد تعاونت معا داخل المجتمع العسكرى المصرى فى نحو نهاية القرن السابع عشر ، لكن الكخيا مصطفى هذا برز عن رفاقه القازدغلية ونجح فى تكوين زمرة انتهى بها المطاف إلى التسيد على مصر ، وعلى النحو نفسه فإن كلا من هذه التجمعات كان يمكن أن تضم أناضوليين آخرين أو حتى غير أناضوليين ، هؤلاء التابعون (أو التوابع) القازدغلية الذين وردت الأماكن التى أنوا منها (أصولهم) فى سجلات رواتب ١٧٣٧ تشمل خمسة

أناضوليين من مناطق مختلفة ، بما فى ذلك لازلستان Lazistan بالإضافة إلى بوسنى وبغدادى ، وهذا البغدادى كان فيما مضى تابعا فى جيوش الولاء الذين يحكمون حكما ذاتيا فى بغداد ، لذا فربما كان مملوكا جورجيا .

ومن المؤكد أن القازدغلية الأوائل – كما وصفوا أساساً فى صفحات الدمرداش – كان ينقصهم التماسك الشديد الذى ظهر فى زمريهم بعد ذلك ، وربما كانت هناك مجموعتان قازدغليتان منفصلتان أو حتى ثلاث ، وكانت شخصية الكخيا ناصح Nasuh أحد خصوم الباش أوضاباشى أفرنج أحمد (الثمانية) والذى أدى طرده من كتائب الانكشارية إلى اشتعال الحرب الأهلية فى سنة ١٧١١م ، – كان هو نفسه على نحو خاص شخصية مبهمة ، والدمرداش والجبرتي يشريان إليه ونسباه إلى القازدغلية (الكخيا ناصف القازدغلى) بل ويزعم الجبرتي أنه ابن أخ الكخيا مصطفى^(٧٨) ، ومع هذا ففى حولية الحلاق وكذلك فى مجموعة الوثائق المهمة mühimme يرد هذا الشخص باسم الكخيا ناصح Nasuh دون أى نسبة على الإطلاق ، وفى الحوليات والأوامر السلطانية على سواء لا يظهر ناصف مرتبطا بوضوح بزمرة قازدغلية أكبر فانما يظهر – فقط – مرتبطاً بقائدين آخرين مهمين من قادة التمرد هما الكخيا نجدلى حسن ، وكور Kōr (تعنى الأعمى) عبد الله ، وهو جاويش ، ويفيد ارتباط ناصف بأحد الضباط الذين ترجع أصولهم إلى مدينة نجده (نغده) الواقعة وسط الأناضول إلى وجود عدد من العسكر الأناضوليين بين المتمردين ، أو على وجود ثلاثة على الأقل منهم يمكن تحديدهم كأناضوليين^(٧٩) ، ومن الممكن أن يكون ناصف هذا مهاجرا من كازداغى أو من منطقة أخرى فى الأناضول ، لم يلتحق بزمرة القازدغلية أو على الأقل ابتعد بطريقة ما عن أن يكون من بين الأعضاء الفاعلين والمؤثرين فى الزمرة ، ورغم أنه لم يكن هناك نبيل قازدغلى آخر مرتبطاً بتمرد ناصف وأصدقائه ، فالحقيقة أن الستمائة عضو فى زمرة الكخيا مصطفى حذت أخيرا حذو المتمردين فى كتائب العزيان مما يشير إلى شىء من الروابط بين المتمردين والزمرة القازدغلية الرئيسية ، وقد تكون هذه الروابط فى جانب منها على الأقل عرقية (إثنية) ، ولكنها قد تكون أيضا ناتجة عن تضرر عام بسبب المساس بامتيازات الضباط ذوى الرتب العالية ،

وبمسار الترقية (الأوضاباشى - الشاقوس " الجاويش " - الكخيا) ذلك المسار الذى عمل أفرنج أحمد على تمزيقه وإخراجه من مساره ، ومسار الترقية هذا لعب دورا حاسما فى تطور القازدغلية بعد ذلك .

الجاويش حسن Çavuş :

بعد موت الكخيا مصطفى فى سنة ١٧٠٤ م. انقسمت المجموعة القازدغلية الرئيسية التى كان هو نفسه على رأسها إلى فرعين: فرع على رأسه تابعه الجاويش حسن ، وفرع على رأسه تابعه الجاويش سليمان ، أما سليمان فبدأ ملتزما بالتقاليد التى تراعيها الجلفية أى القيام بدور الرفيق التابع أو الأضعف ، رغم أنه كان تحت رعاية (حماية) الجاويش إبراهيم الذى وجه الزمرة القازدغلية لتصل إلى ذرى غير مسبوقة ، وظل سليمان نفسه شخصية غير بارزة يلقى عليه الجاويش حسن بظلاله ويفطيه تماما ، وكان حسن بلا شك هو الأكبر سنا والضابط الأكثر خبرة ، وذكر الجبرتى أنه هو الذى رقى سليمان من شوربجى إلى أوضاباشى (أوده باشى) فى سنة ١١٢٨ أو ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م (٨٠) .

أما الجاويش حسن ، فلا نعلم عنه إلا القليل تماما كعلمنا عن الكخيا مصطفى ، وتشير سجلات المحكمة الشرعية التى فحصها أندريه رايموند إلى حسن باعتباره مملوكا لمصطفى ، وعلى أية حال فإن أيا من حوليات بدايات القرن الثامن عشر لا تشير إليه بهذه الصفة ، وربما كان هذا لأن كُتِّب هذه الحوليات لم يكونوا متأكدين إن كان مملوكا أم لا (٨١) .

وعند موت الكخيا مصطفى فى سنة ١٧٠٤ م. ارتدى حسن الدلامة dolema" وفقا لما ذكره الدمرداش - وهى عباءة تدل على أن لابسها جاويش (شاقوس (٨٢) Çavuş) ، وكان قد أصبح باش جاويش bas Çavuş بحلول عام ١٧١١ وكخيا فى سنة ١٧١٤ ، ومن الواضح أن (حسن) كان - ببساطة - غير قادر على بسط سيطرته على كتائب الإنكشارية التى كان يسودها الكخيا مصطفى ، لكنه - أى حسن - كان مضطرا للترقى فى الرتب ، وعلى أية حال فإن خط الترقية الذى سلكه كان هو الخط المعتاد : أوضاباشى Odabasi - شاقوس Çavuş (جاويش) - كخيا ، وهو خط الترقية السائد

بين طبقة الكخياوات ، ويبدو أن حسنا قد مات بعد فترة وجيزة من ترقية إلى رتبة كخيا إذا كان لنا أن نأخذ برواية الجبرتي التي نفهم منها أنه في سنة ١١٢٨ هـ / ١٧١٦ م شارك أتباع حسن شاقوس (جاويش) في رياسة headship كتائب العزبان ^(٨٣) ومن المفترض كممثل للإنكشارية القازدغلية الذين انضموا إلى كتائب العزبان احتجاجاً على الأوده باشي أفرنج أحمد .

والحقيقة أن أهم عمل action للجاويش حسن كان هو التحاقه بهذا الانضمام (الارتداد) إلى العزبان في محرم سنة ١١٢٢ هـ / مارس ١٧١٠ م ، ويمكن اكتشاف دوره في هذا التحول إلى كتائب العزبان بصعوبة من خلال الحوليات ، فأخبار النواب ، وعبد الكريم ، وأحمد جلبى (شلبى) ، والجبرتي ، كل هذه الحوليات تروى روايات مختلفة عن الموضوع ، أن الأتباع الستمئة للمتوفى الكخيا مصطفى يتبعهم خمسة عشر ضابطاً إنكشارياً نقلوا ولاهم لكتائب العزبان بعد أن اتفقوا على عدم إمكانهم تأييد أفرنج أحمد كباش أوضاباشى ^(٨٤) başodabaşı ، ومثل هذه الرواية تميز بين القازدغلية المتمردين (الساخطين) والضباط الإنكشارية المتمردين (الساخطين) ويمكن أن نعتبرها تعنى إما أن المدرجين ضمن زمرة القازدغلية كانوا يتحركون دون موافقة ضباطهم ، أو أن الزمرة القازدغلية في هذه المرحلة لم تكن تضم عدداً كبيراً من الضباط ، وعلى أية حال فالجبرتي ^(٨٥) يشير (بعد ذلك بفترة وجيزة) إلى ثلاثة كخياوات وعشرة شوربجية Carbaçis بين العسكر المرتدين defecting الذين نقلوا ولاهم للعزبان مما يعنى أن القازدغلية كانوا بالفعل ممثلين تمثيلاً جيداً بين رتب الضباط المختلفة في سنة ١٧١٠ ، ويشرح كتاب " أخبار النواب " وحولية الجبرتي بالتفصيل أن الجاويش حسن Çavus ، وخشداشه الشوربجي سليمان ، وتابع هذا الأخير الشوربجي إبراهيم عند العودة من الحج في صفر ١١٢٢ هـ / أبريل ١٧١٠ ، انضموا إلى الخارجين exodus ، وفي وقت لاحق تجمعت قوة عزبانية لمواجهة قوات أفرنج أحمد التي تضم هؤلاء الإنكشارية الذين سبق أن انضموا إلى العزبان " مثل الأمير السابق الباش جاويش Bas Çayus حسن ، والأمير الجاويش حسن ، التابع القازدغلي والأمير الكخيا حسن شلبى وجماعة الجاويش محمد جدك ^(٨٦) .

إن الخارجين القازدغلية ؛ أى المنضمين إلى كتائب العزبان قد وضحو عدة ملامح عامة للزمرة القازدغلية فى هذه المرحلة من تطورها ، ففى المقام الأول استمرار المعارضة الشديدة للقازدغلية للزمر الأوضاباشية الراديكالية كزمرتى كچك محمد وأفرنج أحمد ، وأكثر من هذا فبحلول عام ١٧١٠ كان للزمرة القازدغلية أعداد (أعضاء) كافية تمكنهم من إلحاق الضرر بكتائب الإنكشارية إذا تعرضت مصالح القازدغلية لأى تهديد ، ومن هنا فقد عرضوا (أظهروا أو أبدوا exhibited) تضامنا مع المرتدين الثمانية (المقصود : ارتدوا عن إنكشاريتهم وانضموا للعزبان) الذين بدا أنهم كانوا فى غالبيتهم ضباطا ساخطين ، وربما كانوا من الذين كان خط ترقيتهم يسير فى خط أوده باشى - جاويش - كخيا ، وهو الخط الذى اعتدى عليه (انتهكه) أفرنج أحمد ، وتؤكد رغبة الجاويش حسن فى الانحياز إلى مجموعة جدك Gedik group فى هذا الارتداد defection التزام Cammitment القازدغلية بالمبدأ العام وهو الحفاظ على امتيازات كبار الضباط ، فقد كان الكخياوات الذين سادوا كتائب الإنكشارية فى هذه الفترة من زمرة جدك Gedik household وهى الزمرة أو المجموعة التى كان يؤثرها الزعيم القاسمى إسماعيل بك من إيواظ Ivaz ، وعلى هذا فقد كان الجدك Gediks منافسين محتملين للقازدغلية ، وأكثر من هذا فلم تكن هناك رابطة سابقة من ولاء تربط الزمرتين ، ولكن الحفاظ على هيمنة الكخياوات على كتائب الإنكشارية وعلى خط الترقية من الأوده باشى حتى الكخيا - كان مسألة خطيرة أو محل انتقاد لترقى (صعود) القازدغلية فى الفرقة (الإنكشارية) ، لذلك اختار الجاويش حسن أن يأخذ جانب رفاقه الضباط ذوى الرتب العالية ، رغم موقفهم التنافسى منه .

وأخيراً دلت ظروف تحول الجاويش حسن القازدغلى إلى كتائب العزبان على الأهمية الشديدة لضباط الإنكشارية فى قافلة الحج ، لم يستطع الجاويش حسن القازدغلى الانضمام إلى حركة الارتداد (التحول إلى العزبان) فى بدايتها لأنه كان مع الشوربجى سليمان والشوربجى إبراهيم - بعيدا فى الحج (كان فى الديار المقدسة مع قافلة الحجاج) كان الجاويش حسن يتولى مهمة سيردار القطار Serdar al - qitar

(أى قائد مسيرة القافلة) أما سليمان فكان سردار الصرة (أى قائد القوة التى تقابل الحجاج عند عودتهم إلى مصر) أما إبراهيم فكان سردار الجداوى Jiddawi (أى الذى يشرف على القافلة عند توقفها فى ميناء جدة على البحر الأحمر) ، لقد تعزز دور الإنكشارية فى الحج وزادت قيمتهم منذ بواكير القرن الثامن عشر عندما تدهورت حالة الأمن فى طرق الحج بسبب زيادة هجمات البدو ، وأصبح سردار القطار على نحو خاص - منصبا بارزا فى هذه الأعوام وبدأ صاحب هذا المنصب يضارع بنفوذه أمير الحج ^(٨٧) amir al - hajj ، وبدأ الجاويش حسن وزميلاه (سليمان وإبراهيم) تقليدا قازدغليا مؤداه أن تدخل الزمرة القازدغلية فى أمور الحج يمكن الزمرة من بناء روابط مع الحجاز ، تلك الروابط التى كونها الكخيا مصطفى خلال خدمته هناك (فى الحجاز) ، فقد كانت الارتباطات الجيدة مع الحجاز غاية فى الأهمية بالنسبة لتجارة البن فى البحر الأحمر ، تلك التجارة التى راحت كتائب الإنكشارية عموما - والقازدغلية خصوصا - تهيمن عليها فى القرن الثامن عشر ^(٨٨) .

وعلى هذا ، فمن بعض الأوجه ، تمثل مهمة الجاويش حسن القازدغلية تراجعا عن السلطة الدكتاتورية التى تكاد تكون كاملة والتى مارسها الكخيا مصطفى رعية الجاويش حسن (أى الذى كان يرعاه حسن Hasans's Patron Mustafa Kähya) على كتائب الإنكشارية ، بل إنه مع أن القازدغلية ظلوا لفترة راضين عن دور التابع لضباط الجدك Gedik officers فقد احتفظوا بممارسات فعالة بين جماعة (رتب) الكخياوات وبين سائر الرتب المؤدية إلى رتبة الكخيا ، أو بتعبير آخر التى تعتبر رتبة الكخيا هى آخر خط الترقية فيها ، ومن خلال هذا الخط من الترقيات سيستعيد القازدغلية مرة ثانية السيطرة على الفرق (الأوجاقات) ، وفى هذه الأثناء تمكنت الزمرة القازدغلية فى ظل الجاويش حسن من السيطرة على إدارة قافلة الحج ، وبدأت سيطرتهم سيطرة شخصية أكثر من كونها مؤسسية ، مادامت المناصب الثلاثة الرئيسية فى قافلة الحج كان يشغلها القازدغلية فى وقت من الأوقات التى كانت فيها الزمرة لا تحكم قبضتها على الرتب (المناصب) العليا فى كتائب الإنكشارية ، إن ارتباط القازدغلية بالحج

وبتجارة البن سيثبتان مركز القازدغلية عندما تحركت أخيراً للسيطرة على الأوجاق (الفرقة الإنكشارية) ، والخلاصة أن أعوام إدارة الجاويش حسن كانت هي أعوام التمهيد لغلبة هيمنة الزمرة في كتائب الإنكشارية .

الجاويش عثمان :

بعد موت الكخيا حسن في حوالى سنة ١٧١٦م تولى تابعه his client الجاويش عثمان إدارة الزمرة القازدغلية ، وهو - مثل الجاويش حسن تشير إليه وثائق المحكمة الشرعية على أنه مملوك لراعيه his patron ، وعلى أية حال فإن الحوليات التاريخية ووثائق الدفاتر المهمة mühimme لم تحدّد هذا أو بتعبير آخر لم تذكر أنه مملوك ، وفي ظل وصاية الجاويش عثمان فرضت القازدغلية نفسها كزمرة إنكشارية متفوقة ، واتبعت الاتجاه العام الذى ساد بين الإنكشارية وهو منافسة البكرية فى السيطرة على الالتزامات الريفية المربحة ، وقد مارس الجاويش عثمان مثل هذه السلطة (تولى الالتزام) من خلال سلسلة من التحول فى الولاءات كانت - أى هذه السلسلة من التحولات - ذات طابع انتهازى .

لقد صعد نجم الجاويش عثمان فى سياق إهمال الانقسام الفقارى القاسمى (أى بعد أن أصبح الانقسام الفقارى القاسمى على وشك الزوال) ذلك الانقسام الذى هيمن على الكوادر العسكرية فى مصر حوالى قرن من الزمان ، فبموت الزعيمين القاسميين إيواظ بك فى سنة ١٧١١م. وإبراهيم بك أبى شنب فى سنة ١٧١٨م. انقسم الفريق Faction القاسمى على نفسه ، فابن إيواظ إسماعيل بك الشاب المتحمس مثير الفتن والقلقل ركب موجة المنافسة التى طال أمدها مع المملوك الشركى لأبى شنب ، ونعنى به محمد بك شركس ، وفى هذه الأثناء حاول البيكان أن يتفوقا فى نفوذهما على خليفة (أوريث) الزمرة الفقارية (زمرة ذى الفقار بك) تابع client الزمرة البلفية Bilifya وخوفاً من هذا التهديد لتوازن القوى التقليدى أصدرت السلطات العثمانية فيضاً من القرارات المفاجئة القاضية بتقسيم المناصب المهمة بين الفقارية والقاسمية^(٨٩) ، ووسط

هذا الاضطراب العظيم ، راحت القوة المتنامية لضباط الأوجاقات (الفرق) تضغط ضد طبقة البكوات التي كانت حتى الآن تسطير على الفريقين (القاسمية والفقارية) ، ويشهد سجل الالتزام (مقاطعة دفتري muqàtaa defteri) الخاص بسنة ١١٣٤ - ١١٣٥ هـ / ١٧٢١ - ١٧٢٣ م ^(٩٠) على أن الضباط العسكريين كانوا يحصلون على التزامات القرى بعدد يكفى لأن يجعلهم يتحدون هيمنة البكوات والكشاف فى الريف ، وكان الجاويش عثمان القازدغلى فى طليعة هذا التحدى الأوجاقى (فى طليعة العسكريين الذين تحدوا نفوذ البكوات والكشاف) .

لقد أتاح الصراع بين محمد بك شركس وذى الفقار بك فى أواخر سنى العشرين من القرن الثامن عشر (١٧٢٠ -) الفرصة للجاويش عثمان بك ليفرض نفسه كقوة مستقلة ، وفى فبراير سنة ١٧٢٦م. انضم عثمان لقوة من ١٥٠٠ مقاتل من كل أوجاقات (فرق) مصر السبعة تقدمت ضد محمد شركس ودعما لذى الفقار بك ^(٩١) ، ومن الناحية الظاهرية كان هذا الصراع بمثابة مواجهة تقليدية بين الفرقة الفقارية بزعامة ذى الفقار بك وبقايا القاسمية بزعامة شركس محمد ، ومع أن الجاويش عثمان أضعف العداوة بين البكوات من الفريقين (القاسمى والفقارى) بإظهاره إيماءات توفيقية نحو جماعة Party شركس محمد ، وباختصار فإنه بعد المعركة التى هزم فيها شركس محمد هزيمة منكرة منع الجاويش عثمان إعدام عدد من مؤيدي شركس محمد ، أما الأقرباء (أبناء الجلدة) الذين أحضرهم شركس محمد من ديار الكُفر (المقصود من بلاد الشركس) ^(٩٢) والذين تركهم فى القاهرة عندما هرب فقد أُجبروا على الإقامة فى ضياعهم فى الريف ، وفى هذه الأثناء لم يلق ضباط الإنكشارية الثلاثة الذين تحالفوا مع شركس من العقاب سوى التحفظ عليهم فى منازلهم ^(٩٣) ، وقد أسخطت مكيدة الجاويش عثمان ذى الفقار بك الذى اتهم الجاويش عثمان بخداعه فى ولائه الفقارى ورجباره على نفى الضباط إلى الحجاز ^(٩٤) ، لكن هذه العروض للشركس التى تم تقديمها بكرم للزمرة القازدغلية . لواحد من المؤيدين الإنكشارية المؤثرين - الشركس ونعنى به الجاويش محمد الدودلى al-Daudli الذى وافق على تعيين الجاويش عثمان كوكيل agent على أراضى الدودلى Dawdli ، وفى هذه الحال اختار الجاويش عثمان الولاءات الأوجاقية (العسكرية) وفضلها على الولاءات للفرق

القاسمية والفقارية Factional Loyalty وقد استفاد من هذا الاختيار^(٩٥) ، والحقيقة أن حماية " رعاية Patranaga الجاويش عثمان للدولية daudlis تدل على الرغبة في تدمير الزعامة البكرية للفريق Faction الفقاري باختيار زمرات إنكشارية - سواء أكانت فقارية أم قاسمية ممن تخدم مصالحه ، وعلى هذا فقد دعم نفسه ضد ذى الفقار بك بمد سيطرته على كتائب الإنكشارية .

وفى سنة ١٧٢٩م. أصبح الجاويش عثمان قابضا على زمام كتائب الإنكشارية^(٩٦) ، فرغم أنه كان لا يزال جاويشا فقد مارس مهام منصب الكخيا ، وراح يرقى الكوادر ويعزلها وفقا لما تمليه الاعتبارات العملية ، لقد رقى عثمان نفسه إلى رتبة كخيا فى العام التالي ، فانقض بقسوة على الزمر الإنكشارية التى لم يقع عليها اختياره لتكون ضمن أتباعه ، وأبطل زمرة hokusehold جدك Gexik وقتل اثنين من المجموعة الشريفة Serifian group الواعدة أى التى كان يتوقع لها الازدهار^(٩٧) ، وتحصن وراء سلطانه فحكم الأوجاق regiment بالرعب والضرب ، وينفى وإبعاد أولئك الذين اعتبرهم غير جديرين بالبقاء^(٩٨) .

لقد أقام الجاويش عثمان أسس سلطانه فى الفترة التى كان فيها فى رتبة جاويش مثله فى ذلك مثل راعيه الجاويش حسن ، وعلى أية حال فقد بدا مستثمرا لهذه الرتبة بطريقة أكثر نجاحاً وبسلطان أكثر مما كان على أيام الجاويش حسن ، فقد أحكم وهو لا يزال جاويشا - قبضته على الأوجاق (الفرقة) بطريقة لم يسبق لها مثيل منذ أيام الكخيا مصطفى ، وشارك عثمان أيضا فى الرئاسة وهو لا يزال جاويشا بطريقة غير معتادة بالنسبة لجاويش^(٩٩) ، وأكثر من هذا فقد كان على عكس حسن غير مضطر للانحياز لإحدى القوى المتنافسة مثل زمرة الجدك Gediks ولكنه ببساطة تخلص منها .

لقد حافظ عثمان ، بل وقوى الارتباطات بقافلة الحج تلك الارتباطات التى وضع أسسها جيل سابق من القازدغلية ، فقد عين لجدة منذ سنة ١٧٢٤م ، وهو منصب (رتبة) يعنى ضابطاً يقابل الحجاج القادمين من مصر عندما يصلون إلى هذا الميناء (جدة) وقد أدى مهامه بكفاءة ؛ إذ أطعم حامية القافلة كما أطعم فقراء مكة فى وقت المجاعة ، وقد امتدحه أحمد شلبى (جلبى) لهذا^(١٠٠) ، ففى ظل الجاويش عثمان

أصبح دور القازدغلية فى الحج مرتبًا ارتباطًا أكثر وضوحًا بتجارة البن فى البحر الأحمر، فقائمة ممتلكات عثمان التى عثر عليها فى سجلات المحكمة الشرعية بالقاهرة تضم مخزنًا للبن فى جدة بالإضافة لامتلاكه عدة سفن تمارس نشاطها فى البحر الأحمر^(١٠١)، لقد وثق الجاويش عثمان روابطه مع عشيرة الشرايبي Sharaybi وهى عشيرة من تجار البن والبهار، احتكرت مع مطلع القرن الثامن عشر منصب الشاه بندر (الشهبندر) Shah bandar ومعناه الحرفى سيد الميناء Lord of the port ورياسة التجار المنخرطين فى التجارة الخارجية overseas (تجارة ما وراء البحار)، يذكر أحمد شلبى (جلبى) لقد شعر عثمان بولاء كبير للشهبندر قاسم شلبى الشرايبي حتى أنه (أى عثمان) سار فى جنازته من الأزهر حتى القبر^(١٠٢).

لقد كانت سيطرة الجاويش عثمان - فى معظم الحالات - على كتائب الإنكشارية وتجارة البن - وليس مجرد وصوله لرتبة كخيا - هما اللذان أتاحا له مصادرة عقارات الانكشارية والتجار المنخرطين فى تجارة ما وراء البحار الذين ماتوا بلا وريث خلال طاعون يناير ١٧٣٦ م، ويعطينا الجبرتي انطباعًا أن هذه العقارات المصادرة أساس ثروة عثمان^(١٠٣)، ويبدو أن فى هذا القول مبالغة لأن الطاعون لم يحدث إلا فى أواخر حياة عثمان، فكل ما فى الأمر أن ثروته زادت، لقد أدى منصب الكخيا بالإضافة إلى النشاط التجارى الذكى طوال عدة سنوات إلى تمكين عثمان من بناء زمرة household ذات تأثير قوى، ويبدو أن قوائم أتباع عثمان فى المصار الأرشيافية قد قللت من حجم زمرته (مثلها تمثيلاً أقل مما هى عليه فى الواقع)، وفى سجلات رواتب ١٧٣٧ - ١٧٣٨ م. لا نجد إلا سبعة أتباع له بمن فى ذلك واحد وصف بأنه مملوك^(١٠٤) وفى هذه الأثناء كانت قائمة ممتلكات عثمان تضم ثلاثة كُشُوف كان أحدهم كخيا سابق، وآخر جاويش، وثلاثة أوضاباشيين، وواحد شوريجى، وواحد خصى حريم^(١٠٥) palace eu-nuch، لقد كان إجمالى قوة زمرته على أية حال أكبر بكثير مما تشير إليه أى من هذه القوائم ويخبرنا أحمد شلبى (جلبى) أن طاعون سنة ١٧٣٦ م، قضى على أربعة وخمسين فردًا من زمرة household الكخيا عثمان^(١٠٦)، وقد استخدم أحمد شلبى كلمة بيت ليضيف مجموعة group عثمان مما يشير إلى أن حاشيته كانت تكون أسرة

متماسكة مع إلحاق كامل للنساء والأطفال والخدم ، ولم يكن المقصود ببساطة مجرد تجمع للأنصار داخل الأوجاق .

ولا شك أنه كان لهذه الزمرة مقار (جمع مقر) فى منزل (محل إقامة resi-dence) الكخيا عثمان فى حى الأزيكية الأنيق (الواقع إلى الغرب) أكثر من أن تكون مقارهم فى التكنات فى بوابة الإنكشارية بالقلعة ، وكان مثل هذا المقر (المنزل) الكائن فى وسط مقار (منازل) النخبة أحد أهم علامات (دلائل) قوة النبيل power of a grandee وأكثر من هذا فمقر الكخيا عثمان هو أول مقر (منزل) قازدغلى واضح المعالم يمكن أن نسوق البراهين على وجوده ، فبينما كان بناء - أو شراء - مثل هذا المنزل من بين وسائل الجاويش ، فإن رتبة الكخيا كانت تنطوى على الرواتب والتعويضات الكبيرة الفخمة للتفويض فى إقامة المنشآت العامة الفخمة المعروفة بالمآثر Feats ؛ أى الأعمال الفذة ، وكانت مآثر عثمان كثيرة وجليلة : لقد أقام مسجداً بالقرب من الأزيكية ألحق به كُتاباً (مدرسة لتحفيظ القرآن) ، وسبيل ماء للشرب ، وحماماً ، وأشغال رى ، كما أقام زاوية للصوفية وللعميان بالقرب من الأزهر ، وأجرى تحسينات عديدة فى أروقة الأزهر ومساكنه الداخلية^(١٠٧) ، وكان ناظر Superintendent الأوقاف الذى أوكلت به صيانة هذه المنشآت هو الجاويش سليمان الذى كان تحت حمايته his Protégé - أى تحت حماية عثمان (الشخص الموضوع تحت حماية أو رعاية شخص آخر يقال له بالتركية العثمانية : شيراك Çirak) ، وكان سليمان هو خادمه his Çuhadar ووكيله vekil ووريثه ، وأخيراً تولى سليمان رعاية الثروة القازدغلية عند اغتيال الكخيا عثمان فى سنة ١٧٣٦ م .

إذن ، لقد اتخذت المجموعة القازدغلية فى ظل الجاويش عثمان شكلاً كزمرة واضحة المعالم مترابطة ومتسقة ، حقيقة إن أول إشارة للقازدغلية كمجموعة group متماسكة وردت فى رواية الجبرتى عن الصراع بين ذى الفقار بك وشركس محمد بك ، عندما سأل ذو الفقار الجاويش عثمان أنه إذا لم يكن فقارياً فهو إذن لم يكن قازدغلياً ، وأعاد عثمان السيطرة القازدغلية على أوجاق الإنكشارية ؛ تلك السيطرة التى كان سلفه الكخيا مصطفى قد حققها ، بل إن إنجازات عثمان فاقت بقدر ملحوظ ما أنجزه

الكخيا مصطفى ؛ لقد جعل الجاويش عثمان الزمرة القازدغلية مركز قوة مستقلا تمام الاستقلال ، رغم استمرار خداعه لذى الفقار ، فلم تعد الزمرة القازدغلية ملحقة أو تابعة لأى تجمع فقارى قوى كالمجموعة البلفية ، بل لقد أصبحت القازدغلية مؤثرة فى غيرها من المجموعات ، والحقيقة أن البلفية كانت قد فقدت عزتها رغم احتفاظها بمجموعة مؤتلفة من ضباط الأوجاقات والبكوات ورغم تحالفها مع القازدغلية ، ومن هنا أصبحت البلفية تلعب دور المؤيد - إن لم يكن التابع - للزمرة القازدغلية .

وكانت الزمرة القازدغلية فى ظل الجاويش عثمان قد أظهرت من جانبها استعدادا لأن تحذو حذو البلفية بمحاولتها غزو صفوف حكام الجهات والإيالات الصغيرة ، والحقيقة التى مؤداها أن حاشية عثمان تضم ثلاثة كشافين - كما ورد فى سجل عقاراته - حقيقة مهمة وحاسمة لمستقبل الزمرة ؛ لأنها تشير لإرادة جديدة تتحرك فيما هو أبعد من كتائب الإنكشارية طلبا لمزيد من العوائد المالية والنفوذ ، حتى وهى تحكم قبضتها على الأوجاق (الفرقة الإنكشارية) ، وسيكون هذا هو الاتجاه القازدغلى الناجح الذى ستتبعه الزمرة طوال عقدين قادمين . فبينما ستبقى كتائب الإنكشارية قاعدة قوة الزمرة فستبدأ فى السطو على منصب الكاشف ، وأخيرا سيكون منها البكوات .

الجاويش سليمان :

قتل الكخيا عثمان فى مذبحة كان مسرحها بيت الدفتردار فى سنة ١٧٣٦م ، وهو الحدث الذى ورد فى مجموعة الوثائق المهمة "mühimme موصوفة بأنها حادث عنف (واقتى شور أنجيز shūr Angiz) ، ويبدو أن الحادث كان مشروعا نمطيا دبره الوالى العثمانى لتقليص عدد القابضين المشاركين على زمام الرياسة ، والاستيلاء على عوائدهم^(١٠٨) ، لقد حاول المهاجمون اغتيال ثلاثة عشر نبيلاً ممن يكونون زعامة البكرية وزعامة كل الأوجاقات العسكرية السبعة ، ولم ينج من هذه المذبحة إلا ثلاثة ، وكانت نجاتهم فى ظروف تدعو للريبة^(١٠٩) .

لقد كان الجاويش سليمان إلى جانب راعيه (الكخيا عثمان) عند قتله فى بيت الدفتردار ، وقد عانى صدمة شديدة غداً واهناً ضعيفاً وأصيب بالتهاب فى القصبة الهوائية وهو المرض الذى أدى أخيراً لموته ^(١١٠) ، وتلقى سليمان أمراً إمبراطورياً (فرمائاً) يخوله استلام عوائد أرض الكخيا عثمان التى عليه أن يقسم جزءاً منها بين رعية Çiraks عثمان الآخرين والورثة ، وعلى أية حال فهو قد تجاهل هذا الشرط وحرم الجاويش عبد الرحمن القازدغلى بن الكخيا حسن بن الحامى المتوفى للكخيا عثمان الذى كان عثمان يرعاه وسمح سليمان لعبد الرحمن هذا بالاحتفاظ - فقط - بالفائض من عوائد أرض عثمان والتى بلغت أربعة صُُرر purses ، ولما لم يجد عبد الرحمن دعماً من كتائب الانكشارية راح يبحث عن ملاذٍ له فى أوجاق العزبان فقبله الكخيا الجلفى الذى سيطر على هذا الأوجاق (العزبان) بعد اغتيال الكخيا يوسف البركاوى فى واقعة عنف (حادث عنف = شور أنجيز Shur- Angiz) ^(١١١) وبهذا كان عبد الرحمن أول قازدغلى منذ الكخيا عبد الله يتحالف مع الجلفية وهو يبدو تحالفاً طبيعياً قازدغلى حرم حقه .

وكان الجاويش سليمان القازدغلى - كما تشير كل الظواهر - قد بدأ بناء زمرة قبل مقتل الكخيا عثمان ، وقبل أن يترقى هو نفسه من جاويش إلى كخيا فى سنة ١٧٣٩ . ويورد سجل الدفع (الرواتب) الخاص بعام ١٧٣٧ / ١٧٣٨ م. سبعة أتباع للجاويش سليمان : واحد مملوك ، وأربعة غير مماليك ، واثنين من الأعوان (الأتباع) لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر ^(١١٢) ورغم هذه الأعداد الصغيرة فإن تعويل سليمان على العناصر غير المملوكية محل خلاف ، فواحد من هذه العناصر غير المملوكية من الأشراف (سلالة النبى) تعود أصوله إلى آسيا الوسطى هو الشريف سليمان قرامنلى Karamanli ، ولأن سليمان لم يُرقَّ إلى رتبة كخيا إلا قبل موته بشهور فقد كان يعوزه المال الكافى للقيام بمشروعات كبيرة ، وعلى أية حال فقد أسس قصراً فى بولاق كملحق لمقر إقامته فى الحى اليهودى القديم بالقرب من باب زويلة ^(١١٣) ، واختياره هذا المكان كمحل لإقامته هو فى حد ذاته مدعاة للعجب إذا أخذ المرء فى اعتباره أنه كان فى إمكانه - ببساطة - أن يشغل قصر الكخيا عثمان فى الأزبكية ، لقد كان المركز

التجارى بالقرب من باب زويلة هو مقر الأغا حسن بلفية^(١١٤) ، وباختيار سليمان القازدغلى هذا المكان كمقر إقامة له إنما يركز نفسه فى الحى التجارى الصاخب حيث يتم تفريغ شحنات الأقمشة والبن وخزنها ، ولاشك أن قربه من هذه العمليات ما هو إلا نتيجة التزاماته باعتباره كان وكيلا للكخيا عثمان أثناء حياته ، فقد كان سليمان باعتباره وكيلا لعثمان موكولاً به الإشراف على العمليات التجارية لراعيه (عثمان) بما فى ذلك كل ما يتعلق بأمور تجارة البن المهمة وعمليات تزويد قافلة الحج بالمؤن .

وبعد أن أصبح تكوين الزمرة القازدغلية ، فإن سليمان (الذى أصبح الآن كخيا) عيّن " سردار قطار الحج " فى سنة ١٧٣٩م. وكان منصبه هذا ينطوى على مسؤوليته عن توزيع مقادير كبيرة من الأموال والبضائع بين القاهرة ومكة ، وتوحي قوائم ممتلكاته أنه غدا مدينا بسبب تمويل قوافل الحج ؛ إذ كان مدينا لشريف مكة ولضباط الأوجاقات ولأفراد آخرين من القازدغلية بالإضافة إلى ديون لتجار الأقمشة بسبب ما أخذه منهم من أثواب لتوزيعها على عدد من زعماء البدو على طول طريق الحج^(١١٥) ، وأكثر من هذا ففحص سجل ممتلكاته يثبت أن سليمان قد حافظ بالفعل على الارتباطات التجارية التى أقامها الكخيا عثمان مع الحجاز وتجارة البن فى البحر الأحمر ، ويشير السجل إلى أنه كان من بين ممتلكات سليمان خمسة عشر قاريا نيليا كان يستخدمها لنقل البضائع إلى السويس كما كان شريكا بالنصف فى إحدى سفن البحر الأحمر كانت بلا شك تعمل فى نقل الحبوب إلى الحجاز ومبادلتها بالبن^(١١٦) ، لقد كان على وكلائه المتمركزين على طول طريق الحج أن يمولوا محطات توقف القوافل ، ومن المفترض أنهم كانوا يقومون بالممارسات العامة التى يقوم بها الوكلاء للإشراف على صفقات سليمان التجارية خلال موسم الحج وعلى أية حال فقد أدى مرض سليمان إلى إحباط اعتري هذه المضاربات التجارية الفخمة ، فقد استسلم للمرض بينما كان معسكراً فى بركة الحج منتظراً التهيؤ للمسير .

إنه يبدو أن الكخيا سليمان كان بالفعل أكثر التصاقا بالصفقات التجارية اليومية ، التى كانت الزمرة القازدغلية تعول عليها من حامية (الكخيا عثمان) ، كما يتضح من اختياره لحل إقامته وكثرة أنشطته التجارية ، وكان له اليد الطولى فى ازدياد ثروة

الكخيا عثمان ، وبعد مصرع عثمان واصل سليمان منافسته المكشوفة إلا من حجاب رقيق مع زمرة ذى الفقار بك التى يرأسها الآن عثمان بك مملوك ذى الفقار الذى احتكر منصب قائد الحج Commander ، لقد أصبحت المنافسة بينهما راسخة وواضحة بل ومريرة ، وقد لاحظ الدمرداش أن الموكب الذى انطلق فيه الكخيا سليمان فى حج سنة ١٧٣٩م ، كان يفوق موكب قائد الحجاج (أمير الحاج) بهاء ، وهو أمر يرمز لتحديه سلطة عثمان بك فى قيادته قافلة الحج (١١٧) .

الكخيا عبد الله :

لقد أدى مقتل الكخيا عثمان غير المتوقع إلى وقوع بعض الفوضى فى الزمرة القازدغلية ، وتزداد هذه الفوضى والاضطرابات خطورة إذا علمنا أن الزمرة فى ظل الكخيا عثمان كانت قد بلغت شأواً غير مسبوق فى الثروة والنفوذ ، وكان سليمان مسئولاً بعض الشيء عن هذه الثروة وهذا النفوذ ، وبالتالي فقد اعتبر نفسه عضو الزمرة الأعلى سلطة إذا وضعنا فى اعتبارنا اغتصابه لعقارات الكخيا عثمان ، ورفض سليمان مشاركة الزمرة فى القيادة ربما كان هو ما دفع الآخرين من أتباع الكخيا عثمان للبحث عن تحالفات مع أعداء سليمان الظاهريين خاصة زمرة ذى الفقار بك .

وربما كان أكثر النماذج حيوية على الانفلات من صفوف القازدغلية إثر موت الكخيا عثمان هو حالة الكخيا عبد الله ، لم يكن من المؤكد أن الكخيا عبد الله كان تابعا للكخيا عثمان ؛ فهو لم يوصف بهذه الصفة سواء فى الحوليات أم فى المصادر الأرشييفية ، وعلى أية حال فتمة دليل على أنه - على الأقل - كان يتردد على الكخيا عثمان ، وكان بين الحين والحين فى الدائرة المحيطة به ، ويذكر الدمرداش أن الكخيا عثمان رقى عبد الله من رتبة جاويش Çavuş إلى كخيا الوقت فى كتائب الإنكشارية فى سنة ١١٤٨هـ / ١٧٣٦م (١١٨) قبيل اغتياله (أى اغتيال الكخيا عثمان) ورغم أن الكخيا عبد الله لم يظهر اسمه فى سجل الدفع إلا أن شخصاً باسم الكخيا عبد الله (١١٩) ورد ضمن الممالك المعتقين فى سجل ممتلكات الكخيا عثمان ونلقى الكخيا عبد الله القازدغلى فى أواخر الثلاثينيات من القرن الثامن عشر (١٧٣٠ - ١٧٣٩) عندما

انحاز وهو فى منصب "كخيا الوقت" لعثمان بك ذى الفقار والكخيا على الجلفى ، ومثل هذا التصرف يبدو وكأنه قد جعله منعزلاً عن كل من حاميه الظاهري الكخيا عثمان من ناحية والجاويش إبراهيم الزعيم الصاعد لفرع آخر كبير من فروع القازدغلية ، إن حالة عبد الله تؤكد حالة الفوضى التى اعترت الفقارية (الفريق الفقارى) فى الأعوام التى تلت سنة ١٧٣٠م. إذ أثارت القازدغلية ضد بيت ذى الفقار ، وعلى أية حال فإن حالته بالإضافة لهذا توضح كيف أن موت الكخيا عثمان قد أفسد نظام القازدغلية النقار Pecking إن فقد المفاجئ لمثل هذا الزعيم القوى ترك شيئاً من فراغ السلطة مما شجع كلا من الجاويش إبراهيم من ناحية الكخيا سليمان الخليفة الذى اختاره عثمان من ناحية أخرى على محاولة احتكار زعامة الزمرة ، ولما وجد الكخيا عبد الله أنه محاصر بين الكخيا سليمان والجاويش إبراهيم راح يبحث عن وسيلة يعزز بها مركزه ضد كليهما فولى وجهه شطر منافسهما عثمان بك ذى الفقار .

وتشير الأدلة إلى أن محاولة الكخيا عبد الله لتوكيد ذاته قد تكون منطوية على القيام بدور على حساب الكخيا عثمان (ضده) ، لكن مقتل عثمان فى واقعة العنف الآنف ذكرها جعلت الرئاسة تنتقل إلى الكخيا عبد الله بالإضافة إلى عثمان بك ذى الفقار ، والكخيا على الجلفى وإبراهيم بك قطامش ، والأكثر مدعاة للريبة أن الكخيا عبد الله والكخيا على الجلفى رفضا حضور الاجتماع المشئوم الفاجع فى منزل الدفتردار ، لسبب غير مفهوم ، وفى المقابل نجد أن نجاة عثمان بك ذى الفقار بشكل إعجازى من هذه المذبحة يبدو أمراً مدبراً^(١٢٠) وعلى أية حال فقد نتجت حادثة العنف (واقعتى شورانجيز Shürangiz) عن الارتباك المعقد فى الدوافع والحركات من جانب الزمر الفقارية الوارثة وبقايا القاسمية^(١٢١) ، على هذا فمن المخاطرة أن نفترض أن الكخيا عبد الله القازدغلى والكخيا على الجلفى وعثمان بك ذى الفقار قد تأمروا - ببساطة - مع الوالى العثمانى مصطفى باشا للتخلص من القابضين على زمام الرئاسة وبالتالي يحصلون على ثرواتهم ، حقيقة إن الوالى - كما رأينا - حاول فى وقت لاحق القيام بهجوم أقل درامية على المشاركين الجدد فى الرئاسة .

وإذا كانت علاقة الكخيا عبد الله بالكخيا عثمان القازدغلي علاقة متأرجحة يعوزها الاستقرار فإن علاقته بالجاويش إبراهيم القازدغلي الذي ظهر كزعيم زمرة عقب موت الكخيا سليمان كانت علاقة عداوة صريحة ، وليس من سبب يوضح هذه العداوة أكثر من تحالف عبد الله تحالفا وثيقا مع عدو إبراهيم اللود عثمان بك ذي الفقار ، ففيما يتعلق بالنزاع حول حيازة الأرض الذي تعرضنا له آنفا وقف الكخيا عبد الله صامدا بجانب عثمان بك ، وفي المواجهة الحاسمة حول فرشوط (فى جرجا) بدا عبد الله على أية حال وقد تلقى على الأقل طعنة عند عقد السلام ؛ إذ ذكر الدمرداش أنه كان قد دخل بين عثمان بك والجاويش إبراهيم^(١٢٢) وعندما باعت جهوده بالفشل ظل - أى الكخيا عبد الله - مواليا لعثمان بك ، محذرا إياه من أن الجاويش إبراهيم ينوى إعداد كمين له (ينوى مهاجمته) ، وساعد هذا عثمان الحذر على الفرار إلى إستانبول حيث كافح ليكسب لنفسه الحظوة لدى الحكومة المركزية .

وعلى أية حال فإن عثمان بك قبل أن يغادر مصر اتخذ خطوة مهمة بأن نصح الكخيا عبد الله أن يعود لمعسكر الجاويش إبراهيم على أساس أن " كليكما قازدغلي ، فلا يجب أن يقطع أحدكما نفسه من الآخر " ^(١٢٣) فعثمان بك يبدو معترفا بالتضامن القازدغلي الذي لم يكن الجاويش إبراهيم نفسه معترفا به ، لقد كان الكخيا عبد الله بالنسبة لإبراهيم وكذلك بالنسبة للحكومة العثمانية متمردا كعثمان بك ^(١٢٤) ، ورغم أن إبراهيم نعم بكرم عبد الله إلا أنه (أى إبراهيم) سرعان ما استصدر أمراً إمبراطوريا (فرمانا) بنفيه إلى دمياط ، وهرب عبد الله قاصدا دمشق إلا أنه مات فى يافا ^(١٢٥) ، فصادرت الخزانة العثمانية أملاكه .

لقد كانت المواجهة بين الكخيا عبد الله والجاويش إبراهيم تمثل أزمة داخل الزمرة القازدغلية على نطاق واسع ، ويمكن قراءة هذه الأزمة بطريقتين : بالعمل على المدى البعيد بعد تولى الكخيا عثمان أو بمعنى أوسع كمكاشفة نهائية (حسم نهائى) فى الصراع على تولى زعامة الفقارية Faqari faction ، وفى الحالة الأخرى لعب بيت ذي الفقار دوره المعتاد كسيف للقازدغلية ، ففي الأعوام التى تلت الهزيمة للقاسمية Qasimi-Faction ومقتل الكخيا عثمان القازدغلي - على أية حال - قد وصلوا إلى نقطة أصبح

فيها من غير الممكن استمرار العلاقات المتوترة مع زمرة الفقارية ، فقد كان على هذا النبيل إما أن يكون مع عثمان بك ذى الفقار أو ضده ، وعند اختيار الجانب الذى ينحازون له ، انشقت القازدغلية ، ورغم هذا كان من الملاحظ أنه أثناء صراع القازدغلية ضد عثمان بك ذى الفقار أو صراعهم إلى جانبه ، فقد ظلت فكرة التضامن القازدغلى بينهم كما لو كانت الزمرة لا بد أن تكون - بحق - مجموعة واحدة ، هذا التضامن الظاهري مدين كثيرا للتضامن المؤسسى لأوجاق الإنكشارية الذى تطورت فيه الزمرة القازدغلية^(١٢٦) ، لكن هذا التضامن لم يمنع - فى التحليل النهائى - الكخيا عبد الله أو الجاويش إبراهيم من التحول ضد الفرع المنافس للزمرة ، فعند هزيمة الكخيا عبد الله وعثمان بك ذى الفقار كسب الجاويش إبراهيم وفرعه السيطرة على الزمرة وحسموا مسألة الخلافة الفقارية (مسألة من يتولى الزعامة فيها) (١٢٧) .

الكخيا محمد الطويل :

ويعتبر الكخيا محمد الطويل نموذجاً أكثر نمطية لأتباع الكخيا عثمان القازغلى فقد ظهر الكخيا محمد الطويل بين الحين والحين هو وبعض أتباع معينين فى الصفحات الأخيرة من حولية الدمرداش ، ومن الظاهر أنه أسس زمرة قازدغلية فرعية يحمل كل أعضائها لقب الطويل ، وبالإضافة لهذا فإن ارتباطه كتابع للكخيا عثمان كان ارتباطاً واهناً بل وأشد وهنا من ارتباط الكخيا عبد الله به (أى بعثمان) ، وقد أشار الدمرداش أن تابع الكخيا محمد الطويل (ونعنى به الأوده باشى على) قد ارتدى الدلامة dolama وأصبح جاويشاً قبل موت الكخيا عثمان ، كما لو كان يربط حظ زمرة الكخيا محمد الخاصة بحظ راعيه his patron ، وبعد موت الكخيا عثمان عاش الكخيا محمد فى مواجهة الجاويش إبراهيم القازدغلى فى البيت السابق للكخيا شريف مصطفى ، أحد الانكشارية الثمانية المناوئين لأفرنج أحمد الذى أدى طرده من أوجاق الإنكشارية إلى قيام حرب أهلية سنة ١٧١١م ، وبناء على توصية الجاويش إبراهيم القازدغلى أمر الكخيا محمد الطويل مجموعته (زمرة الفرعية) باغتيال القاسمى عثمان كاشف (الكاشف عثمان) الذى كان قد نفذ بعض حوادث القتل (واقات الشور أنجيز) فى سنة ١٧٣٦م . وكان هذا بالتأكيد ثأراً لمقتل الكخيا عثمان .

وسمعا بعد ذلك عن موت الكخيا محمد الطويل الذى حدث بعد فترة وجيزة من شغله منصب كخيا الوقت فى كتائب الإنكشارية ، وفى مشهد أكثر غرابة نجد أن قتلة الكخيا على البركاويه قتلوا داخل بيت محمد الطويل على يد الجماهير الذين اقتحموا عليهم البيت بينما كان محمد الطويل يجهز للدفن ، وكان على تابع محمد - وهو الآن جاويش - قد سمح للقتلة بالدخول عندما زعموا أنهم فى حماية (فى عرض) الزعيم the headman ، والرواية تتضمن أن القاتلين قد سيطروا على البيت بينما كان الجاويش على خارجه (١٢٨) .

الجاويش على - الذى أصبح هو نفسه يسمى الطويل - ظهر مرة أخرى على السطح بين القوى التى جمعها الجاويش إبراهيم القازدغلى ضد عثمان بك ذى الفقار فى سنة ١٧٤٤م (١٢٩) ، وعلى هذا لم يرد ذكره مرة أخرى فى حولية الدمرداشى ، وكان يمكن لحسن الطويل أن يعيد ترسيخ أولاد الكخيا رضوان الجلفى عقب هزيمة هذا الأخير على يد الكخيا عبد الرحمن القازدغلى (١٣٠) ، ومثل آخرين من المرتبطين بالجاويش إبراهيم انضمت مجموعة (الزمرة الفرعية) الطويل لعبد الرحمن عندما قاوم (انقلب على) رضوان بعد موت إبراهيم ، وظهر مجموعة الطويل بمظهر عدم التحول عن تبعية الكخيا عثمان إلى تبعية الجاويش إبراهيم تتناقض مع ازدواجية الكخيا عبد الله العميقة ، وربما كان هذا النوع من أنواع المناورة أكثر نمطية بالنسبة لأفراد القازدغلية الأقل بروزا ، فبالنسبة لكل خارج عن زمرة يفتقد وريثا ، ربما يجد عدداً كبيراً جداً من أعضاء الزمرة يؤيدون زعيمها الموجود بالفعل haedman of the moment مما يدعم ترابط الزمرة وتماسكها .

الجاويش عبد الرحمن :

مات الكخيا عثمان تاركاً الجاويش عبد الرحمن بن الكخيا حسن فى وضع انتقالى غير مريح وغير مستقر ؛ سلب ميراثه وكان صغير السن ، قليل الارتباطات بدرجة تجعله غير قادر على تأكيد سلطة مستقلة ، وعمل الكخيا سليمان على إعادة

تعيينه سردار قطار الحج ، وجعله يرث أخيرا ثروة الكخيا عثمان ، وكان مشهود توليته - فيما يصف الدمرداشي - أقرب للحنن gripping فزوج أم عبد الرحمن وهو الأغا سليمان (كخيا كتائب الشافوسان أو الجاويشية Çavusan) دخل خيمة الكخيا سليمان ووجده في النزاع الأخير (يحتضر) . وعندما غادرت روحه جسده ، قام الأغا سليمان وأخذ السجل (سجل ممتلكات سليمان كخيا) من المنفذ (الكاتب) وأخذ مفاتيح الصناديق boxes, cases, baskets , trunks وأخبر عثمان بك ذا الفقار الذي أرسل في طلب الوارث (عبد الرحمن) وخلع عليه قفطان السردارية (سردار قطار الحج) وسلمه الأغا سليمان المفاتيح وذهب إلى الخيمة المملئة بممتلكاته الشخصية المنقولة وكل ما هو لازم له .

وكانت هذه اللوازم تضم قدرا كبيرا من البن المجروش والست شويكار Sit Shuykyar المحظية البيضاء التي انتقلت من الكخيا عثمان إلى الجاويش سليمان (١٣١) .

ولم يصبح عبد الرحمن القازدغلي كخيا الوقت لكتائب الإنكشارية حتى سنة ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م . لقد انتظر طوال عدة سنوات تالية في الظل بينما كان الجاويش إبراهيم القازدغلي يمسك بزمام السلطة ، وخلال هذه الفترة عمل كسردار قطار الحاج " في عدة مناسبات ، وبدأ مشروعات بناء مدهشة لازالت تزين القاهرة " وكان سعيه للسلطة عقب موت الجاويش إبراهيم وبالتالي خارج نطاق دراستنا هذه ، وعلى أية حال فلا قيمة لكون الجاويش عبد الرحمن - مثل الكخيا عبد الله - أكد ذاته ورسخ نفسه بالتأكد على بنية التحالفات التي كان الكخيا عثمان والكخيا سليمان قد أقاماها ، ففي ظل عثمان وسليمان واصلت الزمرة القازدغلية كوريث فقاري وإن كان هذا لم يمنع من ميل بين الحين والحين لبقايا القاسمية عن طريق حثها (أي حث بقايا الفقارية) على منافسة الزمرة الفقارية الصامدة القوية بزعامة ذي الفقار بك ، وعلى أية حال فإن الجاويش عبد الرحمن لم يرسخ ارتباطاته فقط ببقايا القاسمية ، بل أيضا بزمرة ذي الفقار ، لقد كان مدينا باستلامه ميراثه لاتفاق جرى بين عثمان بك ذي الفقار وزوج أمه القاسمي الأغا سليمان (١٣٢) ، ويبدو "أن الأغا سليمان من ناحيته قد رسخ مكانة حليف عثمان بك : الكخيا عبد الله والكخيا علي الجلفي ، اللذين يشير إليهما

الدمرداشى باعتبارهما أصحابه "His Companions" عند موت سليمان القازدغلى ،
ونذكر أن الكخيا على الجلفى هو أول من تلقى عرض عبد الرحمن بالجوء ،
عندما كان عبد الرحمن مضطراً إلى ترك كتائب الإنكشارية ، هذا النمط من
التحالفات وفقاً لكل الاحتمالات كون محاولة عبد الرحمن للوصول إلى القوة والنفوذ
ضد الكخيا سليمان القازدغلى الذى كان قد اغتصب ميراثه - برغم كل شيء وكانت
هذه التحالفات التى تمركزت حول عثمان بك ذى الفقار قد أصبحت بديلاً دائماً عن
الفرع الرئيسى للزمرة القازدغلية ؛ إذ كانت يمكنهم احتضان أعضاء الزمرة القازدغلية
الذين أبعدهم الزعماء القازدغلية ؛ بل إنه فى حالة عبد الرحمن كما كان الحال فى
حالة الكخيا عبد الله ، كانت هذه التحالفات البديلة توضح نصيب الفقارية وقدرها عقب
وفاة آخر خصومها الألداء الكبار شركس محمد بك فى سنة ١٧٣٠م. لقد انقسمت
الفرقة إلى كتلتين متصارعتين التأمنا من أخلاف الزمرة الفرعية البلقية : القازدغلية
وزمرة ذى الفقار ، وإذا حمل النبيل (الأمير) ضغينة ضد زعيم أحد الكتلتين blocx لم
يكن أمامه إلا الانضمام للكتلة الأخرى ، ومن السخرية أن هاتين الكتلتين فيما بعد
الفقارية لم تأخذا أبداً مكان الزمرتين (الفرقتين) المهجورتين (المنقرضتين) .

الخلاصة :

إن وجود هذه الاحتكاكات التنافسية الكثيرة فى صفوف الزمرة القازدغلية يدل
على التعقيد الشديد فى تكوين هذه الزمرة بالمقارنة بالزمرة الجلفية ، فالزمرة الجلفية
زمرة بسيطة التكوين نسبياً ، بدت من الناحية العملية مصممة (مركبة) لتقوم بدور
المساعد والوسيط أكثر من قيامها بدور المحرك والمثير ، وهذه الخاصية جعلت منهم -
أى الجلفية - شركاء نموذجيين لأى زمرة تبحث عن شريك لتشق طريقها للقمة فى عهد
كان فيه الفريقان (القاسمية والفقارية) إلى زوال فى العقد الثالث (الثلاثينيات) من
القرن الثامن عشر .

ومن هنا فقد أصبح زعماء الجلفية شركاء في البداية لمجموعة ذى الفقار ، ثم للقازدغلية ، وكانت شراكة الكخيا رضوان الجلفى والكخيا إبراهيم القازدغلى الذى كان رضوان بلا شك تابعا له - تمثل ذروة ما وصلت إليه الجلفية من ثروة ونفوذ ، وعقب موت الكخيا إبراهيم ، وهزيمة الكخيا رضوان بواسطة الكخيا عبد الرحمن القازدغلى تدنت مكانة الجلفية ليصبحوا وكلاء تابعين للقازدغلية retainers .

ورغم أن الزمرة القازدغلية كانت أكبر وأكثر تعقيدا بكثير من الزمرة الجلفية ، إلا أن الملاحظ أن تطورها خلال نصف قرنهما الأول هو أن الزمرة كانت محكومة بثبات من خلال خط واحد one line أعنى ذلك الخط الممتد من المؤسس الكخيا مصطفى عبر تابعه الكخيا حسن إلى آخر تابع الكخيا عثمان وأدى اغتيال الكخيا عثمان القوى بالإضافة إلى تدهور السياق الزمرى (بين القاسمية والفقارية) الذى نمت فيه زمرة القازدغلية - إلى ترك باب الزعامة مفتوحاً لفرع قازدغلى آخر هو فرع الكخيا إبراهيم ، واستخدم الجلفية - مثلهم فى ذلك مثل القازدغلية - بقايا الفقارية خاصة بيت ذى الفقار كسيوف (يضربون بها) ، والحقيقة أن الجدير بالذكر هو الحالة أو الطريقة التى تمركزت بها الزمرتان (القازدغلية والجلفية) فى الكتاب (الأوجاقات) مما مكنهم من القيام بدور الوقيعة بين البك والزمير الفقارية الباقية ، واختفى التوتر القديم بين السنجق والأوجاق مع تفسخ الفرقتين التقليديتين (القاسمية والفقارية) .

وبغض النظر عن قضية الانقسام إلى فريقين فإن تطور القازدغلية والجلفية يوضح أهمية هاتين الزمرتين الأوجاقيتين فى السيطرة على الضباط من نوى الرتب العليا ، وفى الحفاظ على خط ترقيية منضبط خلال هذه الرتب ، وفى حالة كتاب العزبان كان خط الترقيية يجرى من الشوريجى إلى الكخيا ، وفى حالة الانكشارية من الأوده باشى ومن ثم جاويش (شافوس) إلى كخيا ، وبينما تبدو رتبة الكخيا مفتاحا للسيطرة على كلا الأوجاقتين (العزبان والإنكشارية) إلا أن الوصول لهذه الرتبة (الكخيا) فى العزبان أكثر أهمية ، وربما باستثناء الأب المؤسس الكخيا مصطفى فإن الزعماء القازدغلية الأوائل وضعوا أسس ثروتهم ونفوذهم وكون كل منهم الحاشية المحيطة به وهو فى رتبة جاويش (شافوس) ، وقد يذهب المرء بعيدا إلى حد التأكيد

على أن الوصول لقدر وافر من الثروة والسلطة كانا من مستلزمات الوصول إلى رتبة كخيا ، وأن المنصب نفسه كان مجرد زيد وسكر على سطح الكعكة ، فإبراهيم القازدغلي - كما قيل - تولى منصب كخيا الوقت لثلاثة أشهر فقط ، وحتى الآن كان المزيد من العوائد والنفوذ والمكانة يمكن الكخياوات من القيام بمشروعات بناء على نطاق واسع كان من النادر أن يتمكن الجاويشية (الشاقوسية) من القيام بها ، وربما لهذا السبب لا نجد مآثر (منشآت ضخمة) لإبراهيم القازدغلي إلا بعد أن رُقي إلى كخيا^(١٣٣) ، ومما يؤيد ذلك أنه لكي تحتكر رتبة الكخيا كان على القازدغلية أن يسيطروا أولا على رتبة الجاويش (الشافوس) ، وقد أنجزوا بالفعل هذا في الثلاثينات من القرن الثامن عشر كما تشير لذلك السجلات المالية رغم أنهم - أي القازدغلية - لم يستبعدوا عناصر أخرى من رتبة جاويش^(١٣٤) ، وبينما كانوا يحكمون قبضتهم ، على هذه الرتبة عملوا بجد على الاحتفاظ بقيادة كتائب الإنكشارية بعيدا عن أيدي الضباط المبتدئين الأدنى رتبة ، وكان آخر تهديد خطير من الأدنى هو ذلك الذي سببه الجاويش قره مصطفى الذي حيدته الجاويش عثمان في سنة ١٧٢٩^(١٣٥) . وعلى هذا فقد احتفظ القازدغلية بخط الترقية من أوده باشي إلى جاويش (شاقوس) إلى كخيا مفتوحا لأتباعهم ، ومن الظاهر أن هؤلاء الأتباع كانوا يدخلون الكتائب برتبة الأوده باشي أو ما هي أدنى منها ، وإذا رقي الواحد منهم إلى رتبة جاويش (شاقوس) أصبح من حقه أن يرتدى الدلامة ومن حقه أن يغادر الثكنات ليكون لنفسه زمرة (جماعة) مستقلة ، وعلى هذا فإن مجموعة الأتباع داخل الثكنات كان يمكن أن يكونوا زمرة household بالمعنى الحرفي للكلمة ، وكان يمكن أن يكون لها مقر ، وعلى هذا كان مهماً للجاويش Cauvs أن يبنى (أو يشتري أو يصادر) مقر إقامة كبير في موقع بارز غالبا ما يكون قريبا من بيوت راعيه أو حلفائه ، وقد وصلت الزمرة القازدغلية إلى هذه المرحلة في ظل الجاويش عثمان ؛ إذ كان بيته في الأزبكية قد أصبح مركز عصب السلطة العسكرية في القاهرة .

ويدل ارتباط القازدغلية والجلقية بخط الترقية الآنف ذكره هذا على قبض الزمرتين على بنية الأوجاقات ، إن بنية التطور التي أبدتها الزمرتان (القازدغلية والجلقية)

لم تصل أبدا لقضية رتبة الكخيا التي تحل محل الرتب الأدنى درجة كمركز Locus للقوة ، واحتفظت الزمرتان (القازدغلية والجلفية) بالتكامل المؤسسى مع أوجاقاتهم إلى الحد أن فيما خلا الحالات الاستثنائية يتحتم أن يخدم الفرد كجاويش (شاقوس) أو شوربجى قبل أن يصبح كخيا ، ونجح القسازدغلية فى جعل منصب (رتبة) الجاويش (الشاقوس) الإنكشارى قويا أكثر من أى وقت مضى ، ومن ثم استثمروا رتبة الكخيا وقت كان هذا المنصب (الرتبة) قد صار ذا نفوذ وقوة غير مسبوقتين وبهذه الطريقة أقاموا منصة الانطلاق لتغلغلهم فى البكرية ، لقد كانت هذه الوثبة وحدها وراء الأوجاق هى التى دمرت سلطة التسلسل الهرمى العسكرى داخل الأوجاقات خلال الزمرة ، فبينما لم تستطع رتبة الكخيا أن تحل محل رتبة الجاويش كمركز Cavus للسلطة والنفوذ ، فإن البكرية القازدغلية المتأخرة زمنا استطاعت بالفعل أن تحل محل رتبة الكخيا التى هى مدينة لها بنفوذها .

الهوامش

(1) Mühimme - i Misr, vol. 1, Nos 409, 411, 412 (all 1127 / 1715) on Shahin Oda Bashi

عن الأوده باشى شاهين .

(٢) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٥٢ .

(٣) Al - Khashshab, Tadhkira Li Ahi al - basair الخشاب ، تذكرة لأهل البصائر . (الكخيا سليمان كان بالفعل تابعاً للكخيا على ، وكان خشداشياً (تابعاً أو مملوكاً) للكخيا رضوان .

(٤) قرية سندا بسط في الغربية ترد بأشكال مختلفة في المصادر الأرشيفية : ساند بط Sand Batt ، وساند بسط وأحياناً بسط فقط . انظر على سبيل المثال : أرشيف قصر طوبقابي (D 5520 / 1 1159 / 1746)

Mühimme - Mühimme - i Misr vol S . Nos 44 and 93 (1163 / 1750) D 7662 (1167 / 1753-4) 3 (1146/1733-4) .

ويشير الخشاب إلى سنجلف بكلمتين سن أو سين وجلف Sin Julf

(٥) عن الشرايبيية ، انظر حاشية ١٠٢ ومؤسس زمرة الفلاح هو الحاج صالح ، وقد كان فلاحاً مصرياً يتيماً جمع ثروة وكون نفوذاً بعد التحاقه بزمرة الكخيا على الجلفي . عن ظهور زمرة الفلاح انظر الجبرتي ، عجائب الآثار ، مج ٢ صص ٨٩-٩٠ والفكهانية Manavs أيضاً ورد ذكرهم في سجلات الرواتب ١٧٢٧ - ١٧٣٨ . لقد ظهوروا مع زمرة الفلاح كمعارضين لبلوط كابان على بك في سنة ١١٨٣ / ١٧٧٠ ، انظر الجبرتي ، عجائب الآثار ، مج ٢ ، ص ٣٣٥ .

(6) Mühimme - i Misr vol. I , nos 409 , 412 .

(٧) الدمرداش ، درة ، ص ٢١٢ .

(٨) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٨١ . أحمد شلبي (جلي) أوده ، ص ٢٥١ . الحلاق ، تاريخ مصر الكبير (تركي) 304٢ (لا يسمى في هذا المصدر : جلفي) .

(٩) الدمرداش ، درة ، ص ص ١٧٢ ، ١٧٦ ، ٢٣١ - ٢٣٢ . انظر أيضاً الجبرتي ، مج ٢ ، ص ٥٢ . كان نو الفقار خازن دار للأغا عمر بلفية ، تابع تابع الأغا حسن بلفية (الأغا على) .

(١٠) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٨٢ .

(١١) الجبرتي ، عجائب (مج ٢ ، ص ٥٢) والدمرداش ، درة (ص ٢٢٢) ، كلا المرجعين يشيران له بالصفة نفسها (مملوك) .

(١٢) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٥٢ . الدمرداش ، درة ، ص ٢٣٢ .

(١٢) يعد السراجون من بين الجنود العثمانيين الذين حاصروا حصن أزوف Azov في منتصف القرن ١٧
انظر :

Evliya Celebi, Narrative of travels in Europe, Asia and Africa.

ترجمة Joseph Von - Hammer - Purgstall

صدر في مجلدين . (London, 1834)

Vol. II , P . 194 .

- رحلة ابن بطوطة (طبعة بيروت ١٩٦٤) ص ٤٨٠ حيث ذكر أنهم يحرسون الشوارع ليلا .

(١٤) خاصة واحد من عينتاب (Gaziantep) بورصة ، إسبرطة ، استانبول .

(١٥) الدمرداش ، درة ، ص ٤٥٢ .

(١٦) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ص ٥٢ ، الدمرداش درة . ص ٣٦٢ .

(١٧) لقب الزمرة أتى من التزام بركة الفيل . انظر الدمرداش ، درة ، ص ٢٧٦ .

(١٨) في الدمرداش (درة ، ص ٤٤٠) يكتب اسم القرية طحطا ، إلا أنه وفقا لما ذكره هالم Halm

(Ägypten vol I , p. 98) جرى العرف على كتابتها بالهاء (طهطا) . وقد أورد الدمرداش (الدرة
ص ص ٤٤٠ - ٤٤٤) القصة كاملة .

(19) Mūhimme - i Misr . vol IV nos . 404 405 , 434 , 435 , 476 (all 1144 / 1731 -2) and 507
(1145 / 1732-3) .

(٢٠) الدمرداش ، درة ، ص ٤٤٤ .

(٢١) هذه إشارة للزمرة الدمياطية ، حليفة الفقارية التي ظهرت بوضوح في بواكير القرن ١٨ ، ويرجع

اسمها إلى توليها جمع جمارك ميناء دمياط .

(٢٢) الدمرداش ، درة . ص ٤٥٢ .

(٢٣) الشخصان الوحيدان المدرجان تحت مسمى " سراج " في سجل رواتب سنة ١٧٢٧ يتبعان كتائب

العزبان ، وأكثر من هذا فقد كان الجاويش في كتائب العزبان يؤدي خدمته كسراج للكخيا ، انظر : عبد الكريم ،
تاريخ مصر (بالتركية العثمانية) . Fo 97 V . وفي كتاب: A Description of the East (vol I . p 169)
يشير بوكورك : Pococke إلى أنه :

" IF Azabs go through those other offices of Serachs and Chouses , they never are ad-
vanced to be Calas "

وهولت P. M Holt يقدم لنا العملية التفصيلية التي يتم بها إدراج السراجين في كل الأوجاقات عن طريق
رعاتهم " ليكونوا في رتبة جاويش أنظر :

El² , s.v. " Misr" by Holt .

(٢٤) المثالان البارزان اللذان يوردهما الدمرداش في حوлиته هما سراجي شركس محمد بك ومنافسه

الرئيسي ذي الفقار بيك : الصيفي والشتوي (الاسمان يعنيان حرفيا ما هو منسوب لفصل الصيف وما هو

منسوب لفصل الشتاء) ، وربما كان هذان الاسمان غير حقيقيين ، ويكتب أحمد شلبي بدلا من الصيفي ، السيفي ، أى بحرف السين ، وهذا يجعله اسم نسبة للسيف .

(٢٥) نفر (بالتركية تنطق بكسر النون والفاء) تشير - تقليديا - للجندى (العكسرى) ، ، بينما (واجب رعاية) تشير إلى من ألحق بالأوجاقات تطوعا أو قسرا من السكان .
(٢٦) الدمرداش ، درة ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٢٧) انتهى شغل الكخيا سليمان لمنصبه فى القاهرة عندما تم إبعاده إلى الحجاز لاشتراكه فى هجوم مضاد عقب حادث شغب مؤسف (واقعتى شورأنجيز) سنناقشها بعد ذلك . أنظر أحمد جلى (شلبي) ، أوده ، ص ص ٦٢٣ - ٦٢٤ .

وفى رواية الدمرداشى (درة ص ص ٤٢٠ - ٤٢٥) أن الكخيا إبراهيم الجلفى خشداش الكخيا على قد تم نفيه .

(٢٨) الدمرداش ، درة ، ص ص ٤٩٤ - ٤٩٥ ، وقبل ذلك كان يشار للجنود " بأنفار وسرأجين " وعلى أية حال يكون المقصود نوعاً معيناً من المرتزقة ، وهذا يشير مرة أخرى إلى أن الزمرة الجلفية استمرت فى ضم غير الممالك إليها . وعن الحلوان انظر

Shaw , Financial & Administrative Organization , P . 35 .

وكذلك :

Crecelius, Roots of Modern Egypt, P . 28 .

(٢٩) كان هذا هو احتجاج جزارى الحسينية ضد حسين بك شفت ، انظر الجيرتى وعجائب ، مج ٣ ، صص ٣١٦ - ٣١٧ .

(30) Malieden Müdevver 4787

(31) Ibid 7069

التي تورد أيضا قازدغليا واحدا بين الجاويشية واثنين بين العزيان .

(٣٢) هناك قازداغى واحدة على الأقل بالقرب من مدينة أوزاك usak شرق أزمير . انظر :

Türk Ansik Lopedisi, s.v. " Usak" by R . Izbirak

وعلى أية حال فجبب إدا Ida هو الأشهر إذ تتم الإشارة إليه تباعا فى الأطالس والقواميس الجغرافية .

(٣٣) والدمرداشى على سبيل المثال يشير للحكومة العثمانية بالدولة الرومية .

(٣٤) انظر ل

J. M . Cook, The Troad : An Archeological and Tropographicaul study (Oxford, 1973)

PP. 3 , 304 .

هذا الوصف تضمنته أيضا ملاحظاتي عن منطقة قازداغ .

(٣٥) وتظهر المدينة أيضا فى فرمانات القرن الثامن عشر . انظر على سبيل المثال :

Mühimme - i Misr, vol. II . No . 182 . (1129 / 1717)

(36) Pococke , A description of the East vol. II PP. 108 , 120 .

Türk Ansiklopedisi, s.v. " Tahtacilar" by E . R . Figlali

(٢٧) عند وصف عملية نقل مدفعين كبيرين من مدافع القرن ١٦ من السويس للأناضول يذكر أحمد شلبي (أوده ، ص ٢٩٦) أنه قد تم نقلهما بواسطة عربات غربية على عجلات من أخشاب التتوب Firs القازداغى (شواهى قازداغى) Shawahi Qazdughli . وقد استخدم المؤرخ صيغة النسبة التركية غير الفصيحة .
(٢٨) عن قوائم الأكراد والتركمان ، انظر :

Mühimme - i Defteri 99 . No 186 .

(أول ربيع ثانى ١١٠١ / ١٦٩٠) ويمكن أن نجد أوامر الجنود من منطقة بيجا كريس Biga-Karesi فى وثائق : (4 - 1673 / 1083) 4465 and (60 - 1659 / 1070) 4414 Maliyeden Müdevver

وربما كان التجنيد من منطقة قازداغى قد بدأ قبل ذلك بمدة طويلة ، ويذكر المؤرخ إبراهيم بسيوى Perce-vi شخصا اسمه صالح باشا وزير سليمان الأول (١٥٢٠ - ١٥٦٦) الذى بدأ كمرتزق قازداغى وأصبح أخيرا واليا على الجزائر . انظر : Terih-i Pacevi , 2 vols in (Istanbul, 1865-7) vol 1 p . 40
إننى مدينة لليزلى بيرس Leslie Peirce بهذه الإشارة المرجعية .

(٢٩) (1089 / 1676) Mühimme - i Deftevi 96 , No 26 cearly Cumaze i , 1089 / 1676) منتصف شهر صفر ١١٠٠ هـ / ١٦٨٩ (98 No 26

(٤٠) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية)

Fos 204 v - 205 r.

وأخبار النواب (بالتركية العثمانية)

Fo 34 r .

وأحمد شلبي . أوده ، ص ١٧١ (بالتركية العثمانية)

(41) Raymond " Soldiers in trade " 4

الأناضوليون الذين أوردتهم رايموند أتوا - فى الأساس - من عينتاب (Gazientap) وملطية وهربوت Harput .

(٤٢) أخبار النواب (2 ff . fos 29 v) وحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fos . 139 - 144) وعبد الكريم ، تاريخ مصر (بالتركية العثمانية) (Fos 80 v. 84v.) وأحمد شلبي ، أوده (p.162) . أخبار النواب يشير إليهم بالزرب Zurub وشلبي Zurub أما الحلاق فلا يستخدم هذا ، بينما عبد الكريم يستخدم Surbe وهى كلمة تعنى سربا من الطيور .

(43) Mühimme - i Misr vol VII, No . 82

(منتصف شعبان ١٧٥٢ / ٦٦)

(٤٤) بالإضافة إلى لاذ إبراهيم وأبو مناخير فضة يوسف لدينا مثال السيفى سراج شركس محمد بيك وهو أرمنى حارب فى بلغراد فى سنة ١٧١٨ وأعاده للقاهرة شوريجى كتائب العزيان القوى يوسف البركاوى ،

وقد فرّ إلي شركس محمد بعد ارتكابه جريمة أراد الشوريحي يوسف البركاوي معاقبته عليها (أحمد شلبي) ،
أوده ، ص ص ٤٢٦ - ٤٢٧) .

(45) I . Carl Brown , The Tunisia of Ahmed Bey , 1837 - 1855 (Princeton , 1974) p.54 .

(٤٦) انظر على سبيل المثال :

الدمرداشي ، درة ، ص ص ٧٨ ، ١٦٢ .

الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ١١٢ .

وبالإضافة لهذا فالجبرتي يشير إلى مصطفى بالقازدغلي الكبير ويجد القازدغلية ، وأكثر من هذا فيبدو
من غير المحتمل ، أن " تابع " قد تعني إشارة جغرافية كما يظهر في بعض السياقات الأخرى لتعني ببساطة
شخصاً من منطقة قازداغ ، فالتابعين (التوابع) القازدغلية في دفاتر الرواتب يضمون بوسنيين وبغداديين
(قد يكونون ممالك جورجيين) وخمسة أناضولييين من مناطق مختلفة .

(٤٧) اثنان من رؤساء الزمرة ربما ورد ذكرهما مرتين على الأقل " الجاويش عثمان هو غالباً الكخيا
عثمان بعد ذلك ، وربما كان سر أوده عبد الرحمن هو الباشا جاويش عبدالرحمن فيما بعد " .

(٤٨) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٤٩) الدمرداشي ، درة ، ص ٥٢ .

(٥٠) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٥١) حمزة عبد العزيز بدر " Daniel Crecelius , The Waqfs of Shhin Ahmed Agha " Al 26
86 (1992)

(٥٢) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 213) الجبرتي (عجائب ، مج ١ ص ٢٣٤) لا يذكر هذه
المعلومة .

(53) Shaw , Financial and administrative Organization , p.193

(٥٤) طبعة ١٩٥٨ من الجبرتي فيها (فياله) وهو بلا شك خطأ طباعي أو خطأ من الناسخ .

(٥٥) انظر فصل ٨ (ص ص ١٥٦ - ١٦٠ من النص الإنجليزي) .

(٥٦) الكخيا الإنكشاري هليل تم اغتياله بينما الباش اختيار (رئيس الضباط نوى الرتب العليا) الكخيا
رجب ورئيس كتبه سليم أفندي يرقيان لرتبة البكوية ، وقد تم إعدام سليم أفندي بعد ذلك . انظر الدمرداشي ،
درة ص ص ١٢ - ١٣ .

الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٥٧) عن كچك محمد ، انظر الجبرتي ، عجائب ، ص ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

Holt , The career of kuchuk Mohammed , 269 - 87

(٥٨) انظر على سبيل المثال : الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ص ٢٣٨ ، ٢٤١ .

Holt , Ibid , 285-7 .

(59) Mühimme - i Defteri 108 , No 1315

(أول رمضان ١١٠٧) وتشير الوثيقة على نحو خاص إلى أن كجك محمد كان لديه ٢٠٠٠ أشرفى Serifi altun من أموال سليم ، ولأن سليما مات دون وريث فربما يكون هذا المبلغ قد ضاع (لم يرد) ، حقيقة إن مقتاليه فيما يبدو ادّعوا أنه بلا وريث حتى ظهر بعض المدّعين . والجبرتي على أية حال (مج ١ ، ص ٢٢٣) يؤكد أن سليمان كان بلا وريث .

(٦٠) الدمرداش ، درة ، ص ١٤ .

(٦١) خاصة الدشبشة الكبرى لإبراهيم بك بن ذى الفقار بدلا من الأغا الإنكشارى . والمحمدية لمراد بك الدفتر دار بدلا من كخيا الإنكشارية ، والمرادية لإسماعيل بك بدلا من الباش جاويش الإنكشارى والخاصكية لعبد الله بك بدلا من كخيا العزبان ، ومن بين هؤلاء كان مراد بك هو القاسمى الوحيد . انظر أحمد شلبى . أوده ، ص ١٧٨ . الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 22 br) وحل إسماعيل بك محل مراد بك فى الدفتر دارية بعد ذلك بثمانية أشهر .

(٦٢) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣١ ، وانظر أيضا الدمرداش درة ، ص ١٢ .

(٦٣) الجبرتي عجائب ، مج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٦٤) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٧ ، طلخا قرية على فرع دمياط فى الشرقية ، تختلف الروايات فى تحديد قاتل كجك محمد . وأحمد جلبى (أوده ، ص ١٩٠) يقول أنه مهما كان قاتله فهو لا يساوى حذاءه (أى حذاء كجك) .

(٦٥) أحمد شلبى ، أوده ، ص ص ١٩٤ - ١٩٧ . الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo . 220 r) ، عبدالكريم ، تاريخ مصر (Fo 99 v .) الدمرداش ، درة ، ص ٢٠ (لا يورد قصة معاقلة) .

(٦٦) أحمد شلبى (حلبى) ، أوده ص ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٦٧) الدمرداشى ، درة ، ص ٥٢ ، الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٦٨) انظر :

Maliyeden Müdevver 1350 , Mûqata defteri 1134 - 5 / 12721 - 3 (دفاتر المقاطعة)

(٦٩) وقد شرح هذا كل من :

- Pococke , A Descriptin of the East . vol . 1 P . 204 .

- Tuchscherer " Pelerinage " 175

(70) Mûhimme Defteri III , No . 1002

(منتصف المحرم ١١١٤ / ١٧٠٢) 112, No . 996 . (111 / 1700 أول ذى القعدة) و ١١٥ ، رقم ١٤٥٤ (منتصف ربيع الأول ١١١٩ / ١٧٠٧ م)

(٧١) الدمرداشى ، درة ، ص ١٠١ .

(٧٢) عبد الكريم ، تاريخ مصر (Fo 112 r) .

(٧٣) الدفاتر المهمة Mûhimme Defteri (منتصف ذى القعدة ١١١٠) vo . 12 .

(٧٤) الجبرتي ، عجائب م مج ١ ، ص ١٠٧ . أوضح رواية عن وقائع الحرب الأهلية هى تلك التى أوردها عبد الكريم فى (تاريخ مصر) (Fos . 128 r - 146 v .) .

- (٧٥) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٢٨
- (٧٦) الدمرداشي ، درة ، ص ٧٥ وانظر أيضا Mühimme-i Defteri III No 14 (متتصف ذي القعدة ١١١٠ / يونية ١٦٩٩) التي تسجل تصنيف البلاط مع هذه الحركة .
- (٧٧) اقترح علي هذا : شكوت باموك .
- (٧٨) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٧٦ ، وإن كان الأمر كذلك فيمكن أن يكون نصيف ابنا لعلي بن محمد الذي يظهر مع مصطفى بن محمد في سجل رواتب سنة ١٦٧٥ م .
- (٧٩) في رواية أحمد شلبي (أوده ، ص ٢٢٤) يظهر هؤلاء الثلاثة كالتالي : الكخيا نجدلي حسن كخيا ، والأوده باشي عنتبلي حسن ، والشوربجي أحمد تابع بكير أفندي (زمرة بشير أفندي) - كما هي ممثلة في سجل رواتب سنة ١٧٣٧ ، تتكون تماما من الأفاضولين وباقي الثمانية هم الجاويش كور عبد الله ، والكخيا قره إسماعيل ، والكخيا شريف مصطفى ، والأوده باش إبراهيم ، وقائم مقام الدمرداش (درة ، ص ١٣٥) تختلف اختلافا طفيفا ، إذ تضم الأوده باش عنتبلي محمد ، والأوده باش إبراهيم جدك ، وتضع بكير أفندي تابع الشوربجي أحمد مع الجاويش جدك محمد ، وفي الحوايات العربية يكتب لقب نجدلي حسن هكذا (نجدلي) والشكل العثماني على أية حال هو (نكهلي) .
- (٨٠) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٩٥ .
- (٨١) انظر على سبيل المثال : عبد الكريم ، تاريخ مصر (Fos 135 r v 152)
- (٨٢) الدمرداشي ، درة ، ص ١٢٠ . وكلمات الدمرداش على أية حال تعطينا انطبعا أن حسن كان جاويشا بالفعل عندما تسلم (الدلامه) .
- (٨٣) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ١٤٣ تاکد تاريخ وفاة الكخيا حسن من خلال بحث أندريه رايموند في أرشيف المحكمة الشرعية .
- (٨٤) عبد الكريم ، تاريخ مصر (127 v) ، أخبار النواب (Fo , 70 r) ، أحمد شلبي ، أوده ، ص ٢٢٩ ، الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ١٠٧ يشير مؤلف أخبار النواب في بداية الوقائع إلى " أتباع الكخيا مصطفى القازدغلي المتوفى " وفي فترة لاحقة يشير إلى أن حوالي " ٦٠٠ نفرو الذين اتفقوا على اتجاه هؤلاء الثمانية " ، ومع أن الجبرتي لم يحدد الرقم ٦٠٠ فإنه ذكر " عددا كبيرا من الأنفار " كما أنه يذكر ١٥ ضابطا بالإضافة إلى مجموعة " طائفة " الكخيا مصطفى وأحمد شلبي يحدد عدد الضباط بعشرين .
- (٨٥) أخبار النواب (Fo , 70 v) ، الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ١٠٨ .
- (٨٦) الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ١١٢ . أخبار النواب (Fo 75 r) لا تورد إلا شخصين اسم كل منهما حسن : الجاويش حسن القازدغلي ، وحسن جلبلي (شلبي) الذي أصبح بعد ذلك كخيا ، وربما كان هذا الأخير هو ابن الجاويش حسن الذي مات في طاعون ١١٤٨ هـ / ١٧٢٥ - ١٧٣٦ م (الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٤٨) .
- (٨٧) وصلت ذروة المنافسة في المواجهة بين الجاويش إبراهيم القازدغلي (سردار القطار) وعثمان بك نو الفقار أمير الحاج في سنة ١٧٣٨ م فقد رفضا حتى أن يركبا معا . انظر الدمرداش درة ، ص ٤٣٥ .
- (88) Raymond, Artisans et commerçants vol. II, pp. 707 FF. Tuchscherer, "Pèlerinage" 175, 181 .

ويوضح رايموند أن ضباط الإنكشارية وضعوا تجارة البن الخارجية تحت حمايتهم .

(6 - 1138 / 1725) all 583 , 584 , 585 , 596 , vol . III , I Misir , Mühimme (89)

ويبدو أن هذه أول مرة يرد فيها ذكر الفرقتين في أوامر الحكومة المركزية .

(90) Maliyeden Müdevver 1350

(٩١) أحمد جلبى أوده ، ص ٤٧٣ .

(٩٢) أحمد جلبى ، أوده ، ص ٤٨٢ .

(٩٣) أحمد جلبى ، أوده ، ص ٤٧٨ ، كان الثلاثة هم الأغا أحمد لهلوية ، والكخيا رجب ، والجاويش محمد تابع الكخيا على الدودلى .

(٩٤) أحمد شلبى ، أوده ، ص ص ٥٤٨ - ٥٤٩ . فى مشهد مثير قال نو الفقار بك للجاويش عثمان إذا لم تكن فقاريا فأنت لست قازدغليا .

(٩٥) وفقا لما ذكره أحمد شلبى (أوده ، ص ٥٧٧) استقر نو الفقار بك على نفى الجاويش محمد بدلا من إعدامه وذلك خوفا من قوة الجاويش عثمان فى سنة ١٧٢٢م - بعد موت ذى الفقار بك - استدعى الجاويش عثمان الجاويش محمد من الحجاز وأعادته لوضعه فى كتائب الإنكشارية ،

(٩٦) أحمد شلبى ، (أوده ، ص ٥٥٠) يؤرخ تولى الجاويش عثمان زمام السلطة على كتائب الإنكشارية فى رمضان ١١٤١هـ / مايو ١٧٢٩م .

(٩٧) الدمرداشى ، درة ، ص ص ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٦٢ . والمقتولان هما : الكخيا شريف مصطفى وابنه الجاويش شريف محمد .

(٩٨) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٥٧٠ ، مات أربعة أشخاص تحت الضرب ، لكنهم وفقا لما ذكره أحمد شلبى ، كانوا يستحقون ما حاق بهم ، وقد تعنى لهجة التناء فى كلمات أحمد شلبى على موافقة عامة حظى بها الجاويش عثمان .

(٩٩) فى سنة ١٧٢٨م حاز عثمان " الرياسة " مع كل من ذى الفقار بك والكخيا يوسف البركاوى (من العزيان) وهليل أفندى الشوكى (الدمرداشى ، درة ، ص ٢٧٥) .
(١٠٠) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٤٣٢ .

(101) Tuchscherer, " Pélerinage" 158

وتؤكد مجموعة الوثائق المعروفة بالمهمة Mühimme أن كثيرا من سفن البحر الأحمر التى تم استخدامها فى نقل البن كانت تحت حماية الإنكشارية .

(١٠٢) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٥٨٩ ، ساد فرع عشيرة الشرايبيه التى أسسها الحاج محمد ديد Dede فى منصب الشهبندر (شاه بندر Shah bandar) وأصبح زعيم فرع آخر - وهو يوسف شريك إسماعيل بيك بن إيواظ ، أصبح (كاشف) وبعد ذلك (بيك) وانضم يوسف بك لحملة ذى الفقار بيك أنظر الدمرداشى ، درة ، ص ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣٧١ ، ٣٨٠ ، أحمد شلبى ، أوده ، ص ١٥٥ . وعن الحاج محمد أنظر الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ص ٢١٩ وما بعدها .

(١٠٣) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٤٨ . أنظر أيضا الدمرداش درة ، ص ص ٤١١ - ٤١٢ . وأنظر أيضا : Tuchscherer , " Pelerinage" 159 أتباع عثمان ممن حازوا " الرياسة " : محمد بيك قطامش

والكخيا يوسف البركاوى وهليل أفندى الشركى ، وفى هذه الأثناء صادروا أموال السناجق والأغوات ممن لا وريث لهم ، والأول منهم من كتائب العزبان ، والثانى من طوائف الحرفيين والثالث سيباهى .

(١٠٤) هذا الرقم الإجمالى هو ناتج جمع أتباع الكخيا عثمان القازدغلى ، والجاويش عثمان قازدغلى .

(١٠٥) Tuchscherer, "Pélerinage" 157, No.10 وتم أيضا إدراج اسم شخص هو هليل ، وكذلك مصطفى الخازندار .

(١٠٦) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٦٠٨ ، الجبرتى (عجائب ، مج ٢ ، ص ١٢) يجعل الرقم ١٢٠ .

(١٠٧) عن بيته انظر Behesns - Abouseif , Azbakiyya and its Environs, pp.55 ff وعن المباني والإنشاءات الأخرى انظر :

الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٤٨ . الدمرداش ، درة ص ٤١١ Tuchscherer, "Pelerinage" 158

- Bayard Dorge, Al-Azhar : A Millennium J Muslim Learning , memrial ed . (washington, DC 1974

وكان الأزهر مقسما إلى أروقة (جمع رواق) ، وكانت مقسمة وفقا لأعراق الطلبة أو البلاد التى أتوا منها .

(108) Mühimme - i Misir m vol V, nos 347, 367 (all 1148 / 1736) (both 1149/ 1736-7) , 428 (8 - 1154/ 1737

ويزعم الجبرتى (مج ٢ ، ص ٥٧) أن الهجوم كان يهدف فى الأساس مجموعة القطامشة الفقارية السابقة الذين أخذوا بزمam " الرياسة " والذين تأخروا عن دفع الحلوان Fee عن التزامات القرى التى يتولون التزامها ، بل إن حقيقة أن الواقعة تشير إلى محو الزعامة (لا بالنسبة للبكوات فقط وإنما أيضا بالنسبة لمعظم ضباط الأوجاقات) تعنى "أن الوالى كان يهدف إلى الاستحواذ على " الرياسة كاملة " فى يديه .

(١٠٩) العشرة المقتولون فى هذه الواقعة الدموية هم محمد بيك قطامش (دفتر دار) ، وعلى بيك قطامش (أمير الحاج) ، وصالح بيك قطامش ، والكخيا عثمان القازدغلى ، حليفة الكخيا أحمد الخربوطلى ، والكخيا يوسف البركاوى (من كتائب العزبان) ، وهليل أفندى (أغا الجمليان) ، والشوربجى صالح ، والشوربجى حمزة (من التوفنكيان أو التفكية) ونجا عثمان بيك ذو الفقار وكخيا الجاويشى وباشى Basi المتفرقة .

(١١٠) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٥٧ واستخدم الجبرتى مصطلح مرض القصبة .

(١١١) الدمرداش ، درة ص ص ٤٢٦ - ٧ منحت فرمانات مماثلة لإبراهيم بيك قطامش وشخص اسمه الجاويش الخربوطلى . أنظر أيضا الجبرتى عجائب ، مج ٢ ، ص ٥٧ .

(١١٢) هناك تابع واحد للكخيا سليمان القازداغى (القاز طاغى) لكن لأن الجاويش سليمان لم يرق إلى كخيا إلا فى سنة ١٧٣٩ ، فلا يمكن أن يكون هو المقصود ، والأقرب أن الكخيا سليمان هذا هو خشداش الكخيا حسن القازدغلى وراعى الكخيا إبراهيم .

(113) Tuchscherer, "Pélerinage " 161 - 2

(١١٤) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٣٧٢ .

(115) Tuchschererm "Pèlerinage" 162 ,

(١١٦) Ibid, 172 ff وأكثر من هذا ، يمكن للمرء أن يفترض أن ديون سليمان لا بد أنها كانت مشتملة على ديون لتجار الحبوب لقاء الحبوب التي كان يوزعها ويبيعها في الحجاز .

(١١٧) الدمرداشي ، درة ، ص ٤٣٦ .

(١١٨) نفسه ، ص ٤٠٤ .

(119) Tuchschererr "Pèlerinage" 157

(١٢٠) إنه لافتراض ضعيف أنه نقول زنه بصرف النظر عن عثمان بك فإن الوحيديين من القابض على زمام الرياسة اللذين كتبت لهما النجاه كانا من المقريين جدا لديوان الوالي ومما ياشي المتفرقة وكخيا الجاويشية .

(١٢١) الدفتردار التي تمت المذبحة في منزله هو الأمير الفقاري محمد بك إسماعيل بن إسماعيل بك زوج ابنة الأغا حسن بلفية ، ومحمد بك هذا بالإضافة لتمثيله للبلقية (من حرسها القديم) فإنه كان يلقي الدعم والتأييد من الأغا الحاج بشير كبير الخصيان السود (انظر فصل ٨) وأشترك أيضا عدد من المتأمرين القاسمية : سليمان بن الفراش مملوك الإيواطي محمد بك الجزار ، وأمير الحاج السابق رضوان بك ، وزوج ابنة إيواظ بك (صالح كاشف وعثمان كاشف (الكاشف عثمان) وقد قتل الاثنان الأخيران عددا من القتلى ، واتهم الكخيا أحمد البركاوي تابع الكخيا المقتول يوسف البركاوي (من العزبان) بأن تخلف عمدا عن راعية his paren كي لا يشترك معه في الشرك trap ، وكما رأينا فإنه كان العقل المدبر في وقت لاحق لاغتيال الكخيا على الجلفي . انظر الدمرداشي ، درة ، ص ص ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٨ . أحمد شلبي ، أوده ،

(١٢٢) الدمرداشي ، درة ، ص ٤٩٤ . العبارة : " دخل بينهم " تقيد أن الكخيا عبد الله كان يحاول منع الطرفين المتقاتلين ، وعلى أية حال فليس هذا هو أسلوب الوساطة الرسمي .

(١٢٣) الدمرداشي ، درة ، ص ٥٠٦ .

(١٢٤) انظر الفصل الخامس (النص الإنجليزي ص ص ٨٩ - ٩٠) عن وجهة النظر الرسمية للحكومة العثمانية .

(١٢٥) الدمرداش ، درة ، ص ٥١٦ لا يذكر بشكل واضح هروبه للشام ، والجبرتي (عجائب مج ٢ ، ص ٧٥) يذكر أن عبد الله مات في الشام ، ومجموعة الوثائق المعروفة باسم Mühimme - i Misir (مجلد ٦ ، رقم ١٦٨ " ١١٥٧ / ١٧٤٤) أنه مات في يافا ، وتذكر أن حسين تابع عثمان بك قد نفى إلى دمياط .

(١٢٦) يذكر هولت الدليل نفسه في كتابه :

Egypt and the fertile Crescent, p.91

(١٢٧) الدمرداشي ، درة ، ص ٤٣٢ . وفي حواشيه أحمد شلبي أن يوسف كاشف الجيزاوي الذي قتل الكخيا عثمان القازدغلي سمي في وقت لاحق عثمان كاشف (أوده ، ٦٢٠) .

(١٢٨) الدمرداشي ، درة ، ص ص ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(١٢٩) نفسه ، ٤٩٧ ، ٥٠٣ .

(١٣٠) نفسه ، درة ، ٥٨١ .

(١٢١) نفسه ، ٤٢٧ ، الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ١٢٠ وما بعدها . انظر أيضا :

Hathway , " Marriage alliances" 145

(١٢٢) كان الأغا سليمان مملوكا للقاسمي مصطفى بك القرد وخشداشا لصالح بك القاسمي الذي سيصبح عدوا لدودا لعلی بك الكبير بلوط قاياں في أواخر القرن ١٨ . وفي سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ نفى علی بك سليمان العجوز إلى الدلتا مع خشداشية آخرين لصالح بك . انظر الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ١٠٢ - ٢ .

(١٢٣) الدمرداشي ، درة ، ص ٥٦٦ ، الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ص ٩١ . معظم المياني التي تمت أثناء حكمه نفذها شريكه الكخيا رضوان الجلفي .

(١٢٤) تحالف الجاويش نجدلي حسن - علی سبيل المثال - مع القازدغلية ، وفي سجل رواتب ١٧٣٧ - ١٧٣٨م نجد للجاويش حسن نجدلي أعوانا أكثر من أي فرد من أفراد الزعماء القازدغلية مع استثناء الثمانية في الحرب الأهلية في سنة ١٧١١م .
(١٢٥) أحمد شلبي ، أوده ، ٥٣٦ .

الفصل الخامس

صعود الكخيا إبراهيم القازدغلى وظهور البكلرية القازدغلية

خلفية الكخيا إبراهيم

أتى الكخيا إبراهيم من الفرع الذى يمكن أن نصفه بأنه فرع ثانوى للزمرة القازدغلية ، ذلك الفرع الذى بدأه الكخيا مصطفى ، وكان إبراهيم "تابعاً" للكخيا مصطفى أكثر من كونه شخصاً غامضاً من بطانة الجاويش cavus سليمان الذى بدأ قانعا بإلحاق نفسه بخشداشه الأكبر سنا والأشد إقداماً الكخيا حسن ، ولا نستطيع تبين الأصل العرقى لإبراهيم بشكل يقينى ، فمجموعة الوثائق التى تضمها الدفاتر " المهمة Mühimme " تنسبه للقازدغلية وهذا يتضمن أنه مثل الكخيا مصطفى أتى من مناطق الأناضول الغربية ، بل إن هذه الوثائق المسماة "بالمهمة - مهمى دفتري - تطلق هذا اللقب - القازدغلى - على رؤساء الزمرة الأقدم منه مثل الكخيا حسن ، والكخيا عثمان اللذين تشير وثائق محكمة القاهرة الشرعية إلى أنهما مماليك^(١) ، فإذا كان إبراهيم مملوكاً فلا بد أنه اتبع المماليك المحررين خلال تطور الزمرة القازدغلية ، وأكثر من هذا فجيل إبراهيم - مثل الجيل القازدغلى السابق - ارتبط أخيراً بتقليد " الرفيق الأضعف " الذى وقع الجاويش سليمان - راعى إبراهيم - نفسه ضحية له ، ولذا ظهر إبراهيم كمقدم بين أتباع الجاويش سليمان أمّا هم فلم يظهروا فى الحوليات إلاّ لمّا^(٢) .

وقد أتبع الكخيا إبراهيم الممارسة القازدغلية الراسخة فى استخدام الحج طريقاً للنفوذ ، فنحن نذكر أنه فى وقت ارتداد القازدغلية الجماعى لكتائب العزبان فى سنة ١٧١٠م كان الجاويش حسن القازدغلى يعمل سرداراً لقطار الحاج بينما كان

خُشداشه (رفيقه) الأقل رتبة سليمان يشغل منصب سردار الصرة ، وشخص آخر هو الشوربجي إبراهيم يشغل منصب سردار الجدأوى (الشوربجي رتبة عسكرية فى كتائب العزبان وليس اسم) ، فإذا كان إبراهيم هذا هو تابع سليمان فإن الكخيا إبراهيم الذى سنسمع عنه بعد ذلك والذى كان - وقتئذ - يتولى دورا قياديا فى الحج يكون قد انخرط فى هذه المهمة منذ تاريخ باكر تماما ، فإبراهيم لم يترق إلى رتبة جاويش حتى سنة ١١٤٨ هـ / ١٧٣٥ م ، وأصبح بعد أن حمل هذه الرتبة (جاويش) سردارا لقطار الحاج فى سنة ١١٥١ هـ / ١٧٣٨ م .

وفى أثناء حماية قافلة الحاج أغضب الجاويش إبراهيم أمير الحاج البيك عثمان ذا الفقار^(٣) ، وكما لاحظنا عند حديثنا عن الزمرة الجلفية فإن العداوة بين الأميرين (الجاويش إبراهيم والبيك عثمان) بلغت ذروتها فى صدامهما بخصوص قرية فرشوط فى جرجا فى سنة ١٧٤٣ م . عندما أجبر الجاويش إبراهيم البيك عثمان على الهرب من مصر إلى إستانبول ، وكان هذا الحدث مقدمة لقيام الجاويش إبراهيم بطرد الوالى العثمانى الباشا محمد راغب فى سنة ١٧٤٨ م . وهو الأمر الذى فُسِّرَ بعد ذلك على أنه حركة تمرد قام بها إبراهيم^(٤) ، لكن إعادة موازنة القوى بين الوالى والزمرة الفقارية المتبقية بعد هروب البيك عثمان أظهرت أن وصف إبراهيم بالتمرد كانت مسألة مرحلية تماما كالتحالفات السياسية ، وإعادة التقويم على هذا النحو أوضح ما هو أكثر من هذا ، وهو محاولة إبراهيم تجنب وصمة التمرد .

إعادة النظر فى العصيان المسلح الذى قام به الجاويش إبراهيم

هرب البيك عثمان ذو الفقار بعد أن قام الجاويش إبراهيم القازدغلى بعزل كاشف فرشوط الذى كان أحد أفراد حاشية البيك عثمان وإحلال كاشف آخر محله من جماعته (أى جماعة الجاويش إبراهيم) بل إن الجاويش إبراهيم ضمن أخيرا تأييد الوالى العثمانى وكذلك السلطان لما قام به وبالتالى فقد كان البيك عثمان بمعارضته العنيفة لتعيين كاشف من طرف الجاويش إبراهيم إنما يعارض رغبات الحكومة الإمبراطورية (السلطان) فقد كانت الفرمانات الواردة إلى القاهرة فى هذا الوقت

تعتبر أن المتمرّد هو البيك عثمان وليس الجاويش إبراهيم ، ولقد وصفت هذه الفرمانات عثمان بأنه متمرّد saki وخائن وعبرت عن اهتمام كبير بجمع الحلوان acquisition free الذي كان مطلوبا من عثمان دفعه عن قرى كثيرة تولّى التزامها ^(٥) ، وكان من بين هذه القرى قرية فرسكور في ولاية البحيرة بالدلتا ، و التي كانت قد خصّصت لزراعة الأرز بهدف استخدامه في البلاط السلطاني ، وكان من بين انتهاكات البيك عثمان الكثيرة حبسه أرز البلاط السلطاني ، وغير ذلك من المؤن المعدة لهذا الغرض ^(٦) . ورغم جهود الحكومة لتقسيم أوقاف الحرمين فقد استطاع البيك عثمان بشكل أو آخر تولّى نظارة ثلاثة أوقاف : المرادية و الخاصكية و أوقاف الوالدة valide ، والأوامر الواردة في مجموعة الوثائق " المهمة Mühimme " تأمر بأن يُرسل البيك عثمان للخزانة العثمانية الضرائب المفروضة على القرى الموقوفة ^(٧) ، وفي هذه الأوامر ما يفيد ضرورة مصادرة ممتلكات البيك عثمان وبيعها ، وإذا حاول البيك دخول مصر ثانية وجب القبض عليه وإعدامه ^(٨) . باختصار لا بد من عدم إتاحة أي ملجأ له .

بل إن البيك عثمان عندما وصل إلى إستانبول بذل جهدا بطيئا وحذرا ومراوغا حتى تغيرت صورته في أعين رجال القصر ، وورد في فرمان صدر وقت وصوله إلى إستانبول ما يعبر عن السخط لوصوله إلى العاصمة العثمانية دون صدور فرمان يأمر بحضوره ، بل إن معظم ما حواه هذا فرمان يتناول مصادرة منزل البيك عثمان في القاهرة على يد مناوئيه المنتصرين ، والأمر الذي لا يصدّق أن اسم البيك عثمان عند وروده في هذا فرمان كان مشفوعا بصيغة التشريف العربية " دام عزّه " وهي صيغة يصعب إطلاقها على خائن ، بل إن هذه الوثيقة (الفرمان) تبدو وكأنها من إملاء البيك عثمان نفسه ^(٩) ، وقد يكون هذا قريبا من الصحة لأن الوثيقة (الفرمان) قد صدرت استجابة لشكوى البيك عثمان مما لاقاه من سوء معاملة ، فمصدر ما أورده فرمان من تفاصيل عن الموقف في مصر هو شكوى عثمان نفسه .

إنه لمن الواضح أن البيك عثمان عند وصوله إلى إستانبول لم يدّخر وسعا في تقديمه الالتماسات للبلاط لإصلاح ما أفسده ، وسرعان ما أتت جهوده ثمارها فتم ردّ اعتباره إليه كما تشير الوثائق " المهمة " ، فمنحه البلاط السلطانيّ الإذن بالبقاء في إستانبول رغم أن ممتلكاته وبيته في مصر قد تم الاستيلاء عليها وتم بيعها ولم تلغ

إستانبول هذا ، وفي أمر صدر - غالبا - بعد ذلك فورا للأفراد المصريين تم تحذيرهم من التدخل في رواتب (العلوفة والسيرايه Ceráye) أسرة البيك عثمان أو في "وقف" الأسرة الذي أوقفه على أسرته لإمدادها بما يلزمها ، ولم يمض وقت طويل حتى أحضر أسرته إلى إستانبول ، وبحلول عام ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م . تم تعيينه " سنجق بك " لأدرنه مع وعد بأن يستعيد أمواله وممتلكاته في مصر ^(١١) ، لقد مارس البيك عثمان ومؤيدوه قدرا كبيرا من الضغط على البلاط وقد استخدموا (عثمان ومؤيدوه) أيضا وسائل مادية ملموسة للحث على تحقيق أغراضهم ، فقد أشارت الوثيقة (الأمر) إلى أن البيك عثمان دفع "ضريبة اعتذار bedel_lafv" مقدارها ٢٠٠ كيس مصرى ليكسب عطف الحكومة العثمانية ^(١٢) .

وحتى من موقع منفاه الذي فرضه على نفسه حاول البيك عثمان استخدام الوالى العثمانى الجديد ، ورئيس الوزراء القادم (الصدر الأعظم) الباشا راغب محمد (١٧٤٤-١٧٤٨) لعودة الفقارية في مصر ، وعلى أية حال فإن البيك عثمان لإنجاز هدفه هذا كان عليه ليس إزاحة الجاويش إبراهيم القازدغلى فقط ، وإنما أن يزيح أيضا ما تبقى من أخلاف الفقارية : مجموعة قطامش ، وكانت هذه الزمرة قد أسسها البيك محمد قطامش المملوك الجورجى للزعيم الفقارى البيك قيطاس الذى سبق أن تم إعدامه فى سلسلة أحداث الحرب الأهلية سنة ١٧١١ م . وكان البيك محمد قطامش نفسه قد مات فى حادثة مؤسفة (واقعة عنف : wakát shúr - Angiz) فى سنة ١٧٣٦ م . وعندما غادر البيك عثمان مصر استعاد القطامشة مناصب " الرياسة " الرئيسية التى كانوا قد هيمنوا عليها قبل سنة ١٧٣٦ م . فالبيك الراحل إبراهيم قطامش - الذى كان تحت حماية البيك الراحل محمد - حل محل البيك عثمان ذى الفقار فى منصب شيخ البلد (القاهرة) بينما أصبح خُشداشه (رفيقه) البيك هليل أميرا للحاج ، وفى هذه الأثناء شغل البيك على من الزمرة الدمياطية - التى تجبى جمارك ميناء دمياط - منصب الدفتردار ^(١٣) .

ولم يضع هذا الجيل الجديد من القطامشة الوقت فى إثارة سخط الباشا راغب محمد والحكومة العثمانية ، فقد كان البيك هليل قطامش أميرا للحاج يتسم بالجشع وقد نهب عبيده السود الأفريقيون الذين اشتراهم مفضلا إياهم على المماليك القوقازيين

أو السَّراجين الأناضوليين - نهبوا الحجاج تباعا ، فجأروا - أى الحجاج - بالشكوى للوالى العثمانى باسم الحجاج المغاربة الذين سخط سلطانهم المولى عبد الله سخطا شديدا ، وقد أورد الحديث خطاب مولاي عبد الله ورد الباشا العثمانى راغب ، وقد تعهد الباشا راغب فى رده بقتل البيك هليل قطامش وثلاثة من المسئولين معه فى قافلة الحاج ، ووصفه بأنه متمرّد (١٤) .

وأتاح موت الحاج بشير أغا (١٧١٧ - ١٧٤٦) رأس الخصيان السود أتاح للباشا العثمانى راغب الفرصة لمهاجمة القطامشة وغيرهم من المشاركين فى " الرياسة " ، وأدى موت هذا الطواشى العجوز إلى جهود حثيثة من لدن الخزانة المركزية لاستيراد ما تركه من ثروة فى مختلف أنحاء الإمبراطورية (العثمانية) ، وكانت الغلال والفائض faiz (العوائد الفائضة بعد التوزيع) من القرى المصرية المدرجة ضمن أوقاف الحرمين والتي كان الأغا بشير ناظرا عليها - فى ذمة in the possession of شيخ البلد إبراهيم^(١٥) قطامش دفتردار البيك على الدمياطى ، والبيك عمر قطامش بن أحد مماليك البيك محمد قطامش ، وعندما طلب وكيل الأغا بشير منه تسليم الغلال أجاب البيك إبراهيم قطامش فيما يقال " لياكل السلطان برازا " ، ومع هذا فقد كان راغبا فى تأخير التزام إحدى القرى للمكيل مقابل عربون من الغلال (١٦) ، من الواضح أن إصرار البيك إبراهيم تمخض فى النهاية عن صدور خط شريف (مرسوم إمبراطورى) يلقى - بشكل سرى - على عاتق الباشا العثمانى راغب ، قتل كل القطامشة بمن فيهم البيك على الدمياطى ، ونفى ما تبقى من الدمايطة (المقصود زمرة البيك المذكور) .

وعلى أية حال فقد كانت بصمات البيك المبعد عثمان ذى الفقار واضحة فى هذا الخط الشريف (المرسوم السلطانى) ، فقد كان على تابعيه وحاشيته أن ينفذوا عمليات الاغتيالات هذه ، وكان هؤلاء الأتباع محتجزين فى بيت البيك حسن الخشاب رعية أستاذ (سيد) عثمان (البيك ذو الفقار) وكان البيك حسن الخشاب قد أصبح أثيرا جداً لدى الباشا العثمانى راغب (١٧) ، وعلى أية حال فإن تصميم الجاويش إبراهيم القازدغلى على التمسك " بالرياسة " وقف عائقا فى طريق استفادة الفقارية لمكانتهم ، وعلى هذا فإن البيك حسين الخشاب والباشا العثمانى راغب قاما بحبك مؤامرة لقتل الجاويش إبراهيم وحليفه الكخيا رضوان الجلفى ، ومرة أخرى نجد البيك عثمان

١
-
ذا الفقار كامنا خلف الستار، لقد وقع الاغتيال على كاهل عدد من مماليكه كانوا مختبئين في القاهرة ، وكان عليهم أن يوقعوا بإبراهيم ورضوان في منزل الخشاب ، وكان من المقدر أنهم إذا أتموا مهمتهم بنجاح أن يعيدوا البيك عثمان إلى القاهرة ، ولكن الجاويش إبراهيم علم بالمؤامرة فواجه الباشا العثماني راغب وطلب استصدار فرمان بإعدام الخشاب ، ولكن الوالى العثماني الذى أخذ بهذا الطلب رفض أن يصدر أمرا بإعدام رجل ينفذ أمر سيدنا السلطان حبيب الله ورسوله ، فما كان من الجاويش إبراهيم إلا أن عزله فورا وطارده الخشاب خارج القاهرة (١٨) .

إن اجتثاث الجاويش إبراهيم لكل من البيك حسين الخشاب والباشا العثماني راغب كان بمثابة حركة تمرد تجعل الحكومة العثمانية تدعم البيك عثمان ذا الفقار بقوة ، ومع هذا فمن الملاحظ أن سياسة الحكومة المركزية تجاه البيك عثمان - كما يظهر في دفاتر " الوثائق المهمة " mühimme - ينقصها الاتساق بشكل واضح ، حقيقة أن الصراع بين زمرة الأخلاف الفقارية بدا مضاعفا في العاصمة العثمانية ، والأوامر الواردة في مجموعة الوثائق المعروفة باسم المهمة تطلق كلمة " متمرّد " saki ؛ أى طريد العدالة على مناوئى أى مجموعة group تحظى بالثقل الأكبر في البلاط العثماني ، ففي شهر رمضان ١١٥٩ هـ / سبتمبر ١٧٤٦ م . أى بعد أن كاد البيك عثمان ذو الفقار أن يتوطن بشكل نهائى في العاصمة - ظهر أمران يصفان كلا من الجاويش إبراهيم القازدغلى والكخيا رضوان الجلفى بأنهما متمرّدان Saki . وتعكس هذه التهمة المنافسة التى طال أمرها بين البيك عثمان و الجاويش إبراهيم على تولى أمور قافلة الحاج؛ فقد زعمت هذه الأوامر (الآنف ذكرها) أن الجاويش إبراهيم فشل فى تسليم الحبوب لأهالى المدينتين المقدستين ، كما فشل فى حماية الحجاج والقرى المصرية من هجمات البدو ، وأكثر من هذا فهذه الأوامر تبدو متعرضة لسيطرة الجاويش إبراهيم فى أوجاق الإنكشارية ، تلك السيطرة التى استطاع بواسطتها احتكار منصب سردار قطار الحاج ، لقد كان من الضرورى معاقبة الجاويش إبراهيم وحلفائه ولا بد أيضا من الحفاظ على النظام فى الأوجاق (فرقة الإنكشارية) (١٩) ، وعندما نتذكر أن منصب سردار قطار الحاج يعتمد على قدرة هذا الضابط على حماية قافلة الحجاج من هجمات البدو ، نجد أن تحركات البيك عثمان تصبح أكثر قرباً للفهم ، فإذا استطاع

البيك عثمان أن يلفت الانتباه لقدرته هو شخصيا على إداره قافلة الحجاج بشكل آمن بمهاجمته للجاويش إبراهيم واصفا إياه بعدم الكفاءة في حماية قافلة الحجاج وتدبير أمورها ، فإنه بذلك - أى البيك عثمان - يضع أساس استعادته لسلطانه في مصر ، لقد صدر أمر (خط شريف) قبل هذه الاتهامات التى وجهها للجاويش إبراهيم بوقت قصير يطلق على البيك عثمان لقب " شيخ البلد " وذلك لأول مرة منذ هروبه (إلى إستانبول) (٢٠) ، ووفقا لممارسة راسخة (مألوفة) عين السلطان البيك عثمان لتولى أمر أدرنة ، ليخفف من جهوده الرامية للعودة إلى القاهرة ، وربما حقق تعيينه سنجق بك لأدرنة غرضين : مكافأة البيك اللوح ، وإبعاده عن العاصمة ، ولم يكن " السنجق بك " بأكثر المناصب جلبا للربح ولا كان أكثرها بهاء .

ولا بدت عودة الفقارية مستفيدة من إبعاد القطامشة الذى أعقب العفو عن البيك عثمان ذى الفقار ، رغم جهود الباشا العثمانى راغب ، والبيك حسن الخشاب لتهيئة هذه الظروف لصالح الفقارية ، وبدلا من هذا فإن الحكومة العثمانية المركزية بدت وكأنها تعتبر الجاويش إبراهيم القازدغلى وحلفاءه أخلافا - بحكم المنطق - للقطامشة فى الرياسة ، وبينما كان القطامشة المنفيون والذين تم إعدامهم يوصفون بأنهم متمردون فى سلسلة الأوامر العثمانية الصادرة بدءا من سنة ١٧٤٧ ، فإن الجاويش إبراهيم القازدغلى و الكخيا رضوان الجلفى كانا يوصفان بأنهما قائدان من قادة مصر ، على نحو يشبه كثيرا وصف الأغا حسن بلفيه و الكخيا مصطفى القازدغلى فى أواخر القرن السابع عشر (٢١) لم يوصف أبدا أى منهما (الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان) مرة أخرى بأنه متمرد ، وكما كان الحال بالنسبة للقطامشة ، فإنهما لم يتأثرا - إلا قليلا - بالتغيرات التى أحدثها البيك عثمان ذو الفقار ، لقد كان هدف سلسلة الأوامر العثمانية التى بدأت فى سنة ١٧٤٧ والتى أشرنا إليها آنفا - كما هو متوقع - وممتلكات القطامشة ، وكذلك ممتلكات البيك على الدمياطى كما كانت تهدف إلى بيع الالتزامات الخاصة بالأشخاص الآنف ذكرهم بالمزاد (لمن يدفع أكثر) (٢٢) وفى سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م . تم العفو - على أية حال - عن اثنين من القطامشة وسمح لهما بالإقامة فى مكة ، وإن حُظر عليهما العودة لمصر (٢٣) لقد لعبت مكة بالنسبة للقطامشة الدور نفسه الذى لعبته أدرنة بالنسبة للبيك عثمان ذى الفقار .

لقد تجلّى كرم الحكومة العثمانية المركزية مع الجاويش إبراهيم فى عدم اتخاذها إجراء حاسماً ضده عند طرده للباشا العثمانى راغب ، كما أن الأمر الذى نص على تعيين الباشا أحمد - والى سنجقية إيشل Snacak of Icil على الساحل الجنوبى للأناضول - محل راغب ، هذا الأمر يستخدم عبارات مخففة عند الإشارة لظروف عزل راغب دون إشارة إلى الجاويش إبراهيم ، وإنما يكتفى الأمر بوصف ما حدث بأنه واقعة عنف (٢٤) " شورا أنجيز shurangiz " وعلى العكس من هذا نجد أن البيك حسين الخشاب وأتباعه يوصفون بأنهم متمردون .

لقد ورد فى هذا الفيض المضطرب من الأوامر العثمانية ضرورة طرح التزاماتهم فى المزايا بالاستيلاء على منازلهم (٢٥) ، والحقيقة أن هذه الأوامر كانت أمراً نمطياً تتبعه الحكومة العثمانية المركزية فى التعامل مع القابضين على زمام " الرياسة " بشكل غير شرعى (لا توافق عليه الحكومة العثمانية المركزية) : حرمان من حماية القانون ، وجهود شديدة لإثبات أن ثرواتهم حرام (مكتسبة بطرق غير شرعية) ، ويتبع ذلك شىء من التساهل واللين على نحو أو آخر ، إن تحليلنا النهائى للأمور - على هذا - يعنى أن الحكومة العثمانية المركزية نظرت للبيك عثمان ذى الفقار و القطامشة والخباب على أنهم مجرد رؤساء (قابضين على زمام الرياسة riasa) لحقهم الفساد ، لا أكثر ولا أقل ، فالحكومة المركزية - بالتأكيد - لم تعترف بضرورة ملحة جعلها توافق على عودة البيك عثمان وأتباعه للقبض على زمام السلطة فى القاهرة .

كانت الرابطة بين الباشا العثمانى راغب والبيك حسن الخشاب أصعب على فهم أغوارها ، ربما شعر راغب بالامتنان للخباب ومن تبقى من أتباع البيك عثمان ذى الفقار لمعاونتهم فى التخلص من القطامشة ؛ وربما كان هذا هو ما عناه الباشا العثمانى راغب عندما أيد الخشاب بتنفيذ أمر السلطان - وذلك وفقاً لرواية الدمرداشى ولكن الدمرداشى قد يكون مبالغاً عند حديثه عن امتداد محاباة الباشا العثمانى راغب وتحيزه لأنه - أى الباشا راغب - لم يتعرض لتوبيخ أو أى عقاب آخر على لوقوفه إلى جانب الخشاب ، بل إنه عين نيشانجى nisanji ؛ أى أنه أصبح الموظف المسئول عن كتابة الطغراء السلطانية فى الوثائق الإمبراطورية (العثمانية) و الطغراء هى الشكل المنمق بطريقة فنية لتوقيع السلطان ، ثم جرى نقله (أى راغب باشا) إلى وظيفة

محصل لناحية أيدين Aydin فى غرب الأناضول (والمحصل هو جامع الضرائب أو القائم على تحصيلها) وهى مهمة حساسة (ومن السخرية أن الناحية تقع عند سفح جبال القازداغى kazdagi) وربما كان شغله لهذا المنصب فى ناحية صغيرة مثل أيدين Aydin يشير إلى أنه على نحو ما لم يعد أثيرا لدى الحكومة المركزية ، وقد يكون هذا ناشئا - على نحو جزئى - عن مسلكه فى مصر ، وعلى أية حال فلم يكن راغب باشا شديد الأسف لمغادرته مصر ، لقد تعب من حكم " أم الدنيا " (المقصود مصر) كما ورد فى قصيدة كتبها ، وقال فيها أيضا : " هذا يكفى . كفى ما عانيته من القاهرة ، دعونا نسرع عائدين إلى الروم Rum " (٢٦) ولا يمكن أن نعتبر عزله من باشاوية مصر هزيمة عنيفة ساحقة لأنه كان قد قضى فى القاهرة أربعة أعوام زائدة عن الفترة التى قضاهها معظم الباشات (الولاة العثمانيين فى مصر) .

ولاشك أن كثيراً من العناصر التى كان لها دور فى تدهور حظوظ الفقارية وازدهارهم مرة أخرى ، ثم ما تعرضوا له من إحباط - زامنت صعود نجم الجاويش إبراهيم القازدغلى ، وفى المقام الأول كانت المعاملة النمطية للحكومة العثمانية للأمرء grandes المحليين الذين حاولوا استغلال " الرياسة " لتحقيق أغراضهم الشخصية ، لكن هناك عوامل أخرى لعبت - بالتأكيد - دورا آخر فيما حدث فإذا كان الخشاب - تابع البيك عثمان ذى الفقار - وجد فى الباشا العثمانى راغب حليفا فقد وجد البيك عثمان نفسه - فيما يظهر - حليفا فى البلاط العثمانى ، ولا يمكن لغير هذا أن يفسر لنا سرعة توطئه فى العاصمة العثمانية وتغلغله فيها ، لكن حدث فى الوقت نفسه أن هذه السرعة التى حقق بها هو وأتباعه نفوذا ووجهت مرة أخرى بصراع على السلطة فى العاصمة العثمانية ، وقد أدى موت الأغا الحاج بشير الذى كان معتادا على دعم الأخلاف الفقارية فى سعيهم " للرياسة " وربما كان موته لكمة عنيفة للفقارية كما كانت للقطامشة ، والنقطة المعبرة فى هذا الصدد هى هروب البيك حسين الخشاب إلى صعيد مصر (وليس إلى إستانبول) ومن ثم إلى الحجاز ، وذلك أنه ربما أحس أن إستانبول قد توقفت عن تقديم المأوى لأنصار البيك عثمان ذى الفقار المهزومين ، وربما كان توقف دعم البلاط للفقارية هو العامل الكامن وراء نقل البيك عثمان إلى أدرنة ، وقد استفاد الجاويش عثمان من ناحيته من الرحلة التى قام بها للقاهرة - خلال سنَى الخمسين من

القرن الثامن عشر - الأغا أبو كوف أحمد الذى سيصبح مستقبلا كبير الخصيان السود ، و الذى كان من ألد أعداء الباشا راغب (٢٧) .

وعلى هذا فالتحليل النهائى يشير إلى أن صعود نجم الجاويش إبراهيم القازدغلى لم يكن نتيجة تمرد جسور وإنما بدا نتيجة قدرته فى تنصيب نفسه خادما وحيدا شديد الولاء للسلطان وسط مجموعة من الانتهازيين يخدم كل منهم مصالحه الخاصة ، لقد ظل حذرا متدبرا حتى وهو قابض على " الرياسة " على عكس أسلافه فى الرياسة فلم يحتفظ بإرسالية الخزينة وإنما كان يرسلها دوما إلى إستانبول (٢٨) ، هذه الحكمة وهذا النظر البعيد مكّناه من البقاء فى السلطة مساندا مؤازرا حتى مماته ، بينما أتاح له فى الوقت نفسه جمع مبالغ كبيرة من مصادر أخرى غير الإرسالية (إرسالية الخزينة الآنف ذكرها) ، وكان المصدر الأساسى من بين هذه المصادر بطبيعة الحال الالتزامات الزراعية العديدة التى يتولاها البكوات .

تحالف الجاويش إبراهيم مع الكخيا رضوان الجلفى والتغلغل فى البكرية

أدى إبعاد الزمرة الفقارية ومجموعة (زمرة) القطامشة مع الزمرة الدمياطية إلى فراغ كبير فى طبقة البكوات ، وقد تم ملء هذا الفراغ إلى حد كبير بأتباع الجاويش إبراهيم القازدغلى و الكخيا رضوان الجلفى ، لكن لماذا اختار إبراهيم ورضوان - فى هذه المرحلة ترقية أتباعهما والدفع بهم إلى رتب البكرية (البكوية) أكثر من التعويل على التحالفات الاستراتيجية مع الزمر البكرية السائدة (مجموعات البكوات الموجودين بالفعل) ؟ لقد بقى بعض من مثل هذه الزمر البكرية أقامت معها القازدغلية تحالفات طويلة المدى خاصة البلفية الذين تقلص عددهم كثيرا ، وزمرة الفلاح وهى زمرة أسسها شخص من أصل فلاحى (٢٩) ، واستمرت هذه الزمر فى معسكر القازدغلية خلال فترة الحكم الثنائى (فترة الحكومة الثنائية ، حكومة إبراهيم ورضوان) (١٧٤٨ - ١٧٥٤) رغم أنها كانت فى مواضع التابعين أو الملحقين ، فعلى سبيل المثال ، فى عدة مناسبات كان منصب أمير الحاج - وهو منصب بكرى أساسى - بمثابة مكافأة لأحد أعضاء الزمرة البلفية (٣٠) ، ومع هذا فمجموعة الوثائق "المهمة" تعطينا انطباعا أنه

بحلول عام ١٧٤٨م . كان القازدغلية هم المجموعة الوحيدة التى خلّت الحكومة المركزية أمامها السبيل باعتبارها قادرة على التعامل مع شئون مصر ، لقد كانت رغبة الجاويش إبراهيم الأكيدة فى تحدى أقوى الزمر البكرية (أقوى الزمر التى كونها بكوات) دالة على أنه اعتبر نفسه لا يقل عنها شأنًا ودالة على أنه فى الحقيقة كان مكونا لمجموعة تحالفات إستراتيجية بالغة الأهمية ، وبالغة الاتساع .

فلم تكن شراكة الجاويش إبراهيم للكخيا رضوان الجلفى مجرد تحالف إستراتيجى على نمط التحالفات القازدغلية الباكورة ، تلك التحالفات التى كانت تسعى للتوافق مع الزمر التى كان من المحتمل أن تكون زمرا منافسة مثل : الجدك Gediks وذى الفقارية و القطامشة ، وإنما كانت هذه التحالفات الجديدة تنطوى عل الدور الجلفى التقليدى وهو القيام بدور الوسيطاء بين الزمر الأقوى والقيام بدور التابع لها ، فالكخيا رضوان - كما رأينا - كسر الارتباط الجلفى التاريخى التقليدى ببيت house ذى الفقار بانضمامه إلى الجاويش إبراهيم ضد البيك عثمان ذى الفقار فى نزاع فرشوط فى سنة ١٧٤٣م ، وفى وقت تولية الباشا راغب ولاية مصر كان الجاويش إبراهيم والكخيا رضوان يشكلان حكومة من اثنين A pair ، وعندما وصل بهما الأمر إلى القبض على فرمان الرياسة فى سنة ١٧٤٨م اتفقا على أن كل ما يقع فى يد الكخيا إبراهيم من التوابل أو غير ذلك من الأموال المنتزعة أو المغتصبة يقدم ثلثه للكخيا رضوان^(٣١) لقد كان اتفاق هذين الضابطين يشبه الشراكة التجارية المعروفة باسم المضاربة Commenda حيث يقوم إبراهيم بدور المشارك الفعلى (الفعال) الذى ينفذ الصفقات التجارية ، أما رضوان فهو الشريك السلبي الذى يقدم ماله للاستثمار ، ولا يقوم بأى شئ آخر سوى القليل^(٣٢) وربما كان رضوان هو الذى مؤل بشكل جيد معظم المغامرات التجارية والمضاريات ، والحقيقة أن الموارد المالية التى أتاحها له رتبة الكخيا جعلته شخصا مطلوبا تماما من وجهة نظر إبراهيم ، فالمشروعات المعمارية التى كان الكخيا يستطيع تمويلها ، تضيف الشرعية على حكومة الاثنين (حكومتها الثنائية) وتسمح لها بوضع علامات دائمة من خلال المشروعات الخيرية الضخمة المعروفة باسم "المآثر" .

وبالإضافة إلى الهدف التجارى (المتعلق بالبرزنس) للشراكة فقد بدت حكومة الاثنين (الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان) تدار وفقا لخطة دقيقة يتم من خلالها اقتسام السلطة ، فعلى سبيل المثال ، عندما شرعا فى ترقية أتباعهما لرتب البكرية ، أخذوا على نفسيهما عهدا بأن يرقى كل منهما العدد نفسه وفى الوقت نفسه ، إنه لأمر أساسى فى حكومة الاثنين أن يتم توازن القوى بين زمرتى كليهما ، فهذا المبدأ (مبدأ القسمة المتساوية) احتفظت به الأزواج الحاكمة pairs من بكوات القازدغلية فى أواخر القرن الثامن عشر الذين حاولوا إدارة مصر بشكل جماعى jointly (٣٢) .

وبالنسبة للأتباع الذين رفعهم الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان للبكرية فقد كانوا على سبيل المثال من رتبة الأغا (الأغوات) من مختلف الأوجاقات العسكرية (الفرق) ، وقد أيد الجاويش إبراهيم مطالبة أمير الحاج البيك هليل قطامش بمنصب حاكم جرجا ، أثناء مواجهته للبيك عثمان ذى الفقار بشأن فرشوط فى جرجا ، وعلى أية حال فإنه عند إعدام البيك هليل قام الجاويش إبراهيم بترقية تابعه عثمان القصير^(٣٤) أغا كتائب المتفرقة إلى البكوية (البكرية) وأقره على جرجا ، وفى الوقت نفسه فإنه تنفيذا لمبدأ اقتسام السلطة قام الكخيا رضوان بترقية تابعه أغا كتائب العزبان (إسماعيل) للبكرية وولاه حكم المنوفية^(٣٥) ، وبإجراء هذه التعيينات على النحو الأنف ذكره يكون إبراهيم ورضوان قد أحيا نظام الترقى من رتبة الأغا إلى البكرية ، ذلك النظام الذى ساد أواخر القرن السابع عشر ، وهذا المسار فى الترقية يبدو ملازما لرجحان كفة ضباط الأوجاقات بين النخبة العسكرية ، وكان هذا على سبيل المثال سمة لأوج البلفية (أو بتعبير آخر للبلفية فى أوجها) وأكثر من هذا فإن أول محمى (خاضع لحماية) الكخيا تتم ترقيته إلى بك هو مصطفى تابع الكخيا حسين الدمياطى الذى كان برتبة أغا ، إن تبعية الكخياوات لرتبة الأغا مكنتهم من استخدام هذه الرتبة كطريق للبكوية .

ولا زال هؤلاء الأغوات لا يتبعون فى وصولهم لهذه الرتبة طريق الترقية المعتاد فى الأوجاقات ، وكقاعدة عامة لم يكن أى جاويش رقى إلى رتبة كخيا يرقى بالضرورة إلى أغا ومنها إلى بك^(٣٦) ، وفى حالات استثنائية كان الجنود فى رتبة شوربجى وما دونها ، وكذلك الرجال الذين لا يندرجون فى الأوجاقات (الفرق العسكرية) كان

يمكن تعيينهم أغوات كاستثناء خاص (٢٧) لكن بشكل عام كان يمكن تبين مسارين محددين للترقية بين الأوجاقات بحلول منتصف القرن الثامن عشر: الترقية من الجاويش إلى الكخيا ، وهذا الطريق يؤدي إلى السيطرة على الأوجاق (الفرقة) ، والترقية من رتبة الأغا إلى البكرية (البكوية) وهذا الطريق يؤدي إلى السيطرة على حكم الأقاليم (الايالات ، والنواحي ، والجهات) ، وكما رأينا - قد أصبح حالة خاصة ، بل أكثر من هذا فبحلول أواخر القرن الثامن عشر لم يعد الأغوات الإنكشارية يتناوبون أو يتعاقبون بين هذا المنصب ، ومنصب السوباشى subasi أو الوالى الذى كان ينضم إلى أغا الإنكشارية فى ضبط الأمن فى القاهرة ، ولتحاشى قيام تحالفات ملائمة مع الزمر البكرية بعد الفقارية والتي كانت عنصرا جوهريا للاستراتيجية القازدغلية السابقة ، لقد أقحم الجاويش إبراهيم الزمرة القازدغلية نفسها فى البكرية، وكانت السيطرة المباشرة على المناصب البكرية الأساسية - خاصة إمارة الحاج - من بين اهتماماته بلا شك ، وقد أظهر الضباط القازدغلية - الذين كانت علاقاتهم متوترة بشكل متزايد مع البيك عثمان ذى الفقار أمير الحاج الذى احتفظ بمنصبه لفترة طويلة - أظهروا أن ثروات سردار قطار الحاج الإنكشارى قد تم احتجازها رهينة على يد أمير الحاج العنيد ، ومما زاد الأمر سوءا ما تعرضت له مصالح القازدغلية التجارية بسبب رغبة الحكومة العثمانية المركزية فى تقوية منصب أمير الحاج على حساب تجار البن الذين ارتبط بهم القازدغلية ارتباطا وثيقا ، لقد أجبر الأمران الصادران فى سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م التجار المتعاملين فى طريق الحجاج على دفع ضريبة عن كل جوال sack (ferde) بن أمير الحاج لحمايتهم من هجمات البدو، وكانت هذه الأوامر تهدف إلى تخفيض المصروفات التى تخرج من الخزانة العثمانية لرعاية قافلة الحاج ، وما يتعلق بالحج من أمور ومنع التجار من السرقة من الأموال الحكومية (٢٨) ، لقد استطاع الجاويش إبراهيم بسيطرته على قافلة الحاج وتجارة البن أن يخفف من وطأة تدخل الحكومة العثمانية فى أية عملية من عمليات المقايضة بين التجار وأمير الحاج (قائد قافلة الحاج) .

وبالنسبة للتحكم فى تجارة البن وقيادة قافلة الحاج ، كان هذا يعنى التحكم فى قرى صعيد مصر التى تنتج الحبوب التى تنتقل إلى المدينتين المقدستين ، وفى بعض الحالات

كانت تتم مقايضة بعض هذه الحبوب بالبن ، وسنذكر أن الجاويش إبراهيم كان بالفعل يبذل قصارى جهده للحصول على التزامات القرى لنفسه وجماعته his party فى الأيام التى كان فيها لا يزال مقيدا أثناء منافسته للبيك عثمان ذى الفقار، وحتى فى ذلك الوقت ، كان أكبر الالتزامات الزراعية ، بالإضافة إلى حكم الولايات والأقاليم (الداخلية) . محل اهتمامه ومجال تفكيره خاصة ولاية جرجا التى كانت أكبر ولايات مصر ؛ إذ كانت هى سلة الخبز الخاصة بمصر ، وبطبيعة الحال أدى تجاوز الجاويش إبراهيم إلى فراد البيك عثمان إلى إستانبول ، وكما رأينا فإن الجاويش إبراهيم لم يضع وقتا فى تأكيد سلطته المباشرة على سلة خبز مصر (جرجا) بترقية تابعة للأغا عثمان القصير إلى البكوية (البكرية) وتعيينه حاكما على جرجا .

حقيقة لقد كان الاهتمام بالسيطرة على إمدادات الحبوب وإمارة قافلة الحاج هما اللذان أمليا على الجاويش إبراهيم الترقيات الثلاثة إلى رتبة البكوية التى أجراها أثناء حياته ، وبالإضافة للأغا عثمان القصير رقى الجاويش إبراهيم ، والكاشف على القرد (عرف أخيرا بالفزاوى) و الأغا حسين كشكش^(٣٩) ، وكان البيك على القرد أمير حاج بالفعل فى سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩م ، بينما كشكش - بعد أن قضى عاما كحاكم governor (كاشف) للمنصورة ، أصبح مديراً director (أمين Amin) لمخازن الغلال (الحبوب) فى القاهرة ، وأخيرا سيقود قافلة الحجيج أربع مرات فبث الرعب فى قلوب البدو الذين كانوا يشنون الغارات على القوافل^(٤٠) .

لقد أثبت الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان بشغلها مناصب البكوية (البكرية) باتباعهما أنهما حققا أقصى درجات النجاح ، رغم أنه كاد هذا التعيين يكون قصرا على ضباط الأوجاقات (الفرق العسكرية) ، إنه لمن الواضح أن هؤلاء الضباط قد حسموا مستقبل الزعامة العسكرية فى مصر بوضعها فى البكرية ، أو بتعبير آخر ادخروها lay in مستقبلا البكرية ، لأن طبيعة للبكرية نفسها كانت قد تغيرت عن القرن الماضى ، فلم يعد الترقى إلى البكرية عقابا يفرض على ضباط الأوجاقات (الفرق) المفرطين فى طموحهم ، بل لقد أصبح هذا الترقى (إلى البكرية) وسيلة مرغوبة جدا للوصول إلى السلطة والنفوذ بشكل مبرز ، فبعد موت الجاويش إبراهيم (١٧٥٤م) بفترة وجيزة طالب تابعاه الكاشف حسين الصابونجى ، و الأغا كجك على

(الذى سيصبح فيما بعد بولوت كابان أو البيك على) ، طالبا الكخيا رضوان الجلفى أن يجعلهما بيكين ، وكى يتم الاحتفاظ بالمساواة القازدغلية الجلفية كان رضوان مضطرا لترقية اثنين من أتباعه أيضا وهما الكاشف محمد والكاشف على ، والحقيقة أن ثلاثة من هؤلاء الأربعة كانوا بالفعل كشاف (جمع كاشف) ؛ أى حكام لولايات أو جهات مصرفية فرعية minors مما يشير إلى أن السلطة الرائجة أو الغالبة فى مصر قد انتقلت من الأوجاقات لـ الفرق العسكرية القائمة فى غالبها على أسس حضرية urban base إلى السيطرة على الإدارة الريفية (إدارة الأقاليم) التى يمارسها البكوات مرتبطين بالكشاف (جمع كاشف) (٤١) .

وربما كان الاعتراف بهذا التحول فى القوى هو الذى جعل الكخيا إبراهيم القازدغلى لا يجد إزعاجا فى إعداد واحد من أعضاء زمريته ليخلفه فى رتبة كخيا إنكشارى ، فقد سمح للكخيا عبد الرحمن بن رئيس الزمرة القازدغلية فى بواكير القرن الثامن عشر وهو الكخيا حسن ليكون زعيما للزمرة (القازدغلية) وقائدا للأوجاق الإنكشارى فى الوقت نفسه ، وحالة الكخيا عبد الرحمن حالة - فى حد ذاتها - جديرة بالتوقف عندها لأنها توضح النهاية الأقل عظمة التى تردى فيها الفرع الرئيسى للزمرة القازدغلية ، فعندما نفوا القطامشة و الدمايطه (الزمرة الدمايطية) وجدنا الحكومة المركزية تشك فى أن الكخيا عبد الرحمن - وكان وقتئذ جاويشاً - يتآمر مع الزمر المعزولة proscribed parties ويعمل معها على الهروب إلى الحجاز ، ورغم عدم وجود دليل على تعاطف خاص بين عبد الرحمن و أى من الزمرتين (القطامشة والدمايطية) فإن الدمرداشى يذكر أن عبد الرحمن على أدى الحج فى سنة ١١٦١هـ / ١٧٤٨م . لصحبة الجاويش شريف sherif على الدمايطى الذى مات فى الحجاز ، وأخيراً تم العفو عن عبد الرحمن على أن يبقى فى الحجاز بالشروط نفسها التى انطبقت على القطامشة ، وبناء على التماس كبار ضباط الأوجاقات السبع "كبار الضباط أو الاختيارية" سمح له - على أية حال - بالعودة إلى مصر "وطنه الأصيل" (٤٢) ، وكان المحرك الأول وراء هذه الوساطة هو - فيما يبدو الكخيا إبراهيم القازدغلى نفسه ؛ إذ طلب من البيك عمر اختيار أمير الحج إرجاع عبد الرحمن (٤٣) .

وبينما كان الكخيا إبراهيم على قيد الحياة ظل الكخيا عبد الرحمن غير فعال من الناحية السياسية أو بتعبير آخر ليس له دور سياسى كبير إلا أنه - على أية حال - تولى بشكل مفاجئ أمر أتباع إبراهيم واستخدمهم لاجتثاث الكخيا رضوان الجلفى ذى الحظ التعس ، لقد طاردت القوات القازدغلية حلفاءها السابقين فى صعيد مصر حيث مات ميتة بطيئة مؤلمة نتيجة طلق نارى أصابه بجرح فى ذقنه (٤٤) ، وبعد النهاية المحزنة التى واجهها رضوان استمر الكخيا عبد الرحمن فى ترقية أتباع الكخيا إبراهيم للبكرية ، ولم يظهر أبداً أن عبد الرحمن قد أقام لنفسه زمرة مكتملة نابتة الريش (يمكنها الاستقلال بذاتها) ويبدو هذا أقرب ما يكون إلى ظرف استثنائى إذا وضعنا فى اعتبارنا أنه كان قد ورث ثروة عدد من الضباط النافذين (نوى النفوذ) وجمع أموالا كثيرة من خلال صفقاته التجارية الخاصة ، والمراجع الثانوية أكدت - بشكل نمطى - أن عبد الرحمن اتخذ قرارا محسوبا بالانسحاب من مجال العمل السياسى مفضلا تكريس نفسه للبناء والأشغال العامة (٤٥) ، ومثل هذه الحجة - على أية حال - تفشل فى شرح السبب الذى جعل عبد الرحمن يقصى رضوان الجلفى عن السلطة على هذا النحو العنيف إن كان حقا قد قرر الكف عن طموحاته السياسية ، وبطبيعة الحال ، فإن عبد الرحمن وإن كان لم يكون قاعدة سلطة وتفوذ من إنشائه فإنه راح يناور بأتباع الكخيا الراحل إبراهيم القازدغلى ، وكان لدى هؤلاء الأتباع القازدغلية كل سبب يجعلهم راغبين فى تدبير توازن القوى الذى كان إبراهيم ورضوان حريصين عليه ، لأنهم بفعلهم هذا سيخلصون أنفسهم من الالتزام باقتسام مناصب البكوية ، والعوائد المالية بالاتفاق مع أتباع الجلفى ، وعلى أية حال ففى ظل هذه الظروف يمكن للمرء أن يتوقع أن عبد الرحمن فى محاولته تكوين أتباع له لتجنب أن يكون أداة لتحقيق أغراض أتباع الكخيا إبراهيم ، والتفسير المحتمل لتراخيه (السياسى) هو أنه عقد اتفاقا مع الكخيا إبراهيم فى مقابل عودته لمصر والسماح له بالإقامة فيها مرة ثانية ، وربما كان هذا الاتفاق ينص على ألا يجمع أتباعا عسكريين (ألا يكون زمرة عسكرية) ، وألا يتحدى حكومة الاثنين (حكومة إبراهيم ورضوان) طوال فترة حياة إبراهيم ، ورغم عدم وجود دليل قوى لوجود مثل هذا الاتفاق غير العدوانى فإن مثل هذا الاتفاق يسهم كثيرا فى تفسير

مسلك عبد الرحمن ، كما أن مثل هذا الاتفاق يتمشى مع تقاليد الرفقة Comrads الثانوية أو التابعة أو المرتبطة بغيرها أو المساعدة - تلك التقاليد التي اكتملت على أيدي القازدغلية و الجلفية / فيما كان الكخيا إبراهيم لا يسعى لمشاركة الكخيا عبد الرحمن فإنه ربما كان يخطط لتحجيده .

لقد برهن الكخيا عبد الرحمن أنه حتى بين كتائب الإنكشارية - لم يكن قادراً على تأكيد نفوذ قوى ، لقد قبض على زمام السلطة في أوجاق الإنكشارية بدءاً من سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٦ م حتى نفاه بلوط قابان (البيك على) عتيق الكخيا إبراهيم - إلى الحجاز في سنة ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م ، بل أن عبد الرحمن لم يكن أبداً بقادر على استغلال السيطرة على أوجاق الإنكشارية لتحقيق نفوذ سياسى قوى رغم أنه كان خبيراً في استغلالها في تحقيق ثروات خاصة وإقامة مبان مثيرة للإعجاب ، وهو في هذا كان على نقيض الكخيا إبراهيم ، وحتى في السنوات التي تلت موت الكخيا إبراهيم وجدنا عبد الرحمن فاشلاً في جمع زمرة من الأتباع يستطيع بهم توجيه الأمور من خلال رتب الإنكشارية ، فقد ظلت رتب الضباط العليا مشغولة بأتباع الكخيا إبراهيم حتى أواخر القرن الثامن عشر تماماً ، وقد خلفهم إما أتباعهم أو أتباع البكوات ممن كانوا رعية إبراهيم (أى ممن كانوا تحت حمايته proteges) ، وبهذه الطريقة فإن زمرة الكخيا إبراهيم التي ظلت بعد موته قد كبحت سلطة الكخيا عبد الرحمن في الصميم .

وفي هذه الأثناء ألفت البكرية بظلالها تماماً على كتائب الإنكشارية ، هذه البكرية التي أصبحت الآن وقد هيمن عليها أكثر أتباع الكخيا إبراهيم طموحاً ، والحقيقة أن عبد الرحمن كان آخر كخيا إنكشارياً غازل السلطة السياسية الحاسمة ، وظل الكخياوات الأثرياء ذوو النفوذ يظهرون في الحوليات والوثائق الأرشييفية ، ومنهم على سبيل المثال الكخيا محمد أباطة وهو مملوك الشوربجي (رتبة عسكرية) محمد الصابونجي^(٤٦) الذى ستتعرض له الآن ، لقد رقاها لرتبة كخيا محمد أبو الذهب عتيق على بيك الكبير (بلوط قابان) ؛ وعند وصول محمد أباطة لرتبة الكخيا اشترى كثيراً من الممالك وأصبح ذا نفوذ كبير ، لكن مجال اهتمامه لا يوضح إلا كيفية كون النفوذ الذى مكن الكخياوات من التغلغل في البكرية قد انقلب على رأسه بفعل زمرة إنكشارية

أصلية جعلت رتبة الكخيا فى ذروة رتبها ذات النفوذ وبدلاً من لعب دور "صانع الملوك" بالنسبة للبكوات فإن أعلى ضباط الإنكشارية رتباً أصبحوا الآن فى خدمة البكوات أهواء البكوات ، ومن الملاحظ أن هذا التحول قد أنجزته زمرة الكخيا إبراهيم خلال جيل من موته (موت إبراهيم) .

الجورجيون والأبخاز (من أبخازيا أو أفخازيا)

لقد رأينا أن الزمرة القازدغلية عقب موت مؤسسها الكخيا مصطفى شكلت قيادات كانت فى غالبها من الممالك القوقازيين ، وعساكر وضباط صف كانوا فى غالبهم من أصول أناضولية فى الأساس ، ومع هذا فمن غير الممكن أن نكون متأكدين من الأصل العرقى لأى قائد أو زعيم بالذات أو أن نحدد الأصل العرقى لأى تكتل داخل الزمرة ككل ، وعلى أية حال فبدءاً من زمرة الكخيا إبراهيم بدأ الممالك الجورجيون والأبخاز (أو الأفخاز) يسودون الزمرة القازدغلية ، ولا شك أن أبرز هؤلاء كان هو بلوط قبان (البيك على) مملوك الكخيا إبراهيم ، وقد عرف بلوط قبان بعد ذلك باسم البيك الكبير على (على بك الكبير) وكان البيك محمد أبو الذهب مملوك أبى الذهب ، وهما البيك إبراهيم والبيك مراد ، جميعاً إما من أصول جورجية أو أفخازية ، لقد كانوا جزءاً من الجورجيين متزايدى العدد الذين أصبحوا بارزين فى مصر وفى الإمبراطورية العثمانية عامة بعد انهيار الإمبراطورية الصفوية فى إيران فى سنة ١٧٢٢م ، لقد كان الصفويون يستخدمون الممالك الجورجيين بأعداد كبيرة خلال أواخر القرن السابع عشر ، وأدى انهيار الإمبراطورية الصفوية إلى تحرير مصدر العبيد slaves (الممالك) الجورجيين لصالح العثمانيين (كانت جورجيا الغربية فى ظل النفوذ العثمانى وكانت مصدراً مهماً للرقائق > الممالك < منذ أواخر القرن الخامس عشر) ، وأكثر من هذا ففى سنة ١٧٢٤م . وقعت الإمبراطورية العثمانية وروسيا اتفاقية تعطى للعثمانيين حق السيادة على كل جورجيا ، واحتفظ بها العثمانيون حتى سنة ١٧٣٥^(٤٧) ، وقد استغل البلاط العثمانى - بحماسة شديدة - هذا المدد الجديد من القوى البشرية ، كما فعلت الشىء نفسه النخبُ العثمانية فى الولايات ، فولة بغداد الذين كانوا يتمتعون بالحكم

الذاتى - يعدون مثالا واضحا على ذلك ؛ إذ كونوا لأنفسهم بطانات من هؤلاء المماليك الجورجيين حكموا (أى هؤلاء المماليك) الولاية فى النهاية (٤٨) ، وقد حذا نبلاء مصر حذو ولاية بغداد ، لقد كان القادة العسكريون فى مصر يتعرضون بانتظام للجورجيين البغداديين ما دامت الفرق العسكرية القادمة من مصر لمواجهة الإيرانيين كانت تتجمع بشكل نمطى فى بغداد ، حيث كان والى بغداد هو - فى غالب الحالات - القائد الأعلى لهذه الحملات (٤٩) وكما سنرى فإن هناك أدلة مستقاة من هذه الظروف تجعلنا نفترض أن النبلاء القادمين من مصر قد يكونون قد حصلوا على المماليك الجورجيين من العراق ، وتعكس السجلات العسكرية للرواتب ذلك ، فقد كانت جورجيا هى المصدر الرئيسى للقوى البشرية (العسكرية) حتى فى سنى السبعين من القرن السابع عشر (١٦٧٠ - ١٦٧٩) و أصبحت هى المصدر الوحيد الأكثر أهمية للتجنيد العسكرى من خارج مصر فى سنى الثلاثين من القرن الثامن عشر (١٧٣٠ - ١٧٣٩) . (انظر الجدول ٣ / ٣) .

وأول زمرة مصرية كبيرة أسسها الجورجيون أو الأفخاز هى فيما يبدو الزمرة القطامشية ، وكان مؤسسها البيك محمد قطامش مملوكا جورجيا أو أفخازيا للبيك قيطاس الزعيم الفقارى وهو كردى فيما يقول الدمرداشى ، وقد أطلق بدو صعيد مصر على البيك محمد هذا اسم البيك محمد قطامش على اسم بائع حلوى (حلوانى) فى القاهرة (٥٠) ، وعلى أية حال فمن الممكن أن لقب البيك محمد (قطامش) يرجع إلى أصل جورجى أو أفخارى ، ويصف إيفليا جلى (شلبى) قبيلة أفخازية فى القوقاز الغربى معروفة باسم كاميش kamish (وتعنى بالتركية : القصب أو المزمار) ولاحظ أنه بين قبيلة كاميش هذه ، يوجد أطفال الأباظة the children of Abaza يرسلون من (؟) إستانبول (القسطنطينية) والقاهرة (٥١) وقد يكون هذا اللقب (قطامش) مشتق من حاضرة (عاصمة) جورجيا الغربية كوتيسى kutaishi التى حوّر العثمانيون نطقها إلى قوطايس kutais وعلى النحو نفسه أصبح الجنود الأفخاز أو الأباطيون of abaza كثيرى العدد فى مصر ، ومما يثبت صحة ما ورد فى كشوف الرواتب العسكرية فإن الزمرة البكلرية الأباظية بدأت فى البروز فى حوالى الفترة التى صعد فيها نجم الكخيا إبراهيم ، ورغم أن الأباظية كانوا بادئ ندى بدء متحالفين مع البيك حسين الخشاب

والبيك عثمان ذى الفقار ، فإن أحد أفراد زمرتهم وهو البيك حمزة أباطة تولى عن زمرة راعيه وهو البيك محمد أباطة ليلتحق بزمرة الكخيا إبراهيم^(٥٢) ومثل الشركس حظى الجورجيين و الأفخاز بالتقدير لمهارتهم فى ركوب الخيل ويسالتهم فى الحرب^(٥٣) .

وعلى أية حال فإن هذا الحشد الجديد من الجورجيين و الأفخاز لم يكن يعنى الرغبة فى السيطرة القوقازية (سيطرة العناصر القوقازية) بين نبلاء مصر فى منتصف القرن الثامن عشر.

فالطريقة التى أقام بها الكخيا إبراهيم القازدغلى زمرة تؤكد أنه لم يلتزم بضرورة تحديد عرق بعينه أو بتعبير آخر لم يضع الاعتبار الإثنى نصب عينيه ، فإذا تفحصنا الأتباع الذين رقاهم الكخيا إبراهيم إلى (البكرية) أثناء حياته ،وكذلك الذين تمت ترقيتهم بعد موته مباشرة (إلى البكوية) لوجدنا عددا كبيرا من الذين تخلوا عن زمرة أو انتماءاتهم والمستعدين للانضمام إليه دون عناء ، فالبيك على القرد الذى عرف بعد ذلك بالغزاوى وإخوته كانوا مماليك لكبير الخصيان السود فى إستانبول ، بينما كان البيك حسين الصابونجى قد عمل فى وظيفة مسئول الخزانة (خازندار) للشوربجى محمد الصابونجى فى كتائب العزبان ، وفى هذه الأثناء كان البيك حمزة ينضم إلى زمرة الكخيا إبراهيم ، وكان معظم هؤلاء البكوات من أصول جورجية أو أفخازية ، وعلى أية حال فلم تكن أصولهم العرقية (الإثنية) هى وحدها الكامنة وراء اختيارهم وإنما كان الهدف هو تقوية قبضة الكخيا إبراهيم و أخلافه على طريق الحج إلى مكة والمدينة وتقوية قبضته أيضا على قرى الالتزام الغنية بالحبوب فى صعيد مصر ، وكل هؤلاء البكوات -مثلهم مثل أتباع إبراهيم الذين ذكرناهم آنفا - خدموا فى أوقات مختلفة فى حراسة قوافل الحجيج ، وولاءة على القرى المنتجة للحبوب وعلى الولايات الداخلية فى مصر^(٥٤) .

وكانت عملية التضامن العرقى أو الدمج بين الأعراق المختلفة أبعد ما يكون عن هدف برنامج الكخيا إبراهيم وإنما هو قد استخدم السيطرة على الصعيد ، وضبط طريق الحج ، وتكوين روابط قوية بالبلاط العثمانى كاستراتيجيات أساسية لتكوين زمرة ، ومع هذا فعند موته كانت زمرة تضم بالفعل عددا غير قليل من الجورجيين و الأفخاز ، وفى أواخر حياته عندما نعم بنفوذ رتبة كخيا الإنكشارية وما تدره الرتبة

من دخل كان بلا شك قادرا على اختيار مماليكه مما جعله يفضل هذا على ضم الأعضاء غير المؤثرين أو المطرودين من زمر أخرى ، وربما يكون أيضا قد اختار أن يكون فى زمرة عدد كبير من الجورجيين و الأفخاز ، وربما يكون الكخيا رضوان قد حذا حذوه فى تطبيق استراتيجيه جمع الجورجيين و الأفخاز وهرب إتباع الكخيا رضوان الجلفى إلى بغداد عندما سار الكخيا عبد الرحمن القازدغلى على دربهما بعد موت راعيهم ، وقيل أنهم استوطنوا هناك ^(٥٥) وكانت بغداد وقتها تحت حكم ولاية ممالك جورجيين يتمتعون بالحكم الذاتى ، وكان الوالى الباشا حسن وابنه أحمد قد اقتنياهم (أى هؤلاء الممالك) ^(٥٦) . ويمكن للمرء أن يستنتج أن أتباع رضوان اختاروا لأنفسهم هذا المنفى (البعيد) غير المعتاد لأن الممالك الحاكمين فى بغداد هم أيضا من أصول جورجية بل وكان فى مقدورهم أن يأتوا للقاهرة قادمين من بغداد .

ولا شك أن تخمينات كثيرة طرحت بشأن الأصل العرقى لعلى بيك (بلوط قابان) الذى بدأ نشاطه بداية متواضعة تواضعا شديدا - كما ورد فى صفحات حولية الدمرداشى - فقد كان هو الأغا على كجك مملوك الكخيا إبراهيم ، ورقاه للبكوية الكخيا رضوان الجلفى بعد موت سيده (الكخيا إبراهيم) ^(٥٧) ، والروايات عن أصل البيك على (بلوط قابان) لا تتفق إلا على أنه بدأ حياته مسيحيا ويؤكد الرحالة الفرنسى فولنى volney أن البيك على كان أفخازيا ، ويسخر من مواطنه (الفرنسى) الذى برهن على أن البيك على كان ابنا لقس يونانى أرثوذكسى ، اعتمادا على ترجمة موثقة لحياة هذا البيك كتبها اس . كى . لوزينان ^(٥٨) lusignan ، ويتفق مع فولنى فى رأى الباحث العثمانى صمدى زاده فندققلى سليمان أفندى الذى عاش فى القرن الثامن عشر ، فندققلى الذى سحب الوالى الباشا راقم Rakim إلى مصر فى سنة ١٧٦٨ ، وقضى عدة شهور هناك - زعم أن البيك على كان يعمل على فرض سيطرة أفخازية فى مصر ، فعندما سمع بهزيمة العثمانيين أمام الروس قال " ليس هناك وقت أكثر مناسبة لتسلط الأفخاز من هذا الوقت " ^(٥٩) وكان مشروعه يهدف إلى عقد مفاوضات مع روسيا بقصد التحالف معها ، ومن ثم يمد يده للقوقاز مما يضمن له مددا مستمرا من الممالك الأفخاز ^(٦٠) .

ومهما كان مدى صحة هذه الروايات فإن حقيقة نظريات المؤامرة الأفخازية كانت منتشرة يتداولها الناس وقت صعود نجم البيك على (الكبير) مما يشير إلى أن الزمرة القازدغلية قد أضافت مساهمة جورجية كبيرة بالإضافة إلى (أو) أعداد من الأفخازيين لصفوفها خلال تولى الكخيا إبراهيم وبعد موته ، ويميل المسئولون العثمانيون مثل فندقليلى سليمان أفندى إلى تفسير هذا التكتل العرقى (الإثنى) باستدعاء قوالب (نماذج نمطية) عن حركات تمرد جورجية أو أفخازية لولاة فى القرن السابع عشر (٦١) .

وإذا كانت التكتلات العرقية (الإثنية) ظهرت فى ظل أخلاف الكخيا إبراهيم ، فإننى مقتنع أن هذه التكتلات ظهرت بشكل تلقائى على نحو ما ظهرت التكتلات العرقية فى زمن سابق ، ومع ذلك فمن الطبيعى بالنسبة لمجموعة عرقية ذات لغة واحدة أن تتلاحم على أسس انتماءات أجنبية foreign setting ومن هذا تلاحم الجنود الأناضوليين معا فى منتصف القرن السابع عشر ، وكما عمل البيك شركس محمد على إحضار أقاربه الشركس إلى مصر فى القرن الثامن عشر ، وعلى هذا فإن شيئا من التضامن الجورجى أو الأفخارى قد يكون ظهر فى التوجهات الطبيعية تفقدت بسبب الاهتمامات البرجماتية (العملية) لمكونى الزمر لوجود عدد كبير من الأتباع بالفعل ، كان يمكنهم وسم الزمرة بشكل حى قابل للتطبيق ، إن فيض العساكر العثمانيين القادمين من العاصمة العثمانية (الكابيكولار kapikullari) فى أواخر القرن السابع عشر و أوائل الثامن عشر ينتج عنه زيادة عدد الأناضوليين داخل الزمر العسكرية ، وعلى هذا فإن هذا الفيض الأناضولى قد ألحق به فيض جورجى بعد سنة ١٥٢٤ ، لكن هذا الفيض من الجورجيين لم يكبح الفيض الأناضولى ، أو لم يكن مقصودا به مواجهته ، ومن هذا فإنه حتى فى العقود الباكورة من القرن الثامن عشر وجدنا سجلات الرواتب تشير فى الأساس للزمر الجورجية بين أوجاق الجونوليان (الجماليان) ، وفى هذه الأثناء وجدنا فى أواخر القرن الثامن عشر البيك إبراهيم الذى أعتقه البيك محمد أبو الذهب يستخدم علاقاته الدافئة مع روسيا لجمع حاشية له من المماليك الروس وليس الجورجيين (٦٢) .

ومثل هذه التجمعات العرقية (الإثنية) سواء كانت تلقائية أم مخططة حدثت فى المجتمع العسكرى الذى صبح بصبغة اختلاط الأمشاج (الأعراق) ، وحتى التجمع القازدغلى الباكر كان - وفقا لكل الظواهر - خليطا عرقيا (أو مزيجا إثنيا) اختلط فيه الترك و اللاطين Lazes والبوسنيين و الجورجيين ، فسجلات الرواتب العسكرية والحواليات ، تورد كلاهما أفرادا عسكريين من أصول عرقية مختلفة ، من الأرمن إلى السودانيين ، وقد لعب التضامن الوقى بالتأكيد دورا مهما فى المجتمع العسكرى المصرى خلال القرون الوسطى للحكم العثمانى ، وعلى أية حال فإننا لا نستطيع - إلا بالكاد - أن نتحدث عن قصر محسوب للرتب العسكرية على مجموعة عرقية بعينها، فقد كانت هذه الرتب متاحة للترك والقوقازيين واليهود المتحولين للإسلام و الأفارقة السود (٦٣) ، هذا التنوع العرقى لا يمكن فصله عن التنوع فى طرق الحصول على المجندين التى اتبعتها المسئولون العثمانيون والنبلاء فى الولايات فى بناء زمرهم ، لقد كان التنوع العرقى جزءا من نظام يتواءم مع الرقيق والمتحولين للإسلام والمسلمين الأحرار بالمولد المجلوبين من مناطق متباعدة وذوى الخلفيات المتباينة .

ومع هذا يمكننا ملاحظة استخدام الممالك بشكل أكثر لملء المناصب العليا سواء فى الأوجاقات (الفرق العسكرية) أو البكرية فى الأعوام التى تلت صعود شأن الكخيا إبراهيم ، فالكخيا إبراهيم هو الذى أرسى تقليد الزمر الإنكشارية التى تسيطر الممالك فيها على منصب (رتبة) أغا الإنكشارية ، ورئيس الشرطة (الوالى أو الصوباشى wali or subasi) حتى سنى الثمانين من القرن الثامن عشر (١٧٨٠ - ١٧٨٩) لقد كان الأغا عبد الرحمن مملوك إبراهيم - على سبيل المثال - أغا إنكشارياً فى الفترة من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٠ عندما تم إحلال مملوكه سليم مكانه ، وكان هذا المملوك فى هذا الوقت واليا wali (رئيس شرطة) لقد تولى سليم هذا منصب (رتبة) أغا الإنكشارية بشكل متقطع حتى سنة ١٧٨٦ ، وحل محله فى منصب رئيس شرطة القاهرة (الوالى) الأغا موسى ، وهو مملوك آخر من ممالك الأغا عبد الرحمن (٦٤) ، وكان منصبا أغا الإنكشارية و الوالى (بالمعنى الآنف ذكره) من بين أهم المناصب لضبط الأحوال المدنية فى القاهرة .

وإذا اعتبرنا شراء الممالك وترقيتهم إستراتيجية لبناء الزمرة أكثر من اعتبارنا روح شعب ، فيمكننا عندها أن نوفق بين زيادة بروز الممالك فى المجتمع العسكرى المصرى بعد منتصف القرن الثامن عشر ، والحقائق العملية (البرجمانية) فى هذا المجتمع المتباين ، لقد وصل الكخيا إبراهيم بالفعل بسيطرته على كتائب الإنكشارية إلى القبض على زمام السلطة فى مصر كلها نتيجة الفراغ فى مؤسسة البكرية ، ذلك الفراغ الذى ساعد هو نفسه على إيجاده ، وللحفاظ على هذه السلطة وضمان فيض العوائد المصاحبة لهذه السلطة ، واجه تحدى السيطرة على إدارة ريف مصر ، تلك الإدارة التى سيطر عليها الكُشَّاف (جمع كاشف) والصناجق بكوات بينما كان قابضا على ضباط الإنكشارية الذين يضبطون الأمن فى القاهرة بيد من حديد ، وكان أسرع طريق وأكده لملء المناصب فى المدن والقرى ، وفى الأوجاقات و البكرية ، هو شراء الممالك من أكثر المصادر ملائمة : منطقة القوقاز خاصة جورجيا و أفخازيا ، لكن شراء الممالك لتكوين الزمر كان بلا شك خطوة ثورية ، وكانت ثورة الكخيا إبراهيم هذه تتكون من استخدام هذه الاستراتيجية لتنفيذ سيطرة تلقائية على المؤسسة العسكرية والمؤسسة البكرية معا .

الهوامش

(1) Mūhimme - i Misir , -vol. 6, nos 418, 419, 426, 427, (all 1160 / 1747) and 591, 592 (bth 1161, 1748) .

مجموعة وثائق عن مصر عرفت بوثائق مصر المهمة .

(٢) الحقيقة أن الوحيد الذي ذكر هو الكخيا حسن " بيكلي " أو أبو شنب ، الذي ظهر اسمه لماما في الدمرداشي (درة ، ص ص ٤٠٩ ، ٤٢١) . وورد أيضاً في سجلات رواتب ١٧٢٧ - ١٧٢٨ اسم شخص يدعى يوسف ، وهو التابع الوحيد - الذي ظهر في هذه السجلات - للكخيا سليمان القازدغلي .

(٣) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٩٠ كان البيك عثمان يحس بکراهية شديدة للجاويش إبراهيم ، فيما يقول الجبرتي .

(٤) الرحالة الفرنسي فولني Volney على سبيل المثال يحدثنا عن " عصيان مسلح " (travels vol. I p. 155) أما الجبرتي (مج ٢ ، ص ٣٦١) فيحدثنا عن " الاستقلال " الكخيا إبراهيم ، وهي كلمة قد لا تعني أكثر من أن قيادته لم تكن تواجه تحديا .

(5) Mūhimme - i misir vol. 6, nos 88 , 89 (both 1157/1744 - 5) 255 (1158 / 1745 - 6) .

و " خائن " كلمة أقسى من الكلمة التركية Saki وقد أطلقت الكلمة (خائن) على شركس محمد بك ، أما كلمة Saki فيبدو أنها كانت تطلق على أي شخص يعصى أوامر السلطان . وعن " الحلوان " انظر : Shaw, Financial and Administrative Org-anization p. 15 .

(6) Mūhimme - i Misir vol. 6 , no 89 Shaw, Ibid, p. 15 .

وبه عن فرسكور في طهطا) وعن فرسكور انظر .

(7) Mūhimme - i Misir vol. 6 , nos 15,16 , 127, 141 (all 1157/1744-5), 200-3 (all 1158/1745-6) .

وعن نظار أوقاف الحرمين ، انظر الفصل الثامن .

(8) Mūhimme-i Misir, vol. 6, nos 88, 93, 94, 113, 114, 140, (all 1157/1744-5) Ibid, nos 126 (1157/1744) .

(9) Mūhimme-i Misir, vol 6, no 126 (1157 / 1744) .

تزامن هذا مع رواية الدمرداشي (الدرة ، ص ٥١٦) عن أخبار عثمان السلطان مراد الأول عن كيفية قيام خصومه بسلب ما يعادل (الحلوان) الخاص به من منزله وأرضه (بلاده bilad) ووفقاً لما ذكره الدمرداشي فقد كتب السلطان مراد (خط شريف) يطالب بهذه الأموال وأرسلها لمصر ومعها وثيقة شهيرة (Yirmi Sekiz Celebi) .

(10) Mühimme-i Misir, vol. 6, nos 140, 143, 144, 147, 166 (all 1157 / 1744 - 5).

(11) Ibid, no. 327, 373 (1161 / 1748) .

تضم التأكيد الأول على أنه تلقى اعتذاراً (عفواً) .

(12) Ibid, vol. 7, no. 327 .

(منتصف جماد الثاني ١١٥٩ هـ / 1746) .

(١٢) الدمرداشي ، درة ، ص ص ٥٥٣ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢

Mühimme-i Misir vol. 6 , no. 426 (1160 / 1747) .

تشير إلى إبراهيم بيك قطامش شيخاً للبلد .

(١٤) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ٦٠ - ٦١ . الإجابة المؤرخة في ١٦ محرم ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م .
وفي هذا التاريخ كان هليل بك قد لاقى حتفه بالفعل ، وفي رواية الدمرداشي (درة ، ص ٥٢٥) عمل هليل
بك أميراً للحاج في ١١٥٩ - ١١٦٠ هـ / ١٧٤٦ - ١٧٤٧ . ورغم أن هذه الخطابات تبدو مؤلفة (صحيحة)
إلا أنني أرى أخذها بشيء من الريبة ، ومجموعة الوثائق المعروفة بالمهمة Mühimme-i Misir لا تشير - وهذا
شيء عجيب - لانتهاكات هليل بك .

(١٥) انظر فصل ٨ عن نظارة كبير الخصيان السود للأوقاف ،

(١٦) الدمرداشي ، درة ، ص ص ٥٢٨ - ٣١ . الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ١٨ . فرمانان مؤرخان
في أول رمضان ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ (أرشيفات قصر طوبقابي E 5215 / 27,28 يشيران إلى أن " وكيل دار
السعادة " (الذي يشير له نص الدمرداشي) هو الأغا عثمان وكيل الأغا بشير ، والفرمان الأخير مؤرخ في
١١٦١ هـ / ١٧٤٨ . وفي حسابات وقف ١١٦٦ - ٧ هـ / ١٧٥٣ - ٤م وجدنا الأغا عثمان مدرجاً كملتزم
للدجمن في المنوفية ، وربما كانت الدجمن هي المقصودة في النص . انظر أيضاً :

Mühimme-i Misir , vol. , 6, pp. 318 , 319 , 341 , 342 (all 1159 / 1746)

عن عوائد الحاج بشير وممتلكاته .

(١٧) الدمرداشي ، درة ، ص ص ٣٥١ - ٥ ، الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ١٩ - ٢٠ ، نقل الجبرتي
روايته عن الدمرداش . عن حسين بيك الخشاب انظر : الدمرداش ، درة ، ص ص ٣٤٤ - ٦ ، ٤٥٩ - ٦٥

(١٨) الدمرداشي ، درة ، ص ص ٥٣٨ - ٥٤٤

(19) Mühimme-i Misir, vol. 6, nos 282 .

(أول رمضان ١١٥٩) .

(20) Ibid, no. 279 (1159)

(21) Ibid, no. 418 (1160)

(22) Ibid, no. 416 , 418 , 419 , 426 , 427 (all 1160 / 1747)

(23) Ibid, no. 583

(24) Ibid, no. 507 (1161 / 1748)

على باشا - والى رودس - كان هو الذى سيُعين لكن تم تعيين أحمد باشا ، لطول المسافة التى كان سيقطعها على باشا .

(25) Mühimme-i Misir, vol. 6, nos 501, 502 (all 1161/1748) ; 573 (1162/1749) ; 648, 649 (1163/1750) No. 649 .

وتذكر هذه الوثيقة الأخيرة أن حسين بك من القطامشة ، وعلى أية حال فأنا أعتقد أن هذا تكرار خاطئ للأمر (الفرمان) السابق الذى يتحدث عن مقتل قطامش وعن الذين قروا منهم بعد ذلك : خشب حسين بك وأبازة محمد بك . وبالإضافة إلى أبازة محمد بك كان المتمردون من أتباع الخشباب هم المشرفون على مخازن القمح التابعة لعثمان بك ، وحاكم الشرقية هليل بك وباشى المتفرقة السابقة عثمان بك .

(٢٦) وردت القصيدة فى " خليفة الرئيسا " لأحمد رسمى أفندى (استانبول ، المكتبة السليمانية)

Ms Halet Efendi 597/1, fo. 60 v.

وانظر أيضاً :

Norman Itzkowitz " Mehmet Raghıb pasha, The making of an Ottoman Grand vizier "

رسالة دكتوراه p. 127 (Princeton Univ., 1958) عن راجب باشا بعد توليه مصر انظر : رسالة الدكتوراه الأنف ذكرها ، ص ١٢٠ وما بعدها .

The (Muhassil of Aydin had been Critical For the Keeping of order in that troubled district during the early eighteenth Century, See For example : Mühimme- i Defteri 112 , nos 58 , 541, 791 (all 1113 / 1701) nos . 853, 854, 877, 1315 (all 1114 / 1702) .

(٢٧) عاش أبو كوف أحمد فى مصر قبل أن يصبح خازندار القصر السلطانى (السراى) فى سنة ١٧٥٤ . انظر فصل ٨ ، ص ١٦٢ . عن منافسة راجب لكبير الخصيان السود انظر :

Itzkowitz, Mehemet Raghıb Pasha, pp. 142 ff .

(28) Shaw, Financial & Administrative Organization, p. 7

(٢٩) عن هذه الزمرة الأخيرة ، انظر الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ٨٩ - ٩٠ .

(٣٠) انظر الدمرداشى ، درة ، ص ٥٠٨ ، على سبيل المثال عن : إبراهيم بك بلفية مملوك مملوك الأغا حسن بلفية (مصطفى بك بلفية) .

(٣١) انظر الدمرداشى ، درة ، ص ٥٦٠ .

(٣٢) عن المضاربة ، انظر :

A. L . Udovitch , partnership and profit in Medie vol Islam (princeton , 1970) Chapter 6 & S.D. Goitein, A Mediterranean Society : The Jewish Cammunities of the Arab World as portrayed in the Documents of Cairo Geniza, 5 vols (Berkeley & Los Angeles , 1967, 1971 , 1978 , 1983 , 1988) vol.1 pp. 171 ff.

(٣٣) أعنى إبراهيم بك ومراد بك (١٧٨٣ - ٦ ، ١٧٩١) وإسماعيل بك وحسن بك الجداوى (١٧٨٦ - ١٧٩١) .

(٣٤) يكتب الاسم هكذا (قصير) عكس طويل ، وعلى أية حال فالاسم أيضاً قد يكون نسبة لميناء القصير مما يعنى أن عثمان كان يتولى التزام الميناء ، وكان ميناء القصير ذا أهمية تجارية قليلة نسبياً إلا في فترة قصيرة في أواخر القرن الثامن عشر شهد فيها انتعاشاً . انظر :

Daniel Crecelius, Some remarks on the importance of Qusayr in the Late 18 th Century.
Paper delivered at Middle East Studies Association Conference . Baltimore, 1987

وعلى أية حال فلم يرد ذكر لتولى عثمان لمثل هذا الالتزام (التزام ميناء القصير) .

(٣٥) الدمرداشي ، الدرة ، ص ٥١٤

(٣٦) كان من الاستثناءات النادرة الجاويش رضوان القازدغلي الذي ارتبط بالكخيا عبد الرحمن القازدغلي وقد تولى الجاويش رضوان البكوية في سنة ١١٦١ / ١٧٤٨ بينما كان عبد الرحمن في الحج ، انظر : الدمرداش ، درة ، ص ص ٥٢٨ ، ٥٤٤

(٣٧) أحمد شلبي (أوده ، ص ٣٥٤) يخبرنا عن ابن الكخيا يوسف العزياني (من أوجاق العزيان) الذي غضب لترقية أبيه مملوكه (مفضلاً إياه عن ابنه) فترك الانكشارية وعين أخيراً أغا في كتائب العزيان بناءً على مناشدة الزعيم القاسمي إسماعيل بك بن إيواظ للوالى .

(38) Mühimme-i Misir vol. 6 , nos 531, 532 (60 th 1162) .

ترجم الفرمانان أن التجار حصلوا على مئة كيس مصرى في العام من أموال الحج .

(٣٩) قرد تعنى بالعربية : الحيوان المعروف ، ولقب حسين بك هو كش كش في قوائم البكوات المصريين في أواخر القرن ١٨ في أرشيف قصر طوب قابي (E1648 / 2 1773) وعلى أية حال فإن M. Müner Ak-tepe في ترجمته لتاريخ حمدي زاده فندقليلي سليمان أفندي كتبها كشكش وكش كلمة فارسية تعنى ريش جناح الطائر ، وكش بالتركية تعنى اللبن المختثر ، والكلمة قد تعنى أيضاً التراجع في ألعاب الشطرنج . كش ملك) .
(٤٠) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٢٠٥ . قتل كش كش أخيراً على يد جماعة على بك (الكبير) بلوط قابان ، وتم نفي على بك الجيزاوي إلى الجيزة (ومن وقتها أصبح لقبه هو الجيزاوي) وذلك بعد أن تأمر لقتل الكخيا عبد الرحمن القازدغلي . انظر :

Holt, Egypt & Fertile Crescent , pp. 93 - 5

(٤١) انظر الدمرداشي ، درة ، ص ٥٧٢ وقد أصبح بكوات إبراهيم " المرعيين " في سنة ١٧٥٤ خمسة وأما الجاويشيه فاثنتان .

(٤٢) عرف كونت Kunt " المكان الأصلي Vatan-i asli " انظر :

Ethnic - Regional (cin ,) Soldiavity, 135

(43) Mühimme-i Misir , vol . 6 nos 483 , 434 (bo th 1160 / 1747

حيث يوصف عبد الرحمن بأنه متمرّد (Soki)

no. 587 (1163 / 1750)

تشير إلى أنه قد تم العفو عنه .

الدمرداشى ، درة ، ص ص ٥٢٨ ، ٥٥٣ .

(٤٤) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١١٠ .

(٤٥) انظر على سبيل المثال :

Holt, Egypt & the Fertile Crescent . p. 93 , Crecelius, Roots of Modern Egypt , pp. 38 , 46

(٤٦) الجبرتي ، مج ٣ ، ص ٢٩٢ . بعد مقتل محمد الشوربجي ، عمل أباظة محمد في زمرة حسين بك الصابونجي .

(47) David . Lang : The last years of the Georgian Monarchy ,1658 - 1832 (N.Y.1957)
PP.11-22, 57- 58 , 69 74 ,105 ,114-115 , 139 - 42

Lang notes (p. 105) the slave trade with western Georgia also intensified early in the 18 th century .

وانظر أيضاً :

W.E.D. Allen, A history of the Georgian people (London , 1932 réissued N.y, 1971) pp. 192, 282 , 283 , 286 , 287 .

(48) Holt Egypt & the Fertile Crescent, p. 146

(٤٩) الدمرداشى ، درة ، ص ص ٥٥ - ٥٦ .

(٥٠) نفسه ، ص ١٢٨ .

(51) Evliya Celebi , Narrative of Travels , vol . 2 pp. 55 - 56

ورد في فرمانات بواكير القرن ١٨ ذكر لمجموعة (طائفة) القطامشة . والجبرتي (عجائب ، مج ٢ ، ص ص ٤٩ - ٥٠) يجادل في كون محمد بك قطامش (جورجي) أى يتشكك في هذا .

(٥٢) حمزة بك هذا كان مملوكاً للدفتردار السابق محمد بك أباظة الذى هرب من مصر مع حسين بك الخشاب ، وبعد ذلك حاول محمد بك أن يتسلل للقاهرة ، لكن تم القبض عليه وجرى إعدامه .

(٥٣) عدة النبلاء جورجيين والأفخازيين قد نكروا لمهارتهم في الفروسية . مثل : حسين بك كشكش (انظر : الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٢٠٥) .

(٥٤) عن القرد ، انظر الجبرتي . عجائب ، مج ٢ ، ص ١٥٨ . وعن الصابونجي ، انظر الدمرداشى ، درة ، ص ص ٤٩١ ، ٥٤٦ - ٥٥٢ ، والجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ١١٦ - ١١٨ وعن حمزة بيك وزمرة أباظة عامة ، انظر الدمرداشى ، درة ، ص ص ٥٢٣ ، ٥٤٢ - ٥٤٤ ، ٥٥٩

(٥٥) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ١١٠ . الدمرداش ، درة ، ص ص ٥٨١ - ٥٨٢

(56) Holt , Egypt & Fertile Crescent, p. 146

(٥٧) الدمرداشى ، درة ، ص ٤٦٧

(58) Volney , Travels , vpl. I , PP. 107 - 9

(59) Findiklil , Tarihi , vol 3, p. 99 Ibid

(٦٠) التحالف الظاهري بين علي بك وروسيا كان موضوعاً لعدة خطابات شهيرة متبادلة بين فولتير وكاترين الكبرى . انظر :

W.F. Reddaway (ed.) Documents of Catherine the Great : the Correspondence with Voltaire & the instruction of 1767 in the English text of 1768 (reissue N.y., 1791) pp. 96 , 143 , 326

(61) Kunt, " Ethnic - Regional (Cins) Solidarity " 233 - 9

(62) Daniel , Crecelius , " Russia's relations with Mamluk Beys of Egypt in the 18 the century " paper delivered at the Middle East studies Association Conference, Boston, 1986 , pp. 10 - 11

لقد ارتبط إبراهيم بك ومراد بك بتحالف أوثق مع روسيا من علي بيك (الكبير) ، وقد أدت هذه العلاقة الخطرة إلى إحباط الغزو البحري العثماني لمصر في سنة ١٧٨٦

(٦٣) انظر Holt , Beylicate , 225 Ayalon , Studies in al Jabarti , 316 ff. :

(٦٤) الجبرتي ، عجائب ، مج ٣ ص ص ١٩٢ - ١٩٤ كان الأغا عبد الرحمن خارج منصبه في جانب من سنة ١٧٦٦ ، عندما كان علي بك مبعداً عن القاهرة .

القسم الثاني

استراتيجيات بناء الزمرة القازدغليّة

الفصل السادس

تحالفات الزواج ودور النساء فى الزمرة

منذ تولّى الكخيا عثمان - على الأقل - أمر الزمرة القازدغليّة أصبحت الزمرة بيتًا bayt نابت الريش (مكتملا) بمعنى أنه أصبح زمرة household ممتدة متأثرة ، ولم تكن هذه الزمرة تضم فقط رأس الزمرة (زعيمها) وعلى الأقل قدرًا من أتباعه الذكور ، وإنما كانت تضم أيضا كل النساء المرتبطات برأس الزمرة : بناته وجواريه وممرضاته ، وقبل كل شيء زوجاته وسراريه (خليلاته) ، ولم تكن الجوارى والسرارى مجرد أخصاف Successors وإنما كن أيضا عناصر مهمة فى عضوية الزمرة أسهمن فى تطويرها .

ففى طريق الزواج والتسرى - فى الأساس - حققت النساء نفوذهن فى المجتمع العسكرى المصرى ، فزواج المرأة من نبيل ذى تأثير يفتح الطريق أمامها لثروته التى ترثها جزئيا خاصة إذا لم يكن له ورثة من الذكور ، وفوق ذلك فإن الزواج من امرأة قريبة لأmir مهم أو أرملة له تتيح للبيك أو الضابط الطموح الوصول إلى أموال مهرها ، وثروتها الخاصة ، لكن مثل هذا الارتباط إن كان يتيح للمقترب الوصول لثروات المرأة ، فإنه يُتيح لزوجة النبيل ذى النفوذ كما يتيح للزوج الذى تزوج امرأة ذات اتصالات وثيقة وصنعية سياسية واجتماعية متينة ، وعلى هذا فإن زواج النخبة الذى هو على هذا النحو كان يشبه إلى حد كبير تحالفا أو شراكة ، وكان كتحطيط استراتيجى وترتيبات مشاركة فى السلطة ، وكان هذا شائعا بين النبلاء الذكور ، كما كان الزواج والتسرى هما وسيلة النخبة من النساء لدخول الحياة السياسية للنخبة العسكرية فى مصر .

وعلى أية حال فليس لدينا إلا القليل من الأدلة على أن سياسات مركبة ومفصلة عن الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) قد تم تطويرها فى مصر على نسق "سلطنة

الحريم" تلك الحقبة التي زاد فيها تأثير الحريم فى سياسات القصر الإمبراطورى والتي انتشرت كثيرا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، غير أننا لاحظنا أنه فى زمر بعينها لعبت بعض الزوجات والمحظيات دورا كوسيلة لإضفاء الشرعية وبسط النفوذ ، ولم تكن الزمرة القازدغلية استثناء من هذه القاعدة ، وعلى هذا فإن أى مناقشة للزواج كعنصر من عناصر استراتيجية الزمرة القازدغلية لابد من عرضه فى سياق أنماط الزواج بين مجتمع النخبة فى مصر ككل .

فالمرأة فى مجتمع النخبة فى مصر ظهر أنها اكتسبت نفوذها وشرعيتها بقيامها بثلاثة أدوار رئيسية : الزوجة أو المحظية قد توثق - وهذا هو دورها الأول - العلاقة التحالفية بين زمريتين ، وثانيا فإنها قد تكون مساهمة فى تحديد هوية الزمرة فتقوم بدور الأم الرئيسة للأسرة *afamily matriarch* ، وأخيراً فإنها قد تكون بمثابة حارس لثروة الزمرة إما بحمايتها من المغتصبين أو أن تكون هى نفسها جزءا مكونا لممتلكات الزمرة القابلة للتوريث .

توثيق التحالف :

إن كان لرأس الزمرة البارز ابنة فليس بعيدا عن المؤلف أن يزوجه لأهم أتباعه : وغالبا ما يكون لأكبر أتباعه Client سنا أو لأطولهم عشرة له ، وبهذه الطريقة يصبح التابع زوج ابنة رئيس الزمرة وبهذا يصبح مرتبطا بعلاقة قرابة أو نسب بالزمرة ، ويمكن مقارنة هذا بالزواج بين الأسرات الملكية الحاكمة فى أوروبا فى هذه الفترة لكنه أكثر ما يكون شبيها بممارسة السلاطين العثمانيين ، إذ كان السلطان يزوجه ابنته لأحد الوزراء البارزين ، وخلال الحقبة العثمانية وجدنا العديد من الصدور العظام (رؤساء الوزارات) الرفيع يحمل الواحد منهم لقب (داماد damad) الذى يعنى زوج ابنة السلطان ، وقد عمل كثيرون من أزواج بنات السلاطين ولاة لمصر ، ولا شك أن الداماد الباشا حسن (داماد حسن باشا) زوج ابنة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) وأخو زوجة السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) الذى تولّى الولاية من سنة ١٦٨٨ إلى ١٦٩٠ ومرة أخرى من سنة ١٧٠٧ إلى ١٧٠٩ ، وكان رئيسا للوزراء (صدرا

أعظم) فى الفترة من ١٧٠٣ إلى ١٧٠٤ - لا شك أنه كان أشهر أزواج بنات السلاطين وأكثرهم بروزاً ^(١) ، وفى القرن السابع عشر على نحو خاص نجد بين الحين والحين نبلاء من مصر يتزوج الواحد منهم ابنة مسئول عثمانى أثناء توليه - أى تولى المسئول العثمانى - مهام منصبه ، فعلى سبيل المثال نجد البيك يوسف صهر النقيب - أو على حد تعبير الحوليات التركية (نقيب داماد يوسف بيك) زوج ابنة نقيب الأشراف الذى كان يتم تعيينه حتى القرن الثامن عشر من طرف إستانبول ^(٢) .

لقد كان بإمكان هذا النوع من الزواج إذن أن يربط الزمر المحلية بزمرة النخبة فى إستانبول مثل نقيب الأشراف أو حتى السلطان ، وعلى أية حال فقد كان هذا النوع من الزواج يؤدي إلى ربط زميرتين محليتين أو يمد جذوراً لتابع لا جذور له كمملوك أو مرتزق أو جندي لا أسرة له ، ليحكم صلته براعيه his patron ، والأمثلة كثيرة على "الأتباع" الذين تزوجوا من بنات حُماهم (رعاهتهم) وهو الأمر الذى شاع فى مصر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فالأغا القوى حسن بلفية ارتبط ارتباطاً وثيقاً بزواج ابنته ، وتحالف منه ، ونعنى به : البيك إسماعيل الذى طال مكثه فى منصب الدفتردار ، وعن طريق زوج ابنته هذا أدار أمور مصر معظم سنى التسعينيات من القرن السابع عشر (١٦٩٠ - ١٦٩٩) بالتعاون مع الكخيا مصطفى القازدغلى ، ويظهر أن الأغا حسن قد رقى إسماعيل من أغا إلى بك بمجرد زواجه من ابنته (ابنة حسن) ، ولم يؤد هذا الزواج - فحسب - إلى ترسيخ رابطة الولاء بين إسماعيل والأغا حسن وإنما أدّى إلى بداية الارتباط بين الزمرة البلفية وزمرة البيك حسن الفقارى الراعى (الحامى) الأصلى لإسماعيل ، وكانت هاتان الزمرتان هما عمودى الكتلة الفقارية ، ومن هنا فقد أسهم الزواج فى التماسك الفرقى (الحزبى تجاوزاً) factional Cohesion أيضاً .

فالتماسك (أو التضامن) الفرقى (أو الحزبى تجاوزاً) أصبح قليل الشأن بحلول القرن الثامن عشر ، عندما حل فريق (طاقم) مختلط من الزمر المتعاقبة محل الفرقتين الفقارية والقاسمية ، أو بتعبير آخر محل التشرذم الفقارى القاسمى ، ولم يكن توازن القوى القديم ثنائى القطب يعنى سوى القليل لهذا الفريق (الطاقم) المختلط الذى حل محل التشرذم القديم ، وانفصلت أكثر هذه الزمر الوارثة نجاحاً - ونعنى بها

الزمرة القازدغلية - انفصالا كاملا عن الكتلة الفقارية ، وأخيرا وقفت فى صف واحد مع زمرة الجلفية الأصغر (للقازدغلية) والتي اتخذت قراراً أن يكون لها موقف التابع (للقازدغلية) زمرة ضد البيك ذى الفقار ، وبطبيعة الحال كان هذا التحالف قد بلغ ذروته فى الحكومة الثنائية - نعى حكومة الكخيا إبراهيم القازدغلى ، والكخيا رضوان الجلفى - ذلك الثنائى الذى قبض على زمام السلطة فى مصر من سنة ١٧٤٨ إلى ١٧٥٤م . وعلى أية حال فعند موت الكخيا إبراهيم قام أخلافه باجتثاث رضوان بطريقة قاسية ، ومن الآن فصاعدا حكمت الزمرة القازدغلية الأكبر مصر دون منافس حتى غزا نابليون مصر فى سنة ١٧٩٨م .

لكن القازدغلية تُركت لتستوعب بقايا الجلفية ، وهنا أمكن للزواج الاستراتيجى أن يخدم لتحقيق هذه الأغراض ، لقد تزوّجت ابنة الكخيا رضوان الجلفى أختا لواحد من أتباع الكخيا إبراهيم القازدغلى الذى كان قد هاجر من إستانبول خصيصا لينضم لزمرة إبراهيم ، وهذا الزواج - على نحو خاص - كان بمثابة كَيْدٍ لأن العروس كان قد سبق لها الزواج من أحد مماليك رضوان الجلفى (انظر الشكل ٣) ، وعلى أية حال فهذا العريس فشل فى الدخول بعروسه (فشل فى إتمام هذا الزواج) وعند موت رضوان هرب إلى بغداد وأرسل يستدعى زوجته لكنها رفضت اللحاق به ، ونظراً لإصرارها على الرفض صدرت فتوى بإبطال هذا الزواج وفقاً لأحكام المذهب المالكى (٣) ، إنه لمن الواضح أن ابنة رضوان المهزوم قد مارست نفوذاً كافياً ليس فقط لتتبرأ من الزواج الذى كان أبوها قد أعدّه لها قبل وفاته وإنما أيضاً لتكون مصدر قوة للقازدغلية وهم يُحكمون سلطانهم .

ولم يكن الزواج الجلفى - القازدغلى تحالفاً بين قسيمين (طرفين متساويين) فقط ، وإنما الأقرب أنه عمل على مواعمة بقايا الزمرة الجلفية المهزومة مع الزمرة التى هزمتها ، إنه يبدو أمراً مخططاً حقيقية أن يؤثر الأمر بحيث لا تقول اليتيمة (العروس التى مات والدها) شيئاً لعريسها الجديد الذى وصل حديثاً ، وفى الحقبة التى رجحت فيها كفة القازدغلية وجدنا أن تحالفات الزواج - على نحو خاص - شاع استخدامها لتوثيق العرى مع الأتباع ذكورا أم إناثا داخل الزمرة لتأكيد التزام هذا "التابع" أو التابعة تجاه الزمرة ، وربما كان أفضل مثال معروف على هذه الممارسة فى القرن

الثامن عشر هو ما اعتاده البيك على (على بك أو بلوط قابان) فى أواخر أيامه من ترتيب زيجات بين ذكور زمرة البارزين وعضوات فى الزمرة نفسها ، وفى سنة ١٧٦٠ زوّج خشداشه البيك إسماعيل من ابنة حاميه (راعيهم) المتوفى الكخيا إبراهيم ، وفى سنة ١٧٦٦ زوّجت أخت البيك على بلوط قابان لملوكه الذى أعتقه حديثاً ونعنى به البيك محمد أبا الذهب (٤) .

رئيسة الأسرة أو المرأة كزعيمة للأسرة

إنّ الزواج الاستراتيجى من النوع الذى درسناه توأ أمكنه أن يساهم فى تحقيق المكانة السياسية للزمرة ، فزواج البيك إسماعيل من ابنة الأغا حسن بلفية - على سبيل المثال - قوى بشكل هائل الجبهة الفقارية بربط الزمرة البلفية بزمرة البيك حسن الفقارى ، ومع هذا فإنّ هذا الزواج لم يبد جوهرياً لتطوير أو إحياء أى زمرة ، وأكثر من هذا ، فليس هناك دليل على أن ابنة البلفية أضفت شرعية من أى نوع لأى من الزمرتين ، وعلى أية حال فهناك أمثلة على زوجات أدّين برقة هذه الوظيفة إذ قمن بدور الزعيمات الأمهات أو الأمهات الزعيمات مما أعطى لزمهرن أو الأسرات التى ينتمين إليها طابع الاستمرار .

فالزمرة الجلفية - فى الأعوام التى سبقت تبعيةها للقازدغلية - بدا وكأنها تنظر لزوجة مؤسس الزمرة كأم للزمرة كلها ، وإن كان لنا أن نثق فى رواية الجبرتى فإن اسم الجلفية مشتق من اسم زوجة الكخيا حسن مؤسس الزمرة ، وكانت ابنة منصور الزتاجى الذى كان يتولى التزام قرية سنجل فى المنوفية بالدلتا - تعرف باسم الست الجلفية (٥) ، وعقب زواجه منها أصبح لقب الكخيا حسن نفسه هو الجلفى ، والحقيقة أنه كان يذكر فى الحوايات والوثائق الرسمية بهذا اللقب وحده كما لو أن اسمه الأول لا لزوم له ، (٦) من المفهوم إذن أن هذا الزواج هو الذى أتاح للكخيا حسن تولى التزام قرية سنجل من خلال ابنة صاحب الالتزام ، ومن وقتها أصبح اسم القرية اسماً مستعاراً للزمرة كلها ، ومن الممكن للمرء أن يفترض أن هذا الالتزام كان أساس ثروة الزمرة تماماً كما كان التزام قرية بلفية فى البهنسا بصعيد مصر بالنسبة

فطاریہ / کاروباری

من بطنه ذوالقفا

من ينله ذر الفنا
الانما صمنا ببقية
الكبرياء

ابن جنيح

اسماء بك الدفتر

المخاض الجيد = آسية حاتق = آنياس اولدي

[illegible]
$$x_1 = \frac{1}{\sqrt{2}} \begin{pmatrix} 1 \\ 0 \\ 0 \end{pmatrix}$$

مجلسه

ابن مرتضى انشد
في رثيته

١٣٤٢ هـ

نعم الزانية حارة
الطاهر
الأكبر من الدنيا

ایکویٹی

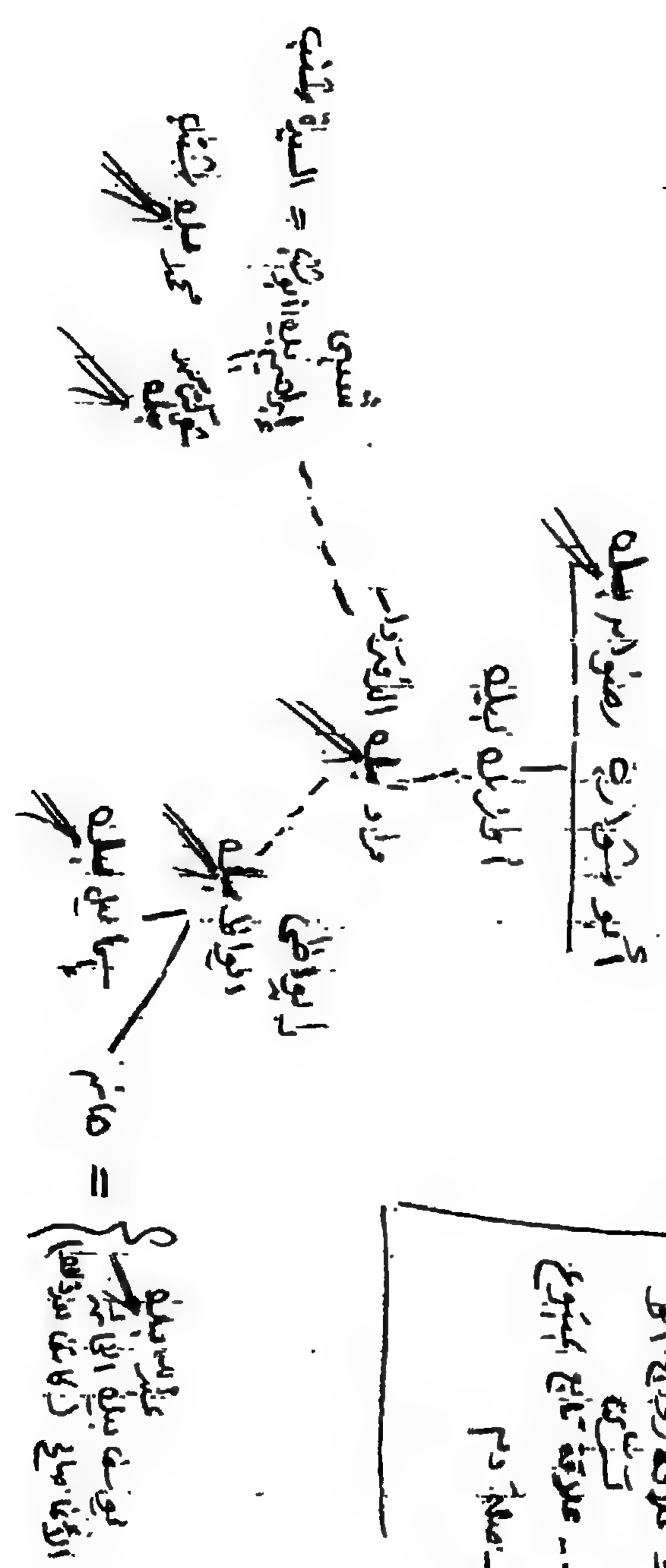
آبِ رَمَقِ اَللّٰہِ

11.04.21

ملاحظة زوج: أ و آ

قازاقستان

علاقۃ روحانیات =
علاقۃ عالمات
علاقۃ دہ



للزمرة التي حمل اسم القرية (البلفية) ، وعلى هذا فالست الجلفية أصبحت حجر الزاوية بالنسبة للزمرة الجلفية بتقديمها المورد الأساس لثروتها .

وعلى أية حال فالست الجلفية لم تختف تماما من التاريخ ؛ لأنها تزوجت من الكخيا حسن بطريقة لا مشاكل فيها ، بل على العكس فقد بدت باقية كأم للزمرة على نحو أو آخر لعدة سنوات بعد موت زوجها ، ويروى لنا الدمرداشي في حولياته حادثة انتقامية ذلك أن ذراع لآظ إبراهيم المرتزق الذي قتل انتقاما لاغتيال الكخيا على الجلفي قد تم إحضاره للست الجلفية مقابل الحصول على بقشيش ، وعلى النحو نفسه تم إحضار رأس لآظ إبراهيم لتابع الكخيا على ونعنى به الكخيا رضوان الجلفي ^(٧) ، وكان الكخيا على قد جعل من نفسه تابعا لزواج الست الجلفية ، وهو الكخيا حسن ، وقد تزوجته بعد موت الكخيا حسن ، يظهر إذن أن كلاً من رضوان والست الجلفية قد دفعا ثمن رأس القاتل (الكخيا ذراعه كما في الحالة التي ذكرناها آنفا) ، يمكن للمرء أن يتساءل ما إذا كان من المعتاد لزوجات المقتول أن تضم تابعه على سبيل الثأر ، حقيقة إنه في هذه المرحلة بدا الكخيا رضوان والست الجلفية يهيمنان على القتل الثأري كزعيمين مشتركين في زعامة الزمرة الجلفية .

وعلى أية حال فمن الصعب أن نعرف مدى مهام الست الجلفية لأن الحوليات لم تذكرها إلا قليلا ، تلك التي سادت أدوار النساء عموما سواء كن أمهات رئيسات (زعيمات) للأسرة أم لا ، وعلى أية حال فهناك مثال أفضل على نحو ما ، وهو زوجة نبيل آخر بارز ونعنى به الزعيم القاسمي البيك إبراهيم أبا شنب (ساشير إليها تيسيراً للأمور في السطور التالية بمدام شنب أو السيدة شنب = مسز شنب) ، وعلى أية حال فإن الحوليات لا تشير بوضوح لأصول السيدة شنب أو كيف تزوجها البيك إبراهيم أو لماذا ؟ وعلى أية حال فقد ظهرت السيدة شنب - مثلها مثل الست الجلفية - ذات حضور هائل في زمرتها بعد موت زوجها ، كما لو أنها أخذت مكانه كزعيم رمزي للزمرة ، وفي مناسبات قليلة يشير لها المؤرخ أحمد جلبى (شلبى) بالمرأة ، أو السيدة إشارة إلى مقامها الرفيع الذي يحظى بالاحترام ^(٨) ، وعندما تم اكتشاف جثة ابنها البيك محمد شنب الذي مات في مخبئه في سنة ١٧٢٦ على يد مناوئيه الفقاريين سلموها الجثة لدفنها ، وفي هذه المناسبة قال الوالى العثماني للسيدة شنب

"كان من الأفضل أن تلدى حجراً" واقترب من الجثة قائلاً "أنت سبب خراب بيت أبيك" (٩) ، وملاحظاته هذه قد تتضمن أنه لم ينجز أعمالاً كأعمال أبيه البارزة ، ومن ناحية أخرى هناك معنى المواساة للسيدة شنب التى خان ابنها والديه (أباه وأمه معا) ، وسرعان ما أمر الوالى بتدمير منزل شنب وفى هذا إشارة إلى أنه رغم مكانة السيدة شنب ورغم أنها لم تكن مسئولة عن أعمال ابنها السيئة ، فإن مقر الزمرة لا يمكن أن يستمر بأرملة لم تتزوج من أحد أتباع زوجها المتوفى ولم يعد لها ابن .

وبشكل عام فإن الحوليات العربية تعطينا انطباعاً أن الجيل الأقدم من زعماء الزمرة - جيل البيك إبراهيم أبى شنب والكخيا حسن الجلفى والأغا حسن بلفية - كانوا أقل ميلاً للقتال وأكثر جنوحاً إلى استخدام الأساليب السياسية من أخلافهم ، لقد بدت زوجات هؤلاء الزعماء Statesmen الأقدام مشاركات فى الاحترام الذى حازه أزواجهن ، لكنهن أيضاً حققن مكانة من كونهن أمهات لجيل أصغر من النبلاء كانوا ورثة زعامة الزمر عن آبائهم ، وبهذا المعنى كنَّ أمهات للزمر بالمعنى الحرفى للكلمة (كن نسوة زعيمات للزمر matriarchs) ، ورغم أن مكانة السيدة شنب الكبيرة تعود فى جانب كبير منها لزوجها "الرجل الكبير الوقور" البيك إبراهيم أبى شنب ، إلا أنها أيضاً استتقت مكانتها من كونها أم ابن أبى شنب ووريث بيته وزمرته البيك محمد شنب ، وعلى هذا فلا شك أنها منيت بخيبة أمل لا حد لها أن ترى ابنها يدمر التحالفات التى أقامها أبوه ، ويبدد الثروة التى كونها - ورعاها - والده بعناية .

وعلى أية حال ليس لنا أن نقول إن مكانة السيدة شنب وغيرها من نسوة النخبة كانت تقوم على الأزواج أو الرجال الذين ارتبطن بهم ، فزوجة النبيل عاشت فى معمة المكائد السياسية وبالتالى كان عليها أن تكون ماهرة فى تسيير نفسها سياسياً ، وأكثر من هذا ، ففي البداية حصلت السيدات والأمهات الرئيسات (الزعيمات) على نفوذ سياسى لم يكن ليختفى بموت أزواجهن أو أبنائهن أو رعاتهن (حماتهن their patrons) ، وفى فترة الترمل - تلك الفترة المتسمة بالوقار - كانت الواحدة تقوم بدور العجوز الحكيمة أو الزعيمة المخضرمة التى تستقى منها الزمرة أو الفرقة مكانتها ، ولا تترك الحوليات أمامنا فرصة للشك فى أن السيدة شنب والست الجلفية وغيرهن من النسوة البارزات فى جيلهن كن يمتلكن مثل هذه الحنكة السياسية .

الزوجات وثروة الزمرة

الزوجات كحارسات لأموال الأسرة والمزمنة

لقد هيا انهيال الولاء التقليدي للفرقتين (الفقارية والقاسمية) خلال الجيل التالي فرصة أعظم للنخبة من النساء لإظهار فطنتهن السياسية ، ففي بواكير العقد الأول من القرن الثامن عشر (١٧٠٠ - ١٧٠٩) تمزقت الفرقتان القاسمية والفقارية إلى مجموعات متفرقة ، وبينما قاومت الفرقة الفقارية المنافسة الداخلية المكتومة بين الزمرة القازدغلية وزمرة البيك ذي الفقار فقد تفسخت الفرقة القاسمية تماما نتيجة المنافسات الطموحة لأخلاف البيك إبراهيم أبي شنب وأخلاف خشداشه البيك إيواظ ، وأصبح مملوك أبي شنب وهو البيك شركس محمد العدو اللدود لابن إيواظ بك ونعنى به : البيك إسماعيل ، ووصل به الأمر إلى حد الانضمام لمشروعات بقايا الفقارية لمواجهة جماعة (أو حزب Party) البيك إسماعيل .

وفى جو بلغ الذروة فى التوتر حيث من الممكن بسهولة أن يتحول حليف اليوم إلى عدو لدود غدا - وجد النسوة أنفسهن وقد اقتحمن بشدة ميدان الصراع السياسى اقتحاما لم يقتحمه بهذه الدرجة من قبل أبدا ، وربما كان المثال الصارخ لمثل هذه المرأة الفعالة سياسيا هو أخت البيك إسماعيل بن إيواظ ذي الثروة الواسعة والأتباع الكثيرين ، والتي كانت ، وهذا طبيعى ، الزوجة الكفوة المرغوبة بشدة لأى من أتباع أخيها والمرتبطين به ، وكانت معروفة بهانم بنت إيواظ ، وهانم كلمة تركية تعنى الأنسة Miss أو السيدة Lady ، وهى كلمة - بلاشك - تدل على الاحترام ، ويسبب الصراع المتلاحم العنيف بين نبلاء مصر تم تزويجها وترملها عدة مرات متعاقبة من إيواظيين بارزين (أو تعبير آخر من أفراد من أتباع إيواظ البارزين) ، ومن الأمور ذات الدلالة أن الحوليات العربية أطلقت على زوجها الثانى وزوجها الثالث لقب (زوج هانم) إشارة إلى المكانة التى يصل إليها من يتزوج هذه المرأة ، تلك المرأة التى أصبحت بمرور الأعوام السيدة الأولى للإيواظية إن لم تكن الأم الزعيمة matriarch .

ولم تكن هانم بنت إيواظ مجرد زعيمة شكلية أو رئيسة صورية وإنما لعبت دورا مهما فى الحفاظ على ثروة الإيواظية بعيدا عن قبضة خصومهم ، وعندما وصل الوالى

(الباشا) المعادى لأخيها إلى مصر فى سنة ١٧٢٠م . وبدأ يحبك مؤامرة لقتله لم تضع هانم وقتا وراحت تقسم ، وتعيد توزيع كل ممتلكات البيك إيواظ وكذلك ممتلكات أتباعه الذين قُتلوا حتى لا يستطيع الوالى وضع يديه عليها ^(١٠) ، وقامت بالمهمة نفسها عندما جرى اغتيال أزواجها الثلاثة (الذين تزوجتهم على التعاقب) وقد أطلق عليها المؤرخ الدمرداشى (رأس البيت والزمرة هانم بنت البيك إيواظ "القهرمانه") ^(١١) .

وتتيح لنا مسألة ثروات أزواج هانم المقتولين أن نلاحظ مثالا على كيد النساء وتضامنهن اللذين تجاوزا العداوة الشنبية الإيواظية ، فالدمرداشى يخبرنا كيف أنه فى سنة ١٧٢٤م . حاول قاتلو أول أزواجها - وهو البيك على حليف أخيها - خداعها للحصول على الذهب والفراء اللذين كان البيك عبد الله قد أودعهما عندها كأمانة بأن سلموها رسالة (تذكرة) زعموا أنها من عبد الله زوجها وفيها يذكر أنه لا يزال على قيد الحياة ولكنه مختبئ ويود الحصول على ذلك الذهب وتلك القطيفة ، لكن السيدة شنب ومحظية الوالى السابق الباشا على (١٧٠٦ - ١٧٠٧ ، ١٧١٧ - ١٧٢٠) أخبرتها (أى أخبرتا هانم) بمصير زوجها ونصحاها أن تكشف مكر القتلة بأن تطلب منهم رؤية زوجها ^(١٢) ، لقد كان هؤلاء النسوة الثلاث متعاديات ولدى كل واحدة منهن من الأسباب ما يجعلها عدوة للأخرى ، فلفترة كان الباشا على متعاطفا مع البيك إسماعيل بن إيواظ ، وكانت السيدة شنب أرملة راعى (أو حامى) البيك شركس محمد ، فتعاون هؤلاء النسوة يعنى أن التحالف الشنبى - الإيواظى والذى كان قد ثبت الفرقة القاسمية فى أعوام مضت لم ينحل بين نساء القاسمية الزعيمات كما انحل بين رجال الفرقة ، أو بتعبير آخر إن كان التحالف قد انحل بين رجال القاسمية فإنه ظل قائما بين نساءها ، ولا شك أن مثل هذا الظرف كان له أثر كبير فى الروابط بين هؤلاء النسوة ، فعلى سبيل المثال فإن السيدة شنب قد تكون أبدت عطفًا أموميا كبيرا لابنة خشداش زوجها المقتول ^(١٣) ، بل إن هناك شيئا أنثويا لا تخطئه العين فى هذا التحالف لأن الجيل الأكثر شبابا من ذكور الأشناب والإيواظيين لم يظهروا مثل هذا الاحترام للروابط التى سبق أن ربطت آبائهم ورعاتهم their patrons ، فقد كان ابن السيدة شنب يكاد يكون عدوا لدودا للبيك إسماعيل ابن إيواظ كالبيك شركس محمد ، والواقعة كلها تفيد أن الزوجات ، والمحظيات ، والأبناء من الإناث يمكنهن أن يلعبن دورا أكثر ديمومة

من الرجال فى المحافظة على هوية (شخصية) الفرقة السياسية ، لقد ظلت الولاءات القاسمية حيّة عند هؤلاء النسوة الثلاثة فترة طويلة بعد أن كُنَّ قد وقعن ضحايا طموحات أعضاء الفرقة (القاسمية) من الذكور ، والأكثر مدعاةً للدهشة أن النساء كن راغبات فى التماسك بهذه الولاءات القديمة حتى عندما كان هذا يُهدد الخطط الأساسية ، تلك الزمر التى كونها وانتمى إليها أقاربهم الرجال .

ولم يكن هذا التحالف النسائى غير المعتاد مجرد صدفة أو أنه كان رمية من غير رام ، فقد ظهر على السطح بعد ذلك بعدة سنوات فى سنة ١٧٣١م . عندما ظهرت النسوة الثلاثة الآنف ذكرهن لدعم مؤامرة يقوم بها ثلاثة من الرجال الإيواظيين بمن فيهم زوج هانم وقتها ^(١٤) لقتل الزعيم الفقارى البيك ذى الفقار الذى كان قد اغتال البيك إسماعيل بن إيواظ فى سنة ١٧٢٤ ، ولم تكن المؤامرة حالة انتقام إيواظية بسيطة فهى تقود فى جنورها إلى الفقارى الساخط الأغا هليل Halli قطامش الذى كان هو نفسه يغار من زمرة ذى الفقار الضخمة ^(١٥) ، لقد نمت العداوات والتحالفات بشكل متزايد غير متوقع مع تفسخ الفرقتين التقليديتين (الفقارية والقاسمية) ، ومرة أخرى كان التحالف النسائى هو الحصن الأخير للتضامن القاسمى فى مواجهة انحلال الروابط داخل كل فرقة من الفرقتين ، وأكثر من هذا فعند تأييدهن - ودعمهن - لاغتيال ذى الفقار كانت النسوة يراعين مصالح الرجال الذين كن مدينات لهم بمكانتهن فى التجمع القاسمى ، بعد موت هؤلاء الرجال بمدة طويلة : فقد كان البيك إيواظ قد قُتل فى سنة ١٧١١م وقُتل ابنه فى سنة ١٧٢٤م ، والوالى على باشا قتل فى سنة ١٧٢٠ ، وفى هذه الأثناء كان البيك إبراهيم أبو شنب قد مات فى طاعون سنة ١٧١٨م ^(١٦) .

وقد راعى البيك ذو الفقار من ناحيته النساء كتهديد حقيقى وطلب أن يصدر الوالى أمراً بإبعادهن إلى الأناضول ، وقد رد الكخيا عثمان القازدغلى على هذا قائلاً : "يا قلة عقلك . إنهم سيقولون فى الباب العالى إن الغز فى مصر خائفون من ثلاثة نسوة فأبعدوهن إلى الأناضول" فما كان من الكخيا عثمان إلا أن تشجّع وفرض عليهن الإقامة فى منازلهن . وفى النهاية نجح الأغا هليل فى قتل البيك ذى الفقار رغم احتجاج النسوة ، لقد بدأ القاتل موجة إحياء العداوة الفقارية القاسمية التى انتهت بمحق بقايا الفقارية ^(١٧) .

وكان رد الفعل الفقاري إزاء تحالف النساء يعكس أن أعداء النساء كانوا ينتظرون
لهن كفاعلات يمثلن خطرا سياسيا ، وكمركز للتكتل القاسمي ، ولم تعمل النسوة
الحساب لإسعاد أى من الزعماء الذين حدث أن رأسوا بقايا الجماعات القاسمية ، بل
على العكس لقد تحدّين الصّدع الذى حدث فى الفرقة بحفاظهن على الشراكة الشنبية
الإيواظية ، لقد أضعف رجال القاسمية أنفسهم وأخيرا واجهوا كارثة لا لسبب
إلا لأنهم لم يحذوا حذو النساء .

وكانت هانم بنت إيواظ هي وحدها الأكثر إثارة من بين سلسلة من زوجات النبلاء
اللائى خبّان ممتلكات أزواجهن ، ففي الغزوتين اللتين حدثتا نحو نهاية القرن الثامن
عشر ، تعامل الغزاة بقسوة مع النساء اللائى تشبثن بثروات أزواجهن ونظروا لهؤلاء
النسوة باعتبارهن يشكلن تهديدا سياسيا محتملا ، وفى سنة ١٧٨٦م رسا فى
الإسكندرية أسطول عثمانى بقيادة الأدميرال أو الباشا قبودان سيزايرلى Cezayirli
حسن بهدف طرد البيك إبراهيم والبيك مراد اللذين شكلا حكومة ثنائية اقتسمت
السلطة ، واللذين شك الباب العالى فى تعاونهما مع الإمبراطورية الروسية ^(١٨) ، وقد
تمادى سيزايرلى حسن إلى حد إيداع الزوجتين فى السجن - زوجتى شيخ البلد
(زعيم القاهرة) البيك إبراهيم - حتى يسلمّا ثروة إبراهيم ^(١٩) ، وبعد غزو بونايرت
لمصر سنة ١٧٩٨ عاملت القوات الفرنسية المحتلة الست نفيسه زوجة الرجل القوى
البيك مراد التابع السابق لإبراهيم بيك (البيك إبراهيم) كوكيلة معتمدة لزوجها الذى
كان قد فرّ إلى الصعيد ، وقد حصلت على المكانة لأن البيك مراد كان - وفقاً للعرف
الساّد - قد ترك جزءا من ممتلكاته عندها كأمانة عندما فرّ .

إن التحالف غير العادى للنسوة القاسميات الثلاثة ومعاملة زوجات القابضين على
زمام الحكومة الثنائية تشيران إلى الملمح العام للدور الذى لعبته زوجات النبلاء : عندما
دُمرت عمليات النبلاء ودبت فيها الفوضى ؛ أى عندما قُتلوا أو اضطروا للفرار من
القاهرة ، أصبحت زوجاتهم جُزرا للاستقرار ، إذ واصلن المحافظة على أوضاع
أزواجهن أثناء غيابهم ، وما يعنيه هذا هو - فى المقام الأول والأكثر أهمية - أن
الزوجات حمين ثروات الزمر من المغتصبين بمن فيهم الحكومة العثمانية ، فمن الشائع أن
يتترك الأمير الفار ثروة بين يدي زوجته (أو أخته كما فى حالة البيك إسماعيل

بن إيواظ (كأمانة^(٢٠)) ، ومن هنا تصبح الزوجة من الناحية الفعلية وكيلة لزوجها أو ممثلة له ، وهذه المسؤولية قد تجعل الزوجة ذات سلطان سياسى كبير ، وقد تجعلها أيضا عرضة للعداوات التى كان يتعرض لها زوجها ، وعلى أية حال ففى مثل هذه الظروف يكون جنسها (كونها امرأة) حصنا لها ، فارتباط المرأة بالمنزل وما جرت عليه العادة من معاملة الزوجات والبنات بشىء من الاحترام يجعل من الصعب مهاجمة الزوجة ، فالرجال لا يميلون إلى معاملة النساء بجدية كاملة كخطر سياسى يشكل تهديدا حقيقيا خطيرا ، وهذا فى حد ذاته لصالح النساء ، والدليل على ذلك ما تعرض له البيك ذو الفقار من سخرية عندما حاول نفى النسوة القاسميات الثلاثة ذوات الخطر الكبير .

الزوجات كممتلكات تُورث

ربما بدا متناقضا تناقضا ظاهريا أن تلعب الزوجة دورا سياسيا حاسما بينما هى - فى الوقت نفسه - تعتمد على شىء من الارتباط برجل لتحديد هويتها الاجتماعية والسياسية ، وإذا كانت السيدة شنب حقيقة ذات تأثير خطير فى المسرح السياسى القاهرى فلم لم تستمر الزمرة التى تنتمى إليها بعد وفاة ابنها ؟ لابد أن تنتبه إلى النمط الذى تسهم فيه هذه التبعية (تبعية المرأة للرجل أو اعتمادها عليه) فى قدرة المرأة على ممارسة وظيفة سياسية ، هذا التناقص الظاهرى يقع فى صميم زواج التحالف (أو التحالف الذى يلعب فيه الزواج دورا) ، إنه يعنى - قبل كل شىء - الممارسة التى بها تنتقل الزوجة من زوجها المتوفى إلى تابعه ، حقيقة إن زواج هانم بنت إيواظ المتعاقب كان أمرا استثنائيا لا لشيء إلا للمكانة الكبيرة التى تمتعت بها ، ولتعاقب موت أزواجها ، وحالتها هذه لم تكن شائعة ، فعندما يموت الأمير (النبيل) يقوم واحد من أتباعه - تلقائيا - بالتزوج من زوجته أو جاريته الرئيسية ، وكانت هذه الممارسة جزءا من عملية وراثية الرأى (الزوج المتوفى) وتملك منزله ، فالتابع الذى يتزوج الأرملة يصبح - نمطيا - هو وارث راعيه (الزوج المتوفى) وتصبح الزوجة عمليا جزءا من الميراث ، وعلى هذا فبعد قتل البيك ذى الفقار نقل مملوكه (البيك على) كل أتباعه (ذى الفقار) إلى منزل جديد وتزوج أرملة ذى الفقار ، وبينما يمكننا

النظر إلى هذه العادة كعامل يحط من قدر المرأة ، بل ويعتبر حقيقة علامة على كونها مجرد "شيء" ، إلا أنه يمكننا أيضاً أن ننظر إليها على أنها دليل على أهمية التحالف عن طريق الزواج (الزواج التحالفي) في استمرار الزمرة (٢١).

إن تجربة امرأتين من الزمرة القازدغلية تفيد على أية حال أن الزوجة الموروثة " heritable wife " كانت ظاهرة معقدة تحدّد وفقاً لقواعد صارمة توارث الزمرة أو بتعبير آخر تعيين أخلاف الزعيم المتوفى ، وبدأت إحدى المحظيات وهي الست شويكار وقد تداولتها أجيال الزعماء القازدغلية (انتقلت لواحد منهم إثر واحد على التعاقب) وربما يوضّح هذا اللقب الفارسي "شويكار" الذي يشير إلى المرأة التي لها زوج ، وقد اشتراها أساساً الكخيا عثمان القازدغلي ، ثم انتقلت إلى تابعه الأخير ووريثه الكخيا سليمان بعد اغتياله في سنة ١٧٣٦م ، وعقب موت الكخيا سليمان بعد ذلك بثلاث سنوات لم تقع - على أية حال - الست شويكار مباشرة في يد وريثه المفترض الكخيا عبد الرحمن مع ثروة سليمان ، وإنما تزوّجت الكخيا إبراهيم (٢٢) - لم هذا التناقض ؟ فرغم أن عبد الرحمن ورث ثروة سليمان إلا أنه لم يدع قيادة الزمرة القازدغلية ؛ إذ أن هذا الشرف (قيادة الزمرة القازدغلية) ناله إبراهيم الذي ينتمي إلى نمط آخر (فرع آخر) من الحماة Patrons والأتباع داخل الكتلة القازدغلية ، وكان قد ورث ثروة هذا الفرع ، يظهر إذن أن أرملة رأس الزمرة (شويكار) لم تكن تعامل تماماً معاملة الثروة الموروثة وإنما كانت متاحة - فحسب - لزعيم الزمرة التالي ، حقيقة إن عبد الرحمن عندما أصبح رأساً للزمرة القازدغلية عقب موت الكخيا إبراهيم تزوج - أخيراً - الست شويكار ، وعلى هذا فإن ظاهرة "الزوجة الموروثة أو التي هي جزء من الميراث" تبدو من النظرة الأولى مقلّلة من شأن المرأة إلا أنها من الناحية الفعلية متداخلة مع ظاهرة "الأم الرئيسة" أو "الأم زعيمة الأسرة" " Family matriarch " فالرجل الذي يدعى زعامة الزمرة يصبح زوج سيدة الزمرة الأولى .

وما حدث لأمينة خاتون أم الكخيا عبد الرحمن يفيد أنه حتى هذه القاعدة لم تكن تنطبق على كل الحالات ، فعند موت والد عبد الرحمن الكخيا حسن في سنة ١٧١٦ تزوجت أمينة مملوك حسن وخلفه في رئاسة الزمرة - الكخيا عثمان - وكان هذا جزءاً من عملية شائعة يحدث بمقتضاها أن يرث التابع أرملة راعيه his patron كما يرث

ثروته ، ولابد أن ابن أمينة - عبد الرحمن - كان فى مرحلة الشباب فى هذا الوقت ، وكان من الممكن تماما أن يقوم الكخيا عثمان بدور الأب البديل لعبد الرحمن أو على الأقل أن يكون الرجل صاحب التأثير الأكبر عليه فى فترة شبابه ، ورغم أن عثمان ورث ثروة راعيه his patrons إلا أنه أوصى بجزء من عقاراته لعبد الرحمن كما ادخر ثروة الكخيا حسن لعبد الرحمن ، وأضاف - فى الوقت نفسه - من خلال مشروعاته التجارية ، ولم يكن يعرف أن بعد موته فى سنة ١٧٣٦م ، سيقوم تابعه الكخيا سليمان بالاستيلاء على المبالغ كلها ، وعلى أية حال فإن الكخيا سليمان لم يتزوج أمينة خاتون التى ترمكت مرتين ، بل لقد قضت السنوات الثلاثة التالية بلا زوج Single ، وبطبيعة الحال كان ابنها عبد الرحمن - فى ذلك الوقت - قد بلغ مبلغ الرجال وأصبح لديها ابن راشد قد يعوضها عن ترمكها (بقائها بلا زوج) ، وعلى النحو نفسه فإن ابن السيدة شنب - البيك محمد شنب - قد لعب الدور نفسه بالنسبة لأمه السيدة شنب التى ظلت بلا زواج بعد موت البيك إبراهيم أبى شنب ، وربما كان بقاؤها بلا زوج يرجع لكونها بلغت مرحلة كبيرة من العمر فكان هذا أحد العوامل التى حالت بينها وبين الزواج ^(٢٣) ، وعلى أية حال فالمؤرخ الدمرداشى يعرض دليلا أعمق على أن الابن الذى بلغ مرحلة النضج يمكن أن يؤثر فى مصير أمه ، وقد لاحظ هذا الحولى - الدمرداشى - أنه عند موت البيك الإيواظى يوسف الجزار كان ابن البيك يوسف "خالى الإذار" فتلقى مملوك البيك التزامه وأخذ زوجته وتولى أمر منزله his house ^(٢٤) .

فالابن الأكبر والأخ الكبير قد يكون للواحد منهم امتياز (الحق المقصور عليه) تزويج الأم أو الأخت أو الإبقاء عليها دون زواج ، وباختصار فقبل اغتيال البيك إسماعيل بن إيواظ بفترة يسيرة رقى كخيا كتائب الجاويشية إلى بك ، ومن الظاهر أن هذه الترقية كانت تمهيداً لزواجه من هانم التى كان الراغبون فيها كثيرين ^(٢٥) ، وبعد ذلك بحوالى خمسة عشر عاما يذكر لنا الدمرداشى والجبرتى خبر زواج أم عبد الرحمن أمينة خاتون من الأغا سليمان الذى كان وقتها كخيا الجاويشية ، فى الوقت الذى كانت فيه الست شويكار تنتقل من يدى الكخيا سليمان إلى يدى الكخيا إبراهيم ^(٢٦) ، ويمكن للمرء أن يستنتج الكثير مما فعله عبد الرحمن لتزويج أمه من الأغا سليمان الذى كان حليفا وثيقا لعبد الرحمن ، وكان أداة لتأمين الميراث القازدغلى

له (لعبد الرحمن) ، وعلى أية حال فإن أمينة خاتون نفسها ربما قامت ببعض الترتيبات لإتمام هذا الزواج لصالح ابنها .

ولا شك أن إعادة تزويج عبد الرحمن لأمه أتى فى لحظة حاسمة بالنسبة له (لعبد الرحمن) : لقد حصل - أخيرا - على ميراثه بعد أن كان يعترضه طوال عدة سنوات تابعان من الأسرة ، وقد ازداد هذا الميراث بشكل أساسى بسبب مشروعات الكخيا عثمان التجارية ، ورغم هذا فإنه حتى هذا الوقت لم يصبح زعيما للزمرة ، بل كان فى الحقيقة محتاجا للحفاظ على ثروته وهويته السياسية من أن يهيمن عليها الكخيا إبراهيم ، ولهذه الأسباب - بلاشك - كَوْنُ علاقة (صلة) مع الأغا سليمان الذى أخذ على عاتقه الدخول إلى خيمة الكخيا سليمان المحتَضِرَ ليتأكد من ألا يحاول أحد آخر المطالبة بثروته ، فى هذا المثال - إذن - كانت أمينة خاتون أداة لـزواج تحالفى (تحالف قائم على الزواج) ثبت أنه ذو فائدة اقتصادية وسياسية لابنها الذى مات أبوه ، لقد كان زواجها منطويا على ثلاثة عناصر من روابط الزواج ، فمن خلال نظام "الزوجة الموروثة" ونظام الأم الرئيسة matriarch ، وثقت التحالفات لصالح عبد الرحمن .

وعلى أية حال لم يكن نظام "الزوجة الموروثة" أى التى "كانت تورث" دائما أداة ، بل قد يأخذ دورا واضحا فى تشكيل المصائر السياسية لزمريتها ، وأدى الزواج المتعاقب من النبلاء (أمراء) إلى اكتساب المرأة خبرة فى فن المؤامرات السياسية ، ذلك الفن الدقيق ، فعلى سبيل المثال نجد أن هانم بنت إيواظ المهيبة أصبحت أثناء زواجها الثالث شخصية سياسية مؤثرة ، فلم يكن يُنظر لها - بشكل محدد - كضحية - لا حول لها ولا قوة - لقدر غامض ، فعندما وجدت نفسها مع زوج جديد حملت طموحاتها على مجالات اهتمام زوجها السياسية ، وعندما وجد زوج هانم الثالث (الأغا صالح) فرصة لحكم ناحية المنصورة فى الدلتا ، ذكر الدمرداشى أنها قالت له "لقد أصبحت صنّجق بك وسأخذ على عاتقى حمايتك من كل افتخار" (٢٧) أى افتخار الفقارية خاصة البيك محمد قطامش الذى كان يميل إلى تدمير آخر القاسمية ، وقد قام صالح - أخيرا - بالتواطؤ مع الوالى العثمانى بالاشتراك فى اغتيال الزعماء الفقارية فى سنة ١٧٣٦م . ويمكن للمرء أن يكون متأكدا من أن هانم لعبت دور الليدى مكبث Macbeth فى هذه المؤامرة .

وهناك أمثلة أكثر جدارة بالانتباه إليها عن الفعل المستقل للأرملة ، ونعنى بذلك محظية الباشا على الذى حكم مصر من سنة ١٧٠٦ إلى ١٧٠٧ م . ومرة أخرى من سنة ١٧١٧ إلى ١٧٢٠ م . فنحن نذكر أن محظيته هذه انضمت إلى هانم بنت إيواظ والسيدة شنب فى محاولتهما الباكرة لإحباط خطط الفقارية وحلفائهم ، وعندما تم إعدام الباشا على بناء على أمر سلطانى فى سنة ١٧٢٠ اختارت جاريته (محظيته) أن تبقى فى القاهرة ضد رغبة ابنها فى العودة بها إلى إستانبول^(٢٨) ، وقد رفضت بالفعل أن تكون متاعا موروثا (زوجة مورثة heritable) ولا ندرى ما إذا كانت قد تزوجت أم لا ولا من أين كانت تتلقى الدعم عقب مغادرة سيد الأسرة ، ويشير لها الدمرداشى دائما ببساطة "محظية الباشا على" مما يجعل المرء يظن أنها لم تتزوج ، ونحن نعلم أن الباشا على دعم البيك إسماعيل بن إيواظ ، وربما كان هذا - فى الواقع - سبب إعدامه ، ولذا تعاطفت محظيته مع بقايا القاسمية ، وفيما عدا ذلك لا نعرف إلا القليل عن المكانة التى سعت لشغلها ، فلم يظهر أنها زبطت نفسها بزمرة أخرى وربما تكون السيدة شنب قد أوتها إلا أن عزلتها الظاهرة وافتقادها لحماية رجل لم يؤثر إلا قليلا فى منعها عن ممارسة النشاط السياسى .

وربما كانت محظية الباشا على استثناء من قاعدة المحظية أو الزوجة التى تورث ، فحقيقة أن قابليتها للتوريث كانت تطلب ترحيلها ، ربما أسهمت فى قدرتها على أن تبقى مستقلة ، وعلى أية حال فيبدو أنه من المعتاد أن تكون القابلية للتوريث (المقصود قابلية المرأة للتوريث) كانت مصاحبة لنشاط سياسى أكثر منها حائلة أو مانعة له ، وحتى آخر الأرامل المهمة فى مصر قبل القرن التاسع عشر - ونعنى بها الست - نفيسة حازت نفوذها السياسى بسبب أنها كانت مورثة ، لقد ترملت تباعا مثلها فى ذلك مثل هانم بنت إيواظ ، وكانت - مثلها - تتزوج بعد كل ترمل ، وكان زوجها الأول هو البيك الشهير بلوط قابان على (على بيك الكبير) وعند اغتياله فى سنة ١٧٧٣ تزوجت البيك مراد مملوك مملوك البيك على - محمد أبو الذهب^(٢٩) ، وكانت مثل زوجة البيك مراد الذين فروا للصعيد فى بداية الحملة الفرنسية ، وهناك عدد من الوقائع ذكرها الجبرتى تفيد أن الفرنسيين اعترفوا بها كممثلة لمراد فى القاهرة ، وعندما صادر الفرنسيون منزل شيخ الأزهر البارز القدير الذى اعترض بعنف على الاحتلال الفرنسى ، اشتكى من

مخبئه للست نفيسة التي نقلت شكواه للبيك مراد فى الصعيد (٢٠) ، وبعد عقد اتفاق سلام مع مراد ومنحه إمارة الصعيد دفع الفرنسيون للست نفيسة معاشا شهريا مقداره ١٠٠,٠٠٠ بارا (عملة فضيَّة مصرية) وتمت زيادة هذا المبلغ إلى ١٤٠,٠٠٠ بعد موت مراد فى سنة ١٨٠١م ، بل إنه بعد موت مراد انتقلت الست نفيسة إلى أحد مماليكه وأذعن الفرنسيون لهذا الطقس الذى كان محترما فى ذلك الوقت (٢١) ، لقد ظلت السيدة نفيسة كما تؤكد هذه النهاية فقد كان ادعاء زعامة زمرة مراد دون الزواج من أرملته ذات المكانة أمر لا يمكن التفكير فيه ، لقد كانت الست نفيسة عنصرا ضروريا لسلطة النبيل القائد .

وبشكل عام فإن قيمة الزوجة المورثة (بتشديد الرء وفتحها) مثلها مثل المتاع ذى القيمة للأسرة المترفة تزداد قيمتها بمرور الوقت : فالتزوج من أشخاص بارزين سياسيا يزيد من فطنتها السياسية ، وهذه الفطنة - من ناحية أخرى - تجعلها شيئا ثمينا بالنسبة لاتباع زوجها المتوفى ، وهذا يعنى أن زوجة الأمير كانت بمعنى من المعانى ذات دور سياسى ، فرغم أنها من بعض النواحي "بضاعة" أو "شئ" إلا أن هذا لم يكن يعنى أنها سلبية أو لا صوت لها ، فدور المرأة المورثة "بتشديد الرء وفتحها " المرأة الرئيسة أو الزعيمة matriarch أو السيدة الأولى لم يكونا بالضرورة متناقضين ، فكثير من النسوة وجدن أنفسهن يقمن بالدورين معا .

خاتمة

لقد كانت نخبة النساء فى مصر من خلال مواقعهن كزوجات أو محظيات أو - فى بعض الحالات - أخوات أو بنات ، قادرات على الإسهام بشكل فعال فى استمرار الزمرة التى تشبه كثيرا شراء الممالك أو تجنيد المرتزقة ، حقيقة لقد كانت الزمرة هى الميدان الذى لا مفر منه لنشاط نخبة النساء - تماما كما هى بالنسبة للرجال ، بل إن هناك من الأدلة ما يشير إلى أنها أكثر أهمية لعمليات المرأة ؛ لأن المرأة ليست كالرجل إذ لا يتاح لها مغادرة البيت لفترات ممتدة ، ومع هذا فلم تكن النساء حبيسات بيوتهن بل كن يتمتعن بقدر من حرية الحركة داخل أحياء النخبة فى القاهرة ، وكان من

الشائع أن تتزاور النسوة فى المنازل ، فقد كانت السيدة شنب ومحظية الباشا على تزوران هانم بنت إيواظ ، وكن يحبكن المناورات السياسية خلال هذه الزيارات ، وعلى أية حال وفى أوقات الأزمات كان الرجال عُرضه للهروب من منازلهم بينما تبقى الزوجات والمحظيات ، لذا فقد كن بهذا المعنى مرسى الزمرة وركيزتها ، وكانت ست البيت والمهيمنة على مقر الإقامة (المعروف باسم الحريم) مركزاً لاستقرار نسبي داخل الزمرة ، وبشكل أكثر عمومية كان "الحريم" (مقر الحريم فى الدار) يمثل استقراراً نسبياً وسط مجتمع مضطرب ومتغير ، فهنا - أى فى الحريم - قد يتردد المغتصب القوى فى الدخول إليه على الأقل ، وهنا قد يخبئ عدوه المقهور ثروته على أمل أن يعود فى أيام أفضل ، وهنا قد يختبئ بالفعل ليهرب من نقمة عدوه ، وعلى هذا فنسوة الزمرة لم يكن مجرد كماليات (اكسسوار) لسلطة الزمرة ومكانتها ودوامها ، وإنما كن عناصر حيوية لتحقيق كل هذا .

لقد تنامت وظيفة النساء بشكل أكثر وضوحاً كلما ضعفت السلطة المركزية فى مصر خلال القرن الثامن عشر ، وكما أصبحت الفرقتين الفقارية والقاسمية بمثابة زى عتيق (مودة انتهى أوانها) فإن نسوة الزمر التى كانت ضمن هاتين الفرقتين (القاسمية والفقارية) حافظن على شىء من مظاهر الولاءات التقليدية ، وكن فى الوقت نفسه يحرسن ثروة الزمرة أثناء التغير الدائم للتحالفات ، وقد أتاح رجحان كفة الزمرة القازدغلية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بعض الأمل فى الاستقرار ، رغم أن القازدغلية راحوا يتنافسون فيما بينهم للوصول للزعامة ، وهم يؤكدون استقلالهم النسبى عن الحكومة المركزية (فى إستانبول) ، وكما تحصل أمراء أفراد على المزيد من الثروة والمزيد من السلطة أخذت زوجاتهم وضع رئيسات النساء إلى جوار زعماء الرجال (أزواجهن) ، وعندما كان الزوج يواجه تحدياً سواء من داخل الزمرة أو من خارجها كانت الزوجة تتحمل مسئولية المحافظة على الثروة وتماسك الزمرة ، وقد حدث هذا فى كثير من الزمر .

وفى مجتمع كانت السلطة السياسية فيه متمركزة فى زمر فقد كان الزواج أحد الأشكال الطبيعية للتحالف أو الاندماج ، فالزوجة فى النخبة لم تكن أم وريثة زوجها وأخلافه فحسب وإنما كانت أيضاً حليفته وشريكته ووكيلته خاصة أيام الأزمات ، وعلى

هذا فبينما كانت الزوجة شريكة زوجها فى مكانته السياسية والاقتصادية فإنها كانت تستطيع أيضا أن تساهم فيها ، وغالبا ما كانت مساهمتها جوهرية ، حقيقة إن الحنكة فى زيجة أو أكثر تؤدي إلى خبرة سياسية كبيرة ، بل - نمطيا - تؤدي أيضا إلى ثروة كبيرة للزوج الجديد ، لقد كان الزواج يتم التخطيط له مع توقّع أن تستطيع الزوجة أن تحقق بعض المنافع السياسية ، لقد كان زواج المرأة أساسا تبنى عليه نشاطها السياسى ، وباختصار فلم يكن التفويض السياسى للنساء مسألة غير متوقعة فى زواج النخبة وإنما كان ملمحاً أساسياً لهذا الزواج ، ومن هنا - إذن - فإن نسوة مثل أمينة خاتون والست شويكار والست نفيسة كنّ نوات أهمية لازدهار الزمرة القازدغلية كنتظرائهن الرجال رغم أن الآخرين أكثر شهرة .

الهوامش

(١) انظر :

Edouard de Zambaur, Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam (Hanover, 1927) PP.164,167

استخدمت زوجة حسن باشا نفوذها مع أخيها لإعادة حسن باشا إلى إستانبول بعد توليته للمرة الثانية :
انظر : الدمرداشي ، درة ، ص ص ٢٣١ - ٤٣١ . والمثال الأشهر لهذا النوع من الزواج ربما كان زواج
محرمة سلطان ابنة سليمان الأول (١٥٢٠ - ١٥٦٦) من رستم باشا ، الذي أصبح صدرا أعظم (رئيساً
للوزراء) بعد زواجه بخمس سنوات . انظر :

Peirce, The Imperial Harem, pp. 72, 76-7 .

(٢) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية) (205 r - 204v) أخبار النواب (Fo 34 r) .
أحمد شلبي ، زوده ، ص ١٧١ ، في أواخر القرن ١٨ راحت أسرة الكبرى من الإشراف تحتكر هذا المنصب .
(٣) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ١٥٨ . يذكر الجبرتي أن العريس الجديد وإخوته كانوا ممالك
عتقاء للأغا قزلار بشير (بشير كبير الخصيان) ، وربما كان الخصي المقصود هو الأغا مورالي بشير الذي
شغل منصبه من ١٧٤٦ إلى ١٧٥٢م بعد الحاج بشير الذي عاش عمرا مديدا ، ومن المعقول أن يكون الإخوة
تركوا إستانبول بعد إعدام مورالي بشير .

(٤) عن إسماعيل بك ، انظر : الجبرتي ، عجائب ، مج ، ص ٦٩١ وانظر أيضا :

Cerecelius , Roots of modern Egypt, p. 45.

وعن (أبي الذهب) انظر :

Cerecelius ,Roots of modern Egypt . pp. 49 - 50.

والمصادر الواردة في حاشية ٢٢ .

(٥) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٥٢ .

(٦) الدمرداشي ، درة ، ص ٢١٣ .

Muhimme- i Misir, vol I ,nos ,410, 412 (1127/1715).

(٧) الدمرداشي ، درة ، ص ٤٧٠ .

(٨) أحمد شلبي ، أوده ، ص ٤٨٠ .

(٩) الدمرداشي ، درة ، ص ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

- (١٠) نفسه ، ص ٢٥١ .
- (١١) نفسه ، ص ٤٢٢ .
- (١٢) نفسه ، ص ٢٨٢-٤ .
- (١٣) اغتيال إيواظ بيك في سنة ١٧١١م حدث هام في تاريخ نبلاء (أمراء) مصر العثمانية ، انظر الدمرداشي درة . ص ص ١٥٤ - ١٥٦ . أحمد شلبي ، أوده ، ص ٢٣٠ . الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ١١٩ - ١٢٢ ، عبد الكريم ، تاريخ مصر (١٢٨٢ - ١٤٦٠) .
- (١٤) كان زوجها هو يوسف بك زوج هانم Zawj Hanim الذي سمي بعد ذلك يوسف بك الخائن بعد تحالفه مع شركس محمد بيك . انظر : الدمرداشي ، درة ، ص ٣٢١ والمتأمران الآخران هما : يوسف بك الشرايبي ، والأغا الانكشاري السابق سليمان أبو دقية .
- (١٥) الدمرداشي ، درة ، ص ٣٧٧
- (١٦) انظر حاشية ١٢ ، الدمرداشي درة ، ٢٢٥ - ٦ ، ٢٦٤ . الجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ص ٢٧٦ ، ١٤٦ - ١٤٧ ، ٣٠١ - ٣٠٢
- (١٧) الكلمة غز Ghuzz شاع استخدامها للدلالة على العسكريين في مصر وهي مشتقة من الكلمة أوغز Oghuz وتعني كونفدرالية تركية يعود إليها أصل العثمانيين . الدمرداشي ، درة ، ص ٣٧٨ .
- (18) Crecelius "Russia" Relations With the Mamluk Beys of Egypt in the 18th Century
- (١٩) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢٣ ص ٢٤٤ .
- (20) Al-Jabarti, "Journal d'un notable du Caire durant", Expedition francaise 1798-1801 . trans, Joseph Cuog (Paris 1979) pp. 41-42,56
- (٢١) الدمرداش ، درة ، ص ٤٨٣ . منزل كبير الخصيان السود الأغا يوسف (١٦٧١ - ١٦٨٧) في سويقة عصفور .
- (٢٢) الدمرداش ، درة ، ص ص ٤٣٧ ، ٥٦٦ .
- (٢٣) وفقا لما ذكره الجبرتي (عجائب ، مج ١ ، ص ٢٧٦) كان عمر إبراهيم بك أبي شنب ٩٢ سنة عند موته في سنة ١٧١٨م . وليس لدينا معلومات عن عمر زوجته .
- (٢٤) الدمرداش ، درة ، ص ٢٦٣ .
- (٢٥) نفسه ، ص ٢٣٩ .
- (٢٦) نفسه ، ص ٤٣٧ . الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ١٣٠ .
- (٢٧) الدمرداش ، درة ، ص ٤١٤ .
- (٢٨) نفسه ، ص ٢٥٦ .
- (٢٩) زوجة مراد الأولى هي أرملة صالح بك أحد بقايا القاسمية وعدو على بيك الكبير (بلوط قابان) . عن حياة مراد وموته انظر :

Al-Jabarti , Journal ... op .ei t p 327

(30) Al Jabarti , Ibid , p. 238

أرسل مراد كاشفا من زمرة للتوسط لدى الفرنسيين لإعادة منزله إليه .

(31) Al-Jabarti , Ibid , pp. 308 , 315 , 350

الفصل السابع

الممتلكات والمشاركة التجارية

لا يستلزم تكوين الزمرة مجرد تجميع الأتباع ، وعقد التحالفات بالزواج وغير ذلك من وسائل تكوين الروابط ، وإنما يكون ذلك أيضاً بتجميع الثروة الكافية لموازرة الأتباع والزوجات والأبناء ولتكون - أى هذه الثروة - ميراثاً يرثونه ، ومن هنا كان الاهتمام الأساسى للأمير الداهية هو تأمين مصدر دائم للدخل ، وقد يتمثل هذا المصدر الدائم من حقوق جمع الضرائب فى كل من المدن والريف ، أو من إيجارات الممتلكات أو من الاستثمار فى التجارة ، وكانت الثروة الرمزية للزمرة ممثلة فى المساجد والأسبلة التى فُوض زعيم الزمرة بإقامتها ، أو المقر أو القصر الذى تجتمع فيه الزمرة لتقرير خططها ومشروعاتها لتوسيع مجالات اهتماماتها ونفوذها ، هذا المقر أو القصر هو الأكثر أهمية من المآثر الأخرى ، إن مثل هذه الإنشاءات تُعلن عن وجود الزمرة وتُسهم فى إعطاء أعضائها روح التماسك ، كما تُعطيهم هُوية خاصة .

المنزل house (البيت) :

ربما كان المنزل house (البيت) الذى كانت تستخدمه الزمرة مقراً هو أكثر العناصر بروزاً وأهمية ، حقيقة لقد كان شراء أو بناء المقر الفخيم يعكس مدى ثروة زعيم الزمرة ومكانته ومدى استقلاله ، وكان زعماء الزمر ذوو الوضعيات الأقل نسبياً - مثل ضباط الأوجاقات الأدنى رتبة يميلون إلى استخدام تكناتهم فى قلعة القاهرة كمقار لزمريهم بينما كانوا ربما يحتفظون بمنازل أكثر تواضعاً لإقامة أسرهم فى الأحياء المجاورة ، وكان الضابط الإنكشارى لا يحصل - بشكل نمطى أو تقليدى -

على مقر أساسى إلا بعد حصوله على رتبة جاويش ، أما ضابط كتائب العزبان فلا يحصل على مثل هذا المقر إلا بعد حصوله على رتبة شوربجى ، وفى هذه الأثناء كان النبيل غير المنتمى للأوجاقات (الفرق العسكرية) يُرقى تلقائياً إلى البكوية قبل أن يحصل على مثل هذا المنزل house (البيت) ^(١) ، وعلى هذا فيمكن للمرء أن يستنتج أن راتب الضابط الأدنى رتبة بالإضافة إلى المبالغ الأخرى التى كان يتحصل عليها لم تكن تكفى لشراء بيت أو بناءه ، غالباً أصبح البيت house مرتبطاً برتبة بعينها يمكن لأحد الأتباع أن يطالب بها إذا مات رئيس الزمرة ، فعند موت الزعيم يطالب التابع بالبيت والرتبة معاً ، وكان هذا الإجراء جزءاً من عملية تولّى أحد الأتباع للزعامة بعد موت راعيه .

ومن الناحية النمطية كان البيت الذى يُتخذ مقراً للزمرة واسعاً يضم أجنحة رحبة لزعيم الزمرة وحاشيته ومساعديه ، وكانت قاعة الاستقبال جزءاً أساسياً منه ، ففيها كان زعيم الزمرة يستقبل ضيوفه ويتناقش مع حلفائه ، ومع أعضاء الإدارة العثمانية ، وكانت صالات الاستقبال فى منازل أكثر نبلاء مصر نفوذاً تأخذ الواحدة منها شكل قاعات الاجتماعات الموسمية ؛ إذ كان البيت مفتوحاً لكل الناس ، لذا فقد كان يُعرف بالبيت المفتوح وهو مؤسسة لم تعرفها مصر قبل الفتح العثمانى بهذا المعنى ^(٢) ، وكانت الاجتماعات التى تعقد فى هذه البيوت " المفتوحة " تضارع " ديوان " الوالى العثمانى فى القلعة ، وبحلول نهاية القرن الثامن عشر بدأت هذه البيوت المفتوحة تحل محل " ديوان الوالى " كمحور أو مركز للسلطة السياسية ، وعلى هذا فإن بيت (منزل) شيخ البلد - وهو البيك الذى تم الاعتراف به بحلول منتصف القرن الثامن عشر زعيم نبلاء (أمراء) القاهرة - حل محل القلعة كمركز للنشاط السياسى فى القاهرة ^(٣) ، وقد شاركت زوجات شيخ البلد ومحظياته وبناته فى هذه التركيبة السياسية ، بل أن هذا ينطبق على بيت (منزل) كل زعيم بارز ، ورغم أن النسوة ومن معهن من خادومات ووصيفات كن يقمن فى جناح الحريم ، فإن هذا لم يمنع من أن يكون هذا الجناح هو فى حد ذاته قاعدة السلطة a base of power ، والحقيقة أنه كان يمكن اعتباره زمرة نسائية موازية (لزمرة الرجال) ، وكانت زوجة - أو زوجات - الزعيم على رأس هذه الزمرة (النسائية) ، وكانت جزءاً متمماً لسلطة الزمرة ككل ، وعلى هذا فالجبرتنى يشير إلى الأعضاء من النسوة فى زمرة البيك مراد باسم أتباع الست نفيسة الجلييلة

(الزوجة الأولى لبلوط قابان على بك ، والتي تزوجها بعد ذلك البيك مراد) (٤) .
وبحلول منتصف القرن الثامن عشر أصبح واضحاً أنه لم يعد من الشائع أن تقيم
نسوة الزمر الثرية في منزل منفصل ، ويلاحظ الدمرداشي أن عبد الله أفندي الذي
شغل منصب الروزنامجي (الأمين على سجلات الخزانة) كان لديه منزل للحريم تقيم
فيه نسوة زمرة (٥) ، وكانت فكرة منزل الحريم عند القازدغلية المتأخرين زمناً قد
تطورت ليصبح هناك مقر منفصل لكل مجموعة من نساء الزمرة ذوات الوضع
القيادي ، ويذكر الجبرتي أن ابنة الكخيا إبراهيم القازدغلي عندما تزوجت الأغا أحمد
البارودي انتقل الزوجان إلى منزل الكخيا إبراهيم الشهير خارج باب سعادة وباب
الخرج غرب باب زويلة (٦) ، وفي وقت لاحق روى لنا هذا المؤرخ أخبار زيارة قام بها
مع الشاعر إسماعيل الخشاب لبيت أم البيك مرزوق زوجة البيك إبراهيم الكبير في حي
عابدين جنوب الأزبكية (٧) ، وكان ابن إبراهيم (البيك مرزوق) قد نشأ نشأة تشبه
كثيراً نشأة أبناء السلاطين العثمانيين وقضى فترة في العقد العتيق (ساراي عتيق)
الذي يقع على مسافة غير بعيدة من قصر طوبقابي السلطاني (٨) .

والأدلة تشير إلى أهمية موقع هذا المنزل وراحته وما به من وسائل الراحة
والرفاهية ، وكان منزل جد القازدغلية الأغا حسن بلفية يقع خارج باب زويلة مباشرة
وهو البوابة الجنوبية للقاهرة الفاطمية الأصلية (٩) ، وكان هذا هو الموقع الذي يقيم فيه
كثير من الحرفيين بمن في ذلك الجنود العثمانيون الذين اكتسبوا طابعاً محلياً (الذين
توطنوا Localized) (١٠) وامتلكوا محلات ، وحيث كانت تظهر احتجاجات حضرية
urban بشكل متتابع ، وأخذ كثير من الجنود العثمانيين ممن كانوا من أصحاب الحرف
منازل ومحلات - أيضاً - في المناطق القريبة من الجامع الأزهر وخان الخليلي (سوق
القاهرة الرئيسي) (١١) ، لكن إلى الأبعد شمالاً كانت هناك عدة وكالات كبيرة (الوكالة
تضم مخازن للبضائع) منها وكالات اللبن وأخرى للكتان كانت قد أسسها في أواخر
القرن السابع عشر الأغا عباس (كبير الخصيان السود) (١٢) ، وبالإضافة لهذا فإن
الوالي (ليس المقصود الباشا العثماني وإنما السوباشي التركي Subasi أي رئيس
بوليس القاهرة) الذي كان يتم اختياره من بين الضباط الإنكشارية - كان هذا
السوباشي قد تمركز مع رجاله خارج باب زويلة (١٣) ، وعلى هذا فقد كانت البقعة
ذات موقع جيد لمن يريد المشاركة في أكثر قطاعات القاهرة نشاطاً من الناحية التجارية ،

ولن يريد قيادة أعمال الأمن (البوليس) ، ولم يكن من المعتاد أن يقيم ضباط الأوجاقات في هذه الضواحي في القرن السابع عشر ، عندما كان الأغا حسن يشغل منزله ، وكان نبلاء العصر من نوى النفوذ وكذلك الخصيان السود المنفيون من القصور يتركزون في بركة الفيل جنوب القاهرة^(١٤) ، ولا شك أن الأغا حسن قد رأى ميزات تجارية وسياسية في هذه البقعة فأقام منزله بها .

وخلال القرن الثامن عشر تحركت صُرة (بؤرة) إقامة النخبة شيئاً فشيئاً وياضطراد ناحية الغرب ، وحذا القازدغلية الحذو نفسه بنقل منازلهم ، فالكخيا عثمان القازدغلي كان - فيما يبدو - أول زعيم قازدغلي يبنى منزلاً على شاطئ بركة الأزيكية ، فكان ذلك سنة أخذ بها معظم أخلافه ، والحقيقة أن الأزيكية بحلول النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت قد أصبحت - على نحو ما - بحيرة قازدغلية ؛ إذ كان يحيط بها نبلاء (أمراء) القازدغلية وحلفاؤهم^(١٥) ، وربما كان أشهر مجمع سكنى في الأزيكية هو القصر الفسيح للبيك محمد الألفى ، مملوك البيك مراد (مراد بك) الذى كان شخصية فعالة في نهاية القرن الثامن عشر ، وقد أصبح القصر كما هو معروف مقر بونابرت خلال الاحتلال الفرنسى لمصر^(١٦) .

والاستثناء الجدير بالملاحظة هو أن منزل الكخيا سليمان الشوهادار الذى خلف الكخيا عثمان ، ولم يعمر - أى سليمان هذا - طويلاً ، قد أقام فى حي اليهود القديم فى قلب القاهرة إلى الشمال الغربى من باب زويلة^(١٧) ، لكن كون الكخيا سليمان قضى معظم عمره كوكيل تجارى لراعيه الكخيا عثمان فإن هذا يعطى لموقع منزله معنى ، وربما كان معظم زعماء الزمر يتركزون وكلاء تجاريين لهم فى مراكز (مناطق) على النحو الأنف ذكره حيث يزدهر النشاط التجارى دون أن يقيموا هم أنفسهم فى هذه المراكز (المقار) ، وحقيقة كونهم يؤسسون منازلهم فى أماكن بعيدة نسبياً عن هذه الأحياء لا يعنى عدم انخراطهم فى النشاط التجارى ، وإنما - كما تشير كل الاحتمالات - رغبة منهم فى البعد عن التجار والحرفيين الذين كثيراً ما يقومون بحركات عصيان ، وبذلك يضمنون لأنفسهم الأمن ببعدهم هذا^(١٨) ، فجموع العصاة الراغبين فى المسير من باب زويلة إلى منزل الأمير فى الأزيكية لتقديم مطالبهم لابد أن تكون جموعاً متورطة ففى الوقت الذى تصل فيه إلى منزل الأمير يكون حماسها قد برد^(١٩) .

وقلما كان الأمير يقيم منشأة دينية (مسجداً مثلاً) فى المنطقة المحيطة بمقر إقامته الشخصى ، ورغم أن كثيراً من منازل (بيوت) النبلاء كانت فخيمة متسعة ، ومفتوحة - بدرجات مختلفة - للعامة فقد كانت هناك أحياء مقصورة فى الأساس على الأمراء وأتباعهم وأولادهم وزوجاتهم ومحظياتهم وخدمهم ، والاستثناء من هذه القاعدة كان المجمع السكنى للكخيا عثمان القازدغلى فى الأزبكية ؛ إذ كان يضم بالإضافة إلى مقر الكخيا عثمان مسجداً وسبيل ماء وحماماً وساقية وكان يضم أيضاً محلات تجارية (٢٠) ، وكان الكخيا عثمان أول زعيم قازدغلى يؤسس زمرة يُحسب لها حساب إذ لم تعد زمرته مجرد زمرة فى ظل الجدك the Gedik أو الزمرة البلفية ، بالإضافة إلى أنه كان أول قازدغلى يقيم فى الأزبكية ، لذا فربما كان مجمعه الخيرى والتعليمى قد وُظف لخدمة الزمرة القازدغلية ليكون لها حضور رائد فى الأزبكية فى الوقت نفسه تُكسبه تأييداً ودعمًا بين المقيمين فى الأحياء المجاورة التى تستفيد من الخدمات التى يقدمها هذا المجمع الخيرى ، كما كان هذا المسجد والمدرسة الملحقه به يسهمان فى تقديم التعليم الدينى لأتباع عثمان خاصة بالنسبة للمالِكِ المجلوبين من بلاد الكُفر (٢١) .

وبينما كان المنزل - بلا جدال - هو المقر السياسى فقد كان من الممكن أن يكون أيضاً حصناً عسكرياً ؛ إذ كان هدفاً واضحاً لأعداء زعيم الزمرة بمن فى ذلك الباشا العثمانى ، فقد كان المنزل بمثابة رمز رئيسى لسلطة الزمرة وقوتها ، ففى أثناء سلسلة الاضطرابات الطويلة التى أعقبت الحرب الأهلية فى سنة ١٧١١م . راحت الزمرتان المتنافستان (الفقارية والقاسمية) تناضل كل منهما للسيطرة على منازل نبلاء الفرقة الأخرى تماماً كما تناضل الجيوش فى المعركة للسيطرة على التلال الاستراتيجية ، ويصف الدمرداشى كيف أن حلفاء الزعيم الفقارى البيك أيوب عملوا على اجتياح الوالى (الباشا العثمانى) وحلفائه القاسميين باستخدام نفق أرضى يربط منزل أيوب بمنزل حليفه الأغا عمر بلفية (٢٢) ، وعلى النحو نفسه كان من الممكن تحويل المنزل إلى حصن بوضع مدفع فوق السطح ومرتكزات للبنادق فى الشبَابِيك ، وإذا هُزم رأس الزمرة أصبح بيته غنيمه لأعدائه ، وكان إجراءً نمطياً أن يقوم المنتصرون بسلب منزل المهزوم أو هدمه أو إحراقه (٢٣) ، والسبب نفسه كان الأمير الذى تسخط عليه الحكومة

العثمانية المركزية يتوقع أن تقوم قوات الوالى بتدمير بيته ، وفى ذروة هذه الاضطرابات
الآنف ذكرها نفذت قوات الباشا العثمانى أمراً بإعدام الزعيم الفقارى البيك قايطاس ،
وبعدها أغلقوا منزله وقطعوا بالفؤوس شجرة توت عتيقة لها من العمر خمسمئة عام فى
حديقة المنزل ، كان الزعيم الفقارى يعقد تحتها اجتماعات ديوانه (٢٤) .

وبالإضافة لكون المجمع السكنى مركزاً لنفوذ الزمرة وسلطانها فقد كان يضم
أيضاً جانباً كبيراً من الثروة المادية ممثلة فى الأثاث والسجاجيد والأطباق والجواهر
بالإضافة للخيول والمواشى ، ووصف الدمرداشى لمحتويات منزل البيك إسماعيل
بن إيواظ الذى تعرض للاغتيال يظهر لنا أنه كان يضم " أقمشة هندية وعنبر ولؤلؤ
وأطباق صينى وأخرى من البورسلين ونقود ومؤن وأطقم للخيل ودروع " (٢٥) . ولم يكن
رأس الزمرة غيبياً لدرجة أنه يحفظ كل ثروته فى مجمعه السكنى ؛ إذ كان النبلاء
وغيرهم من ذوى الحيثية - كعلماء الدين مثلاً - عادة ما يكون للواحد منهم منزل
صغير فى الأحياء الأفقر كالحسينية - خارج باب الفتوح - يخبئ فيه قدراً من
ثروته (٢٦) ، وكان من الممكن استخدام جناح الحريم فى المنزل للغرض نفسه ،
فالجماعة التى نهبت المنزل الذى كان يعيش فيه عبد الله أفندى الروزنامجى تركت
جناح الحريم دون أن تمسه وزعمت أنها قد نهبت المنزل تماماً (٢٧) ، رغم أنهم كانوا
على وعى بما هو موجود فى هذا الجناح ، وفى وقت لاحق نجد فى حوليات
الدمرداشى أن الكخيا حسن الرزاز (حامى الكخيا رضوان الجلفى) يصرح أنه
يحفظ أمواله فى جناح حريمه ولا يثق فى غير ذلك (٢٨) ، فما دامت الشريعة الإسلامية
تقرر أن الممتلكات التى تخص زوجة الزعيم تبقى فى ملكيتها فقد كان وجود الثروة مع
النساء أكثر أماناً ، بالإضافة إلى أن النساء أقل عرضة للهجوم من الرجال كما بينت
فى فصل سابق ، لكل هذا كان للنساء دور هام فى المحافظة على ثروة الزمرة .

الالتزام :

رغم أن المنزل كان جزءاً من الثروة (الممتلكات) التى تقوم عليها الزمرة
بالإضافة لكونه رمزاً لسلطانها ونفوذها إلا أنه لم يكن فى حد ذاته مصدراً للدخل ، لذا

فقد عمدت الزمر لتأمين دخولها (جمع دخل) من السيطرة على مصادر الدخل الأساسية ومن النشاط التجارى ، فكلما تكاثرت الالتزامات خلال القرن السابع عشر أصبحت استثمارات مربحة للزمر ، فالالتزامات لم تكن تشمل فقط الضرائب المفروضة على القرى والمناطق الريفية فقط ، وإنما كانت تشمل أيضاً الرسوم المفروضة على العمليات التجارية فى الحضر مثل : الجمارك ورسوم العبور (المكوس) ، وخلال القرن السابع عشر راح ضباط الأوجاقات يفضلون الالتزامات الحضرية (بفتح الحاء والضاد) بينما فضل البكوات الالتزامات الزراعية بالإضافة لحكم الجهات والنواحي (الولايات الداخلية) ، وعلى أية حال فبحلول القرن الثامن عشر انضم الضباط إلى فئة الملتزمين ، وهو تطور أدى بهم إلى التطلع إلى مزارع الريف فى الولايات الفرعية وأدى هذا أخيراً إلى تغلغلهم فى البكرية (مؤسسة البكوية) (٢٩) .

وكانت أكثر الالتزامات الزراعية جذباً هى التزامات القرى المنتجة للحبوب المرتبطة بالأوقاف العثمانية على المدينتين المقدستين : مكة والمدينة (أوقاف الحرمين) إذ كان يمكن للملتزم أن يجمع الفائض Surplus revenue لنفسه ، ذلك الفائض المتمثل فى المتبقى بعد وفاء القرية بالقدر المعلوم المخصص لها لإرساله لمكة والمدينة ، وتشير كل الظواهر إلى أن النبلاء حاولوا تباعاً الحصول على مجموعة من قرى الوقف فى إقليم بعينه مما يتيح ممارسة سلطة فعالة على الإقليم (٣٠) ، ومثال زمرة البلفية يعيد أن مثل هذه الالتزامات كانت بمثابة ملك يورث ، وكان يمكن أن تكون أساساً للثروة الأساسية للزمرة ، وكان الأغا حسن بلفية مؤسس الزمرة ملتزماً لفترة طويلة لبلفية وهى قرية موقوفة فى ولاية البهنسا بصعيد مصر ، ولا ندرى ما إذا كان الأغا حسن نفسه قد عمل على إضافة التزامات أخرى إلى جانب التزام بلفية فى الإقليم نفسه أم لا ، فإن كان فعل ذلك على وعى بالأمور المالية ، لكن المؤكد أن مملوكه ونعنى به البيك مصطفى بلفية قد تسلم التزام بلفية عند موت حسن فى سنة ١٧٠٤م . ومد سلطان الزمرة البلفية فى الإقليم ، وصدر مرسوم عثمانى (فرمان) فى سنة ١٧٣٣م . يخوله حق الإدارة الذاتية Serbestiyer على مجموعة من قرى الوقف فى البهنسا (٣١) ، هذا المخزون فى صعيد مصر لم يقدم للزمرة البلفية مصدراً آمناً للدخل فحسب وإنما قدم لها أيضاً معقلاً فى الإقليم كان يمكن لأفرادها أن يلجأوا إليه وقت الأزمات ، فعندما

غزا بونابرت مصر فى سنة ١٧٩٨م . فر القازدغلية أخلاف البلفية إلى هناك ، وحاول البيك مراد الانتظار - حتى يحين الوقت المناسب - فى قرية الفشن التى كانت جزءاً من مناطق نفوذ البلفية (٣٢) .

لقد كان نبلاء الزمرة ، بل وكل أفرادها حقيقة يدعون - بالاسم - لتولى الالتزامات التى هى أساس ثرواتهم ، بل هى المصدر الأكيد لدخل الزمرة ، وبالإضافة إلى الزمرة البلفية تقدم لنا الحوليات أمثلة أخرى من الزمرة الجلفية التى يظهر أنها اتخذت اسمها نسبة لقرية سنجلف Sinjalf فى المنوفية ، والبيك عبد الرحمن دلجة Dalja ملتزم قرية دلجة فى الأشمونين (٣٣) ، وكان حكام ولاية جرجا المتميزة فى صعيد مصر يحمل الواحد منهم عادة لقب جرجا ، وربما كان أشهر هؤلاء هو البيك محمد جرجا الذى تمرد ضد الوالى العثمانى فى سنة ١٦٥٩م (٣٤) .

الأنشطة التجارية

حتى الزمر التى تحصل على ثروتها الأساسية نتيجة توليها الالتزامات كانت تستثمر أموالها على نطاق واسع فى الأنشطة التجارية بالإضافة لتوليها الالتزامات أو كعمل مرتبط بها (أى مرتبط بهذه الالتزامات) ، وغالباً ما كانت أرباح العمليات التجارية تسمح لزعيم الزمرة أن يبدأ فى تولي الالتزامات وأن يبدأ فى إقامة منزل مُتَرَف وشراء الممالك ، واستئجار المرتزقة ، والحراس الشخصيين (البودى جارد) والخدم ، وفى بواكير القرن الثامن عشر كان عدد من الزمر التى أخذت الصدارة ، كان مؤسسوها قد انخرطوا فى نوع بعينه من التجارة ، ثم استخدموا الثروة التى جمعوها فى عقد تحالفات استراتيجية ليصعدوا سلم النفوذ ، وغالباً ما يظل الاسم الدال على المهنة باقياً كشاهد على أصل الزمرة ، فمؤسس الزمرة الصابونجية Sabonci التى سادت فرقة (أوجاق) العزبان فى العقدين الأول والثانى من القرن الثامن عشر (١٧١٠ - ١٧١٩م) ، (١٧٢٠ - ١٧٢٩م) لابد أنه - فى وقت من الأوقات - كان صانع صابون ، بينما كانت عشيرة الماناف Manav التى ظهرت بين الصين والحين (بشكل متقطع) فى سجلات الرواتب وفى الحوليات أثناء الفترة

نفسها قد عمل أفرادها في وقت من الأوقاف كفكهانية (فالكلمة ماناف في التركية تعنى الفكهاني أو الفاكهي) ، وزمرة الفلاح تُعد زمرة أكثر توثيقاً فقد سُميت بزمرة الفلاح نسبة للحاج صالح الفلاح الذي كان فلاحاً مصرياً يتيماً جمع ثروة وكون نفوذاً بعد التحاقه بزمرة الكخيا على الجلفى ، وقد ضمن أخلافه استمرار ثرواتهم ونفوذهم بربط أنفسهم بالقازدغلية (٣٥) .

وكان للتجارة أو الحرفة الضرورية لتأسيس الزمرة وضمان مورد رزق لأفرادها - أثر لا فكاك منه في تكوين الزمرة وصياغة سلوك أفرادها ، فالمجنّدون الجدد في الزمرة لابد من تدريبهم على هذه الحرفة أو على هذا النوع من التجارة ، أو أن يتم اختيارهم منذ البداية وفقاً لقدرتهم على ممارستها ، فالكخيا إبراهيم القازدغلي اختار أتباعاً يمكنهم مساعدته في ضبط طريق الحج وفي جمع الأموال المطلوبة من قرى الالتزام المنتجة للحبوب في صعيد مصر ، وهذا يضمن سيطرته على تجارة البن كما أنه يساعده على التغلغل في البكرية (مؤسسة البكرية) (٣٦) . وعلى النحو نفسه فإن أعضاء الزمرة الشرايبيية Sharaybi انضموا إلى مضاريات تجارة البن والبهار عبر البحار ، والسبب نفسه فإن المنافسات التجارية كان يمكنها أن تقسم الزمرة الواحدة أو تثير العداوة بين زمرة وأخرى ، لقد كانت الرغبة في السيطرة المنفردة على جمارك الميناء وعوائد البن قد أسهمت في اتخاذ الكخيا عثمان القازدغلي قراره بإبعاد زمريّ الجدك والشريفي Seriflan عن كتائب الإنكشارية (٣٧) ، وعقب موت الكخيا عثمان أدى اغتصاب الكخيا سليمان لعقاراته إلى إبعاد الكخيا عبد الرحمن عن تجارة البن (٣٨) .

وكان من الممكن لزوجات الأمير أو محظياته أن يلعبن دوراً هاماً في تكوين المشاركات والاستثمارات التجارية ، والمحافظة على استمرارها ، فبالنسبة للزوجة ولم تكن مجرد شريك سياسى - كما لاحظنا آنفاً - بل كانت شريكاً تجارياً ، فعندما كان رأس الزمرة مضطراً للفرار كانت الزوجة تقوم على حراسة الثروة ، فقد كانت هي نفسها تقوم بدور الشريك غير الظاهر في المضاربة التجارية (٣٩) Commenda ، ومما يجعل هذا الأمر مناسباً أن الأمير كان يُختبئ ثروته في جناح الحريم في منزله أو في جناح الحريم في منزل آخر منفصل ، وكان من الممكن للزوجة أيضاً أن تقوم

بدور أكثر فعالية فى العمليات التجارية . ويصف لنا الجبرتى كيف أن زوجة شيخ الأزهر فى أواخر القرن الثامن عشر (الشيخ عبد الله الشرقاوى) كانت تستثمر - بدهاء - فى المحلات التجارية والحمامات والعقارات لتعزز رغبة زوجها الشيخ الشديدة فى الحصول على التزام^(٤٠) ، هذا النوع من العلاقات الزوجية ذات البعد التجارى ربما كانت ملمحاً من ملامح الأعضاء الجدد فى النخبة ، كما رأينا هذا فى حالة علماء الدين الجدد الذين راحوا تباعاً يؤمنون مواضعهم بين الطبقة العليا بتزويجهم من بنات كبار التجار أو بنات العسكريين من نوى الرتب العالية ، وكان نص الشريعة على احتفاظ الزوجة بأية ممتلكات تحصل عليها مما يشجع زوجات الأمراء على الاستثمار مما يسهم فى زيادة ثروة الزمرة ، وكان يمكن للحكومة المركزية مصادرة ممتلكات أحد الأمراء أو النبلاء الذين سيتمردون ضد السلطان ، لكنها لم تكن تستطيع المساس بالممتلكات التى تملكها زوجته .

وكان النبيل (أو الأمير) الناشط تجارياً يمتاز بإقامة منشآت تجارية لم يكن من الضرورى أن تكون فى الحى نفسه الذى يقيم فيه ، لقد شاركت الزمر الإنكشارية والزمر البكرية (التى كونها البكوات) فى ترتيبات تجارية واسعة المدى وإقامة المنشآت المرتبطة بها خاصة مجمعات المخازن والأسواق المالية والوكالات والأسواق المركزية أو القيصاريات^(٤١) Qaysariyyas ، وقبل آخر القرن الثامن عشر - على أية حال - لم نجد هذه الزمر تقف أموالاً على مثل هذه المنشآت التجارية بنفس الدرجة التى كان المسئولون العثمانيون بمن فيهم الباشاوات (الولاة) وكبار الخصيان السود المنفيون - يفعلونها ، والاستثناء الكبير من هذه القاعدة هو منطقة السوق المعروفة باسم قصبة رضوان التى أسسها فى القرن السابع عشر البيك رضوان الفقارى^(٤٢) الذى شغل إمارة قافلة الحج لفترة طويلة ، وتقع قصبة رضوان هذه إلى الجنوب مباشرة من سلسلة أسواق القاهرة التجارية حيث مقر إقامة رضوان فى بركة الفيل التى كانت وقتها مقراً لسكنى النخبة ، وقد أوقف عدد من الأمراء (النبلاء) المحليين والمسئولين العثمانيين وكالات بالقرب من موانئ القاهرة حيث كان يتم تنزيل حمولات البضائع مثل الكتان والبن وفى القرن السابع عشر - على سبيل المثال - وجدنا الأغا عباس الخصى الأسود المنفى يقف وكالة للبن فى الجمالية شمال القاهرة ووكالة للكتان

فى بولاق^(٤٢) ، وبعد ذلك بقرن وجدنا بلوط قابان البيك على (على بك الكبير) يجدد قيصرية فى بولاق كان قد أوقفها الموالى سنان باشا فى القرن السادس عشر ، وبعد موت البيك على حصل مملوكه البيك محمد أبو الذهب على حقوقه (على حقوق على بك) على هذه القيصارية^(٤٤) ، وقد أسهمت مثل هذه المنشآت بشكل مباشر فى العمليات التجارية التى أثرت الزمرة ، وعلى هذا فقد كان الغرض من هذه الأوقاف (التجارية) يختلف عن الأوقاف الخيرية كالمساجد والأسبلة التى كان الهدف منها كسب حب الناس بخدمتهم ، وعلى أية حال فبحلول أواخر القرن الثامن عشر حل قازدغلية هذه الفترة محل المسئولين العثمانيين - إلى حد كبير - كمركز للسلطة ومحور لها ، وحصلوا على عوائد من الخزانة العثمانية تلقى لوقف منشآت تجارية وخيرية لتنفيذ ما تعهد إليهم به الحكومة المركزية^(٤٥) .

الزمرة القازدغلية وتجارة البن فى البحر الأحمر

بعض المشروعات التجارية المعينة ارتبطت ارتباطاً طبيعياً بالتزام ، ويمكن النظر لتجارة البن اليمنى من هذا المنظور ، لقد كان البن يزرع فى منطقة المخا فى جنوب اليمن ، وربما جلب لليمن من أثيوبيا فى وقت ما فى القرن الخامس عشر^(٤٦) ، وكانت سفن البحر الأحمر تحمل البن اليمنى شمالاً إلى الحجاز ، وهناك يدخل تجار البن المصريون فى العملية فيقايضون الحبوب المصرية بالبن ، خاصة حبوب قرى صعيد مصر الموقوفة على الحرمين والتى توزع أثناء فترة الحج السنوى^(٤٧) ، وكان الأمراء الذين يريدون تحقيق الربح من تجارة البن يعملون على الحصول على التزامات القرى المنتجة للحبوب فى الصعيد وكذلك السيطرة على طريق الحج .

وقد أحرزت الزمرة القازدغلية نجاحاً غير عادى فى تأمين هذين السبيلين (الالتزام والسيطرة على طريق الحج) ، لقد كان توليهم أمر ضبط طريق الحج استراتيجية بعيدة المدى أخذوا بها وعملوا على تطبيقها ، فمنذ بواكير القرن الثامن عشر احتكرت الزمرة المنصب الإنكشارى " سردار قطار الحاج " وفى الوقت نفسه

بدأت في الحصول على التزامات القرى المنتجة للحبوب ، خاصة أوقاف الحرمين ، وكانوا في ذلك يحذون حذو التكتيكات البلقية وتكتيكات الضباط الإنكشارية الآخرين ، وقد أملى هذا البرنامج على الزمرة القازدغلية اختيار أتباعها واستطاعت أخيراً أن تتغلغل في البكرية beylicate (مؤسسة البكرية)^(٤٨) .

وعلى أية حال ، فإن الزمرة التي تعتمد على تجارة البن لا يمكنها أن تقنع بالسيطرة على طريق الحج والتزامات قرى الصعيد المنتجة للحبوب ، وإنما لابد لها أيضاً من مدّ سيطرتها على السفن التي تحمل البن من اليمن إلى مصر عبر البحر الأحمر ، وقبل بروز الزمرة القازدغلية كان ضباط الإنكشارية يسعون للحصول على التزامات جمع الجمارك في موانئ البحر الأحمر والنيل ، تلك الموانئ التي كان لابد أن يمر البن اليمني عبرها ، بل إن بعض الزمر استخدمت السيطرة على جمارك البحر المتوسط في الإسكندرية ورشيد ودمياط ؛ لتستفيد من الواردات والصادرات الأوروبية مثل البن وغيره من البضائع ، وعلى هذا فقد حزن القنصل الفرنسي حزناً شديداً لوفاة الضابط الإنكشاري الكخيا محمد جدك Gedik الذي كان مديراً للجمارك وكان يسمح للتجار الفرنسيين بتصدير البن من مصر دون أن يدمرهم بالضرائب الباهظة^(٤٩) .

وعلى النحو نفسه كانت السفن التي تنقل البن والحبوب عبر البحر الأحمر - غالباً - ملكاً للضباط الإنكشارية ، وعادة ما كانت سفناً هندية اشتراها هؤلاء الضباط ، فمصر نفسها لم يظهر أنها كانت تصنع السفن خلال الحقبة العثمانية إلى أن بدأ البيك مراد مشروع بناء قوارب نيلية في آخر القرن الثامن عشر^(٥٠) ، وقد يشترك ضابط إنكشاري في ملكية سفينة مع ضابط آخر أو مع تاجر من تجار أعالي البحار ، وفي هذه الحال يمكنه أن يورث نصيبه في السفينة ، ويشير سجل ممتلكات الكخيا سليمان القازدغلية أنه كان شريكاً بالنصف في سفينة من السفن العاملة في البحر الأحمر ، قد تكون مشيدة في الهند ، وكانت هذه السفينة إحدى استثمارات الكخيا سليمان الكثيرة في تجارة البن^(٥١) ، ومن المفترض أن نصيبه من هذه السفينة (نصفها) قد انتقل إلى الكخيا عبد الرحمن مع بقية ممتلكات

سليمان عند موته فى سنة ١٧٣٩م . بعد أن سقط مريضاً وهو على وشك البدء فى رحلة الحج^(٥٢) .

ويبدو أن البن نفسه قد كَوّن جزءاً من الثروة الموروثة للزمرة القازدغلية ، فالكخيا عبد الرحمن ورث حبوب البن التى كانت ضمن ممتلكات الكخيا سليمان فى خيمته عندما كان يعسكر فى بركة الحج ، ولا شك أن سليمان كان ينوى الاتجار فى حبوب البن هذه أثناء الحج ، وربما كان ينوى بيعها للقاطنين على طول الطريق ، وربما كان القازدغلية ينظرون لحمل حبوب البن كما كان تجار مصر فى العصور الوسطى ينظرون لرطل من الحرير الخام باعتباره ثروة حقيقية لإمكانية تحويله إلى نقود سائلة بسهولة^(٥٣) . ويظهر أن تجارة البن قد قرّرت بالفعل تكوين (بنية) الزعامات الأولى للقازدغلية ونوع تحالفاتها ، منذ بداية الزمرة فى أواخر القرن السابع عشر ، ومروراً بالفترة حتى منتصف القرن الثامن عشر ارتكزت الزمرة على ضباط الإنكشارية ممن كانوا يوماً فى رتبة جاويش (شاقوس) أو كخيا ممن كانوا يتولون منصب سردار قطار الحاج ، فقد كان هذا المنصب استكمالاً مغريباً للسيطرة الإنكشارية على جمارك موانئ النيل والبحر الأحمر ، والملكية الإنكشارية للسفن التى تنقل البن عبر البحر الأحمر ، هذه المجموعة من الامتيازات مكنت القازدغلية وحلفاءهم من التحكم فى الغالبية العظمى من عمليات نقل البن بالسفن من اليمن والحجاز إلى مصر ، وأكثر من هذا فرغم كثرة تردد القازدغلية على الحجاز فقد كونوا لهم أتباعاً هناك واستثمروا بعض أموالهم فى شراء الممتلكات هناك (فى الحجاز) مما يمكنهم من اللجوء إليها وقت الأزمات ، على نحو ما أصبح للبلقية ممتلكات فى صعيد مصر^(٥٤) ، كانوا يحتفظون بها للغرض نفسه .

ولقد بلغ نفوذ الضباط الإنكشارية سواء داخل الزمرة القازدغلية أو فى مصر بوجه عام ذروته فى حكومة الاثنين التى كونها الكخيا إبراهيم القازدغلى ، وكخيا كتائب العزبان رضوان الجلفى اللذين حكما مصر معاً (بالمشاركة) فى الفترة من ١٧٤٨ إلى ١٧٥٤م . إن حكومة الاثنين هذه كانت عميقة الجذور من خلال اشتراكهما معاً فى تجارة البن ، ويذكر الدمرداشى أن الكخيا إبراهيم كان "يعطى ثلث ما يصل

إلى يديه " للكخيا رضوان ، ويفيض الدمرداشى ذاكراً أن ما كان يصل إلى إبراهيم هو ستة أشرفيات (عملة ذهبية عثمانية) عن كل حمل من حبوب البن تدخل دائرة البهار (دوان البهار duwan al bahár) التى يتحكم فيها القازدغلية ^(٥٥) ، وكانت ترتيبات إبراهيم ورضوان فيما يتعلق بمشاركتهما التجارية من نوع المضاربة حيث يودع أحد الطرفين رأسماله لدى المضارب (بكسر الراء) لقاء ثلثى الربح ، بينما يقوم المضارب (وهو العنصر الفعّال فى هذه الشركة) ببيع البضائع ويحصل على ثلث الأرباح ^(٥٦) ، وبينما كان رضوان فى هذه الشركة هو العنصر " السلبي Passive " أى الذى لا يقدم سوى المال إلا أنه ليس لدينا ما يشير إلى أنه كان يدفع أى رأسمال لأى من المشروعات التجارية التى كان ينفذها شريكه ، كما هو الحال فى المضاربة التقليدية ، والأكثر من هذا فيبدو أن رضوان كان لديه مزيد من الأموال ليستثمرها بشكل عام ؛ ومن هنا كانت مشروعات البناء الواسعة المدى التى قام بها ، وحياته الرغدة التى كان يعيشها (كان يحيا حياة صالونات Salon Culture) ^(٥٧) ، وبعد موت إبراهيم فى سنة ١٧٥٤م طلب رضوان من الزعيم القازدغلى الجديد وهو الكخيا عبد الرحمن الذى عانى طويلاً - أن يواصل شركته معه ، لكن عبد الرحمن - بناء على نصيحة ممالك إبراهيم - رفض رفضاً صريحاً ، بل واستعان بهؤلاء الممالك لإبعاد رضوان عن القاهرة ^(٥٨) ، لقد كان عمل عبد الرحمن هذا إشارة إلى أن هذه الشركة لم تعد ضرورية للقازدغلية فقد كانت هذه الزمرة (القازدغلية) قد حققت هيمنتها وتجاوزت تحالفاتها الاستراتيجية من النوع الذى عقدته مع الجلفية .

ولم يكن الحلف الجلفى هو الحلف الوحيد المرتبط بتجارة البن والذى خططت له القازدغلية بينما كانت تحكم قبضتها خلال العقود الأولى من القرن الثامن عشر ، فقد أخذوا على عاتقهم ربط أنفسهم بعشيرة الشرايبي القوية المكونة من تجار البن والبهار ، فقد كان الكخيا عثمان القازدغلى - الذى أظهر القازدغلية كزمرة قوية هائلة فى الفترة من ١٧٣٠ إلى ١٧٣٩م - قريباً على نحو خاص من قاسم جلبى (شلبى) الشرايبي شهبندر التجار (شيخ تجار القاهرة الذى كان يتاجر عبر البحار) ، وعند موت قاسم هذا فى سنة ١٧٣٤م سار الكخيا عثمان فى جنازته من منزله (منزل الشرايبي) إلى القرافة ^(٥٩) ، والأكثر دلالة أن المجمع السكنى للشرايبي كان

ملاصقاً لمقر إقامة الكخيا عثمان في الأزبكية (الباب إلى جانب الباب) ، لقد استفاد القازدغلية من تعاون الشرايبي معهم ، لا في تجارة البن فقط وإنما في صراعاتهم مع الأمراء الطموحين من غير القازدغلية ، والمثال البارز على ذلك هو أن الشرايبيية حثوا تجار البن والبهار على تمويل حملة ضد البيك شركس محمد في سنة ١٧٢٩م^(٦٠) .

لقد كان القازدغلية - بالفعل - حتى موت الكخيا إبراهيم زمرة بن Coffee household ، فمن الطبيعي إذن أن نتوقع أن تعاني هذه الزمرة من انخفاض السعر العالمي للبن خلال سنى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر (١٧٣٠ - ١٧٣٩) عندما جلب التجار الفرنسيون نوعاً من البن أقل جودة من مستعمرات فرنسا في الكاريبي إلى أسواق البن في البحر المتوسط والبحر الأحمر ؛ مما قلل من الحاجة إلى البن اليمني^(٦١) ، لقد كانت هذه الأعوام نفسها هي الأعوام التي بدأت فيها الزمرة القازدغلية تتكالب على التزامات القرى المنتجة للحبوب ، وبطبيعة الحال لقد مكنت الثروة الناتجة عن تجارة البن القازدغلية من شراء هذه الالتزامات عند طرحها في المزاد ، وفي ناحية أخرى سهلت هذه الالتزامات مقايضة الحبوب بالبن في الحجاز ، بل إن هذه الالتزامات كانت مانعاً من تدنى أسعار البن أيضاً مادامت العوائد الزراعية لا تعتمد بشكل مباشر على تجارة البن ، وكلما أصبحت الأرباح العائدة من تجارة البن أقل من ذي قبل راح القازدغلية يركزون المزيد من طاقاتهم للحصول على الالتزامات المربحة ، فأصبحت الأولوية عندهم تولى حكم ولايات مصر الداخلية وتولى البكوية ، والكشوفية ، وعلى هذا فقد يكون تدنى سعر البن وازدياد تذبذب أهمية تجارة البن في البحر الأحمر وراء تغلغل القازدغلية في البكرية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

وأثناء هذا التطور أثبت القازدغلية أن لديهم من الدهاء ما يجعلهم يؤمنون مصادر للدخل مما يضمن استمرارهم كزمرة ، لقد بدأ أمرهم كزمرة قوية من بين عدة زمر إنكشارية كونت ثروتها بالعمل في تجارة البن بالبحر الأحمر وأخيراً أدت سيطرة القازدغلية على أوجاق الإنكشارية بالإضافة إلى سيطرتها على طريق الحج إلى احتكارها لتجارة البن ، ولم تكن المشاركة في تعريفه البن بين الكخيا إبراهيم

القازدغلى والكخيا رضوان الجلفى ممكنة دون هذا الاحتكار ، لقد أحكم القازدغلية قبضتهم على أرباح البن بالحصول على التزامات القرى خاصة أوقاف الحرمين التي تنتج الحبوب التي يمكن مبادلتها بالبن أثناء موسم الحج ، وفى المقابل فإن هذه الالتزامات أتاحت للقازدغلية الانخراط فى سلك البكوية (البكرية) ، وخلال تطور الزمرة صاغت تحالفاتها مع الزمر الأخرى مثل : البلفية والشرابية اللتين أسهمتا فى نجاح مشاريعها التجارية ، وفى مجتمع كانت الزمر فيه هى أداة النشاط الاقتصادى الكبير لعبت الزمرة دور الشركة التجارية والسيد الإقطاعى ، لقد بدت الزمرة القازدغلية تمتلك عبقرية خاصة فى مثل هذا التخطيط الاستراتيجى الدقيق .

الهوامش

(١) انظر الفصل الثانى والرابع ، وانظر أيضاً :

Raymond , " Soldiers in Trade " 19 - 20 , 27 - 28 .

(2) Aylon , " Studies in al. Jabarti : " Part , 2, 293 - 6 .

(٣) فى سنة ١٧٩٥ عقد إبراهيم بك الكبير ديواناً فى بيته بالأزبكية ، حضره زعماء القاهرة الدينيين والعسكريين ليعلنوا اتفاقهم لإنهاء العصيان العام . انظر الجبرتى ، عجائب ، مج ٤ ، هى حى ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٤) الجبرتى ، عجائب ، مج ٤ ، ص ٢٠٥ .

(٥) الدمرداشى ، درة ، ص ٢١٨ .

(٦) الجبرتى ، عجائب ، مج ٣ ، ص ١١١ .

(٧) نفسه ، ص ٢٨١ .

(٨) انظر :

Pierce , The Imperial Harem , pr. 119 - 125

أقام أبناء السلطان وزوجاته فى قصر طوب قابى (طوبكابى) منذ حكم سليمان الأول .

(٩) أحمد شلبى ، أودة ، ص ١٤٦ .

(10) Raymond " Soldiers in Trade " 27

(١١) نفسه ، ٢١

(12) Jane Hathaway " The Wealth and influence of an exiled Ottoman Eunuch in Egypt : The Waqf Invenrtory of Abbas Agha , JESHO 37 (1994) 303 , NO 45 . AND 307 .

(13) Raymond , " Essai de geographie " 65 - 73 Raymond , Soldiers in Trade , 27

(14) Raymond , Essai de Geographie 65 ff .

(١٥) نفسه ، ٧٣ وما بعدها .

(١٦) نفسه ، ٧٨ وما بعدها ، وانظر أيضاً :

Behrens Abouseif , Azbakiyya and its Environs , P . 72 .

(١٧) راجع الفصل الرابع .

(١٨) وصف رايموند لأمرأى أواخر القرن الثامن عشر بأنهم غرباء عن السكان المرتزقة ، يبدو وصفاً

Soldiers in trade P . 34

مبالغاً فيه . انظر :

(١٩) عن الشكل النمطي للعصيان العام في القاهرة انظر :

Raymand , Artisans et Commerçants , Vol II , P. 432 .

(20) Behrens - Abouseif , Azbakiyya & its Environs , PP. 55-8, 114-16

(٢١) " ديار الكفر " عبارة يقصد بها أحمد شلبي بلاد الجراكسة (أوده ، ص ٤٨٢) .

(٢٢) الدمرداش ، درة ، ص ١٦٨ .

(٢٣) على سبيل المثال ، الدمرداش ، درة ، ص ٤٩٩ ، ٥٣٣ - ٤ .

(٢٤) أحمد شلبي ، أوده ، ص ٢٧١ ، ٢٨٢ .

Hathaway, "Sultaus , Pashas , Taqwims and Muhimmes" 66

(٢٥) الدمرداشي ، درة ، ص ٢٥١ .

(26) Raymond , Essai de geographie 83 - 84

وعلى سبيل المثال انظر أحمد شلبي ، أوده ، ص ٨٧٥ (الأغا حسن بلفية) الجبرتي ، عجائب ، مج ٤ ، ص ٨٥ (الشيخ حسن الكفراوي) .

(٢٧) الدمرداش ، درة ، ص ٢١٨ .

(٢٨) نفسه ، ص ٤٥٦ .

(29) Maliyeden Müdevver 1350 (1134 - 5/ 1721-3), Pococke , Adescription of the East vol.1, P . 164

(٣٠) يلاحظ اللاهوتي البريطاني Richard Pococke أن قرية ملوى في الأشمونين كانت على رأس تسع قرى كانت تكون ولاية صغيرة تابعة لمكة خاضعة لأمير الحاج .

Travels of Richard Pocoke , p . 60

(31) Muhimme-i Misir vol V , no 18 (1146 / 1733-4)

انظر أيضاً الفصل ٨ ، حاشية ٥٨ .

(32) Al - Jabarti , Journal , p . 238

(٣٣) الدمرداشي ، درة ، ص ٢٩٣ . وانظر أيضاً :

Hathaway " The Role of the Kislal Agasi " 156 - 7.

(٣٤) انظر على سبيل المثال : الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية) (ورقة ١٦٩ وما بعدها) .

(٣٥) عن الصابونجية ، انظر فصل ٣ ، حاشية ٢٩ وعن الفكهانية وزمرة الفلاح ، انظر فصل ٤ حاشية ٥ .

(٣٦) انظر فصل ٥ ، ص ٩٨ ، ١٠٣ .

(٣٧) انظر فصل ٤ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣٨) انظر فصل ٤ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣٩) انظر فصل ٥ ، حاشية ٣٢ .

(40) Raymond , Artisans et Commerçants vol . II . PP. 427 - 8

(٤١) رغم أن الوكالة والقيصرية كان يمكن استخدامهما - على نحو تبادلي - كمخزن ، فإن القيصارية قد تعنى أيضاً سوقاً لبيع بضائع الترف . عن المصطلحات راجع :

Raymond , Artisans et Commerçants , vol.1 PP. 254 - 63.

(٤٢) على سبيل المثال ، كان حافظ أحمد باشا (١٥٩١ - ١٥٩٥) قد أوقف وكالات الكتان الخاصة بالأغا عباس ، وكالات البن في رشيد ، عن هذه الوكالات انظر : حاشية ٤٢ ، أحمد شلبي ، أوده ، ص ١٢٣ . محمد عبد المعطى الإسحاقى ، كتاب أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (القاهرة ، ١٨٨٧) ص ١٦٣

(٤٣) عن منشآت الأغا عباس ، انظر :

Hathaway , " The Wealth and influence of an exiled Ottoman Eunuch in Egypt " 303 , 407

(44) Daniel Crecelius " The Waqf of Muhammed Bey Abu-al Dahab in Historical perspective " IJMES 23 (1991) , 59 - 60

(٤٥) وعلى هذا استخدم محمد بك أبو الذهب ريع قيصارية على بك لتمويل إنشاء مدرسته (مدرسة أبى الذهب) . انظر :

Crecelius " The Waqf of Muhammed Bey " 60

(46) Ralph S. Hattox , Coffee & Coffeehouses. The Origins of a Social Beverage in the Medieval Near East (Seattle and London , 1985) pp. 11 FF , 73 - 7.

(٤٧) انظر فصل ٢ ، حاشية ١٤ .

(٤٨) انظر فصل ٤ ، ص ٧٦ - ٧٩ وفصل ٥ ، ص ٩٧ - ٨ .

(49) Raymond , Artisan's et Commerçants, vol.1 , p. 177

(٥٠) عن السفن الهندية والتجارة الهندية في الحجاز ، انظر على سبيل المثال :

Muhamme -i Misir - vol 4, no 495 (1144 / 1731) vol. 6. no 26 (1158/1745) Faroghi, Pilgrims & Sultans , pp. 163 , 165 -6

وعن مشروع مراد بك انظره الجبرتي ، عجائب ، مج ٣ ، ص ٢٨٩ .

(51) Tuchscherer, " Pelerinage " 162 , 172.

(٥٢) عن ميراث عبد الرحمن ، انظر : الدمرداشي ، درة ، ص ٤٣٧

(٥٢) انظر :

Goitein, A Mediterranean Society, vol .1 pp. 222 , 454

(٥٤) قد يوضح هذا إلى حد ما سبب كون الحجاز مكاناً للإبعاد (النفي) خلال أواخر القرن ١٧ وأوائل القرن ١٨ ، فقد تم نفي الكخيا مصطفى (مؤسس الزمرة القازدغلية) والكخيا عبد الرحمن إلى الحجاز ، وفي أواخر القرن ١٨ - على أية حال - كان الأمراء يبحثون لهم عن ملجأ في صعيد مصر .

(٥٥) الدمرداشي ، درة ، ص ٥٦٠ - ٥٦١ . الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٩٢ وما بعدها .

(٥٦) انظر فصل ٥ ، حاشية ٢٢ .

- (٥٧) الدمرداشي ، درة ، ص ٥٦٠ - ٥٦١ . الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٩٢ وما بعدها .
- (٥٨) الدمرداشي ، درة ، ص ٥٧٧ - ٥٨١ .
- (٥٩) أحمد شلبي ، أوده ، ص ٥٨٩ . وانظر أيضاً فصل ٤ حاشية ١٠٢ . وعن ثروة تجارة البن بشكل عام انظر :
Pilgrims & Sultans by Faroqhi , p. 170
- (٦٠) انظر فصل ٤ ، حاشية ١٠٢ .
- (61) Raymond , Artisans et Commerçants , vol. 1 pp. 156 FF .
- وانظر أيضاً الفصل ٣ ، حاشية ٢٢ .

الفصل الثامن

القازدغلية وكبير الخصيان السود

ضمت الزمرة - كما رأينا - شبكة من التحالفات استطاعت أن تربط رجالاً ونساء بأنشطة متباينة وفي أماكن متباعدة ، لقد استخدم القازدغلية تحالفات تجارية وأخرى على أساس الزواج لإحكام قبضتهم في مصر والحجاز ، وعلى أية حال كان من الضروري من وجهة نظرهم أن يمدوا تحالفات زمريتهم فيما وراء المناطق القريبة منهم ؛ وذلك ليوثقوا الروابط مع القوى المختلفة في العاصمة العثمانية Imperial center ؛ أولئك الذين هم في موقف يمكنهم من تعيين والٍ (باشا) ودود في مصر أو في إمكانهم - من ناحية أخرى - الأمر بالاستيلاء على ممتلكات القازدغلية ، وعند تكوين هذه الروابط استثمر القازدغلية وحلفاؤهم في البلاط العثمانيّ الزمرة كوسيلة للتبادل بين مصر والعاصمة العثمانية ، فلم يكن المسئولون العثمانيون يستطيعون بسط نفوذهم في الولايات إلا من خلال اندماجهم في الزمر المحلية أو من خلال تعيين نبلاء محليين في زمرهم الخاصة (أى زمر هؤلاء المسئولين العثمانيين) .

ومن بين المعيّنين العثمانيين (الإمبراطوريين) الذين يقومون بدور هام على الساحة المحلية يظهر أحدهم بارزاً لاستثمار الزمرة وفقاً لصالحه ، إنه كبير الخصيان السود في الحريم الإمبراطوري (العثماني) المعروف باسم كزار (قزار) أغاسى Kizlar Agasi (أو الداروساد أغاسى Darüssaade Agasi) ، ويرجع استخدام الخصيان في جناح الحريم في الدولة العثمانية إلى زمن سحيق ، وقد تم استخدامهم أيضاً في الإمبراطوريات الفارسية والرومانية والصينية ، وكان العثمانيون قد بدأوا استخدام الخصيان لخدمة الحريم منذ بواكير دولتهم (إمبراطوريتهم) ، وكان خصيان أجنحة الحريم العثمانية يضمنون أفارقة سوداً تم جلبهم من شرق أفريقية

جنوب الصحراء الكبرى ، وأيضاً تم جلبهم - في الأساس - من القوقاز ، وكان كبير خصيان الحريم العثماني في الأساس من الخصيان البيض ، وكانت مهمته هي الإشراف على الخصيان الآخرين برتبهم المختلفة ، وعلى أية حال ففي أواخر القرن السادس عشر أصبح للخصيان السود الأولوية في شغل هذا المنصب (كبير الخصيان) لأسباب غير واضحة تماماً ، ولا شك أن سهولة النسبية التي كان يتم بها الحصول على العبيد الأفارقة مقارنة بالعبيد القوقازيين كانت وراء هذا التحول ، وبالإضافة لهذا فقد كان الأفارقة أكثر مقاومة للأمراض لكثرة تعرضهم للجراثيم في أفريقيا جنوب الصحراء ومن هنا فقد كانوا يظلون أحياء بعد إجراء عملية الإخصاء بنسبة أكبر من القوقازيين ^(١) ، وعلى أية حال فبحلول بداية القرن السابع عشر أصبح كبير الخصيان في الحريم السلطاني دائماً أسود ، وظل كبير الخصيان البيض في القصر كحارس لعتبة غرفة اجتماعات السلطان (بابوساد أغاسي Babüssaade Agasi) إلا أن نفوذه كان أقل من نفوذ كبير الخصيان السود .

لقد بلغ نفوذ كبير الخصيان السود ذروته في الإمبراطورية العثمانية خلال الفترة موضوع الدراسة ، لقد بدأ الخصى يقوم بدور كبير في الإمبراطورية نحو نهاية القرن السادس عشر ، عندما بدأ الأمراء العثمانيون يقضون سنوات تكوينهم معزولين في أجنحة الحريم ، ولم يكن الواحد منهم ليظهر إلا عند دعوته لتوايه عرش السلطنة ، ومع دخول هذه العادة التي عُرفت باسم " نظام القفص Kafes " أصبح لأمهات السلاطين الموجودين في السلطنة أو أمهات سلاطين المستقبل نفوذ هائل ، وعلى النحو نفسه أصبح للخصيان الذين يحرسون الحريم نفوذ كبير ؛ لأنهم كانوا وسيلة الاتصالات بين النساء (في جناح الحريم) والسلطان وحاشيته ، كما كانوا يُشرفون على ميزانية الحريم (الأموال المخصصة لهن) ، وباختصار لقد أصبح الحريم هن محور السلطان الإمبراطوري ، وانتعشت سياسات الحريم وتألق سلطان كبير الخصيان السود حتى أنه مع منتصف القرن السابع عشر نافس رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) في السيطرة الفعلية على سياسة الدولة ^(٢) .

وفي هذه الأثناء كانت صلات كبير الخصيان السود بمصر محل اعتبار ، بل إن الحقائق تفيد أن مهام هذا الخصى كانت متضافرة متشابكة مع هذه الولاية (مصر) من البداية للنهاية ، فالخصيان العاملون في خدمة الحريم كانوا يُجلبون - عموماً -

للسلطان عن طريق والى مصر ، الذى كان يختارهم من عبيد القوافل التى كانت تصل سنوياً من سنار ودارفور فى دولة السودان الحالية ^(٣) ، وكانت القلة من الخصيان السود التى تصل لمنصب كبير الخصيان السود تندمج فى الحياة المصرية طوال حياتها ^(٤) ؛ لأن الخصى كان هو ناظر (أو متولى Mutevelli) أوقاف الحرمين ، وكانت هناك أربعة أوقاف كبرى : الدشيشة الكبرى ، والحرمين التى كان أول تأسيسها فى عهد السلطنة المملوكية وتشمل وقف الخاصكية ، والدشيشة الصغرى أو المرادية التى أسسها مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) ، والمحمدية التى أسسها مراد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) ^(٥) ولما كانت هذه الأوقاف تستمد جانباً كبيراً من عوائدها من القرى المصرية فقد أصبحت هى القناة الرئيسية التى يظهر من خلالها نفوذ كبير الخصيان السود فى مصر .

وكان كبير الخصيان السود يُنفى إلى مصر عند عزله من منصبه ، وكأئما المقصود بذلك هو إحكام صلته بمصر ، وبدأ العمل بهذا التقليد فى سنة ١٦٤٥م . عندما أبحر الأغا سنبل إلى مصر بعد خمس سنوات قضائها فى منصب كبير الخصيان السود فى الحريم السلطانى (وفى طريقه إلى مصر أسره - للأسف - قراصنة فرسان القديس يوحنا فى مالطة ، فقتلوه فمات شهيداً) ^(٦) ، وطوال أكثر من قرن ونصف القرن تم إبعاد سبعة عشر من شاغلى منصب كبير الخصيان السود إلى مصر (من أصل ٣٨ شغلوا المنصب فى هذه الفترة) ، بالإضافة إلى العديد من الخصيان السود الأدنى درجة ، وبطبيعة الحال كان هذا النوع من النفى (الاستبعاد) من غرائب المؤسسة العثمانية : لم تكن المسألة تنزيراً فى الرتبة بشكل كريم فلم يكن المقصود تدمير الصحة ، وإنما الإبقاء عليه فى الحفظ والصون لكن بعيداً عن السلطة المركزية ، وأكثر من هذا فقد كان هذا المبعد exile يتلقى راتباً ، فقد كان الخصى يتسلم راتباً (معاشاً) من الديوان الوالى العثمانى ^(٧) ، وكان بإمكانه - مثله فى ذلك مثل الموظفين الآخرين المبعدين - أن يضرب بجذوره فى موطنه الجديد وأن يهب أوقافاً ويقتنى ممتلكات ، وربما اشترى عبيداً .

وباختصار ، كانت مهام كبير الخصيان السود تنقسم إلى قسمين : عندما كان يمارس عمله فى إستانبول حيث كان يعمل فى خدمة المصالح السلطانية ، وعندما

كان يعمل فى منفاه فى مصر عندما كان يعمل لتحقيق مصالحه الشخصية ، ومع هذا فلا يمكن أن نفصل فصلاً تاماً بين هذين الجانبين ، فمن الواضح أن كبير الخصيان السود كان يتوقع أن يبنى عُشّه فى مصر ويرسخ حياته فيها ، ويقضى ما تبقى من عمره بشكل طيب ، وكل هذا بدعم من إستانبول ، وأكثر من هذا ، فمنذ أواخر القرن السابع عشر فصاعداً كان إبعاد الزعيم الخصى الأسود إلى مصر بمثابة تمهيد لتعيينه شيخاً للحرم النبوى^(٨) ، وهو منصب يعنى قيامه بسلسلة من المهام السلطانية الأخرى بما فى ذلك نظارة وقف كبير ، كما اتضح فى حالة خصى واحد على الأقل ، والأكثر دقة أن نصف ارتباط الخصى الأسود الكبير بمصر بأنه ارتباط مصالح شخصية فى الولاية التى تتعرض لتقلبات من حيث اهتمام الإمبراطورية بها ، وعلى أية حال ، فقد كان الخصى الأسود هو المسئول العثمانى الوحيد الذى ينطوى عمله على مهمة محددة فى مصر ، مهمة توكل إليه بانتظام ، بل وارتباط وجوده بهذه المهمة بحكم الضرورة ؛ أى إنه ارتبط بها ارتباطاً لا مفر منه .

حدود المصالح الشخصية للزعيم الخصى الأسود فى مصر

إلى أى مدى امتدت مصالح الزعيم الخصى الأسود فى مصر ؟ إن قائمة ممتلكات زعيم خصى أسود هو عباس (١٦٦٧ - ١٦٧١) تشير إلى أن هذه المصالح كانت عريضة وعميقة بشكل ملحوظ ، وقد بقيت قائمة الممتلكات هذه فى أرشيف قصر طوبقابى ، وقد جُمعت بعد موت عباس ، وتقع فى قسمين : قائمة من ٣٧ كتاباً books تعقبها قائمة طويلة بممتلكات عقارية تفيد القوة التجارية الهائلة للأغا عباس ؛ إذ كان يلاحظ تباينها وامتدادها فى الريف والحضر على حد سواء ، فقد كانت ممتلكات عباس خارج القاهرة تشتمل على ممتلكات فى سبعة مدن فى ثلاثة أقاليم مختلفة^(٩) ، والأكثر لفتاً للنظر هو تركيز ممتلكاته التجارية فى ناحية زفتى^(١٠) الواقعة على النيل شمال شرق القاهرة ، فهناك كان لديه قيصارية (سوق مغطى) ووكالة (به خان لقوافل) ومجمع لطحن البن (Kahvehane) وأربعة محلات تجارية ومخزنين^(١١) أقام فوق أحدهما كتّاباً ، وفى هذه الأثناء كان الوقف فى القاهرة يضم مجموعة الممتلكات بما فيها الأراضى والمحلات التجارية والمنازل بالإضافة إلى مقر إقامة عباس نفسه فى حي

النخبة فى ذلك الوقت - ذلك الحى المطل على بركة الفيل جنوب القاهرة ، لكن الأهم من كل ذلك والأكثر قيمة من الناحية التجارية هو وكالاته : واحدة فى الجمالية خارج باب الفتوح ، والأهم فيهن وكالاته الكبيرة فى ميناء بولاق التى كانت بمثابة مخزن كبير للكتان ، ومركز للاتجار فيه ^(١٢) .

والأهم من هذه الممتلكات جميعاً فإن قائمة الحَصْر المشار إليها أنفاً تجعل من عباس راعياً لصناعة الكتان فى مصر - تلك الصناعة الأساسية منذ القدم - فى قرية شبرا بسيون فى الغربية تورد قائمة الحصر أربعة معاطن للكتان Keten islatack mahali - هذه المعاطن تعد جزءاً متمماً للصناعات القائمة على الكتان ^(١٣) ، وربما كان حى الغربية فى القاهرة مقراً لثلاث معاصر ^(١٤) ratabas ومصابغ boyahane ، وارتبط بهذا عشرة محلات ، وعشرة مخازن فوق هذه المحلات وعدة خرابات harábe .

وعلى أية حال ، ربما كانت أكثر ملامح هذه الوثيقة مدعاة للحيرة هو ما تُلقيه من ضوء على الاتجاهات الفكرية والعقلية لعباس هذا ، فهى تشير لاهتمامه بالطب ، وتضم قائمة الممتلكات أربع أوان نحاسية لثمانية من الأطباء (tibbci) فى زفتى ، وكان هناك كتابان من بين ٢٧ كتاباً امتلكها عباس تتناول الطب ، بل إن الشارع الذى أقام فيه كان اسمه " شارع الطب " Tibb Sokğı (زقاق الطب) .

وتشير موضوعات كتبه الأخرى إلى قدرات مالکها اللغوية وميوله المثيرة ، فمعظم مكتبته ^(١٥) تتكون من نصوص دينية : القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، ومجموعات من الفتاوى الحنفية وشروح (تفاسير) بالعربية والتركية ، أضف إلى هذا ثلاثة كتب فى التاريخ منها " تواريخ آل عثمان " يتناول التاريخ العثمانى فى القرن الخامس عشر ، ومجموعة من الأشعار الفارسية للشاعر الهروى (من هراه) فى القرن الخامس عشر ، ومعظم هذه الكتب الدينية والأدبية تمثل المنهج (المقرر الدراسى) الذى كانت الحاشية السلطانية تتعلم من خلاله ^(١٦) ، لكن تعليم الحاشية الرسمى لم يكن أربعه كتب تشير إلى اهتمام بالميل الصوفية : منها كتاب " كيمى سعادة Kimiyya - i Saade " الذى ربما كان مؤلفه هو الغزالى ، "طبقات الأولياء" لفريد الدين العطار (القرن العاشر) وللعطار أيضاً كتاب "مناقب الطير" ، ومجموعة من التراويل الصوفية (قراءة الأوراد) وقد كان من الملائم إذن أن يضم الوقف زاوية صوفية خارج باب الفتوح - البوابة

الشمالية للقاهرة الفاطمية - وهذا يجعل الزاوية في قلب حي الحسينية الذي كان مركز الحركة الصوفية^(١٧) .

قنوات النفوذ : الوكلاء والمماليك

ولم تورد قائمة أوقاف الأغا عباس أسماء الأشخاص الذين لابد أنه قد استعان بهم لتسيير تجارة الكتان وصناعته ، والإشراف على القرى بل وحتى العناية بكتبه ، فإذا كان هذا الخصى الأسود يقبض على زمام هذه السلطة التجارية وهو في منصبه أو هو خارج منصبه ، فمن خلال من كان يُسير أموره ؟ هل عين لنفسه أتباعاً صاحبهم معه من إستانبول ؟ أم أنه سير أموره من خلال وسطاء محليين (من مصر) ؟ ويمتد هذا السؤال ليصبح مشتملاً على مدى امتداد جذور هذا الزعيم الخصى الأسود في المجتمع المحلي ، فإذا كان هذا الخصى قد امتد بجذوره في مصر تجارياً وثقافياً - كما يشير لذلك سجل الوقف - فإلى أى مدى انتشر نفوذه السياسى تبعاً لذلك ؟

ومن المؤكد أن وكلاءه VEKILS في مصر كانوا هم أكثر الأشخاص ارتباطاً بمصالحه ، وقد ارتبطت أعمالهم بالنشاطات التجارية الموثقة توثيقاً جيداً : وكان الوكيل يؤتمن على بعض الأموال ويوكل إليه عمل محدد ، قد لا يكون ذا طبيعة مالية ، وبمعنى من المعانى كان الوكيل هو الطرف الفاعل في عملية المضاربة (من المفهوم أن الطرف السالب هو صاحب رأس المال ^(١٨) ويبدو أن الزعيم الخصى الأسود قد عين وكلاء بينما كان هو شخصياً خارج مصر) ، وعلى هذا فالحاج بشير (الأغا بشير) ترك له وكيلاً في القاهرة بينما كان هو في الطريق من المدينة المنورة إلى إستانبول لتسلم " عباءة mantle " كبير الخصيان السود في سنة ١٧١٧م . فقد كتب أحمد جليبي (شلبي) أنه " مكث في مصر مدة شهرين ، ثم غادر إلى إستانبول بعد أن عين عبد الله الفحل وكيلاً له ؛ لبناء مدرسة وسبيل ماء في مواجهة قنطرة سنقر " ^(١٩) ، ولا يمكننا أن نعلم ما إذا كان عبد الله الفحل كان من بين حاشية الحاج بشير أم كان - بالفعل - شخصاً محلياً قام الحاج بشير برفع شأنه بتوليته هذه المهمة ، ويظهر وكلاء آخرون في مجموعة " الوثائق المهمة عن مصر - Muhimme-i Misr " خلال الفترة الطويلة

التي تولى فيها الأغا بشير منصبه (١٧١٧ - ١٧٤٦) ، وكان هؤلاء الوكلاء جميعاً يحمل الواحد منهم لقب أغا Styled Agha (*) - محمد أغا ، عثمان أغا ... إلخ ، وهناك وكيل ترك دون تحديد هويته (لم يذكر إن كان أغا أو غير ذلك) ، وربما كانوا من خصيان الحريم أو كانوا من أعضاء الأوجاقات العثمانية في مصر ، ويكاد يكون من المؤكد أن عبد الله الفحل كان مملوكاً وليس خصياً ، لأن لقب " الفحل " يشير إلى أنه ذكر غير مخصى .

وثمة براهين محدّدة تربط بين وكلاء زعيم الخصيان السود وغيره من خصيان الحريم لدى الكوادر العسكرية في مصر ، خاصة في القرن السابع عشر ، فالمؤرخ الحلاق على سبيل المثال يصف إيواظ بيك (البيك إيواظ) الذي كان - سابقاً - من بين كتائب حاملي البُلط (جمع بلطة) في القصر السلطاني (بلطجية القصر ، والمفرد : بلطه جى أو بلطجى) والذي أتى إلى مصر مع نذير أغا الخصى المبعد (الأغا نذير) في حوالى سنة ١٦٦٥م ، لقد اتّمن نذير البيك إيواظ على عشرة آلاف دوكات ذهبية بندقية رغم أن المؤرخ الحلاق لم يصفه بأنه وكيله ، ومع هذا فقد كان إيواظ من الناحية الفعلية ممثلاً مالياً له (٢٠) ، وتولى في وقت لاحق منصب سلحدار أغاسى Silahdar Agási (حامل الأسلحة Weapons bearer) ثم رُقّي أخيراً إلى رتبة البكوية ، هنا نجد ظاهرتين متداخلتين : عضو في حاشية خصى من خصيان الحريم ينضم إلى النخبة العسكرية المحلية ، كما أن ممارسة نفى خصيان الحريم إلى مصر ينتج عنها ضخ مباشر (تطعيم) لأفراد القصر السلطاني في المجتمع العسكرى المصرى ، وهذه الحالة ممثلة بوضوح وعلى نطاق واسع ؛ فسجل الأجور والرواتب لسنة ١٦٧٥ - ١٦٧٧م يحدد عدد أتباع الزعيم الخصى الأسود ، وهم قليلون جداً بالنسبة للعدد الإجمالى للجنود ؛ إذ كانوا حوالى ١٥ من بين ٢٠٠٠ ، ولكن الأكثر مدعاة للاستغراب هو أن معظم هؤلاء الأتباع الخصيان كانوا من أوجاق المتفرقة ، ذلك الأوجاق الذى ظل القصر السلطاني يعين أفراده مباشرة حتى منتصف القرن السابع عشر ، والذي كان هو المستودع الأساسى للبكوات (الذى يتم تعيين البكوات من بين أفرادهِ) حتى أواخر

(*) يفيد النص أن أغا فى هذه الحال ليست بالضبط رتبة عسكرية . (المترجم)

القرن السادس عشر^(٢١) ، والأكثر من هذا فقد ضمت كتائب المتفرقة أتباعاً آخرين لمُسؤولين عثمانيين خاصة رئيس الوزراء العثماني (الصدر الأعظم) ونقيب الأشراف الذي ظل حتى القرن الثامن عشر يتم تعيينه من إستانبول^(٢٢) .

وكان الامتداد الطبيعي لهؤلاء الوكلاء متشابكاً مع الموقع الذي يشغله كل منهم ومع " عنقود " الأتباع في الكتائب العسكرية التي كونت زمراً مكتملة ، حتى إن الزعيم الخصى الأسود يشرع بمجرد وصوله إلى مصر في استغلالها ، ومع هذا فلم يكن هناك سوى زعيم خصى أسود واحد هو الأغا يوسف (يوسف أغا) (١٦٧١ - ١٦٨٧) كان يمكن أن يُقال إنه هو نفسه قد تزعم زمرة ، ومع هذا فلا نستطيع أن نحدد سوى اثنين من أتباعه :

أولهما : هو البيك أحمد الذي يبدو أنه هو نفسه الحاكم القاسمي للمنوفية ، الذي تشير له الحوليات بإيجاز وبين الحين والحين ذاكراً أن أهم إنجازاته هو قيادته قوة عسكرية للدفاع عن رودس في سنة ١٦٩٥^(٢٣) .

حالة البيك مصطفى القزلار Kizlar وثانيهما أكثر وضوحاً ، وقد أطلق عليه القزلار ؛ لأنه كان من رعية الأغا يوسف (يوسف أغا) ، وأصول مصطفى غامضة ، وتظهر أول إشارة له يُعول عليها في حواشٍ الحلق : عندما وصل الباشا حسن إلى مصر في سنة ١٦٨٧ م . كان البيك مصطفى يشغل منصب قائم مقام (البيك القائم بأعمال الباشا المعزول)^(٢٤) ، وتاريخ هذه الوقائع قريب جداً من تاريخ إبعاد الأغا يوسف (يوسف أغا) مما يُعين على تصديق أن مصطفى قد صاحب الأغا يوسف إلى مصر ، وربما تكون إستانبول قد دسّته في النخبة العسكرية المصرية أو أن يكون - أي مصطفى - قد تمركز في مصر قبل وصول يوسف أغا إليها ، والبيك مصطفى ليس مثل البيك أحمد ؛ إذ أن البيك مصطفى قد انحاز للكتلة الفقارية ، وكان في الحقيقة مرتبطاً بروابط الولاء مع الزمرة البلقية^(٢٥) ، وامتدت مهامه الوظيفية خمسين عاماً ، شغل خلالها منصب قائم مقام مرتين ، كما تولّى ولاية جرجا مرة ، وشغل منصب الدفتردار مرة أخرى ، وتوفي البيك مصطفى في حوالى سنة ١٧٣٠ م . ولا بد أنه كان قد بلغ عمراً مديداً ، وفيما يتعلق بأتباعه فيبدو أنه لم يترك سوى القليلين ، هذا إذا لم

يكن له أى أتباع على الإطلاق ، ويشير الدمرداشى إشارة عابرة إلى مملوك تابع للبيك مصطفى استقر فى المنزل القديم للأغا يوسف فى حى سوقة عصفور فى جنوب القاهرة ، وكان هذا المنزل فى وقت من الأوقات راعى (حامى) يوسف أغا ، وهذا الراعى هو الزعيم الخصى الأسود الأغا طاز ياتور على الذى تم إبعاده إلى القاهرة فى سنة ١٦٤٨ ، هذا المملوك قد تردى به الحال إلى الفقر حتى اضطر إلى التعاقد على بيع فعلى البيت بأن أجره لمدة تسعين عاماً - ذلك النوع من الإيجار المعروف بالحكر^(٢٦) - فإذا كان لمصطفى بيك إذن زمرة فى هذا الوقت فلا بد أنها صغيرة وفقيرة حتى وهى مرتبطة بزمرة راعيه .

ومن الصعب أن نقرر تماماً السبب الذى جعل الأغا يوسف غير قادر على تكوين زمرة ناجحة متماسكة ، ويمكن تفسير حالته هذه بتفسير إيجابى وآخر سلبى :

أما التفسير السلبى فيعنى أنه ربما أجمعت السلطات المحلية (فى مصر) والعثمانية (فى إستانبول) على منع هذا الزعيم الخصى الأسود من تكوين زمرة مستقلة فى مصر ، وفى أواخر القرن السابع عشر كان المشروع الفقارى القاسمى قد أصبح نسيجاً اجتماعياً سياسياً استوعب داخله كل من يدخل إليه من خارجه ، ولا شك أن احتفاظ المرء بزمرة لنفسه فى هذا المحيط مسأله تزداد صعوبة فى حالة الزعيم الخصى الأسود الذى هو بحكم طبيعته الهامشية جداً يصعب أن يستوعبه المجتمع العسكرى الذى تلعب فيه الفواصل العرقية والجنسية (الذكورة والأنوثة) دوراً مهماً .

وفى الوقت نفسه فيبدو أن إستانبول حاولت منع أى زعيم خصى أسود من أن يكون له موطئ قدم دائم فى النخبة العسكرية فى مصر ، وعلى هذا ففى سنة ١٦٧٥ عندما ترأس الأغا سليمان (١٦٥١ - ١٦٥٢) وفداً من العسكرين ليلتمسوا من السلطان عزل الوالى العثمانى ، اتهم بالتدخل فى الأمور العسكرية وتم إبعاده إلى جزيرة ليمنور Lemnos فى بحر إيجه^(٢٧) ، وربما كانت البواعث نفسها كامنة وراء إرسال الأغا يوسف (يوسف أغا) إلى المدينة المنورة (ليكون شيخ الحرم النبوى) فى سنة ١٦٩١م بعد وصوله لمصر بأربع سنوات ، وقد يعنى الإبعاد تقليل الراتب أو المخصصات مع أنه يبدو أن الأغا يوسف لم يفقد أيّاً من ممتلكاته أو امتيازاته^(٢٨) .

وعلى أية حال فثمة تفسير آخر مفاده أن الأغا يوسف (يوسف أغا) لم يكن يفكر في زمرة مستقلة وإنما كان ينوى أن يجعل من البيك مصطفى ممثلاً دائماً للزعيم الخصى الأسود في مصر ، حتى وهو مشارك مشاركة كاملة في المجتمع العسكرى المصرى ، ويزداد هذا التفسير وضوحاً إذا علمنا أن البيك مصطفى عمل وكيلاً لكل من الأغا يوسف والأغا الحاج بشير ، بينما كان هذا الأخير لا يزال كبيراً للخصيان السود^(٢٩) وكانت قوته ستزداد إذا كان البيك مصطفى قزلاًر هو نفسه البيك مصطفى الوارد ذكره في مجموعة الوثائق " المهمة " كخازندار للأغا نذير الزعيم الخصى الأسود (١٦٩٢ - ١٦٩٤) (٣٠) .

والزعيم الخصى الأسود الوحيد الذى يمكن أن نزعّم أنه وراء تكوين زمرة معتمدة على نفسها هو الأغا الحاج بشير (١٧١٧ - ١٧٤٦) الذى عاش عمراً مديداً والذى يمكن أن يُقال عنه إنه أقوى الزعماء الخصيان السود فى التاريخ العثمانى ، لقد تمّ إبعاد الحاج بشير إلى مصر قبل أن يياشر مهامه كبير للخصيان السود ، وفى سنة ١٧١٣ بينما كان يياشر أعماله كخازندار القصر السلطانى تمّ إبعاده إلى قبرص مع الأغا أوزون Uzun سليمان (١٧٠٤ - ١٧١٣) ثم انتقل بعد فترة وجيزة إلى مصر قبل أن يُنقل إلى المدينة المنورة ليكون شيخ الحرم النبوى " وتم استدعاؤه إلى القصر السلطانى فى سنة ١٧١٧ ، وكما رأينا فقد توقف - فى طريق العودة - فى القاهرة وعيّن له وكيلاً لبناء سبيل ماء فيها .

وإن كان لنا أن نصدق الجبرتى فإن الحاج بشير قد خلف وراءه أكثر من سبيل فى مرحلة من المراحل ، والجبرتى يمتدح مملوك بشير المسمى محمد أغا بتأسيسه الزمرة الجلفية بتزويجه تابعه الكخيا حسن من ابنة منصور الزاتارجى Zataharci السنجلقى (انظر الفصل الرابع ، ص ٥٣ - ٥٤ ، النص الإنجليزى) ، وربما كان الأغا محمد هذا هو وكيل الحاج بشير الذى تشير له الحوليات باسم الحاج محمد أغا (الأغا الحاج محمد) الذى ورد اسمه فى عدد من الأوامر السلطانية فى سنى الثلاثين من القرن الثامن عشر (١٧٣٠ - ١٧٣٩) والتى تتناول - أى هذه الأوامر السلطانية - موته والتصرف فى ممتلكاته^(٣١) ، وعلى أية حال ، فهذه الأوامر السلطانية لا تربط الأغا محمد بقرية سنجل فى المنوفية ، ولا يبدو أن هناك أدلة - سوى القليل - على أن الزعيم الخصى الأسود قد أقام له وكيلاً فى هذه القرية ؛ لأنها لم تكن من قرى

أوقاف الحرمين ، لكن نجد هنا مرة أخرى أنه ربما كان الأغا محمد يهتم (في هذه القرية) بمصالحه الشخصية مثله في هذا مثل الأغا عباس الذي كَوَّن له أتباعاً في هذه القرية ، ومن هنا فإن الوكيل قد يكون أكثر من قناة يمارس من خلالها الزعيم الخصى الأسود نفوذه ، فقد يستغل ارتباطاته بالمكان (القرية ... إلخ) لتحقيق مصالح ومنافع خاصة به .

التغيرات الحادثة في إدارة أوقاف الحرمين وتأثيراتها على الزمر العسكرية

مع الحاج بشير نصل إلى مسأله نفوذ الزعيم الخصى الأسود وهو شاغل لمنصبه (ككبير للخصيان) خاصة ذلك النفوذ أو السلطان الذي يخوِّله إياه توليه الإشراف على أوقاف الحرمين ، لقد كانت هذه الأوقاف تكوَّن بوضوح رباطاً مؤسسياً يربط بين المصالح السلطانية العليا والمصالح المحليّة ، فلم يَكُن التلاقى بين ما هو إمبراطورى (سلطانى) وما هو محلى مقتصرأ على الترتيبات المؤسسية ؛ بل كان مصبوغاً باعتبارات الاندماج الشخصى ، فهنا أيضاً نجد علاقات التبعية والزمرة تلعب أدواراً مهمة فى التبادل بين المركز (إستانبول أو العاصمة) والولاية (مصر) .

لقد شكلت الأوقاف الأربعة الإمبراطورية (التابعة لعاصمة الدولة) شبكة من القرى الموقوفة فى كل أنحاء مصر ، فعدة مداخل من " الفائض " الذى كان الأغا بشير يستخلصه لنفسه من هذه القرى تعطينا انطباعاً عن كيفية تخلُّل الأوقاف فى الريف المصرى ، فهذه السجلات (الوثائق) تذكر بالاسم واحداً وثلاثين قرية ، منها ٢١ قرية أستطيع أن أحكم - بشكل قاطع - أنها من قرى الوقف ومنها قريرتان أستطيع - بتردد - أن أحكم أنها منها ، وتشير التقارير إلى الجهات (الولايات الداخلية) التى تقع فيها هذه القرى بما يفيد أن هذه القرى كانت منتشرة فى تسع ولايات (مديريات أو محافظات بالمصطلح المعاصر) من بين ١٣ ولاية داخلية (٣٢) . ومع هذه المصادر الكثيرة للدخول والسلطة الإقليمية (على الأقاليم) المحققة للغرض كانت مناصب نظارة الأوقاف بالإضافة إلى مناصب تولى الالتزام محل منافسات ضارية لأسباب مفهومة ، وعلى هذا فخلال أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن

الثامن عشر - عندما كان البكوات وضباط الأوجاقات يتنافسون للحصول على عوائد الريف عمومًا - لا نندهش أن نجد إدارة أوقاف الحرمين في حالة تقلب (عدم استقرار) ، وعلى أية حال فهذه التغيرات لم تكن تثار أو تحدث بفعل المصالح المحلية وحدها وإنما كانت تشكل جزءاً من الحوار المستمر بين السلطة العثمانية المركزية والولاية (مصر) ، وكان الزعيم الخصي الأسود شريكاً أساسياً في هذا الحوار بشكل متتابع بصفة مزدوجة : باعتباره شخصاً ممثلاً للسلطة المركزية (في إستانبول) وباعتباره أيضاً شخصاً محلياً (مرتبط بمصالحه في مصر) ، وقد تغير هذا الحوار بشكل واضح في عقدين بين عامي ١٦٧٠ و ١٦٩١ م .

إصلاحات الباشا قره إبراهيم ١٦٧٠

في سنة ١٦٧٠ تعرضت إدارة أوقاف الحرمين لتغيير أساسي على يد الوالي قره إبراهيم الذي وصل إلى مصر على رأس ٢٠٠٠ جندي عثماني لإصلاح مالية مصر ، وأعاد قره إبراهيم تحديد المنوط بهم الإشراف المحلي على وقف الدشيشة الكبرى وأوقاف الحرمين ووقف الخاصكية ، ونقل نظارة هذه الأوقاف من البكوات إلى أغا الإنكشارية ، وباش جاويش الإنكشارية ، وكخيا العزيان ، على التوالي ^(٣٣) ، وعلى أية حال ، فقبل التمعن في تفاصيل هذا التحول ودوافعه لابد أن نضع في اعتبارنا الهيكل العام الذي تعامل مثل هذا التغيير معه ، ففي الدولة العثمانية تلقى شبكة من الأشخاص والصراعات والتحالفات بظلالها على البنية المؤسسية للإمبراطورية ، وأكثر من هذا فإن كلاً من المكائد المؤسسية (التي تدبرها المؤسسات) والشخصية (التي يدبرها الأشخاص) تجري خلال ثلاثة نطاقات : النطاق الإمبراطوري (مستوى الدولة العثمانية) ويشمل النظام القضائي وهيمنة رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) ودوائر القصر والسلطان وأم السلطان (والدة السلطان Valide Sultan) وكبير الخصيان السود ، والنطاق البكري (البيكوي) وضباط الأوجاقات الذين كانوا مركزاً للتنفيذ على المستوى المحلي ، ونطاق الفرق Factions والزمر households اللتين ينتمى إليهما هؤلاء النبلاء ، فإذا ما تناولنا هذا التحول في إدارة الأوقاف في ضوء هذه النطاقات ، أصبحت دوافع التغيير أكثر وضوحاً .

لقد كان والى مصر العثماني مترعراً في النطاق الأول (الإمبراطوري) وكان واحداً من الوسطاء بين نطاقه (الإمبراطوري) والنطاقين الآخرين ، وخلال النصف الثاني من حكم السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) عندما قام رؤساء الوزارات (الصدور العظام) من أسرة كوبريللي بتنفيذ إصلاحات إدارية ومالية ، كان على والى مصر أن يحذو حذو الصدر الأعظم ؛ لأنه من حاشيته ، وقد كان الباشا قره إبراهيم هو الليفنتانت الشخصي (الكخيا) للصدر الأعظم كوبريللي فاضل أحمد باشا (الباشا فاضل أحمد كوبريللي) ^(٣٤) ، وقد أجرى إصلاحات في إدارة أوقاف الحرمين فيها كثير من ملامح إصلاحات كوبريللي ؛ لضمان مزيد من السيطرة الإمبراطورية (المركزية) على عوائد الولاية ، وهذا يعنى من الناحية العملية زيادة نفوذ رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) على حساب كبير الخصيان السود والمرتبطين به فى الولاية ، وعلى هذا فقد كان هذا الإصلاح إصلاحاً محلياً ومركزياً فى الوقت نفسه .

وإذا وضعنا ذلك فى اعتبارنا سهل علينا فهم إصلاح الأوقاف كما وردت فى الحوليات ، ففي كتاب الحلاق (أخبار النواب) وكتاب أحمد (شلبى) نجد أن قره إبراهيم يشرع فى تدقيق حسابات الأوقاف فى عهد القائمقام الحالى البيك كنعان والقائمقام السابق البيك يوسف صهر النقيب ^(٣٥) ، ولما وجد حسابات هذين البيكين غير دقيقة ويعتريها الفساد أرسلهما إلى إستانبول حيث أودعا السجن ، وكان انهيار ثروة البيك كنعان على نحو خاص مسأله واضحة ، لقد كان قد أتى إلى مصر فى حاشية الوالى العثمانى شاه سوار محمد Sehşüvaroglu فى سنة ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦م وأصبح وكيلاً لكبير الخصيان السود المعزول موصلى أغا (أغا موصلى) (١٦٦٢ - ١٦٦٧) سلف الأغا عباس ^(٣٦) ، والحقيقة أنه يبدو أن البيكين كنعان ويوسف كانا هما الناظرين المحليين على أوقاف الحرمين ، رغم أن هذا غير واضح من خلال الحوليات ، ومن ناحية أخرى فقد كانا يتمتعان بصلات وثيقة بالولاة السابقين على قره إبراهيم والذين كانوا على علاقة وثيقة بالقصر السلطانى ، وعين يوسف قائمقام بواسطة الباشا البوستانجى إبراهيم (١٠٧٨ - ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٧ - ١٦٦٨ م) ، بينما كنعان رعية الوالى شاه سوار محمد تم تعيينه قائمقام بواسطة الوالى قره قاش على باشا (١٠٧٩ - ٨٠ هـ / ١٦٦٨ - ٩م) ^(٣٧) ، ورغم إصلاحات قره إبراهيم فى هذا الوقت إلا أنه عمل على مواجهة التكتل المحيط بكبار الخصيان السود والولاة

المرتبطين بالقصر^(٢٨) ، والأتباع المحليين لكل من الخصيان السود والولاة ممن ينتمون أيضاً للنخبة العسكرية .

لقد وقع اختيار قره إبراهيم على إحلال ضباط الأوجاقات في إدارة الأوقاف ، أولئك الضباط الذين غالباً ما كانوا خلال القرن السابع عشر بعديين عن القصر لكنهم أيضاً كانوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بديوان الوالي^(٢٩) ، فقد كان الباش جاويش الإنكشاري يحضر للديوان بشكل منتظم ، وفي هذه الأثناء كان الأغا الإنكشاري لا يزال يتم تعيينه من قبل إستانبول ، وأكثر من هذا فقد بدأ تقليد تعيين أغا الإنكشارية ناظرًا للوقف يترسخ على يد بعض الولاة^(٤٠) (وضع كخيا العزيان الذي أصبح له الأهمية نفسها بعد ذلك وضع يصعب التحقق منه على عكس وضع أغا الإنكشارية) ، وباختصار فإن هؤلاء الضباط كانوا أشخاصاً مؤثرين على المستوى المحلي ، وكانوا رغم ترسخ جذورهم في المركز الإمبراطوري (العاصمة العثمانية) إلا أن نفوذهم لم يمتد فيما وراء ديوان الوالي ، وإذا استطاع الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) من أسرة كوبريللي أن يعين حلفاءه كولاة ، واستطاع هؤلاء الولاة بدورهم ملء مناصب نظارة أوقاف الحرمين بضباط في دواوينهم ، عندما يستطيع الصدر الأعظم أن يحصل على جعل من عوائد الأوقاف ليكبح بذلك قوة كبير الخصيان السود وأتباعه ، وكان للإصلاح فائدة إضافية متمثلة في توزيع مناصب النظارة (المناصب الإشرافية) وضبطها إدارياً ، ففي المقام الأول كانت مناصب ضباط الأوجاقات أفضل بكثير من منصب البيك سواء من ناحية المهام المنوطة بهم أو من ناحية الفترة الزمنية ، فبتقسيم نظارة الأوقاف بين عدد من المسؤولين يكون الباشا قره إبراهيم قد منع أي نبيل من بناء نفوذ قوى لنفسه باحتكار كل المهام الإشرافية (النظارة) .

ولا يبدو أن قره إبراهيم قد وضع في اعتباره كثيراً المجال الثالث من المجالات الثلاثة التي تحدثنا عنها ونعني به الزمر المحلية ، فالفرقة (*) Faction التي كان ينتمي إليها البيك كنعان والبيك يوسف لم يرد لها ذكر في الحوليات رغم أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنهما - على الأقل - قد نشأ متعاطفين مع الفرقة القاسمية ، وعلى أية حال ففي هذه المرحلة نجد أن مجموعة إمبراطورية (انتماؤها

(*) ليس المقصود هنا : الأوجاق . (المترجم)

الأساسى للحكومة المركزية فى إستانبول) ونعنى بهم الصدر الأعظم وكبير الخصيان السود ووالى مصر - هم الذين أصبحت لهم الصدارة على شبكة الزمر والفرق المحلية ، وكان هذا أمراً غير معتاد أبداً ، كما أكدت ذلك التطورات اللاحقة فى نظارة الأوقاف .

وقف والدة السلطان ١٦٧٨

لقد بدا النظام الجديد متماسكاً لحوالى عقد من الزمان ، ثم أصبح الوقف الجديد لوالدة السلطان يُعطى لأمير قافلة الحج المصرية الفرصة لنظارة وقف إمبراطورى كبير مرة أخرى ، لقد أسست هذا الوقف ربيعة جولنوس Gülnüs أمة الله زوجة محمد الرابع فى سنة ١٦٧٨م ، وكان هذا الوقف يقدم المال اللازم لمستشفى ومطبخ يقدم الحساء فى مكة ، وكان كثير من عوائد هذا الوقف يأتى من أربعة قرى مصرية تم اختيارها بعناية ، كما كانت عوائد أخرى تحول للغرض نفسه من ميناء بولاق^(٤١) ، وسلسلة حسابات الوقف من سنة ١٦٨٢م وحتى سنة ١٧١٣م . تشير إلى أمير قافلة الحج على أنه ناظر الوقف ، بل إن كبير الخصيان السود المعزول الأغا يوسف (١٦٧١ - ١٦٨٧م) قد أطلق عليه " ناظر " فى وثائق مختلفة بعد ١١٠٨ هـ / ١٦٩٦م ، ومنذ تولّى الأغا يوسف منصب شيخ الحرم النبوى بعد سنة ١٦٩١م . يميل الباحث إلى الخلوص بأن أمة الله هى التى عينت شيخ الحرم هذا ناظر وقف على مستوى الدولة العثمانية كلها (على المستوى الإمبراطورى) بينما يكون أمير قافلة الحج ناظراً على الوقف فى المكان الذى هو فيه On the Spot وهو منصب معادل لمنصب " المتولّى " . على أية حال ، فالوثائق لم تشر أبداً للأغا يوسف أو لأى أمير قافلة حج بالناظر فى الوقت نفسه الذى يكون فيه أميراً لقافلة الحج ، بل على العكس فالوثائق تعطينا انطباعاً محدداً هو أن نهاية كل فترة من فترات نظارة يوسف كان يعقبها تولّى واحد من النبلاء المحليين^(٤٢) ، إنها مسألة صعبة أن نميز أين يقف الأغا يوسف كشخص ، وكبير الخصيان السود كمؤسسة فى علاقته مع هذا الوقف الجديد . لقد تم تأسيس هذا الوقف عندما كان الأغا يوسف لا يزال متولياً لمنصب كبير الخصيان السود ، وعلى

هذا فربما كان لديه بعض التبرير لإطلاق الناظر على أمير قافلة الحج ، فأمرأء قوافل الحج قبل سنة ١٧١٠ كونوا خطا فقارياً قوياً : ذى الفقار بيك ، وإبراهيم بك ابن ذى الفقار بك وأيوب بك ، وقايطاس بيك^(٤٣) ، وأكثر من هذا فباستثناء أيوب بك نجدهم ينتمون جميعاً لخط Line ذى الفقار بك (توفي ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ - ١٦٩١ م) : فإبراهيم بك هو ابنه ، وقايطاس بك كان مملوك إبراهيم^(٤٤) ، والارتباط بين يوسف أغا والفقارية من خلال البيك مصطفى قزلار مثلاً لا يبدو مجرد اتفاق عرضي ، فالتفسير الوحيد المحتمل للظاهرة هو أن أم السلطان وكبير الخصيان السود استخدمتا نفوذهما من جديد لرعاية الفريق Faction الذى يفضلانه فى الساحة المصرية خاصة وقد بدأت الحقبة الكوبريللية تشحُب ، ومن ناحية أخرى قد ينجح آل كوبريللى فى إضعاف كبير الخصيان السود إلى الحد الذى تجد فيه أم السلطان نفسها مضطرة للعهد بنظارة الوقف للنبلأء المحليين فى مصر ، وقد أصبح الأغا يوسف المبعُء - فى هذا السياق - منافساً للبكوات الفقارية فى نظارة الوقف .

والحقيقة - كما تشير كل الاحتمالات - تقع على نحو ما بين هذين البديلين ، فكل الأدلة تشير إلى النفوذ الهائل للأغا يوسف فى مصر وفى الفرقة الفقارية ، وفى هذه الأثناء كانت الحقيقة التى مؤداها أنه كان قادراً على الحصول على " العفو " بل وكسب تعيينه " شيخ الحرم " فى ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م ، وفى وقت لاحق بينما كان يتولى هذا المنصب حصل على نظارة وقف والده السلطان ، كل هذا يشهد باستمرار تغلغله فى القصر السلطانى ، وعموماً فبعد سنة ١٦٩١ م . كرُس الأغا يوسف نفسه لتدعيم مركزه وتقويته ، لقد ورد اسمه ناظراً حتى عندما تولى أمكا زاده Amcazade حسين باشا المصلح من آل كوبريللى (١٦٩٨ - ١٧٠٢) الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء)^(٤٥) ، وكان أميراً خلال توليه النظارة لمرتين هما الفقاريين أيوب بك وقايطاس بك ، لقد خلف أيوب يوسف فى نظارة الوقف فى سنة ١١١٥ - ١١١٦ / ١٧٠٣ - ١٧٠٤ م ، بينما أصبح مملوك يوسف ، وهو أحمد بك منوفية ، فى سنة ١١١١ هـ / ١٦٩٩ - ١٧٠٠ م . أميراً للحاج ، وباختصار فقد بدا الأغا يوسف مستخدماً ارتباطاته الشخصية بأمرأء الحاج الفقاريين ليضع يده على عوائد الأوقاف ، ومن الطبيعى أن

تصبح مهمته أيسر عندما يكون هناك سلطان متعاطف معه على العرش ، أو عندما يشغل الصدارة العظمى شخص ذو علاقة طيبة معه .

ومهما كانت تفاصيل مكائد وتدبيرات الأغا يوسف فإن المرء يخرج بانطباع قوى أن مثل هذه الإدارة والسيطرة التى مارسها على وقف والدة السلطان كانت نتيجة تأثيره الشخصى وسلطته المؤسسية ، فلم يحدث بعد ذلك أن شيخ الحرم غدا ناظراً لوقف والدة السلطان رغم الحقيقة القائلة بأن عدداً من كبار الخصيان السود أتوا بعد يوسف ، وشغلوا منصب " شيخ الحرم " بعد عزله ، إنه صحيح تماماً أن تؤكد أن الأغا يوسف كان آخر زعيم للخصيان السود يتحلى بنفوذ حقيقى وهو مبعّد (عن إستانبول) .

وحالة الأغا يوسف توضح أن ممارسة إبعاد كبراء الخصيان السود إلى مصر يمكن أن تقوى الزمر المحلية وبالتالي تُضعف سلطة الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) على توزيع عوائد الوقف ، وقد أعطى وقف والدة السلطان الفرقة الفقارية - خاصة زمرة ذى الفقار بك ، الفرصة لزيادة نفوذهم فى الوقت الذى وثّقوا فيه ارتباطاتهم بالأغا يوسف . وعلى أية حال فقد أتى وقت تنافس فيه الأغا يوسف مع هؤلاء الأمراء الفقارية على نظارة الوقف ، وعندما كان مسئول عثمانى - سواء كان مبعداً أم لا - يطرح بنقله مع زمرة - أو فرقة - محلية قوية فإنه يكون بذلك قد خاطر بنفوذه (أصبح عرضة لأن تهيمن هذه الزمرة المحلية القوية عليه) ، ومن المؤكد أن مثل هذا التهديد قد وجد فى نهاية القرن السابع عشر كما اتضح من حالة البيك إبراهيم بن ذى الفقار الذى استغل بنجاح الفرصة التى أتاحها له وقف والدة السلطان بأن فرض الاحتكار الفقارى على نظارة الوقف .

من الواضح أن مسألة إدارة وقف والدة السلطان قد تشابكت مع النطاقين : الإمبراطورى (المركزى) والمحلى لدرجة أن إصلاح الوقف الحادث فى سنة ١٦٧٠ لم يحقق هذا الهدف كما كان وقف والدة السلطان يحققه ، فالإصلاح السابق بدأه الوالى بناء على أمر الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) ، ووقف والدة السلطان يرجع فى أصله إلى النطاق الامبراطورى لكن إدارته تعتمد - من الناحية العملية - على توزيع

النفوذ بين النطاقين الإمبراطوريّ والمحليّ ، فحينما يكون للأغا يوسف كبير الخصيان السود ، يد ، فإن هذا يعنى أن إدارة الوقف تُدار من خلال النطاقين : الإمبراطوريّ والمحليّ ، وفى هذه الأثناء كان النطاق الفرقيّ (بكسر الفاء وفتح الراء Factional) قد أصبح واضحاً فى الصورة طالما أن وقف والدّة السلطان ، والأغا يوسف - على نحو خاص - يعرّزان من موقف الفرقة الفقارية ، وقد لاحظنا ميلاً من المسؤولين الإمبراطوريين عن الوقف إلى السيطرة على المسؤولين المحليين عنه ليدوروا فى فلكهم ، وكان هذا الاتجاه يواكب الميل إلى الابتعاد عن المؤسسية الخالصة ، والميل إلى تغيير الأشخاص القائمين على إدارة الوقف ، هذان الاتجاهان وصلا ذروتها - إن لم يكونا قد نشأ - فى الضربة الجسورة التى قام بها البيك إبراهيم بن ذى الفقار ، ممثلة من جهوده فى إزاحة تأثير النطاق الإمبراطوريّ ، وغلبة النطاق المحليّ .

البيك إبراهيم بن ذى الفقار وتجدد نظارة البكوات على أوقاف الحرمين

بعد واحد وعشرين عاماً فقط من تولى ضباط الأوجاقات أمور أوقاف الحرمين عادت نظارته مرة أخرى للبكرية (مؤسسة البكوات) ، ويعطينا وصف الحوليات لهذه التغييرات انطباعاً أنها لم تكن تغييرات مؤسسية فى السلطة وإنما كانت مسألة بكوات أفراد (بعينهم) سيطروا على مناصب النظارة بمرسوم سلطانى ، فهذا المرسوم الذى جعل التغيير ذا صبغة شرعية يظهر وقد عيّن أربعة أشخاص كنظار جدد (للأوقاف) ووفقاً لهذا المرسوم نجد أمير قافلة الحج البيك إبراهيم بن ذى الفقار يحل محل الأغا الانكشارى كناظر على وقف الدشيشة الكبرى ، وحلّ البيك مراد الدفتردار محل الكخيا الإنكشارى فى نظارة وقف الحمديّة ، وحل البيك إسماعيل محل الباش جاويش الإنكشارى فى نظارة وقف الحرمين ، وحل البيك عبد الله محل الكخيا العزبانى (كخيا العزب) فى نظارة وقف الخاصكية ، والرسوم السلطانى الذى يعتمد إصلاحات قره إبراهيم يشير إلى " كل من هو أغا المستحفظان ، وكل من هو باش جاويش المستحفظان " وهكذا (٤٦) .

وهذا التغيير الجديد يتلاءم تماماً مع تعيين البيك إبراهيم بن ذى الفقار أميراً للحاج فى سنة ١٦٩١م . ومع مشروعه لتوسيع دائرة نفوذه ، وكان لمشروعه هذا هدفان رئيسيان : الهيمنة على كتائب الإنكشارية بتحبيد ضباطها الأعلى رتبة ، أو - بشكل أكثر تعميمًا - إحكام السيطرة الفقارية على المؤسسات فى مصر (على كل النظام المؤسسى فى مصر) ، وليخرج الهدف الأول إلى حيّز الوجود ، أقصى الضباط الإنكشارية البارزين المنتمين للفرقة القاسمية ، وتحاشى كوار الضباط الأعلى رتبة تماماً ، وناصر الباش أوده باش basodabasi المنشق كچك (كشك محمد) (٤٧) ، لقد كانت منافسة ابن ذى الفقار للضباط ذوى الرتب العالية فى الأوجاقات قد جعلته يبدو مخططاً لسيطرة البكوات على نظارة الأوقاف بهدف إضعاف هؤلاء الضباط .

وعلى أية حال ، فلا بد ألا نهمل العنصر الفرقيّ (*) (الحزبى تجاوزاً) فى استراتيجية ابن ذى الفقار ؛ فقد كان الضباط الإنكشارية الذين أقصاهم من القاسمية ، وكان يهدف إلى ضمان السيطرة الفقارية على أوجاق الإنكشارية ، وأكثر من هذا فقد كان ثلاثة من البكوات الأربعة الذين رشحهم لنظارة الأوقاف من الفقارية ، وكان الاستثناء الوحيد هو البيك مراد - الدفتردار القاسمى ، وعلى أية حال فبعد ثمانية أشهر فقط من هذا التحول تم عزل هذا البيك (مراد) ليحل محله الفقارى القوى البيك إسماعيل ، وقد يكون عزل مراد قد أحدث أثراً فى عوائد وقف الحمديّة (وقد يكون غير ذى أثر) طالما أن نقل نظارة الوقف لم يكن - فيما يظهر - تغييراً مؤسسياً (فى طبيعة المؤسسة نفسها - والمقصود مؤسسة الوقف) كما لاحظنا آنفاً ، وقد كان البيك إسماعيل معيناً بالفعل دفتردارا فلم يكن بالتالى فى حاجة إلى التسيّد على وقف الحمديّة .

هذه الاعتبارات تجعل الأمر يبدو أقرب ما يكون إلى كون ابن ذى الفقار كان على نحو ما أكثر اهتماماً بالفرق العسكرية منه بالفرق الحزبية Factions (الانتماء الفقارى أو الانتماء القاسمى) فرغم رغبته الشديدة فى تأكيد الهيمنة الفقارية إلا أنه كما هو ظاهر كان أكثر اهتماماً بتطويق ضباط الأوجاقات الذين وصلوا لذروة قوتهم فى أواخر

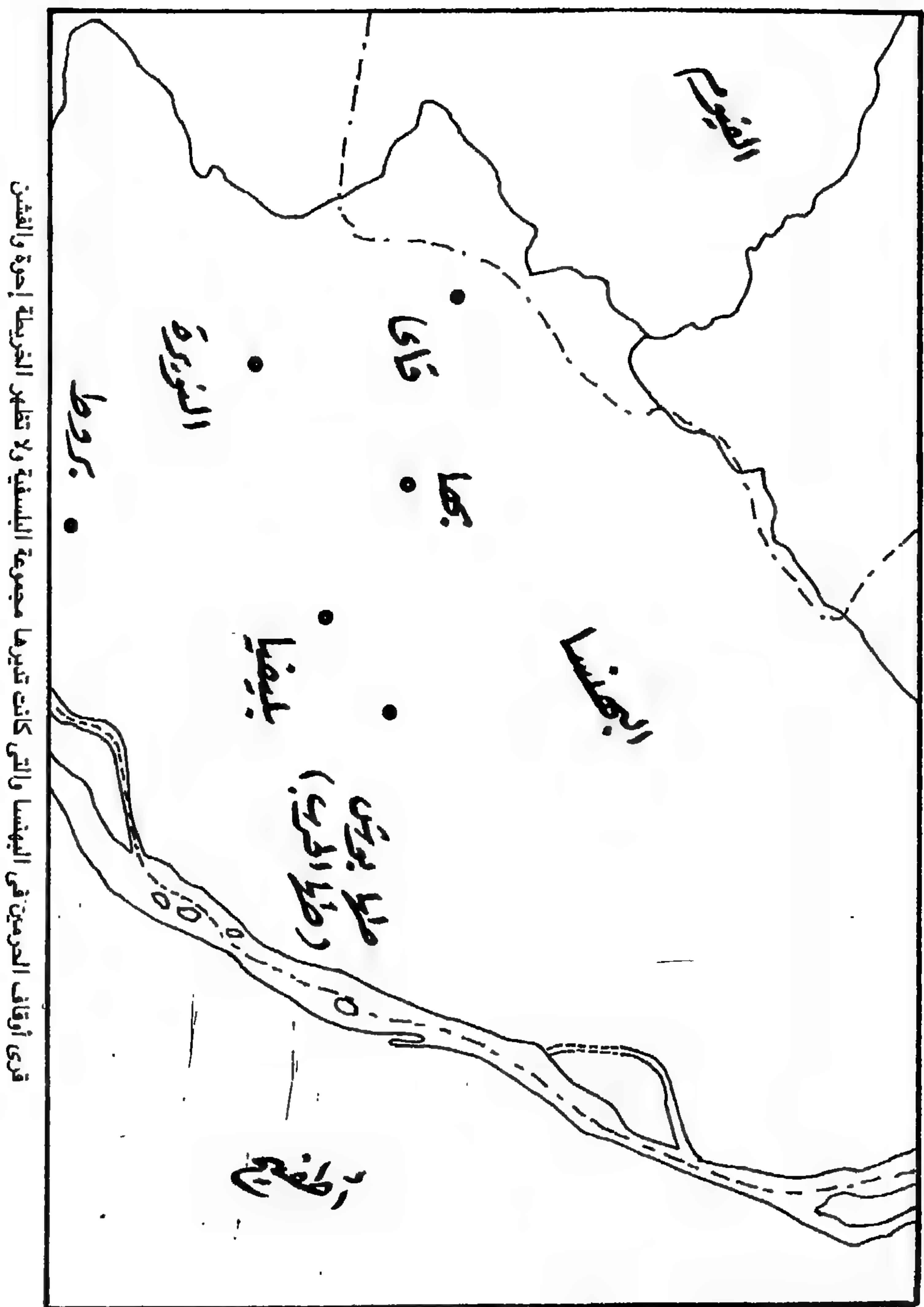
(*) المقصود الفرقتين القاسمية والفقارية ، وما بين القوسين توضيح من المترجم . (المترجم)

القرن السابع عشر ، ويمكن للمرء أن يسوق الدليل على أن ابن (ذى) الفقار قد أثار قضية عامة مع البيك القاسمى قبل أن ينحاز إلى الضابط الفقارى ، ومما يدعم هذه الفكرة تنافسه مع أكثر ضباط الفقارية قوة وهو الأغا حسن بلفية (انظر فصل ٤ ، ص ٦٦ - ٦٩ من النص الإنجليزى) .

كما أن ماورد عن وقف والدة السلطان لم يرد فيه أبداً أى أمير قافلة حج قاسمى ناظراً للوقف قبل البيك إسماعيل بن إيواظ فى سنة ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م ، ولم يكن هناك سوى اثنين من أمراء قوافل الحج القاسمية خلال الأعوام من تأسيس الوقف وحتى نظارة البيك إسماعيل : إبراهيم بيك أبو شنب فى سنة ١٠٩٩ - ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م ، وأحمد بك منوفية تابع الأغا يوسف فى سنة ١١١١ / ١٦٩٩ م ، وكان أبو شنب من القوة بمكان لأن غيابه عن الوقف كان يعد مسألة غير مقبولة ، وأكثر من هذا فنحن نعلم أن إبراهيم بك بن ذى الفقار كان يعتبر قوة أبى شنب مصدر تهديد ، فقد حاول اغتياله (انظر الفصل الرابع ، ص ٦٨) ، ومع هذا فالطبيعة العامة للوقف الخيرى تجعل المنافسة فيه مفتوحة على مصراعيها خاصة لمن تولى إمارة قافلة الحج رغم ما اعتري الفترتين اللتين تولى فيهما هذا المنصب الأغا يوسف من انحراف عن الطريق القويم^(٤٨) ، وقد مكّن تولى الفقاريين لإمارة قوافل الحج فرقته (الفقارية) من السيطرة على وقف والدة السلطان .

وكان برنامج البيك إبراهيم بن ذى الفقار - كما طبقه من خلال نظارة الوقف - واحداً من بين برامج أخرى تهدف إلى سيطرة البكرية خاصة البكرية الفقارية ، وكان وقف والدة السلطان بمثابة اختبار لمدى القدرة على السيطرة ، وربما كانت نظارة أمراء قوافل الحج الفقاريين لوقف والدة السلطان قد شجعت ابن ذى الفقار على التحرك نحو أوقاف الحرمين .

والسؤال الأكثر استعصاء على الإجابة هو ما إذا كانت خطط ابن ذى الفقار للسيطرة على أوقاف الحرمين مدينة بشيء ما للأغا يوسف ، لقد كان انتقال مناصب نظار الوقف للبكرية قد حدث خلال الشهور التى أعفى فيها الأغا يوسف ليُعين شيخاً للحرم ، وباستعراض الظروف التى تم فيها هذا يبدو من المنطقى أن نخلص إلى أن



قرى أوقاف الحرمين في البهنا والتي كانت تديرها مجموعة البسفية ولا تظهر الخريطة إحوة والفشن

وضع الأغا يوسف إزاء الأوقاف الإمبراطورية كان مرتبطاً على نحو ما برجحان كفة بكوات جماعة ابن ذى الفقار فى مناصب نظارة الوقف - كما كان الحال بالنسبة لوقف والده السلطان . وعلى أية حال فمن الغباء أن الأغا يوسف كان مسئولاً عن نجاح جماعة ابن ذى الفقار أو العكس بالعكس ، والنتيجة الأكثر قبولاً هى أنه فى أوقات بعينها أُتيح لفريق أن يستخدم الفريق الآخر لتحقيق أغراضه .

ومد سلطان البيك إبراهيم بن ذى الفقار على أوقاف الحرمين يمكن أيضاً فهمه من خلال تداخل المصالح الإمبراطورية (المركزية) مع المصالح المحلية ، تماماً كما كان الحال فى التغييرات الأخرى التى حدثت فى نظارة الأوقاف ، وفى هذه المرحلة كانت التحولات فى نظارة الوقف تعود إلى ظروف محلية ، لقد كانت السلطات المركزية (الإمبراطورية) تدعن بقدر ما كان السلطان يصدر من الأوامر ما يؤيد التغييرات التى أحدثها إبراهيم بك ، وباختصار فإن الدور الإمبراطورى (المركزى) فى هذا التحول فى نظارة الأوقاف بدا إلى حد كبير دوراً متفاعلاً مع ما حدث بالفعل (أى لم تكن المبادرة فى التحول بسبب هذه الأوامر الإمبراطورية أو المركزية) .

هذا الوصف ملائم لتوضيح طبيعة الأمر الإمبراطورى الصادر فى ١١١٠ هـ / ١٦٩٩م الذى يدعو لعودة أوقاف الحرمين لضباط كتائب الإنكشارية والعزبان ليكون الوضع كما هو " فى الأول " (٤٩) ، وكان السلطان الذى أصدر هذا الأمر استجابة لضباط الأوجاقات المظلومين هو مصطفى الثانى الذى كان صدره الأعظم (رئيس وزرائه) فى ذلك الوقت هو أمكا زاده حسين كوبريللى ، ويتوافق تاريخ إصدار هذا المرسوم مع محاولة إنعاش إصلاحات كوبريللى (إعادتها للحياة من جديد) (٥٠) ، ورغم ذلك فإن هذا الأمر (المرسوم أو الفرمان) كما تدل كل الشواهد قد تجاهله البكوات الذين استمروا فى الهيمنة على نظارة الوقف ، ويشير هذا الإخفاق الإمبراطورى (إخفاق الحكومة المركزية فى إستانبول) إلى التعارض بين ثورة ابن ذى الفقار والتحولات الكبيرين اللذين حدثا فى وقت باكر فيما يتعلق بنظارة الأوقاف ، وفى هذه الحال لم يقم أى والٍ مصلح بتقنين (تكويد) توزيع مناصب النظارة ، ولم يعد أى قريب للسلطات الإمبراطورية ذى طموح يجد وقفاً جديداً (يتولى نظارته) ، وباختصار لم تعد هناك أية سلطة إمبراطورية تعمل على تثبيت أى مجموعة محلية فى السلطة ،

وبدلاً من ذلك أصبحت المبادأة في يد القوة المحلية ، وأجبرت المسؤولين الإمبراطوريين في الحكومة المركزية على الاعتراف بسلطانها ، بل إن تضخم نفوذ ابن ذى الفقار لم يكن في اتجاه واحد ، فقد أدّى تأسيس وقف والدّة السلطان ودعمها الدائم للأمراء الفقاريين وكذلك دعم كبير الخصيان السود المبعد لهم إلى وجود مناخ ملائم ساعد على علو شأن ابن ذى الفقار ، وبتقوية قوى محلية بعينها عملت القوى الإمبرطورية (المركزية) على تمكينها من تعزيز موقفها .

فما هو إذاً العنصر الفِرَقى (*) (بكسر الفاء وفتح الراء Factional) الذى بدأ دائماً متسيداً على النطاق المحلى ؟ إن التغييرات الحادثة في إدارة الوقف من سنة ١٦٧٨ فصاعداً تنحاز بشكل واضح للفقارية طالما أن أعضاء هذا الفريق الفقارى هيمنوا على مناصب نظار الوقف ، ورغم أن الأغا يوسف كان له على الأقل تابع من القاسميين إلا أنه يدعم الكتلة (الفرقة) الفقارية ، وفي هذه الأثناء كان مخطط ابن ذى الفقار قد تقرر بتأييد الفقارية رغم أنه أيضاً اتبع برنامج إتباع (أو إلحاق) ضباط الأوجاقات ذوى الرتب العالية للبكوات ، وأكثر من هذا فهو باتباعه هذا البرنامج لم يتردد في إبعاد المجموعات المنافسة داخل التكتل الفقارى وحالة زمرة الأغا حسن بلفية جديرة بالملاحظة ، ومع هذا فحقيقة خلو نظارة الأوقاف من القاسمية خلواً شبه تام في الفترة من ١٦٧٨ إلى ١٧١١ م . يشير إلى أن الفريق المواجه (الفقارية) قد استخلصوا لأنفسهم إدارة (نظارة) الأوقاف ، ولا جدال في أن التغييرات في إدارة الوقف الناتجة عن إنشاء وقف والدّة السلطان وطموح ابن ذى الفقار قد أفادت الفقارية .

لقد كانت زيادة الهيمنة البكرية على يد ابن ذى الفقار في هذه الأثناء ناجحة على المدى الطويل كنجاح مشروعه لفرض الهيمنة الفقارية ، ويظهر مثال البيك عثمان ذى الفقار وهو أمير فقارى في القرن الثامن عشر (ولا علاقة له بالبيك إبراهيم بن ذى الفقار) - يظهر أن أمير الحاج لم يكن قادراً على الاحتفاظ بنظارة الوقف فحسب وإنما كان أيضاً قادراً على مد سيطرته على الأوقاف الإمبرطورية (التابعة

(*) نسبة للفرقتين القاسمية والفقارية . (المترجم)

للحكومة المركزية) ، وكما أوضحنا فى الفصل الخامس فإن البيك عثمان رسم خطاً لا للسيطرة على نظارة الدشيشة الكبرى فحسب وإنما أيضاً للسيطرة على نظارة المرادية والخاصكية ووقف والددة السلطان ، وكان هذا أيضاً مع موافقة ضمنية للمسئولين العثمانيين الذين لم يتحركوا إلا متأخراً لكبح جماحه .

زمرة الأغا حسن بلفية وأوقاف الحرمين

المنافسة ذات الطابع المرير التى كانت بين ابن ذى الفقار - داخل التكتل الفقارى - والقائد التابع لأوجاق الجمليان Gönüllüyan (الأغا حسن بلفية) تطرح مسألة أهمية نظارة الوقف بالنسبة للنفوذ المحلى أو النفوذ على المستوى الإمبراطورى ، إلا أن الأغا حسن يقدم لنا مثلاً لطريق آخر للسلطة والنفوذ ، فلم يكن حسن " بيكا " ولا " ناظرأ " لوقف إمبراطورى ، ولكنه جمع العوائد وكون سلطة إقليمية بحصوله على التزامات مجموعة من قرى صعيد مصر موقوفة على الحرمين (من أوقاف الحرمين) ، ورغم أنه هو نفسه كان يقيم عادة فى القاهرة كما يفعل أمراء الحاج ، إلا أنه نثر أتباعه ووكلاءه بطريقة تجعله يحتفظ بسيطرة مباشرة على قاعدة سلطانه فى البهنسا بصعيد مصر ، وبذا أصبح له سيطرة إقليمية خالصة مما كان ينقص ابن ذى الفقار ^(٥١) ، لقد بدا غير متطع لمناصب البكوية الفخمة ولا لمناصب نظارة الأوقاف المفضية إلى النفوذ ، وعلى أية حال فقد عمل على جعل أتباعه وحلفائه فى مواضع تمكنهم من الحصول على هذه المناصب لأنفسهم ^(٥٢) .

إذاً ، فأى هذه الطرق أكثر فائدة للسيطرة على مناصب النظارة الكبرى أو الالتزامات لقرى الوقف الاستراتيجية ؟ لقد سلك معسكر الأغا حسن بلفية الطريق الأخير (للسيطرة على قرى الوقف الاستراتيجية) فبرز بذلك معسكر ابن ذى الفقار الذى سلك الطريق الأول (طريق الحصول على نظارات الأوقاف) ، ومع هذا فيمكن القول إن مجموعة الأغا حسن كانت لا تزال راغبة فى الحصول على مناصب النظارة ، فالأمر الإمبراطورى (السلطانى) الصادر فى سنة ١٦٩٩ م ، والذى يدعو لعودة مناصب النظر إلى ضباط الأوجاقات ، كان - حتى لا ننسى - بناء على التماس تقدم به

ضباط الإنكشارية والعزبان وكان من بين مقدمى هذا الالتماس أحد رعاة (حماة) الأغا حسن ، ونعنى به الكخيا مصطفى القازدغلى ، وبطبيعة الحال ففى وقت لاحق فإن مجموعة بلفية الفرعية وعلى رأسها البيك ذى الفقار احتكرت منصب إمارة الحاج على نحو أكثر كفاءة وأبعد أثراً مما فعل - بعد ذلك - البيك إبراهيم بن ذى الفقار .

يمكن للمرء إذن أن يسوق الدليل على أن الطريق الذى اتبعته مجموعة الأغا حسن نتجت عن حالة بسيطة هى حالة حصرم حلب (التظاهر بعدم الرغبة فيما لا يمكن الحصول عليه) ، لقد ركزت المجموعة البلفية على التزامات القرى خاصة التابعة لأوقاف الحرمين لعدم مقدرتها على الوصول إلى مناصب الوقف الكبرى ، وكانت مثل هذه الالتزامات الزراعية ذات أولوية كبرى بين ضباط الفرق العسكرية (الأوجاقات) بشكل عام ويشهد بذلك سجل الالتزامات (مقاطعة دفتري) الخاص بالسنوات ١٧٢١ - ١٧٢٣م^(٥٣) ، لقد كانت هذه القرى هى مصدر الحبوب التى كانت تصدر لفقراء المدينتين المقدستين أثناء موسم الحج ، وبدون السيطرة على القرى المنتجة للحبوب لا يمكن أن تعنى السيطرة على نظارة الأوقاف سوى القليل ، ومن هنا فإن هذه القرى كانت أيضاً محل طمع أمراء الحج الآن أو مستقبلاً ، كما اتضح فى حالة البيك القاسمى المنافس إسماعيل بن إيواظ ، وكذلك شركس محمد فى أواخر العشرينيات من القرن الثامن عشر^(٥٤) .

لقد استطاع الأغا حسن - وجماعته - بسيطرته على قرى الوقف الاستراتيجية السيطرة على تصرفات نظار أوقاف الحرمين ، وإذا نحننا سيطرة المجموعة البلفية على قرى الأوقاف نجدها - أى هذه المجموعة - قد نعمت أيضاً بعوائد من الجمارك وتجارة البن ، وعوائد " حماية " أصحاب المهن والتجار فى القاهرة ، " وهى مهام كان يقوم بها ضباط ملتزمون بها " Officer / tax Farmer " . هذه المجموعة من العوائد أعطت المجموعة قدراً من القوة فى المضمارين الاقتصادى والسياسى لم يستطع أمراء الحاج فى فترة من الفترات تحديها^(٥٥) .

ومع هذا فلم يكن الأغا حسن بالضابط الذى يواجهه البكوات بشكل راديكالى ، فلم يرقم بأى دور فى حروب الرتب التى بدا البيك إبراهيم بن ذى الفقار شغوفاً

بخوضها ، وبدلاً من ذلك وجدناه يمزج - بدهاء - الضباط والبكوات داخل زمرة ليحصل على أعلى مزايا ممكنة من العوائد المتاحة ، ومن هنا فقد صاغ تحالفاً مع البيك إسماعيل الدفتردار الذي كان هو نفسه قد رقاه من أغا إلى بك ، بينما زرع الكخيا مصطفى القازدغلي ، وقد أعطته صلته بالبيك إسماعيل ارتباطاً بأوقاف الحرمين ، مادام البيك إسماعيل - من خلال إعادة التنظيم الذي جرى في سنة ١٦٩١ - قد أصبح مسئولاً عن أوقاف الحرمين ، وعلى أية حال فلو أن التماس سنة ١٦٩٩ نجح في استعادة ضباط الإنكشارية والعزبان وعلاقات مؤثرة ، ما دام كخيا الإنكشارية كان واحداً من رعيته *Protegé* ، من الواضح أن الأغا حسن تفوق على البيك إبراهيم ابن ذى الفقار في التخطيط المستقبلي (تحسب ما هو آتٍ) ، لقد كانت زمرة قد أُعدت لاهتبال عوائد أوقاف الحرمين إذا ما أتاحت الظروف ذلك ، بالإضافة إلى أن زمرة قد وضعت في اعتبارها بدائل للدخل كثير منها ذو صلة بالوقف ، مما ضمن له السطوة في حالة ضياع أى فرصة من الفرص .

زمرة الأغا حسن بلفية وكبير الخصيان السود

هل استفاد الأغا حسن بلفية بحصوله على التزام قرى الوقف الاستراتيجية من ارتباطاته الإمبراطورية (بالسلطات في إستانبول) ، تلك الارتباطات التي بدا أن البيك إبراهيم بن ذى الفقار قد نَعِمَ بها ؟ حقيقة إن أحواله قد انتعشت في ظل والين كانت علاقته بهما طيبة خلال العقد التاسع من القرن السابع عشر : ، الواليان إسماعيل باشا وقره إبراهيم باشا ، سمحا للأغا حسن والبيك إسماعيل الدفتردار والكخيا مصطفى القازدغلي بتدبير أمور الولاية (مصر) بشكل فعال ، وعلى أية حال فيمكن للمرء أن يستنتج أن الأغا حسن - فوق كل ذلك - قد نعم بارتباطات هامة مؤثرة بالبلاط العثماني طوال حياته ، فالرياسات الأوجاقية التي تولاهما تجعله إفرازاً من إفرازات البلاط العثماني ، وأكثر من هذا فقد كان راعيه الجاويش محمد قياه *Qiyala* (من الواضح أنه كان في وقت من الأوقات متولياً التزام شبرا قياه - إحدى قرى أوقاف الحرمين في الغربية) ^(٥٦) ، ومادام الذين يتولون التزام قرى أوقاف

الحرمين لابد أن يقرهم - أو يباركهم - كبير الخصيان السود فلا بد أن الأغا حسن بلفية قد نعم بشيء من الروابط مع هذا المسئول (كبير الخصيان السود) .

لقد كان على الأغا حسن أن يدعم مهمته من خلال مختلف كبار الخصيان السود ومع أى من التقلبات التى قد تحدث نتيجة ميولهم المتباينة ، وكما ظهر فى القسم الأول من هذا الكتاب فقد أشرف يوسف أغا كبير الخصيان السود - على نحو ظاهرى - على صعود نجم منافس الأغا حسن (البيك إبراهيم بن ذى الفقار) ، ومن ناحية أخرى تحالف تابع يوسف الفقارى (مصطفى بك قزلار) مع المجموعة البلفية ، وعلى هذا ففى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر عندما بسط الأغا يوسف نفوذه ببراعة على القاهرة تعلم الأغا حسن بلفية أن يستعد لأى احتمال .

لقد أصبحت ارتباطات الزمرة البلفية بكبير الخصيان السود - فيما يبدو - أكثر توثقاً بعد موت الأغا حسن ، وأصبح يمكن الاعتماد عليها بشكل أكثر فائدة ، خاصة خلال تولى الأغا الحاج بشير لفترة طويلة (١٧١٧ - ١٧٤٦) ، وبينما بدا الأغا حسن قد مارس السلطة الفعلية إلى جوار البلفية ، فإن مملوكه البيك مصطفى بلفية^(٥٧) تلقى مرسوماً رسمياً بإدارة قرى البهنسا المرتبطة بمختلف أوقاف الحرمين ، وصدر فرماناً فى سنة ١٧٣٣م بتسليم كل قرى الوقف المختلفة فى الإقليم للبيك مصطفى كسيربستيه Serbestiyet (أى إقليم له حق إدارته إدارة ذاتية بشكل كامل) إلا أنها لا تعد ملكية كاملة له^(٥٨) ، وتم إدراج تسع قرى بالقرب من بلفية ، منها ست أمكننى (أى المؤلفه) التعرف عليها وتحديدها ، وهى التى وضحتها فى الخريطة ، وهى تمثل المجال الوثيق للبلفية فى البهنسا ، والحقيقة المادية (الملموسة) عن مجال النفوذ هذا تؤكد أن التزام قرى الوقف ليست - ببساطة - مجرد مصادر للدخل ، وإنما كان يمكن استخدامها طريقاً لتوسيع مجال النفوذ الإقليمى^(٥٩) ، وبهذه الطريقة كانت الارتباطات مع الزعيم الخصى الأسود يمكن تحويلها إلى سلطة إقليمية حقيقية .

وتعطينا حولىة الدمرداشى إشارة مثيرة لعلاقة أكثر مباشرة وتوثقاً بين مجموعة البلفية والأغا الحاج بشير ، ويصور الدمرداشى المشهد الذى اختارت فيه الدولة

(الحكومة المركزية فى إستانبول) البىك محمد قطامش أميراً للحاج رداً على هجوم البدو على قافلة الحاج المصرية فى سنة ١٧٣٣ ، " وقال أغوات دار السعادة ، وفيما يتعلق بالدفتردارية ، ابن سيدى البىك محمد إسماعيل ^(٦٠) ، والبىك محمد هذا كان ابناً للبىك إسماعيل الدفتردار زوج ابنة الأغا حسن بلفية " ، ولا يستطيع المرء أن يضمن المقصود بكلمة " سيدى " لكن فى مواضع أخرى من حولية الدمرداشى وفى المصادر المملوكية ترتبط كلمة " سيد " بالتكريم (master) ^(٦١) ، ومن ناحية التسلسل الزمنى من الممكن أن يكون البىك إسماعيل سيداً " master " للحاج بشير ، رغم أن الأغا حسن بلفية هو المرشح " لهذه السيادة " بشكل أكثر معقولية ، وعلى أية حال فربما كان الأمر الأكثر أهمية أنه أشار إلى أن طبيعة العلاقة التى تعنى علاقة السيد بالعبد هى حقيقة أن مؤرخاً محلياً كالدمرداشى قد أدرك تدخل كبير الخصيان السود فى أمور مصر وارتباطه ببعض الفرق Faction المحلية - هى فى هذه الحال المجموعة البلفية .

وفكرة أن تولى التزام قرى الأوقاف تعنى سلطة ونفوذاً فى الإقليم الذى تقع فيه هذه القرى فكرة لقيت تأييداً فى الكتابات التى ظهرت بعد ذلك (١٧٤٦ - ١٧٤٧ م) والتى تناولت " الفائض " الذى تراكم لدى الأغا الحاج بشير من عدد من قرى أوقاف الحرمين بمصر ، وثلاث من هذه القرى سلّمت كالتزامات لعدد من النبلاء المحليين : شعشاع فى المنوفية للكخيا العزيانى رضوان الجلفى ، وبشبيش فى الغربية للجاويش الإنكشارى عبد الرحمن القازدغلى ، وكلا الباب Kila al- Bab فى الغربية لأمير الحاج السابق البىك عمر قطامش ^(٦٢) ، والمصطلح الذى كان يستخدم فى إسناد القرية لشخص ما هو " عهدة فلان " وهى عبارة تعنى ببساطة أن القرية موضوع الحديث أصبحت التزاماً للشخص المذكور ، والقرى " العهدة " المدرجة فى هذه الرواية كلها لأشخاص من الزمرة الفقارية بعد طرد البىك عثمان ذى الفقار ، لقد أصبحوا زعماء لزمرة القازدغلية وحلفائهم الجلفية والقطامشة . وإذا افترضنا أن هذه القرى " العهد " (بضم العين وفتح الهاء Undecis) كانت تنعم بدعم الأغا الحاج بشير ، يكون فى ذلك شاهد على أن الزمرة القازدغلية وحلفاءها قد حلّت محل بيت house ذى الفقار برضا ضمنى على الأقل من كبير الخصيان السود .

خصيان البلاط في الزمر المصرية

ومسألة الموافقة الضمنية أو الرضا الضمني وثيقة الصلة بالطبيعة المتغيرة للعلاقة بين ماهو إمبراطوري وماهو محلي خلال القرنين ١٧ و ١٨ ، وخلال أواخر القرن ١٧ أخذ الأغا يوسف كبير الخصيان السود المبادرة بتجميع الأتباع في مصر فكون بذلك قاعدة سلطة على المستوى المحلي ، ويبدو من المنطقي أن نفترض أن الأغا الحاج بشير القوى اتبع المسلك نفسه من حيث تجميع الأتباع في المكان الذي هو فيه ، بشكل مستفز ، ويبدو أن الزمرة الجلفية كانت أكثر الزمر التي نتجت عن جهوده تماسكاً ، ومع هذا فافتراض أن الأغا بشير كان تابعاً للبيك إسماعيل الدفتردار يضع طبيعة هذا النشاط موضع تساؤل ، فإذا كان كبير الخصيان السود المبعد (بضم الميم وفتح العين) يمكن أن يجند القوى البشرية في زمرة ويختار من النبلاء المحليين من يضمهم إليها فهل كان يمكن أيضاً أن يتم تجنيد كبير الخصيان أو اختياره ؟ يمكن للمرء أن يتوقع أن يصبح نبلاء محليون أكثر ميلاً للتعامل مع خصيان البلاط الإمبراطوري سواء كانوا مبعدين أم لا .

هذه الاعتبارات قد تساعدنا على توضيح ظهور خصي البلاط في سجل ممتلكات الكخيا عثمان الفازدغلي ، الأمير (النبيل) الذي صنع " made " من الزمرة القازدغلية قوة محلية هائلة ، وقائمة ممتلكات الكخيا عثمان المحفوظة في أرشيف محكمة القاهرة الشرعية تضم قائمة باتباعه (توابعه his twābi) ، والتاسع من هؤلاء " التوابع " شخص اسمه بشير ، أغا دار السعادة ^(٦٣) ، والمصطلح أغا دار السعادة يشير على نحو خاص إلى خصيان الحريم السلطاني في إستانبول ، ويستخدم تبعاً ليعنى كبير الخصيان السود ، وإشارة خصي من خصيان الحريم في هذا السجل يبدو مثيراً للدهشة تماماً ما دام الأمير أو النبيل المحلي كان أقرب بكثير لأن يكون تابعاً للخصي (وليس العكس) ، كما رأينا فيما ذكرناه آنفاً ، والأكثر من هذا أيمن أن يكون هذا الأغا بشير واحداً من خمسة يحملون الاسم والرتبة نفسيهما (الأغا بشير) كان كل واحد منهما كبيراً للخصيان السود في القرن الثامن عشر؟ ويبدو أن اثنين فقط من هؤلاء الخمسة يمكن اعتبارهما من زمرة الكخيا عثمان : الحاج بشير (١٧١٧ - ١٧٤٦م) وبشير الثالث (١٧٥٢ - ١٧٥٥م) .

ولم يستقر الحاج بشير في القاهرة سوى فترة قصيرة : ما بين إبعاده إلى قبرص وتعيينه شيخاً للحرم النبوي في المدينة وفي طريق عودته إلى إستانبول ليبدأ عمله ككبير للخصيان السود في البلاط ، ومع هذا فمن المؤكد أنه كَوَّن علاقات قوية في مصر ربما يكون قد كونها أثناء السنوات الأربع التي قضاها في المدينة (١٧١٣ - ١٧١٧م) ويمتدح الجبرتي الحاج بشير بأن عزا إليه تأسيس الزمرة الجلفية ، ويلمح الدمرداشي إلى أنه من زمرة البيك إسماعيل الدفتردار ، ولكن البيك إسماعيل كان قد مات منذ عدة سنوات ^(٦٤) قبيل وصول الحاج بشير إلى مصر ، وإن كانت زمرة (أى زمرة البيك إسماعيل) قد استمرت (بعد موته) مزدهرة ، وفي هذه الأثناء لم تكن زمرة الكخيا عثمان القازدغلي قد انتهت إليه حتى العقد الثاني (١٧٢٠ - ١٧٢٩) ، وفي هذا الوقت كان الحاج بشير قد اختفى في إستانبول (منهمكاً في عمله ككبير للخصيان السود) .

أما بشير الثاني أو مورالي Morali بشير (١٧٤٦ - ١٧٥٢) فقد تم إعدامه حتى قبل أن يرى مصر ^(٦٥) ، وخلفه الذي سنطلق عليه تسهياً اسم بشير الثالث أصبح كبيراً للخصيان السود في سنة ١١٦٥ هـ / ١٧٥٢م في إستانبول ثم خلع وتم إبعاده إلى مصر في سنة ١١٦٨ هـ / ١٧٥٥م ، وبحلول هذا العام كان الكخيا عثمان القازدغلي قد مات منذ حوالي عشرين سنة ، من الواضح إذن أنه لا بشير الثالث ولا الحاج بشير كانا من الأتباع الخصيان للكخيا عثمان . وعلى أية حال فإذا دخل أى من هؤلاء الذين يحملون الاسم (الأغا بشير) إحدى الزمر في مصر قبل أن ينضم إلى مجموعة الخصيان في البلاط فإن الفكرة (المشروع) تصبح أكثر معقولة من الناحية الظاهرية ، فالخصيان - تقليدياً - كان يُحضرهم للسلطان العثماني وإلى مصر الذي كان يشتريهم من أسواق الرقيق بالقاهرة بعد أن يكون قد تم شحنهم من سنار ودارفور ، وبعد أن يقوم اختصاصيون أقباط بإحصائهم في صعيد مصر ^(٦٦) ، وكان الوالي يختار الخصيان لنفسه من القافلة نفسها التي يرسل منها الخصيان إلى السلطان العثماني ، وبالنسبة لخصيان الحريم كان لابد أن يتدربوا في دار الوالي قبل نقلهم للحريم السلطاني ، وكان النبلاء في مصر - بالتأكيد - يختارون الخصيان من هذا الطريق نفسه ، وكانوا ولا شك يهدون بعضاً من خصيان زمرهم للقصر السلطاني كلما ترقوا في الرتب وفي السلك الوظيفي .

وإذا قبلنا فكرة أن الأغا بشير الثالث انضم إلى زمرة الكخيا عثمان القازدغلي في الفترة ما بين استرقاقه والتحاقه بالخدمة في القصر السلطاني ، فإن هذا الأمر يكون مقبولاً ، وعندما أصبح بشير الثالث كبيراً للخصيان السود في سنة ١٧٥٢م . فربما كان سنه - على الأقل - ستين عاما ، وكان من الطبيعي أن يعنى هذا المنصب خدمة طويلة في الحريم السلطاني : ومعظم كبار الخصيان السود تولوا المنصب في أواخر حياتهم ، وكانوا يظلون فيه فترة تتراوح ما بين عام وخمسة أعوام ، وسرعان ما كانوا يموتون بعد عزلهم ، وطالما أن معظمهم كان يتم إخصاؤهم قبل البلوغ أو عنده فيمكننا أن نحسب أن استرقاق بشير الثالث جرى قبل فترة تتراوح ما بين أربعين وخمسين عاما قبل تعيينه كبيراً للخصيان السود ، وعلى هذا فلا بد أنه انضم إلى زمرة الكخيا عثمان بعد سنة ١٧٠٢م . بقليل ، وقبل تعيينه في القصر السلطاني للمرة الأولى قبل سنة ١٧٢٠م . بقليل^(٦٧) ، وكان الكخيا عثمان في ذروة سلطانه في العقد الثاني (١٧٢٠ - ١٧٢٩) وبواكير العقد الثالث (١٧٣٠ - ؟) وكان - كما هو مفترض - قد كوّن لنفسه حاشيه قبل وفاة حاميه الكخيا حسن في سنة ١٧١٦م ، وعلى هذا فيبدو أنه من الممكن (من حيث التابع الزمني على الأقل) أنه قد ضمّ بشير أغا الثالث لزمرة خلال هذه الأعوام .

فإذا كان بشير الثالث هو فعلا كبير الخصيان السود الإمبراطوريين الذي ظهر اسمه في سجل وراثة الكخيا عثمان ، فلا شك إذن أن انتسابه يعطيه الأساس الذي يبنى عليه عندما عاد للقاهرة عند عزله في سنة ١٧٥٥م ، وربما يساعدنا هذا الارتباط على فهم ما ورد في كتاب " وصف مصر " الذي أعدته القوات الفرنسية المحتلة ، عن منزل في الأزيكية خاص بالأغا بشير ، ووفقا لما ذكره أندريه رايموند Raymond فهذا المنزل قد تم إنشاؤه في الفترة من ١٧٥٥ إلى ١٧٩٨م (الحملة الفرنسية على مصر)^(٦٨) .

وهذا المنزل المُقام في الأزيكية يصبح على نحو خاص مثيراً للجدل عندما نستدعي للذاكرة منزل الأغا يوسف في سوقة عصفور الذي ورثه يوسف من حاميه الأغا تاز (طاز) ياتور على وانتقل بعد ذلك لممالك (ممالك يوسف) ، فهذا المنزل - يبدو أنه

كان المقر الفعلى لكبير الخصيان السود المٌبعد ووكلائه وأتباعه ، وربما كان منزل الأغا بشير فى الأزبكية - على النحو نفسه - قد تم إنشاؤه لتحقيق هذا الغرض نفسه ، أى كقاعدة جديدة للخصيان المٌبَعدين ، وممثلاً لانتقال مركز إقامة النخبة ، ومن ثم يمثل قوة سياسية لما هو كائن غرب الأزبكية ، وأكثر من هذا فقد كانت الأزبكية موقعاً ملائماً لمثل هذه المراكز القيادية ؛ فقد كان منزل الأغا بشير بالقرب من منزل راعيه الظاهرى الكخيا عثمان القازدغلى وبالقرب من منزل حلفاء عثمان من التجار الشراييبية ذوى النفوذ ، وأكثر من هذا فقد كان المنزل محاطاً بمقار إقامة أكثر نبلاء القازدغلية فى أواخر القرن الثامن عشر خاصة البيك إبراهيم ، والبيك مراد ، والبيك إسماعيل الذين حكموا القاهرة خلال العقدين الثامن والتاسع (١٧٨٠ - ١٧٩٩) ، هذا التجمع أحال الأزبكية - بالفعل - إلى بحيرة قازدغلية .

كل هذه الاعتبارات تساعدنا فى توضيح العلاقات بين الكخيا إبراهيم القازدغلى وكبار الخصيان السود ، لقد وصل الكخيا إبراهيم إلى السلطة على أنقاض الأغا الحاج بشير ؛ ذلك أن موت الخصى العجوز عجل بسقوط مجموعة قطامش ، وإبعاد الكخيا عبد الرحمن القازدغلى فى الوقت نفسه ، وتشير الأدلة فى هذه الظروف إلى أن صعود الكخيا إبراهيم لم يكن ممكناً إلا بتعاونه مع أخلاف الأغا الحاج بشير : الأغا مورالى بشير (١٧٤٦ - ١٧٥٢م) ، والأغا بشير الثالث (١٧٥٢ - ١٧٥٥م) ، والأهم الأغا أبوكف أحمد (١٧٥٥ - ١٧٥٨م) المنافس الأول للوالى راغب محمد باشا ، والحقيقة أن أبوكف أحمد استقر فى القاهرة قبل أن يصبح خازندار البلاط فى سنة ١٧٥٤م ، فقد كان إذاً حاضراً (فى القاهرة) عندما كان الكخيا إبراهيم فى ذروة سلطانه ، وصدرت عدة أوامر سلطانية بشأن استعادة ممتلكات أبى كف بعد موته ، ويُفهم من هذه الأوامر أنه كان - إلى حد ما - يعتمد مالياً على الكخيا إبراهيم^(٦٩) ، ولذا فإن أى فضل قدمه لإبراهيم إنما كان رداً للجميل .

وتفيد أمثلة الكخيا إبراهيم والكخيا عثمان والبيك إسماعيل الدفتردار أن زمرتى البلفية والقازدغلية عملتا على غرس خصيان القصر السلطاني فيهما (فى الزمرتين) ، وهذا يعنى ما هو أكثر من مجرد مجاملة كبير الخصيان السود على أمل الحصول على

التزامات قرى أوقاف الحرمين ، لقد كان هذا يعنى أيضاً ضم الخصيان الشبان فى إحدى الزمر تم تقديمهم فى وقت لاحق للقصر السلطانى ، على أمل ألا ينسى الخصى هذا الإحسان (وعلى هذا فقد ظل الأغا الحاج بشير يتذكر إحسان البيك إسماعيل وفضله عليه) ، وقد يعنى هذا أيضاً صياغة تحالفات مع الوكلاء أو المشمولين بالرعاية من الخصيان السود الذين يمارسون مهام مناصبهم بالفعل أو الذين تم إبعادهم عنها كما فعلت البلفية مع البيك مصطفى القزلار وكما فعلت القازدغلية مع الجلفية .

لقد كانت الزمرة القازدغلية تتوقع كما توقعت البلفية قبلها أن رعاية خصى شاب يمكن أن يؤتى ثماره يوماً عندما يصبح هذا الخصى كبيراً للخصيان السود ، ومن ثم يكون تابعاً للزمرة التى أحسنت إليه ، هذه الاتجاهات الانتهازية جعلت خصيان الحريم أعضاء فى الزمر وذوى دور فى التراث السياسى للنخبة العسكرية فى مصر ، لقد كان هؤلاء الخصيان يشكلون رباطاً دائماً بين الزمر المحلية والقصر السلطانى عندما يمكن أن يؤدى تدخل كبير الخصيان السود لصالح أمير طموح إلى رفعه (أى رفع هذا الأمير) إلى أعلى المناصب فى مصر وأكثرها ربحية ، وعند أى مواجهة مع الوالى العثمانى فى مصر أو الصدر الأعظم (رئيس الوزراء فى إستانبول) يمكن أن يكون كبير الخصيان السود حليفاً قوياً يمكن الاعتماد عليه ، وفى الفترة من ١٦٧٨ إلى ١٧٥٤ - مع استثناءات قليلة - كانت الجماعة التى تحظى بتأييد كبير الخصيان هى التى تسيطر على مصر سواء أكانوا ضباط أوجاقات أم بكوات (٧٠) .

ويجب ألا نغفل للحظة عن حقيقة أن أداة كل هذا التبادل السلطوى بين المركز (العاصمة إستانبول) والولاية ، كانت هى الزمرة ، فالخصى لم يكن يملك سلطاناً أو نفوذاً لمجرد أنه خصى وإنما لارتباطه بزمرة بعينها ، فالعضوية فى زمرة نافذة فى القاهرة - سواء كانت زمرة الوالى أو زمرة أخرى - كان يمكن أن تكون مدخلاً للقصر (البلاط) السلطانى ، وفى المقابل كان الانتماء إلى زمرة السلطان (حاشيته أو بلاطه) يمكن كبير الخصيان السود من القبض على زمام سلطة على المستوى الإمبراطورى ، والنقوذ فى كلا المجالين (الإمبراطورى والمحلى) سواء كان أثناء تولّى كبير الخصيان السود لمهام منصبه أو بعد تركه ، كان يمكنه من حماية الزمر فى مصر ، بل ويجعله يحاول بناء زمرة خاصة به لدعم نفوذه فى البلاد التى تم إبعاده فيها ، ولا شك أنه من

الخطأ أن نؤكد أن عملية الإخصاء لا تؤثر في مقدرة المخصى على أن يكون عضواً في المجتمع العسكرى في مصر ، فالمخصى لا يصبح بيكاً أو ضابطاً في الأوجاقات ، وأكثر من هذا فالخصيان يواجهون شكلاً من أشكال الحواجز الراسخة عندما يشرعون في تكوين زمر كبيرة ودائمة ، وذلك هو الهيكل العام الذى تعمل من خلاله شبكة من الرعاية والذين هم محل رعاية تلك الشبكة المتسمة بالحيوية التى ربطت النطاقين الإمبرطورى والمحلى ، كما ربطت العناصر المختلفة داخل النطاق المحلى ذاته .

الهوامش

(١) انظر هذه النقاط في :

Norman, Penzer , The Hlarim (London , 1936 reprint 1965) pp. 161-7

(2) Ozuncarsilit, Osmanli Devletin Saray Teskilatt, pp. 173-9

(3) P. S . Girard , Description de L'EGYPT , VOL.17 : memoire sur l'agriculture, L'industrie, et le Commerce de L'EGYPT . 2nd ed. (Paris , 1824) pp. 278 - 96. H.A.R. Gibb & Harold Bowen, Islamic Society and the West : A study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Middle East , I vol. in 2 parts (London , 1950 - 7) part I : Islamic Society in the 18 th Century, p. 305. no. 3

(4) Despité Stanford Shaw's rigorous terminological breakdown in Financial & Administrative Organization pp. 41-5, the titles seem to have been Fairly Fluid.

(5) Shaw, Financial & administrative Organization, pp. 269 - 70

وقد ضم شو أيضاً الوقف الذي أسسه أحمد الثانى - (١٦٩١ - ١٦٩٥) والذي لم يذكر - علي أية حال - في الحوايات أو في مجموعة وثائق أوقاف الحرمين muhimme - والمؤلف I.H. Uzuncarsili في مؤلفه : Mekke-i Mükerrerme Emirleri (Ankara , 1972) p. 15

يذكر في قائمته فقط مملوكاً عتيق خاصكية ، والدشيشة الكبرى ، وكذلك الدشيشة الصغرى أو المحمدية ، والحرمين . وانظر أيضاً :

Faroghi , Pilgrims & Sultáns pp. 80,90

(6) Mehmet Süreyya , Sicill-i Osmanli , 4 vols, in 3 (Istanbul . A.H. 1308) VOL. 3, P. 113

كل المعلومات الأساسية عن الخصيان أخذتها من هذا المصدر .

(٧) وفقاً لما ذكره شو Shaw فإن تكليفهم (الـ Keside) هو العناية بالضباط العثمانيين الذين يخدمون السلطان في مصر :

(Financial and administrative organization , p. 202)

وعلى أية حال فقد كانت مهمة الفرقة (الكتائب) - فيما يبدو - أكثر تعقيداً ؛ فخصيان الحريم السود ضمن هذه الـ Keside كانوا قادرين على تكوين قوة مقاتلة ، وعلى هذا فكبار الخصيان السود يظهرون كعسكريين مع البكوات والأغوات والأمراء الشركس في حملة سنة ١٦٥٩ ضد محمد بك الفقارى وفي وقت لاحق كانوا يتبعون البكوات على صهوات الجياد في الموكب المصاحب للمحمل (الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة / مخطوط بالتركية العثمانية (Fos 169 r. 1707) .

(٨) (بدون تاريخ Undated) Topkapi D 7657

وعن التحليل المفصل لهذه الوثيقة ، انظر :

Hathaway " The Wealth and influence of an exiled Ottoman Eunuch in Egypt "

(٩) منية جعفر وشبرا بسيون في الغربية : زفتى وميت غمر في الشرقية ، وخراب قزاره وبهاده ومنية
عاصم في قليوب . وهذه المواقع موضحة في : Halm , ägypten وكذلك في : Carl Petry , The Civilian
Elite of Cairo in the Later Middle ages (princeton, 1981) .

(١٠) تكتب القيسارية بالسعين ، وهو الشائع في مصر كما هو واضح من وثائق الجنيزة في مصر .
انظر :

Goitein, A Mediterranean Society . vol. I p. 194

(١١) ناقش هذا الاستخدام Goitein في :

A Mediterranean Society , vol. I . p. 187

(١٢) هذه المطابقة موضع خلاف مادامت وكالة الكتان في بولاق قد أوقفها حافظ أحمد باشا (١٥٩١ -
١٥٩٥) لرعاية بئر (عين ماء) في طريق الحج . انظر أحمد شلبي ، أوده ، ص ١٢٣ .
(13) Goitein , A Mediterranean Society vol. 1 p. 105 Girard, Memoire , pp. 99 FF .

(١٤) ملاحظة Goitein على بطاقة ميكرو فلمية (جامعة برينستون) تفيد أن رتبة ratba في إحدى
وثائق الجنيزة تعني : ثوباً فضفاضاً (النص : ثوب مقصورة رتبة) .
(15) Muhimme-i Deftei 110. no 947 (1159/1698)

تؤكد أن هذه الكتب كانت جزءاً من مكتبة (كتابهين Kitabhane) وتشير هذه الوثيقة أيضاً أن وإلى
مصر السابق إسماعيل باشا (١٦٩٤ - ٧) باع بطريق غير شرعي ممتلكات الوقف .

(١٦) انظر على سبيل المثال :

Barnette Miller , The palace School of Muhammed the Conqueror (N.Y, 1951) PP. 94 FF .

Paul Rycout , The Present State of the Ottoman Empire (London, 1668 . repint N.Y., 1971) P. 32

(١٧) كانت الحسينية وما حولها كانت المركز الرئيسي للطريقة الصوفية الخلوتية ، خاصة الجلشينية
والدمرداشية وكانت ذات نفوذ كبير في بداية العصر العثماني ، وفي القرن الثامن عشر كان المشهد الحسيني
هو مركز البيومية التي سادت بين جزأري الحسينية . انظر :

Ernst Bannerth " La Khalwatiyya en Egypte : Quelques aspects de La vie d'un Confrerie "
MIDEO & (1964 - 6) , 1-74 . B.G. Martin, " A Short history of the Khalwati Order of Dervishes "
In Nikki R. Keddie (ed.) , Scholars , Saints , and Sufis (Berkeley , Los Angeles and London,
1972) .

(١٨) عن هذا النوع من المشاركة انظر :

Udovitch , Partnership & profit in Medieval Islam, Chapter 6 and Goitein , A Mediterranean
Society vol. I. pp. ,71 FF .

وانظر أيضاً فصل ٥ ، حاشية ٣٢ .

(١٩) أحمد شلبي ، أوده ، ص ٢٩٠ .

(٢٠) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية) (Fo. 185) .

(٢١) انظر فصل ٣ ، وعلى النقيض نجد سجل رواتب ١٧٢٧ - ١٧٢٨ لا يورد إلا اثنين من توابع كبير الخصيان السود .

(٢٢) انظر فصل ٣ .

(٢٣) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 230 r.) وأحمد شلبي ، أوده ، ص ١٩٢ ، والدمرداشي ، درة ، ص ١٧ - ١٩ ، والجبرتي ، عجائب ، مج ١ ، ص ٧٧ .

(٢٤) الحلاق وتاريخ مصر القاهرة (Fo 217 v.) .

(٢٥) يصف الدمرداشي كيف أن الأغا حسن بلقية وزوج ابنته إسماعيل بك قد توسطاً لمصطفى بك عند الوالي حسين باشا ، ليحصل مصطفى على حكم إقليم جرجا (درة ص ٥٨ - ٥٩) .

(٢٦) الدمرداشي ، درة ص ٣٢٢ ، وانظر أيضاً الحلاق وتاريخ مصر القاهرة (Fo 219 v.) وعن الحكر انظر :

Badr & Crecelius , " The Waqfs of Shahin Ahmad Agha " 92. no. 73

(٢٧) الحلاق وتاريخ مصر القاهرة (Fo 213 r.) .

(٢٨) وعلى نقيض ذلك أنه عندما عزل من منصبه ككبير للخصيان السود ، تمت مصادرة أملاكه بما فيها منزله في سوق عصفور ، وعندما وصل مبعداً إلى القاهرة استعاد وكيله في القاهرة المنزل . انظر الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة ، (Fos 220 r. & 222) . أخبار النواب (Fo. 40 r) وأحمد شلبي ، أوده ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢٩) Muhimme - i Defteri gg. no 491 (منتصف رجب ١١٥١ / ١٦٩٠) تشير إلى مصطفى بك كوكيل للأغا يوسف ، وكوكيل للحاج الأغا بشير أصبح اسم مصطفى بك هو (المتصرف) وتعني المدير لبلاد (أراضى) القاسمي عبد الرحمن بك دلحه بعد هروب هذا الأخير إلى إستانبول طالباً وساطة الأغا الحاج بشير . انظر الدمرداشي ، درة ص ٢٩٣

Muhammi - i Misir, vol 4 no. 8 (1139 / 1726 - 7)

Hathaway " The Role of Kislär Aghä 145

(30) Muhimme - i Misir , vol. 1 , nos 447 (1128 / 1716) 471 (1129 / 1717)

(31) Muhimme - i Misir , vol. 4 , no 514 (1145 / 1732 - 3) vol. 5. nos 44, 56 (1146 / 1733 - 4

يشير مجلد ٥ (رقم ٤٦) بشكل خريب (غير مألوف) لمحمد كوكيل خرج haric أى ممول بالمؤن للمخازن الإمبراطورية (العثمانية المركزية) . ربما يكون الناسخ قد خلط بين الأغا محمد ومحمد بك قطامش (قارن بالوثيقة رقم ١١ ، مجلد ٧)

(٢٢) عن قرى الدانا سبع في الغربية وواحدة في المنصورة واثنان في قليوب ، وثلاث في المنوفية ، وواحدة في الشرقية ، وواحدة (أو اثنتان) في البحيرة ، وعن قرى الصعيد : أربع في البهنسا ، وواحدة (أو اثنتان) في الجيزة ، وواحدة في الفيوم .

Topkapi D 2520 / 1-3

(٢٣) الحلاق ، تاريخ . . . و القاهرة (Fos v - 205 r) أخبار النواب (Fo 34 r) أحمد شلبي ، أوده ، ص ١٧٨ ، قائمة الصباط . . . تشير إلى الهيمنة التي حققها بعد ذلك الياش جاويشية في الإنكشارية والكخياوات في العزبان .

(٢٤) الحلاق . تاريخ مصر القاهرة (Fo 203 v) صهر النقيب (نقيب داماد) أى زوج ابنة نقيب الأشراف .

(٢٥) أنظر : " sultans, pashas..." Hathaway

(٢٦) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 179 v) تشير إلى كنعان أفندي تابع محمد باشا ، وقد ورد كنعان كوكيل للأغا موصل في قضية ملكية في سجلات المحكمة الشرعية بالقاهرة / Top Kapi E 7900 (70 - 1669 / 1680 تشير إلى أن كنعان استولى على الممتلكات الخالصة للموصل عند موته (أى موت الموصل) .

(٢٧) قره قاش على باشا سنّي (عيّن) كنعان قائمقام وهو على فراش الموت (الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة > Fo 203 v < وأخبار النواب > Fo 33 r < وأحمد شلبي ، أوده ، ص ١٦٩) ومن المهم أيضاً أن نذكر أن قره قاش على تم دفنه بالقرب من معلم كنعان الخاص شيسوقار أوغلو محمد باشا .

(٢٨) بينما كان قره قاش على وزيراً كان البوستانجي إبراهيم ضمن كتائب البستانجية في القصر السلطاني ، والبستانجية كتيبة عسكرية قريبة من السلطان . انظر :

El , s.v. " Bostandji " by I.H. Uzuncarsili

(39) Pococke , A description of the East, vol. 1. pp. 166 - 7

(٤٠) في الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 159 v) أن الأغا الإنكشاري إبراهيم أشار إلى أنه أتى من القصر السلطاني ، وكان الأغا الإنكشاري قد عيّن ناظراً لوقف ضريح عقبة بن عامر واستعاده منه أبو نور محمد باشا (١٠٦٢ - ١٠٦٣ / ١٦٥٣ - ١٦٥٤) ووقفاً تكية صوفية بالقرب من قدم النبي شرق القاهرة القديمة والتي بناها ملك إبراهيم باشا (١٠٧١ - ١٦٦١ / ٤٧ - ٤٨) انظر الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة ، Fos. 157 v (189 v.) وأخبار النواب (Fo. 26 v.) .

(٤١) انظر الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo. 215 r) عبد الكريم ، تاريخ و تاريخ مصر (بالتركية العثمانية) (Fo. g 6) القرى هي ماوى وتوابعها (في الحلاق وعبد الكريم : توابع) في الأشعوتين . وبيرما وتاتيا Tataya والجمفرية في الغربية . انظر أيضاً Topkapi E33 . وقد ورد هذا الوقف باختصار في " أخبار النواب " (Fo. 37 v.) وأحمد شلبي (أوده ، ص ١٧٦) الذي أسماه وقف الخاصكية لأن جوننس أمة الله كانت مقربة من السلطان الحاكم (خاصة : hasseki) .

(٤٢) انظر على سبيل المثال :

Topkapi E 33/16 , paragraph 3 Line 1

وقد ورد اسم يوسف بوصفه ناظرًا في ١٠٠٨ - ١٦٩٦/١٠ - ٨ (Topkapi E 33/4 J) ١٧٠١/١١١٢ (E ٢ - 33/22) وكنّاظر سابق في ١٦٩٩/١١١١ (E 33/19) . وفي حالات أوقاف سلطانية (إمبراطورية) أخرى كان كبير الخصيان السود يشغل منصب الناظر وهو في منصبه في إستانبول ، وكان الأمراء المحليون يخدمون بوصفهم نظارًا محليين (أو متولين جمع متولى) . وعن واجبات شيخ الحرمين انظر :
Faroghi , Pilgrims & Sultaus, pp. 153 - 4

(٤٣) ذو الفقار :

Topkapi E 33/9 (dated 1093/1682) but Covering expenditures For 1091/1680 , E 33/14 (1094 / 1683)

إبراهيم .

E 33/23 (١١١٦ سنة في) E 33/24 (1116) . in an 1116 addendum to E 33/22 (1113/1701-2)
Eyub has taken possession of yusul Agha Faiz

استولى أيوب على فائض الأغا يوسف ، وفي سنة ١١١٥ - ١١١٦ م . من المفترض أنه كان ناظرًا .

(٤٤) كان أيوب بك " تابع " درويش بك .

(٤٥) ورد أيوب أول مرة بوصفه ناظرًا أثناء الصدارة العظمى لإملاظ Elmas محمد باشا (١٦٩٥ - ٩٨) في عهد مصطفى الثاني .

(٤٦) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية) (Fo 226 v.) أخبار النواب (Fo . 42 v.)
بالتريكية العثمانية ، أحمد شلبي ، أوده ، ص ١٨٧ ، الجبرتي ، أخبار ، مج ١ ، ص ٧٥ . حدث هذا التغيير في ربيع ثاني ، ١١٠٣ هـ / ديسمبر ١٦٩١ . ولا ندري إن كان الكخيا الإتكشاري قد أكلت إليه نظارة وقف المحمدية في هذا الوقت أم بعده .

(٤٧) الدمرداشي ، درة ، ص ١٢ - ١٣ . الجبرتي ، مج ١ ، ص ٢٣٠ . الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة
(Fos 225 ff) . أخبار النواب (Fos 38 v. ff.) أحمد شلبي ، أوده ، ١٨٢ ، عبد الكريم تاريخ مصر ، (Fos 98 r ff) .

(٤٨) (1720 s') (Muhimme - i Misir , vol 3, no 222) تعطي - علي أية حال - هذا الانطباع ، وعلى
أية حال فالجلد الرابع (الوثيقة ٢٦) من هذه المجموعة نفسها تذكر الكخيا إبراهيم أفندي ناظرًا لوقف
الوالدة (والدة السلطان) في الفترة ١١٢٥ - ٣٦ / ١٧٢٣ - ٤ ، رغم أنه كان متمركزًا في جدة ، وبالتالي
قد يكون المعنى أنه ناظر لوقف الوالدة في موقعه (جدة) .

(٤٩) Topkapi E 5211 / 22 (منتصف ذي القعدة ١١١٠ / يونية ١٦٩٩ م) .

(٥٠) عن إصلاحات حسين كوبريللي ، انظر :

Lewis V. Thomas , A study of Naima, ed . Norman Itzkowitz (N.y., 1972) pp. 66 - 82

(٥١) إدارة هذا الإقليم تعني - بلا شك - نفوذًا على منطقة بدوية ، وربما يفسر هذا تسمية الأغا حسن -
أحيانًا - " بشيخ نصف سعد " إشارة إلى فريق البدو المتحالف مع الفقارية . انظر : الدمرداشي ، درة ، ص ١٢ .

(٥٢) زوج ابنة الأغا حسن (ونعني به : إسماعيل بك) الذي شغل منصب الدفتردارية لسنوات طويلة ، يعد مثلاً واضحاً . لقد سبق تحالف إسماعيل مع حسن ، صعوده - أى صعود إسماعيل - السلطة ، لأن حسن رماه من أغا إلى بك .

(5 - 1134) Maliyeden Müdevver 1350 (53)

(٥٤) انظر : Hathaway " The Role of Kizlar Agasi " 154-7

(٥٥) عن ممارسة " الحماية " انظر : Raymond , Artisans et Commerçants vol. 2 , pp. 688 - 92
Raymond, Soldiers in Trade " 18, 22

وعن دور الإنكشارية في الجمارك ، انظر : Raymond, Artisans et Commerçants , vol. 2 , pp. 618 - 28
(٥٦) انظر الفصل الرابع ، ص ٦٥ .

(٥٧) ترقى من أغا في كتائب الشركس إلى بك في سنة ١٧١٠ . انظر الدمرداشي ، دره ص ١٣٥
(4 - 1733 - 1146) Muhimme - i Misir vol . 5 . no 18 (58)

(٥٩) كتب ريتشارد بيكوك Richard Pococke في بواكير العقد الرابع من القرن ١٨ ، واضحاً تجمعاً شبيهاً من القرى في ملوى بالأشمونين . انظر فصل ٧ ، حاشية ٣٠ .

(٦٠) الدمرداشي ، دره ، ص ٤٠٧

(٦١) انظر : Ayalon , L'esclavage du Mamelouk pp. 25 ff
Ayalon, Studies in al - Jabarti 275 - 6

ووفقاً لما ذكره Ayalon ، كانت كلمة (سيد) نادرة الاستعمال في ظل السلطنة المملوكية ، بينما شاع استخدامها في ظل العثمانيين .

(62) Topkapi D 2520 / 1 (1159)

(63) Tuchacherer, " Pelerinage " 159, no 10

(٦٤) مات في سنة ١١١٩ / ١٧٠٧ وفق ما قاله الجبرتي (عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤) .

(٦٥) عن ظروف إعدامه انظر : أحمد رسمي أفندي (Hamilet al - Kubera) إستانبول ، المكتبة السلিমانيّة ، مخطوط MS Esad Efendi 2258 / 1 Fos 11r ff .

(٦٦) انظر حاشية ٣ .

(٦٧) (وثائق Sicill - l Osmsni) لا تساعدنا إلا قليلاً لمعرفة متى وصل بشير الثالث إلى القصر لأنها نادراً ما تذكر تواريخ مباشرة كبار الخصيان السود لأعمالهم في القصر كما لا تذكر التواريخ التي حصلوا فيها على رتبهم .

(68) Raymond , " Essai de geographie " 73 ff .

Behrens, Abouseif, Azbakiyya & its Environs , pp. 72 - 73

(69) Mūhimme-i Misir , Vol. 7, nos, 405, 411, 442, 450, 455 (1171 / 1758)

(٧٠) حدثت استثناءات خاصة في العقد الثاني من القرن ١٨ (١٧٢٠ - ١٧٢٩) عندما كان المنافسان الرئيسيان إسماعيل بيك ابن إيواظ ، وشركس محمد بيك في الذروة ، ومع هذا هناك بعض الأدلة على أن الأغا الحاج بشير كان يميل شيئاً ما إلى ابن إيواظ . انظر أحمد شلبي ، أوده ، ص ٣٤٤ .

الفصل التاسع

نتائج

هذه الدراسة عن أصول القازدغلية Qazdag'lis تتبعت الزمرة العسكرية منذ بداياتها الظاهرة كمجموعة من العسكر في أحد الأفواج العثمانية إلى أن وصلت إلى مرحلة الزروة كنخبة متشابكة أصبحت هي الأثرى والأكثر نفوذاً في مصر . فمصالح زمرة القازدغلية في مختلف مراحل تطورها ربطة ما بين الفوج والبكرية beylicate والسلطة الأمبرطورية . لقد ربطت نفسها بحاشية أحد النبلاء الراسخين ، الذي ارتبط بدوره ارتباطاً وثيقاً بالمركز الأمبرطوري imperial Center ونعم برعاية الطواشي الأسود الرئيسى Chief Black Eunuch ، الكخيا مصطفى Kâhya فأسس أتباعه الخاصين به المكونين من المماليك وأيضاً من الأناضوليين الأحرار بالمولد (المولودين أحراراً) من بين فوج الانكشارية . وكان خلفاؤه - خاصة الجاويش عثمان القازدغلي Osman Çavus al Qazdağli - قد قابوا الزمرة the household لاكمال سيطرة كتائب الانكشارية Janissary Corps حتى عندما بدأوا في البحث عن أتباع خارج الفوج . وأكثر من هذا فإن الدلائل تشير كما رأينا إلى أن الجاويش عثمان Osman Çavuş حافظ على روابط القازدغلية Qazdağlis بالزعيم الطواشي الأسود Chief Black Eunuch . وأخيراً ، فإن الزمرة القازدغلية - في ظل الكخيا إبراهيم Kâhya اخترقت البكرية beylicate . وحتى في هذه الظروف نلاحظ وجود أدلة تتبدى بين الحين والحين تشير إلى استمرار الروابط القازدغلية بالزعيم الطواشي الأسود . وعلى هذا النحو زرع (أثل) القازدغلية Qazdağli روابط فوجية (بالفوج) والبكرية والامبرطورية ، ويمكننا أن نفرو استمرارها وطول بقائها إلى نجاحها في إقامة هذه الروابط الأنف ذكرها والاحتفاظ بها .

إن نموذج القازدغلية يظهر كيف أن سياسات مصر العثمانية المتسمة بالشدة rough والتعثر (الفوضى) قد سارت إلى نهاية الشوط من خلال الزمر العسكرية ، خاصة خلال أعوام عصيتى الفقارية والقاسمية وما تلاها . فعلى أيام الكخيا مصطفى القازدغلية al-Qazdağlı والأغا حسن بيلينمية Bilifya كانتى الولاءات للقصة Faction وإلى حد ما للرتبة rank قد خففت من حدة التنافس بين الزمر العسكرية الفردية على نحو ما . وعلى هذا فإن الأغا حسن وصهره (زوج ابنته) إسماعيل بك لم يفعلوا سوى القليل لمواجهة مكائد تابعهم الفقارى إبراهيم بك ابن ذو الفقار . وبحلول العقود الباكرة فى القرن الثامن عشر كانت هذه الروابط (روابط الزمر) قد بلغت مرحلة الضعف (أو بتعبير آخر اعتراها الجهد) لدرجة أن الجاويش عثمان القازدغلى Osman Cavus al Qazdağlı - على سبيل المثال - قطع عرى التضامن الفقارى Faqari بأن اتخذ جانب الحلف القاسمى Qasimi allies بزعامة محمد بك الشركى Çerkes Mehmed Bey . والكخيا إبراهيم القازدغلية ومنافسة عثمان بك ذو الفقار إذ تنافسا فى وقت لاحق على أن يفتش معاً مُزق Shreds العصة الفقارية . ورغم أن العصبتين (الفرقتين) الكبيرتين كانتا تتكونان من زمر عسكرية ، فإن المنافسات بينها كان يمكن أن تدمرها ، وبالتالي تسهم فى زوالها .

وفى السنوات التى ضعفت فيها التقسيمات التقليدية أصبحت الزمرة أداه للسياسات المحلية بل وإطاراً تعاملت من خلاله الأمبراطورية العثمانية مع الولاية كلها . وحكاية صعود القازدغلية جعلت الوالى العثمانى يحاول تنفيذ الاستراتيجية التقليدية الممثلة فى إغتيال الأشخاص القابضين على زمام الرياسة (المقصود رياسة الزمرة) عقاباً لهم على عدم سداد المبالغ المالية المنوط بهم سدادها ، ولمصادرة ممتلكاتهم لصالح الخزانة الامبراطورية (العثمانية) من جهة أخرى . ومادام القابضون على رياسة riása فى الأيام التى خلت فيها الساحة من الفرق التقليدية كانوا بشكل عام يتركزون داخل زمرة واحدة ، فإن هذا يعنى استهداف هذه الزمرة خاصة بمعنى تركيز الوالى العثمانى (والسلطنة العثمانية) عليها . لقد سقط الجاويش عثمان القازدغلى ضحية مثل هذا المشروع الذى كان أغلب ضحاياه من زمرة قطامشى التى سيطرت فى وقت من الأوقات على " الرياسة " بمعنى أن الرياسة كانت فى يد أفرادها . وبعد أقل

من عقد لعب الكخيا إبراهيم القازدغى على وتر اهتمام الحكومة بالعوائد المالية التي يقبض على زمامها الماسكون بزمام الرياسة من أتباع عثمان بيك ذو الفقار ليضمن لنفسه السيطرة الفعلية على أمور مصر . لقد وضع إبراهيم نفسه فى موضع المسئول عن التحويلات المالية للسلطنة العثمانية باعتباره رجلها فى مصر . وأدى سخط الحكومة على زمرة (ذو) الفقار إلى ارتفاع شأن الزمرة القازدغلية .

وأكثر من هذا فإن هذه الأمثلة على تلاعب الدولة العثمانية بالرياسة (المقصود رياسة الزمر) تشير إلى ملمحين من ملامح تناول الحكومة العثمانية المركزية (فى استانبول) فى إحدى ولاياتها التى كانت كبرى (مصر) أى عندما كانت (أى مصر) قاعدة للتوسع العثمانى . الملمح الأول هو الوعى بأهمية الدخل المالى والعينى القدام من مصر ، فالوثائق العثمانية تعطينا انطباعاً أن تجاهل الاهتمام بأمور الإدارة فى مصر خلال هذه السنوات ناتج عن وصول المقرر السنوى المالى والعينى فى مواعيدة سواء الأموال المقرر إرسالها سنوياً إلى استانبول أو الحبوب المقرر إرسالها إلى المدينتين المقدستين (فى الحجاز) ، ونتج عن هذا أن الزمرة التى تلتزم بهذا تحظى برضى السلطان وبالتالي تحظى بالموضع المؤثر والنفوذ الفعلى فى مصر . ومن هنا فإن مسألة العوائد المالية والعينية هى أساس توقف المنافسة بين الزمر ، لإرضاء السلطان .

فعلى أية حال نجد أن هذا يفسر ما يبدو من تقلب سياسة السلطان ، إذ كان يعتبر أى تأخير فى تسديد العوائد المالية والعينية تمرداً ، وتوحى وثائق صادرة من مكتب السلطان العثمانى كيف أن عثمان بيك ذو الفقار هياً نفسه ليكون على وفاق مع البلاط العثمانى وذلك فى ظل أحداث استثنائية . ربما كان تعامل السلطنة العثمانية - فى ذاك الوقت - مع المتكاسين فى دفع المقررات العينية مرتبطاً بعزلها للطواشية الود المخلوعين (الزعماء الخصيان السود) : بقصد التحفظ عليهم (عند نجاتهم من محاملات الاغتيال) . حقيقة أن عندما ضعف الزمرتين الفقارية والقاسمية لم يكن أمام حكومة استانبول خيار كبير سوى تبنى مثل هذه الاستراتيجية فلم تعد قادرة على تقسيم المناصب المهمة بشكل مريح بين الزمرتين ، فاضطرت لحماية زمر أخرى بديلة لتحفظ بسيطرتها على الولاية (مصر) وفى بعض الحالات كان يمكن تحقيق قدر من

النفوذ والسطوة بدمج نبلاء (نوى رتب أو مكانه) من مصر فى الزمر الأمبراطورية (العثمانية) سواء فى استانبول أو فى الولاية (مصر) ذاتها ، وكان يمكن لنوى المكانة المصريين (النبلاء) من ناحيتهم ضم ضباط عثمانيين فى زمرهم التى يكونونها ... وكان للزعيم الخصى الأسود (الطواشى) دور بارز فى كل الأحوال ، وكان هؤلاء الزعماء الخصيان السود يكونون أتباعاً Clients داخل الزمر المحلية الراسخة (المكونة بالفعل) كما كان يمكنهم تأسيس زمر خاصة بهم ، إلا أن الزمرة الجلفية لم ينجح معها هذا الأسلوب كثيراً . وفى هذه الأثناء كان يمكن للنبلاء المصريين ضم خصيان القصر الذين يتوقع ترقيةهم (نوى المستقبل الواعد) إلى زمرهم بهذه الطريقة يمكن أن تعمل الزمرة على مدّ الحماية (الداخل فيها) ، فروابط التبعية تشكل جسراً بين العاصمة العثمانية (استانبول) وعواصم الولايات ، وبدا يمكن لكل الشخصيات المهمة فى العاصمة العثمانية وفى الولايات أن يساهموا فى مثل هذا المشروع ليكونوا ولاية أو قضاة أو موظفين بالإضافة لكونهم عسكريين حاملين لرتب عسكرية مختلفة . ومن الضرورى أن نركز على استغلال الزعيم الخصى الأسود على هذه الصلات (العلاقات) ، وهذه الدراسة ، وفقاً لاقتناعى لا تكتفى بكشف الخطوط العريضة لتأثير الخصى الأسود فى مصر . فالخصى الأسود سواء كان مبعداً أم على رأس منصبه كان له دور حاسم فى الولاية . ومن هنا كانت الزمرة مفتاحاً لمجال عمل (نفوذ) الخصى الأسود لا فى مصر وحدها وإنما فى الأمبراطورية العثمانية بشكل عام .

الزمرة القازدغلية وثقافة النخبة العثمانية :

إذا نظرنا للزمرة فى العصر العثمانى نظرة لا تجعلها مؤسسة مملوكية خالصة (المقصود مماثلة للمؤسسات التى سادت فى العصر المملوكى فى مصر) ، وإنما بوصفها أداه مرنة (المقصود غير مغلقة) لحشد الطاقات وجمع العوائد المالية والعينية - إذا نظرنا لها هذه النظرة لم نجد مانعاً من امتداد هذا النظام (الزمر) خارج نظام العسكرية المصرية ليشمل المصريين قاطبة بل والعثمانيين قاطبة (أى فى الولايات العثمانية الأخرى) لقد كانت الزمرة - فى الحقيقة - هى بناءً استوعب مجتمع النخبة

العثمانية . ويمكن القول أن زمر النبلاء المصريين كانت موازية لزمر النخبة العثمانية (فى استانبول) بمن فى ذلك الوالى العثمانى فى مصر بل وحتى السلطان نفسه . وعلى النحو نفسه يمكن اعتبار الزمرة مجالاً للاهتمامات المشتركة بين المسؤولين العثمانيين (فى استانبول) والنخبة المصرية ، وبالنسبة للزمرة العسكرية بمختلف مظاهرها من الكتائب أو الفرق الصغيرة إلى التكوينات العسكرية المركبة فإنها كانت عى نحو دقيق استراتيجية لتكوين مجموعة ذات اهتمام مشترك لا تكف عن السعى للوصول إلى العوائد المالية والعينية والنفوذ والتقرب من السلطة العثمانية المركزية (فى استانبول) ، وربما كان الملمح المثير فى الزمرة القازدغلية يتجلى حقاً فى ضمها كل هذه العناصر مما أدى لكونها أكثر الزمر قوة وتماسكاً ، فى مصر ، فى الأعوام التى تلت إنهيار الفقارية والقاسمية . وعلى هذا فقد كان قرار إبراهيم فى العمل على ترقية أتباعه إلى رتبة البكرية فى مكن زمرة من الهيمنة على معظم الضرائب (المريحة) التى يتم جمعها من ريف مصر . وفى الوقت نفسه أمدت استراتيجية القاضية بشراء ممالك جورجيين (من جورجيا) بقوه داعمة لزمرة كما أنه فتح المجال للوصول إلى رتبة البكرية والرتب المؤدية إليها .

ورغم أن الزمرة القازدغلية قد تغيرت لتصبح زمرة جورجية بكرية فى غضون أقل من جيل فلا يجب أن تعتبر الكخيا إبراهيم قد تخلّى بشكل راديكالى عن الممارسات السابقة للزمرة . فلم تكن الزمرة القازدغلية تتكوّن أبداً - على سبيل القصر - من أناضولين أحرار بالمولد ، ولكنها منذ أيامها الأولى كانت تضم خليطاً من ممالك من مختلف الأصول (الأعراق) وأكثر من هذا فقد كان إنتهاك الكخيا إبراهيم مسبقاً باستراتيجية مماثلة لسلفه الجاويش عثمان الذى شمل بحمايته ثلاثة كُشاف (المفرد كاشف Kashif) . وبطبيعة الحال يمكن القول بشكل عام أن التوجه إلى الهيمنة عى الضرائب الزراعية التى كانت فى تزايد مستمر ، كان ملحوظاً بين حاملى الرتب العسكرية - بشكل عام - فى العقود الأولى من القرن الثامن عشر .

وفى التحليل النهائى فإن زمرة القازدغلية كانت جسراً ربط بين البكوات وضباط الفرق الانكشارية بهيمنتها على كل من الكتائب (أو الفرق) الانكشارية من ناحية والبكوات من ناحية أخرى . وربما استوحى القازدغلية مشروعهم هذا من الزمرة

البلفية الحليفة - تلك الزمرة التي كانت تضم بكوات وضباط معاً . لقد خضعت في النهاية كتائب الانكشارية في سنى التسعين من القرن الثامن عشر للبكوات نتيجة المواجهة الحثينة الوكيدة بين على بك والكخيا عبد الرحمن القازدغلية . وعلى أية حال فإن الحاق (أو إخضاع) ضباط الانكشارية ليكونوا ضمن نطاق الزمرة القازدغلية ، كان وضعاً حظى - فيما يظهر - بالاحترام والتقدير حتى نهاية القرن الثامن عشر . فحتى العقد الأخير من القرن أو نحو ذلك ، كانوا يأتون - نمطياً - من زمرة الكخيا إبراهيم القازدغى نفسه أكثر مما كانوا يأتون من زمر البكوات القازدغلية السابقين . وقد لعب هؤلاء الضباط أيضاً دور الوسيط في حل المشكلات داخل الزمرة وفى أثناء القلاقل الاجتماعية ، وبهذا المعنى ، كان دورهم يشبه دور أعضاء زمرة الجلفية فى مناسبات عديدة . وهذا يعنى أن الزمرة التابعة أو المشاركة كانت ظاهرة شائعة فى المجتمع العسكرى المصرى ، وكانت تقوم بدور مؤثر ومحدد فى الوساطة وحل المشكلات (إصدار أحكام الإدانة أو أحكام الصلح) . لهذا السبب فلا عجب إذن أن تكون العلاقة بين الكخيا إبراهيم القازدغلى ، والكخيا رضوان الجلفى تمثل شراكة رسمية غير متكافئة ، وهذا لا يعنى بالضرورة أن الزمرة الجلفية خاضعة خضوعاً مهيئاً للزمرة القازدغلية ، بل العكس فقد تكون الزمرة الجلفية قد حققت مزايا من وصفها هذا . لقد أتاحت هذه الشراكة - على سبيل المثال - الفرصة للكخيا رضوان الجلفى والكخيا عبد الرحمن القازدغلى فرصة رعاية الفنون والحروف وفرصة إنشاء مبان فخمة . وعلى المدى الطويل أصبح العلاقة بين اليكوية والعسكرية أكثر تعقيداً ، فلم تعد المسألة مسألة تبعية بسيطة أو حتى هيمنة فقد تم إدماج العسكريين فى زمن القازدغلية المتأخرين زمناً فى بنية الزمرة ، ومن هنا ساد التوتر بين السنجق والأوجاق OcoK .

وأثناء تصدع البكوية حولت الزمرة القازدغلية - إلى حد ما المجتمع العسكرى عامة - إلى كيان يسوده المماليك الجورجيين . وقد نشأ عن هذا التحول عدة قضايا تاريخية ، فمع استيراد (جلب) أعداد كبيرة من الجورجيين وغيرهم من القاقازيين لم يعد المجتمع العسكرى فى مصر - إلى حد كبير - مجتمعاً مختلطاً تتكون زمره من أناضولين أحرار بالمولد بالإضافة لمماليك من أعرق مختلفات ، وإنما أصبح أقرب

ما يكون إلى المجتمع العسكرى العثمانى فى بغداد . إلى أى مدى أخذت بغداد باستراتيجية جلب الماليك من جورجيا وإلى أى مدى استخدمها العثمانيون الجورجيين فى ولايات أخرى وفى العاصمة العثمانية نفسها ؟ هذا يحتاج إلى بحوث أكثر استفاضة . إن تكوين المجتمع العسكرى المصرى وأسلوب التجنيد المستخدم يوحى بالمقارنة مع نظام النخب العسكرية فى عدد من الولايات العثمانية العربية ، ليس بغداد فحسب وإنما أيضاً ، دمشق وتونس والجزائر ^(١) .

وإذا كان لنا أن نقارن بين المجتمعات العسكرية - وبالتالى الزمر العسكرية - فى مختلف المواقع ، فلا بد أن تكون لدينا فكرة واضحة عن الزمرة العسكرية أو النخبة العسكرية فى الأمبراطورية العثمانية . ومادمتنا نهتمُ بحثنا هذا بمصر خاصة فقد أوردنا معلومات كثيرة عن التلقين والتدريب العسكرين فى السلطنة المملوكية ، وقد اهتمت زمر النخبة العثمانية بهذا ، وإن كان ديفد أيلون Ayalon هو وحده الذى كشف الغطاء عن بعض الممارسات فى مقار البكوات ذوى الشأن ومقار الضباط ذوى الرتب العالية . أما فيما يتعلق بالزمر الأقل شأنًا فلم تحظ باهتمام كاف . وباختصار فإن الحياة فى الأوجاقات فى مصر العثمانية كانت منحنطة إلى حد كبير سواء من حيث التدريب أو الثقافة السياسية للجماعة .

وبطبيعة الحال ، فإن لنظام الزمرة بعده العالى ، فالتجمعات القائمة على الحماية والتبعية وصلات القربى ، لتحقيق تضامن سياسى ولأغراض اقتصادية ليست قصراً على الأمبراطورية العثمانية - لكنها وجدت - ولا تزال موجوده - فى مجتمعات كثيرة . فحقيقة أن التجمعات على هذا الأساس الآنف ذكره كانت موجودة فى فلورنسا فى العصور الوسطى ، وكانت موجودة فى جيش الاتحاد السوفيتى السابق فى ألمانيا الشرقية ^(٢) تعنى أن الزمرة - كما عرفناها هنا - قد تكون ظاهرة عرضية فى المجتمع فى مرحلة من مراحل تطوره أو بتعبير آخر فى مرحلة يكون فيها غير متكامل (متحللاً) . وبالنسبة للأمبراطورية العثمانية ، حتى مرحلة تطوير مؤسسات الدولة على النسق الحديث أثبتت سياسات الزمر أنها سياسات مؤثرة فى الفترات الأفضل طوال ثلاثمائة سنة .

الهدف الرئيسى لهذه الدراسة هو التمعن فى الاستخدام غير الدقيق لمصطلح " الزمرة المملوكية " أنه لمن المعقول أن نسال ما إذا كانت الروح المملوكية لم يتم إحيائها طالما أن العناصر المملوكية الجورجية قد سادت بعد صعود نجم الكخيا إبراهيم . إن إنتشار الثقافة المملوكية يمكن أن يفسر إشارة الجبرتي لمعظم نبلاء (أمراء) أواخر القرن الثامن عشر بقوله أنهم مماليك ، بينما يطبق إسماعيل الخشاب المصطلح نفسه (مماليك) على كل النبلاء (الأمراء) دون فاصل زمنى ، بينما نجد أن أحمد باشا الزار يزعم أن نبلاء مصر - أمراءها بحلول أواخر القرن الثامن عشر (كانوا بالتحديد مماليك جورجيين وليسو مجرد مماليك عاديين ^(٣) وبالتالي فإن مصطلح نبيل أو أمير هو مرادف لمصطلح مملوك جورجى مُحَرَّر (معتق) ، ومن هنا سادت الروح المملوكية الجورجية المختلفة عن الروح المملوكية المختلفة سابقاً (أى الروح المملوكية التى يمثلها مماليك من أعراق مختلفة) ، وربما آتخذت هذه الروح الجديدة الروح التى سادت على عهد السلطنة المملوكية . بهذا المعنى قد يمكننا الحديث عن إحياء مملوكى رغم تأكيدنا على أن المماليك (قد استعادوا) السيطرة على مصر يبدو منطقياً على مفارقة تاريخية . وأكثر من هذا فإن الثقافة المملوكية فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر كانت تنطوى على الحنين إلى الوطن (حنين المملوك للمناطق التى حُب منها) ، وكان يمكن استغلال هذا لتحقيق أغراض سياسية ، وبهذا المعنى يمكننا فهم ادعاء أسرة أفراسياب الحاكمة فى البصرة فى القرن السابع عشر نسباً سلجوقياً ، كما يمكننا فهم قيام اليونانيين الذين عينتهم الحكومة العثمانية ولاية على مولداقا وواليشيا (الأفلاق والبغدان) فى القرن الثامن عشر - باتخاذ مراسم نوات طابع بيزنطى ^(٤) .

القضايا المتعلقة بثقافة النخبة والوعى بالذات يبدو أنها اقترنت كثيراً من السطح أو طقت فوقه عند دراسة التحولات التى جرت فى المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية . إن هذه ليست قضايا تاريخية فحسب وإنما قضايا متعلقة بفن كتابة التاريخ ، نظراً للتسوية الذى جرى على أيدي كتاب الحوالياً المصريين المتأخرين زمنياً . فمسألة التغيرات فى المصطلحات العسكرية فى ظل النظام القازدغلى المتأخر زمنياً تمثل صعوبات بالغة . إن هذه الدراسة ستكشف أيضاً حقائق جديدة

عن الكتابات التاريخية عن مصر فى القرن الثامن عشر إذا أننا نخضعها الآن لإعادة الفحص .

مشكلة الكتابة التاريخية فى أواخر القرن الثامن عشر :

كما رأينا ، يبدو أن ثمة حاجزاً أقيم بين المؤرخين المصريين فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع ، ومن ناحية والأحداث التى جرت قبل أن يكتبوا بقرن أو نحوه ، ولا نقول شيئاً عن المؤرخين الذين كانوا معاصرين لهذه الأحداث السابقة . هذه الفجوة هى أكثر من كونها افتقاراً معتاداً نتيجة استخلاص النتائج من دراسة عقود قليلة بعيدة ، وإنما هى قد سببت فراغاً هائلاً للذاكرة أعاق الفهم . فالجبرتى وهو مؤرخ خدر واع بنفسه بذل بعض الجهود لسد هذه الفجوة بلفت الأنظار إلى كتابات الحوليين من قبله ، وباقتباسه منها . وعلى أية حال فنحن لا يمكن أن نقول الشئ نفسه كاتب مثل عن إسماعيل الخشاب . فمع أن الخشاب يحظى بتقدير باعتباره جامعاً للذاكرة الشعبية (العامة) فى مصر ، فمن الواضح من حوليته أن الذاكرة الجمعية (التراكمية) التى يمثلها هى ذاكرة اختفت منها حقبة زمر الكتاب المكونة من أناضوليين أحرار بالمولد ، أو من عناصر مخططة تضم أناضوليين أحرار بالمولد ، وعناصر مملوكية مختلفة الأعراق ، وعندما حاول رحالة أوروبى هو قولنى Volney أن يستثمر هذه الذاكرة الجمعية فى تلخيص تاريخ حقبة باكرة (سابقة) استوعب شئ كتاباته هذه الأفكار غير الدقيقة أو بتعبير آخر وقع فى فخ الأفكار الخاطئة . وهذه الأخطاء نفسها بل والسقطات تنتظر المؤرخ المعاصر الذى يحاول أن يستقرئ ظروف القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر من ظروف وأحوال أواخر القرن الثامن عشر مع محاولة إيجاد فوارق بسيطة أو دقيقة بين الفترتين (الفترة الأولى المقصودة هى القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، ، والفترة الثانية المقصودة هى أواخر القرن الثامن عشر) . فإذا كانت لدى المؤرخ فكرة مسبقة يعتبر بسببها أن مؤسسات مصر فى العصر العثمانى هى نفسها مؤسساتها فى العصر المملوكى

فسيجد أن المصادر المتأخرة زمنًا هي التي تؤيد فكرته المسبقة هذه ، الناتجة عن دراسته لعصر سلطنة المماليك أو عن فكرته عن فترة أواخر القرن الثامن عشر في مصر أو عن رغبته في إتخاذ موقف وسط في دراسة مصر . وفي هذه الحال فإن المؤرخ ومصادره يسهمان في إحداث مفارقة تاريخية (أو تناقض تاريخي) فيما يتعلق بهذه الحقبة الباكرة (القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر) .

هذه الصعوبة يمكن أن نعزوها لمصادر هذه الحقبة ، سواء كانت مصادر روائية أو غير روائية (وثائقية) . فثمة خطر في التفسير إن عممنا ما نقرأه في المصادر العثمانية الباكرة لنحمله يمتد صُعداً في التاريخ ليشمل المصادر المملوكية (المقصود مصادر العصر المملوكي) . وإن كان الخطأ في التفسير في هذه الحال يكون أدق (المقصود أقل خطراً) . وتصبح الخطورة أكثر حدة على نحو خاص عند كتابة تاريخ مصر العثمانية مادامت المصادر العثمانية الباكرة – بلا استثناء تقريباً – أنت لإلقاء الضوء على بواكير الحقبة العثمانية ، والسلطنة المملوكية من قبلها . وهذه المصادر العثمانية الباكرة غير منشورة إلا قليلاً^(٥) . وإذا عدنا إلى أحمد شلبي (حلبى) بعد أن نكون قد قرأنا الجبرتي مثلاً ، فإننى لا نكون متأكدين مما إذا كانت الرتب والألعاب الواردة في الحولية الأقدام تحمل الدلالة نفسها في الحوليات التى أتت بعد ذلك (هل مفهوم كخيا وسراج وچراك وتابع هو المفهوم نفسه في الحوليتين ؛ القديمة والحديثة) .

خطورة القويل على مصادر أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تكمن فى خطأ الاعتقاد بأن ظروف أواخر القرن ١٨ تعكس ظروف القرن ١٧ وأوائل ١٨ ، بإختصار فإن ما اعتاده البعض من فرص أحوال أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩ عى القرن ١٧ وأوائل القرن ١٨ يمكن أن يؤدي إلى تحريف فى الحقائق المتعلقة بالفترة الأسبق (القرن ١٧ وأوائل القرن ١٨) . هذا التحريف مرتبط باتجاه فى المنهج التاريخي يظهر أحياناً بين المؤرخين لفترة ما قبل العصر الحديث في منطقة الشرق الأوسط . إنه اتجاه يتعامل مع الحوليات باعتبارها خلاصة واقية للحقائق أكثر من اعتبارها نصاً يمثل استراتيجية خاصة لمخاطبة فئة بعينها . ومن هنا شاع بين المؤرخين استغلال الحولية بجمع أحداث متفرقة وصفها معها لإثبات مسألة بعينها

أو شرحها ^(٦) . إن هذه الطريقة تؤدي إلى تسطيح التاريخ لتكون حادثة وقعت في سنة ١٦٥٠ مماثلة لأخرى وقعت في سنة ١٧٢٠ وثالثة وقعت في سنة ١٧٨٠ دون التفات كثير للتطورات التاريخية الحادثة . هذه الطريقة في توظيف الروايت التاريخية تضيف طبيعة متجانسة على كل فترة الحكم العثماني في مصر قبل القرن التاسع عشر . والنتيجة هي وضع الحوادث في غير سياقها وفهم النصوص على غير معناها ، بل ويؤدي هذا إلى اساءة فهم الوثائق الأرشيفية ذاتها .

هذا الخروج عن السياق التاريخي يشجع المؤرخين على التعامل مع حوالى ثلاثمائة سنة بين فتح سليم لمصر وغزو بونابرت لها على إنها حقبة واحدة لم يحدث خلالها سوى القليل من التطورات المؤسسية في المجتمع العسكري المصري ، وبالتالي يؤكدون على أن العسكر العثمانيين دمروا هذا المجتمع إلى درجة كبيرة ، وفي الوقت نفسه لم يغيروا طبيعته المملوكية الموروثة .

وعلى هذا فعندما ساد البكوات المماليك في نهاية القرن الثامن عشر كان من الطبيعي اعتبار عودتهم إحياء للسلطنة المملوكية التي قضى عليها منذ فترة طويلة . هذه الفكرة جعلت الباحثين يأخذون عن ابن إياس (في أواخر العصر المملوكي) وعن الجبرتي بعد ذلك ، دون تمعن في الفترة التي تفصل بينهما .

لقد ظهر أكثر فأكثر مزيد من المصادر الروائية والأرشيفية التي تتناول الحقبة الوسطى من الحكم العثماني في مصر ، وأصبحت المعروفة مجالاً للفحص والتحقيق والتدقيق على نحو أعمق ، فوجب علينا نحن المؤرخين أن نطور بحوثنا بشكل غير منحاز للعصر المملوكي أو لعصر أواخر الحكم العثماني . هذا لا يعني إهمال المصادر التاريخية العائدة لهاتين الحقبتين مادامت هذه المصادر تمثل حلقة وصل لما قبلها وما بعدها في فحولة الجبرتي خاصة ، كُتبت بوضوح وذكاء لذا فهي يمكن أن توضح التعقيم والتشويش في الحوليات السابقة . لكن استخدام هذه المصادر الباكرة والمتأخرة لا يعني أخذ كل ما فيها برمتها جملة وتفصيلاً . إن التحدي الذي يجب أن يواجهه المؤرخون هو أن يكونوا دائماً واعين بأننا نكتب عن مجتمع دينامي (متحرك) لابد أن تتغير مؤسساته سواء بفعل تغيير تركيبها أو بفعل التطور التدريجي .

والزمرة القازدغلية مثال على ذلك ، فقد تغيرت خلال مجتمع النخبة في مصر من هيمنة أو جافية في أواخر القرن ١٧ إلى هيمنة بكوية في أواخر القرن ١٨ ، وزامن هذا تطور الزمرة القازدغلية من زمرة انكشارية خالصة إلى الزمرة بكوية . وبهذا المعنى فالقازدغلية تمثل شيئاً أكبر من تطور زمرة في المجتمع العسكري المصري العثماني . إنها صورة مصخّرة منه .

الهوامش

(١) على أية حال فإن بغداد والجزائر تقدمان - على نحو خاص أمثلة شائغة ماداما يمثلان طرفين متباعدين تقع مصر بينهما : مجتمع يسوده الممالك الجورجيين ومجتمع يسوده الانتكشارية الأناضوليين وعلى أية حال ، فإن كليهما كانا ولايتين حدوديتين تتمتعان ظاهريا بالحكم الذاتى ، وليسا مثل مصر تسيطر عليها الدولة العثمانية مركزيا . وقد مثلت تونس فى القرن الثامن عشر مجتمعا عسكريا مخلطا قريب الشبه من المجتمع العسكرى المصرى خلال أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . انظر على سبيل المثال : Brown , Ahmad Bey , Chaptér 2 .

(٢) أنظر حواشى الفصل الثانى .

(3) Piterberg " Formation of an Ottoman Egyptian Elite " 282 & n. 41, quoting Ahmad Pasha (Cezzar) , Ottoman Egypt in the Eighteenth Century : the Nizamname-i Misr of Cezzar Ahmad Pasha (ed.) and trans. Stanford J. Shaw (Cambridge, MA, 1962) .

(٤) عن الأفراسياب أنظر : Holt , Egypt and the Fertile Crescent, p. 134 وعن الفاناتريوت أنظر : William H. Mc Neill, Europe's steppe Frontier 1500-1800 (Chicago & London, 1964) PP. 107-10, 173-6 أقوم بدراسة عن هذا الاستخدام السياسى للحنين إلى الوطن (النوستالجيا nostalgia) .

(٥) عالج الدكتور عيد الرحيم هذه المسألة وكذلك دانييل كريسييليوس Crecellius وعبد الوهاب بكر بنشرهم حوايات تعود لفترة أسبق .

(٦) تلك هى بالضبط طريقة أيلون فى كتابة " دراسات فى الجبرتى " ولم يستخدم ووتر Winter المصطلح بهذا الشكل الفج . انظر كتاب ووتر : Turks, Arabs & Mamluks II 7 FF .

قائمة المصادر والمراجع

الوثائق :

- Istanbul, Başbakanlık Osmanlı Arşivi, Maliyeden Müdevver 287, 1350, 2641, 3109, 3678, 4414, 4465, 4787, 4848, 5593, 6783, 6787, 7069, 17764. Military salary registers, land revenue registers, 1077-1159/1666-1746.
- Istanbul, Başbakanlık Osmanlı Arşivi, Mühimme Defterleri nos. 6, 29, 89-115, 984-1120/1576-1708.
- Istanbul, Başbakanlık Osmanlı Arşivi, *Mühimme-i Mısır*, vols. I-VII, 1119-1174/1707-1761.
- Istanbul, Topkapı Palace Archives, D 1943: 2520/1-5; 2543; 2983; 2984; 3090; 3887/1, 3; 4641; 5223/1; 5599; 5698; 5909; 6946; 7187; 7244/2; 7450/1-3; 7488; 7657; 7662; 9701; E 33/9, 14, 16, 22-24, 31, 37; 578; 1648/1-2; 1709; 2066; 2519; 2742; 4787; 5207/67; 5211/22; 5215/27-28; 5638; 6746/1-2; 7832/1-5; 7900; 7901/3; 8616/13-15, 22, 56-58; 9183/1-2; 11264; 11648. Accounts and *fermans* relating to the Chief Black Eunuch and the *Awqāf al-Haremāyn*, *fermans* relating to Ragıb Pasha and to Bulut Kapan 'Ali Bey, lists of aghas and beys, 1031-1203/1622-1789.

المصادر الروائية الأساسية والرحلات :

- 'Abdülkerim b. 'Abdurrahman, *Tārīkh-i Mısır*, Istanbul, Süleymaniye Library, MS Hekimoğlu Ali Paşa 705.
- Ahmad Çelebi b. 'Abd al-Ghani, *Awqāf al-ishārāt fī man tawalla Mısır al-Qāhira min al-wuzarā' wa al-bāshāt*, ed. A. A. 'Abd al-Rahim, Cairo, 1978.
- Ahmed Pasha (Cezzar), *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century: The Nizāmnâme-i Mısır of Cezzar Ahmed Pasha*, ed. and trans. Stanford J. Shaw, Cambridge, MA, 1962.
- Ahmed Resmî Efendi, *Halîfet ül-rû'sâ'*, Istanbul, Süleymaniye Library, MS Halet Efendi 597/1.
- Hamâlet ül-kübrâ'*, Istanbul, Süleymaniye Library, MS Halet Efendi 597/2, MS Esad Efendi 2258/1.
- Anonymous, *Akhhâr al-hurwâb min dawlat 'Al 'Uthmân min hûk istawla 'alayhâ al-'Asr al-hâzır*, Istanbul, Süleymaniye Library, MS Hazine 1623.
- Anonymous, *Nisba sharîfa wa risâla mu'jja tashtamal 'ala dhâkir nasab al-Jarâkisu min Quraysh*, Princeton University Library, Garrett Manuscript Collection, MS 186H.
- Al-Damurdāshī, Ahmad Kātkhūda 'Azāban, *Al-Damurdashī's Chronicle of Egypt 1688-1737: Al-durra al-muṣāna fī akhhār al-kināna*, ed. and trans. Abd al-Wahhab Bakr and Daniel Crecelius, Leiden, 1991.
- Al-durra al-muṣāna fī akhhār al-kināna*, London, British Museum, MS Or. 1073-4.
- Evliya Çelebi, *Evliya Çelebi Seyahatnamesi*, ed. Ahmed Cevdet, 10 vols., Istanbul, 1888-1938.
- Narrative of Travels in Europe, Asia, and Africa*, trans. Josef von Hammer-Purgstall, London, 1834.

- Girard, P. S., *Mémoire sur l'agriculture, l'industrie, et le commerce de l'Égypte, Description de l'Égypte*, vol. XVII, compiled by the Commission des Monuments de l'Égypte (France), 2nd ed., Paris, 1824.
- Al-Hallaq, Mehmed b. Yusuf, *Tārīḥ-i Miṣr-i Kāhira*, Istanbul University Library, T.Y. 628.
- Ibn Abi al-Surur. Shams al-Din Muhammad al-Bakri al-Siddiqi, *Al-rāwḍa al-zahīyya fī wulāt Miṣr wa al-Qāhira*, abridgement of *Al-kawākib al-yā'ira fī akhbār Miṣr wa al-Qāhira*, Cairo, Dar al-Kutub Manuscripts Division, Microfilm No. 1640, unpaginated.
- Ibn Battuta, 'Abdallah Muhammad b. Ibrahim, *Riḥla Ibn Baṭṭūṭa*, introduction by Karam al-Bustani, Beirut, 1964.
- Ibn Iyas, Muhammad b. Ahmad, *An Account of the Ottoman Conquest of Egypt in the Year A.H. 922 (A.D. 1516)*, trans. W. H. Salmon, London, 1921.
- Badā' i' al-zuhūr fī waqā' i' al-ḍuhūr*, Cairo, 1920.
- Journal d'un bourgeois du Caire*, trans. Gaston Wiet, 2 vols., Paris, 1955.
- Al-Ishaqī, Muhammad 'Abd al-Mu'ī, *Kitāb akhbār al-uwal fī man taṣarrafā fī Miṣr min ar-rā'is al-diyāl*, Cairo, 1887.
- Al-Jabarti, 'Abd al-Rahman b. Hasan, *'Ajā'ib al-athār fī al-tarājīm wa al-akhbār*, 7 vols., Cairo, 1958-67.
- Journal d'un notable du Caire durant l'expédition française, 1798-1801*, trans. Joseph Cuq, Paris, 1979.
- Kātib Çelebi, *Kashf al-zunūn 'an asūmi al-kutub wa al-funūn*, 3 vols., Tehran, 1967.
- Al-Khashshab, Ismail, *Tadhkira li-ahl al-baṣā'ir wa al-absūr ma' wajh al-ikhtisār*, Paris, Bibliothèque Nationale, MS Arabe 1858.
- Lane, Edward W., *Cairo Fifty Years Ago*, ed. Stanley Lane-Poole, London, 1896.
- Manners and Customs of the Modern Egyptians*, introduction by M. Saad el-Din, 2 vols., London, 1908; repr. 1954.
- Al-Mawza'i, Shams al-Din 'Abd al-Samad, *Dukhūl al-'utmaniyyīn al-awwal ila al-Yaman*, ed. 'Abdallah Muhammad al-Habashi, Beirut, 1986.
- Mustafa 'Ali, *Mustafa 'Ali's Description of Cairo of 1599*, ed. and trans. Andreas Tietze, Vienna, 1975.
- Peçevi, Ibrahim, *Tārīḥ-i Peçevi*, 2 vols. in 1, Istanbul, 1865-7.
- Pococke, Richard, *A Description of the East and Some Other Countries*, 2 vols., London, 1743.
- Travels of Richard Pococke, L.L.D., F.R.S., through Egypt. Interspersed with Marks and Observations by Captain Norden*, Philadelphia, 1803.
- Al-Qinali, al-Hajj Mustafa b. al-Hajj Ibrahim, *Tārīkh waqā' i' Miṣr al-Qāhira. Kināra ismuhu ta'ālā fī ar-ḥikm al-sulṭān Muḥammad Khān wa al-sulṭān Mahmūd Khān*, Cairo, Dar al-Kutub Manuscripts Division, Microfilm No. 27970.
- Reddaway, W. F. (ed.), *Documents of Catherine the Great: The Correspondence with Voltaire and the Instruction of 1767 in the English Text of 1768*, reissue, New York, 1971.

- Rycaut, Paul, *The Present State of the Ottoman Empire*, London, 1668; repr. New York, 1971.
- Şemdanizade Fındıklılı Süleyman Efendi, *Şemdanizade Fındıklılı Süleyman Efendi Ta'rihi*, ed. M. Münir Aktepe, 4 vols. in 3, Istanbul, 1976.
- Al-Sharqawi, 'Abdallah, *Tuhfat al-nāẓirīn fī man waliya Miṣr min al-wulāh wa al-salāṭīn*, printed in the margins of al-Ishaqī's *Akhbār al-uwal*, Cairo, 1887.
- Volney (Constantine-François Chassebocuf), *Travels through Syria and Egypt in the Years 1783, 1784, and 1785*, trans. from the French, 2 vols., London, 1805.
- Yusuf Efendi. *Tārīḫ-i Miṣr*, Istanbul, Süleymaniye Library, MS. Esad Efendi 2148.

المصادر الثانوية

- 'Abd al-Rahim, A. A., *Al-rīf al-miṣrī fī al-qarn al-thāmin 'ashar*, Cairo, 1974.
- "Yusuf al-Mallawani's *Tuhfat al-ahbāb* and Ahmad Shalabi ibn 'Abd al-Ghani's *Awḍaḥ al-ishārāt*," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
- Abou-el-Hajj, Rifaat A., "The Ottoman Vezir and Paşa Households, 1683-1703: A Preliminary Report," *JAOS* 94 (1974), 438-47.
- Abu Husayn, Abdul-Rahim, "The *Itizām* of Mansur Furaykh: A Case Study of *Itizām* in Sixteenth-Century Syria," in Khalidi (ed.), *Land Tenure and Social Transformation*.
- Abu-Lughod, Janet L., *Cairo: 1001 Years of the City Victorious*, Princeton, 1971.
- Allen, W. E. D., *A History of the Georgian People*, London, 1932; reissued 1971.
- Ayalon, David, "Aspects of the Mamluk Phenomenon," parts 1-2. *Der Islam* 53 (1976), 196-225; 54 (1977), 1-32.
- "The Circassians in the Mamluk Kingdom," *JAOS* 49 (1949), 135-47.
- "Discharges from Service, Banishments, and Imprisonments in Mamluk Society," *Israel Oriental Studies* 2 (1972), 25-50.
- "The End of the Mamluk Sultanate (Why Did the Ottomans Spare the Mamluks of Egypt and Wipe Out the Mamluks of Syria?)," *SI* 65 (1987), 125-48.
- L'esclavage du mamelouk*, Jerusalem, 1951.
- "The Eunuchs in the Mamluk Sultanate," in Myriam Rosen-Ayalon (ed.), *Studies in Memory of Gaston Wiet*, Jerusalem, 1977.
- "Furūsiyya Exercises and Games in the Mamluk Sultanate," *Scripta Hierosolymitana* 9 (1961), 31-62.
- Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom: A Challenge to Medieval Society*, London, 1956.
- "The Historian al-Jabarti," in Bernard Lewis and P.M. Holt (eds.), *Historians of the Middle East*, Historical Writing on the Peoples of Asia, vol. IV, London, 1962.
- "The Historian al-Jabarti and His Background," *BSOAS* 23 (1960), 217-49.
- "Mamluk," *EI*².
- "Names, Titles, and *Nisbas* of the Mamluks," *Israel Oriental Studies* 5 (1975), 189-232.

- "On the Eunuchs in Islam," *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 1 (1979), 67-124.
- "Studies in al-Jabarti I: Notes on the Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans," *JESHO* 3 (1960), 1-8-74, 275-325.
- "Studies on the Structure of the Mamluk Army," parts 1-3, *BSOAS* 15 (1953), 203-28 and 448-76; 16 (1954), 57-90.
- Babinger, Franz, *Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke*, Leipzig, 1927.
- Bacqué-Grammont, Jean-Louis, *Les Ottomans, les Safavides et leurs voisins*, Istanbul, 1987.
- Badr, Hamza 'Abd al-'Aziz, and Daniel Crecelius, "The *Awqāf* of al-Hajj Bashir Agha in Cairo," *AI* 27 (1993), 291-311.
- "The *Waqfs* of Shahin Ahmad Agha," *AI* 26 (1992), 79-115.
- Baer, Gabriel, "Patrons and Clients in Ottoman Cairo," in *Mémorial Ömer Lutfi Barkan*, Paris, 1980.
- "Popular Revolt in Ottoman Cairo," *Der Islam* 54 (1977), 213-42.
- Studies in the Social History of Modern Egypt*, Chicago, 1969.
- Bakr, 'Abd al-Wahhab, "Interrelationships among the Damurdashi Group of Manuscripts," in Daniel Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
- Bannerth, Ernst, "La Khalwatiyya en Egypte: Quelques aspects de la vie d'une confrérie," *MIDEO* 8 (1964-6), 1-74.
- "La Rifa'iyya en Egypte," *MIDEO* 10 (1970), 1-35.
- Barbir, Karl K., "From Pasha to Efendi: The Assimilation of Ottomans into Damascene Society, 1516-1783," *International Journal of Turkish Studies* 2 (1979-80), 61-93.
- Ottoman Rule in Damascus, 1708-1758*, Princeton, 1980.
- Barkan, Ömer Lutfi, *XI' ve XVI'nci asırlarda Osmanlı imparatorluğunda ziraî ekonominin hukukî ve malî esasları*, İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Yayınlarından No. 256, vol. I: *Laws*, Istanbul, 1943.
- Behrens-Abouseif, Doris, *Azhakiyya and Its Environs: From Azbāk to Ismail, 1476-1879*, Cairo, 1985.
- Egypt's Adjustment to Ottoman Rule: Institutions, Waqf, and Architecture in Cairo, Sixteenth and Seventeenth Centuries*, Leiden, 1994.
- Beldiceanu-Steinherr, Irène, "Mālikāne," *EF*.
- Bowen, Harold, "Adjami Oghlan," *EF*.
- Brockelmann, Karl, *Geschichte des arabischen Litteratur*, 2 vols. plus 3 supplemental vols., Leiden, 1937-49.
- Brown, L. Carl, *The Tunisia of Ahmad Bey, 1837-1855*, Princeton, 1974.
- Cahen, Claude, "L'évolution de l'*iqṭā'* du IX^e au XIII^e siècle," in Claude Cahen, *Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damascus, 1977.
- Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and Spiritual Culture and History, c. 1071-1330*, trans. J. Jones-Williams, London, 1968.
- Çetin, Atilla, *Başbakanlık Arşivi Kılavuzu*, Istanbul, 1979.
- Cook, J. M. *The Troad: An Archaeological and Topographical Study*, Oxford, 1973.

- Cook, Michael A. (ed.), *A History of the Ottoman Empire to 1730: Chapters from the Cambridge History of Islam and the New Cambridge Modern History*, London, 1976.
- Crabbs, Jack A., Jr., "Historiography and the Eighteenth Century Milieu," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
- Crecelius, Daniel, "Ahmad Shalabi ibn 'Abd al-Ghani and Ahmad Katkhuda 'Azaban al-Damurdashi: Two Sources for al-Jabarti's *'Ajā'ib al-akhbār fī al-tarājim wa al-akhbār*," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
- Eighteenth Century Egypt: The Arabic Manuscript Sources*, Claremont, CA, 1990.
- The Roots of Modern Egypt: A Study of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab, 1760-1775*, Minneapolis and Chicago, 1981.
- "Russia's Relations with the Mamluk Beys of Egypt in the Eighteenth Century," paper delivered at the Middle East Studies Association conference, Boston, 1986.
- "Some Remarks on the Importance of Qusayr in the Late Eighteenth Century," paper delivered at the Middle East Studies Association conference, Baltimore, 1987.
- The *Waqf* of Muhammad Bey Abū al-Dhahab in Historical Perspective," *IJMES* 23 (1991), 57-81.
- Cuno, Kenneth M., "Egypt's Wealthy Peasantry, 1740-1820," in Khalidi (ed.), *Land Tenure and Social Transformation*.
- The Pasha's Peasants: Land, Society, and Economy in Lower Egypt, 1740-1858*, Cambridge, 1992.
- Dodge, Bayard, *Al-Azhar: A Millennium of Muslim Learning*, memorial ed., Washington, DC, 1974.
- El-Mouelhy, Ibrahim, *Organisation et fonctionnement des institutions ottomanes en Egypte (1517-1917)*, Istanbul, 1989.
- El-Nahal, Galal H., *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century*, Minneapolis and Chicago, 1979.
- El-Shayyal, Gamal el-Din, "Historiography in Egypt in the Nineteenth Century," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.
- A History of Egyptian Historiography in the Nineteenth Century*, Alexandria, 1962.
- "Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth-Century Egypt," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.
- Faroghi, Suraiya, *Pilgrims and Sultans: The Hajj under the Ottomans*, London and New York, 1994.
- Fekete, Lajos, *Die Siyaqat-schrift in der türkischen Finanz Verwaltung*, 2 vols., Budapest, 1955.
- Fiğlali, E. R., "Tahtacılar," *Türk Ansiklopedisi*.
- Gibb, H. A. R., and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Middle East*, 1 vol. in 2 parts, part 1: *Islamic Society in the Eighteenth Century*, London, 1950-7.

- Goitein, S. D., *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*. 5 vols., Berkeley and Los Angeles, 1967, 1971, 1978, 1983, 1988.
- Gr n, Peter, *Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760-1840*, foreword by Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, Austin and London, 1979.
- Halm, Heinz, * gypten: nach den mamlukischen Lebensregistern*, 2 vols., Wiesbaden, 1979.
- Von Hammer-Purgstall, Josef, *Geschichte des osmanischen Reiches*. 10 vols., Pest, 1827-35.
- Histoire de l'empire ottoman*, trans. J.-J. Hellert, 18 vols., Paris, 1835-43.
- Hathaway, Jane, "The Household of Hasan Agha Bilifya: An Assessment of Elite Politics in Seventeenth-Century Ottoman Egypt," *Turcica* 27 (1995), 135-51.
- "Marriage Alliances among the Military Households of Ottoman Egypt," *AI* 29 (1995), 133-49.
- "The Military Household in Ottoman Egypt," *IJMES* 27 (1995), 39-52.
- "The Role of the K zlar A ası in Seventeenth-Eighteenth Century Ottoman Egypt," *SI* 75 (1992), 141-58.
- "Sultans, Pashas, Taqw ms, and M himmies: A Reconsideration of Chronicle-Writing in Eighteenth Century Ottoman Egypt," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
- "The Wealth and Influence of an Exiled Ottoman Eunuch in Egypt: The Waqf Inventory of 'Abbas Agha," *JESHO* 37 (1994), 293-317.
- Hattox, Ralph S., *Coffee and Coffeehouses: The Origins of a Social Beverage in the Medieval Near East*, Seattle and London, 1985.
- Hess, Andrew, "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries, 1453-1525," *American Historical Review* 75 (1970), 1892-1919.
- The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth Century Ibero-African Frontier*, Chicago, 1978.
- "The Forgotten Frontier: The Ottoman North African Provinces during the Eighteenth Century," in Na  and Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*.
- "The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth-Century World War," *IJMES* 4 (1973), 55-76.
- Heyd, Uriel (ed. and trans.), *Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615*, Oxford, 1960.
- Heyworth-Dunne, J., *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt*, London, 1968.
- Holt, P. M., "The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century," *BSOAS* 24 (1961), 214-48.
- "The Career of K ch k Muhammad (1676-94)," *BSOAS* 26 (1963), 269-87.
- Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922: A Political History*, Ithaca and London, 1966.

- "The Exalted Lineage of Ridwan Bey: Some Observations on a Seventeenth Century Mamluk Genealogy," *BSOAS* 22 (1959), 221-30.
- "Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt," *BSOAS* 25 (1962), 38-51.
- "Mamluks," *EF*.
- "Mistr," *EF*.
- "Ottoman Egypt (1517-1798): An Account of Arabic Historical Sources," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.
- "The Pattern of Egyptian Political History from 1517 to 1798," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.
- Holt, P. M. (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt: Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic*, London, 1968.
- Inalcik, Halil, "Centralization and Decentralization in Ottoman Administration," in Nassif and Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*.
- "Gönüllü," *EF*.
- "The Ottoman Decline and Its Effects upon the Reaya," in Henrik Birnbaum and Speros Vryonis, Jr. (eds.), *Aspects of the Balkans: Continuity and Change - Contributions to the International Balkan Conference Held at UCLA, October 23-28, 1969*, The Hague, 1972; repr. in Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: Conquest, Organization, and Economy*, London, 1978.
- The Ottoman Empire: The Classical Age, 1300-1600*, trans. Norman Itzkowitz and Colin Imber, London, 1973.
- Itzkowitz, Norman, "Mehmet Raghip Pasha: The Making of an Ottoman Grand Vizier," Ph.D. dissertation, Princeton University, 1958.
- İzbirak, R., "Uşak," *Türk Ansiklopedisi*.
- Kaldy-Nagy, Gyula, "The 'Strangers' (*Ecnehiler*) in the Sixteenth Century Ottoman Military Organization," in Gyula Kara (ed.), *Between the Danube and the Caucasus*, Budapest, 1987.
- Keddie, Nikki R. (ed.), *Scholars, Saints, and Sufis: Muslim Religious Institutions since 1500*, Berkeley, Los Angeles, and London, 1972.
- Khalidi, Tarif (ed.), *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East*, Beirut, 1984.
- Kunt, Metin, "Ethnic-Regional (*Cins*) Solidarity in the Seventeenth-Century Ottoman Establishment," *IJMES* 5 (1974), 233-9.
- "The Ottoman State and the Ottoman Household," paper delivered at the Middle East Studies Association conference, Milwaukee, November 1973.
- The Sultan's Servants: The Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550-1650*, New York, 1983.
- Kurtoğlu, Fevzi, *Türk Bayrağı ve Ay Yıldızı*, Ankara, 1938.
- Lang, David M., *The Last Years of the Georgian Monarchy, 1658-1832*, New York, 1957.
- A Modern History of Soviet Georgia*, New York, 1962.

- Lansing, Carol. *The Florentine Magnates: Lineage and Faction in a Medieval Commune*, Princeton, 1991.
- Livingston, John William. "Ali Bey al-Kabir and the Jews," *Middle Eastern Studies* 7 (1971), 221-8.
- "Ali Bey al-Kabir and the Mamluk Resurgence in Ottoman Egypt, 1760-72," Ph.D. dissertation, Princeton University, 1968.
- "The Rise of Shaykh al-Balad 'Ali Bey al-Kabir: A Study in the Accuracy of the Chronicle of al-Jabarti," *BSOAS* 33 (1970), 283-94.
- Marmon, Shaun E., "The Eunuchs of the Prophet: Space, Time, and Gender in Islam," Ph.D. dissertation, Princeton University, 1990.
- Eunuchs and Sacred Boundaries in Islamic Society*, Oxford and New York, 1995.
- Marsot, Afaf Lutfi al-Sayyid, *Egypt in the Reign of Muhammad 'Ali*, Cambridge, 1984.
- "Survey of Egyptian Works of History," *American Historical Review* 96 (1991), 1422-34.
- "The Ulama of Cairo in the Eighteenth and Nineteenth Centuries," in Keddie (ed.), *Scholars, Saints, and Sufis*.
- Martin, B. G., "A Short History of the Khalwati Order of Dervishes," in Keddie (ed.), *Scholars, Saints and Sufis*.
- McNeill, William H., *Europe's Steppe Frontier, 1500-1800*, Chicago and London, 1964.
- Miller, Barnette, *The Palace School of Muhammad the Conqueror*, New York, 1951.
- ... "Al-Kur," ...
- Muhammad, Iraqi Yusuf, *Al-wujūd al-'uthmānī al-mamlūkī fī Miṣr fī al-qarn al-ithāmin 'ashar wa awā'il al-qarn al-tāsi' 'ashar*, Cairo, 1985.
- Naff, Thomas, and Roger Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*, Carbondale and Edwardsville, IL, 1977.
- Necipoğlu-Kafadar, Gülru, *Architecture, Ceremonial, and Power: The Topkapı Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, New York, 1991.
- "The Formation of an Ottoman Imperial Tradition: The Topkapı Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries," facsimile of a Ph.D. dissertation, Harvard University, 1986.
- Nour, Riza, "L'histoire du croissant," *Revue de Turcologie* 1 (1933), 3-181/233-410.
- Özbaran, Salih, "The Ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf, 1534-1581," *Journal of Asian History* 6 (1972), 44-87.
- Pascual, Jean-Paul, "The Janissaries and the Damascus Countryside at the Beginning of the Seventeenth Century According to the Archives of the City's Military Tribunal," in Khalidi (ed.), *Land Tenure and Social Transformation*.
- Pearce, Leslie P., *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*, New York and Oxford, 1993.
- Penzer, Norman M., *The Harem*, London, 1936; repr. 1965.
- Petry, Carl, *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*, Princeton, 1981.
- Twilight of Majesty: The Reigns of the Mamluk Sultans al-Ashraf Qaythay and Qansuh al-Ghawri in Egypt*, Seattle and London, 1993.

- Piterberg, Gabriel. "The Formation of an Ottoman Egyptian Elite in the Eighteenth Century," *IJMES* 22 (1990), 275-89.
- Póliak, A. N., "La Féodalité islamique," *Revue des Etudes Islamiques* 1 (1936), 247-65.
- "Some Notes on the Feudal System of the Mamluks," *Journal of the Royal Asiatic Society* (1937), 97-107.
- Rabie, Hasanayn. *The Financial System of Egypt, A.H. 564-741/A.D. 1169-1341*. London, 1972.
- "The Size and Value of the *Iqtā'* in Egypt, 564-741/1169-1341," in Michael Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East: From the Rise of Islam to the Present Day*, Oxford, 1970.
- Rafeq, Abdul-Karim. "Changes in the Relationship Between the Ottoman Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Centuries," in Naff and Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*.
- "The Local Forces in Syria in the Seventeenth and Eighteenth Centuries," in V. J. Parry and Malcolm Yapp (eds.), *War, Technology and Society in the Middle East*. London and New York, 1975.
- The Province of Damascus, 1723-1783*, Beirut, 1966.
- "Syrian Manuscript Sources for the History of Eighteenth Century Ottoman Egypt," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
- Raymond, André, *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle*, 2 vols., Damascus, 1973-4.
- Le Caire des Janissaires: L'Apogée de la ville ottomane sous 'Abd al-Rahman Katkhuda*, Paris, 1995.
- "Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire au XVIIIe siècle," *JESHO* 6 (1963), 58-103.
- Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, 1985.
- The Great Arab Cities in the Sixteenth-Eighteenth Centuries: An Introduction*, New York, 1984.
- "The Opuscule of Shaykh 'Ali al-Shadhili: A Source for the History of the 1711 Crisis in Cairo," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
- "The Ottoman Conquest and the Development of the Great Arab Towns," *International Journal of Turkish Studies* 1 (1979-80), 84-101.
- "La Population du Caire et de l'Egypte à l'époque ottomane et sous Muhammad 'Ali," in *Mémorial Ömer Lutfi Barkan*, Paris, 1980.
- "Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIIIème siècle," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.
- "Les Quartiers de résidence de l'élite de l'époque mamelouke à l'époque ottomane (XIV-XVIII siècles)," paper presented at the conference "The Mamluks in Egyptian Politics and Society," Bad Homburg, Germany, December 1994.
- "Une 'Révolution' au Caire sous les Mamelouks: La Crise de 1123/1711," *AI* 6 (1966), 95-120.

- "Soldiers in Trade: The Case of Ottoman Cairo." *British Society for Middle Eastern Studies Bulletin* 18 (1991), 16-37.
- "Les Sources de la richesse urbaine au Caire au dix-huitième siècle," in Nall and Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*.
- Scanlon, George, *A Muslim Manual of War*, Cairo, 1961.
- Sertoğlu, Midhat, *Muhteva Bakımından Başvekâlet Arşivi*, Ankara, 1955.
- Shaw, Stanford J., "Cairo's Archives and the History of Ottoman Egypt," *Report on Current Research* (1956), 59-71.
- The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*, Princeton, 1962.
- "The Land Law of Ottoman Egypt (960/1553): A Contribution to the Study of Landholding in the Early Years of Ottoman Rule in Egypt," *Der Islam* 38 (1962), 106-37.
- "Landholding and Land-Tax Revenues in Ottoman Egypt," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.
- "The Ottoman Archives as a Source for Egyptian History," *JAOS* 83 (1963), 447-52.
- "Turkish Source-Materials for Egyptian History," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.
- Staffa, Susan Jane, *Conquest and Fusion: The Social Evolution of Cairo, A.D. 620-1850*, Leiden, 1977.
- Stripling, George W. F., *The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574*, Illinois Studies in the Social Sciences, vol. XXVI, no. 4, Urbana, IL, 1942.
- Süreyya, Mehmet, *Sicill-i 'Osmani*, 4 vols. in 3, Istanbul, A.H. 1308.
- Thomas, Lewis V., *A Study of Naima*, ed. Norman Itzkowitz, New York, 1972.
- Tuchscherer, Michel, "Le Pèlerinage de l'émir Sulaymân Gâwîš al-Qazdugî, sîdâr de la caravane de la Mekke en 1739," *AI* 24 (1988), 155-206.
- Türkiye Cümhuriyeti Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, *Başbakanlık Osmanlı Arşivi Rehberi*, Ankara, 1992.
- Türkiye Cümhuriyeti Genelkurumu Başkanlığı Harp Tarihi Dairesi, *Osmanlı İmparatorluğunun Kollar, Ulak, ve İuşe Menzilleri*, Genelkurumu Başkanlığı Harp Tarihi Dairesi Resmi Yayınları Seri no. 2, Ankara, 1966.
- Udovitch, A. L., *Partnership and Profit in Medieval Islam*, Princeton, 1970.
- Üçüncü, Cugatay, *Padişahların Kadınları ve Kızları*, Ankara, 1980.
- Uzunçarşılı, İ.H., "Bostandji," *EF*.
- Mekke-i Mükerreme Emirleri*, Ankara, 1972.
- Osmanlı Devleti Teshkilatından Kapukulu Ocakları*, 2 vols., Ankara, 1943.
- Osmanlı Devletinin Saray Teşkilatı*, Ankara, 1945.
- Vryonis, Speros, Jr., *Byzantium: Its Internal History and Relations with the Muslim World - Collected Studies*, London, 1971.
- "Circus Factions and Islamic Futuwwa Organizations," repr. in Vryonis, *Byzantium: The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the Fifteenth Centuries*, London, 1971.

- "Seljuk Gulams and Ottoman Devshirmes," repr. in Vryonis, *Byzantium*.
- Wiet, Gaston. "Personnes déplacées," *Revue des Études Islamiques* 27 (1959), 9–21.
- Winter, Michael, "'Ali Efendî's 'Anatolian Campaign Book': A Defence of the Egyptian Army in the Seventeenth Century," *Turcica* 15 (1983), 267–309.
- Egyptian Society Under Ottoman Rule, 1517–1798*, London and New York, 1992.
- Turks, Arabs, and Mamluks in the Army of Ottoman Egypt," *WZKM* 72 (1980), 97–122.
- Zambaur, Edouard de, *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'islam*, Hanover, 1927.
- Zygulski, Zdzislaw, Jr., *Ottoman Art in the Service of the Empire*, New York, 1992.

المؤلفة فى سطور :

- چين هاثواى ، أستاذة التاريخ بجامعة ولاية أوهايو .
- درست فى جامعة تكساس .
- حصلت على درجة الدكتوراه فى جامعة برنستون سنة ١٩٩٢ .
- تخصصت فى تاريخ الإسلام والعالم الإسلامى ، إلا أنها اهتمت بالجوانب الأنثروبولوجية وبالتاريخ العثمانى خاصة .
- تُحرّر " نشرة جمعية الدراسات التركية " .
- اشتركت مع كارل باربر فى القيام بدراسة مسحية تاريخية عن الولايات العثمانية فى الفترة من ١٥١٦ إلى ١٨٠٠ م .
- زارت عدداً من دول الشرق بحثاً عن مصادر لبحوثها منها تركيا ومصر .

المترجم فى سطور : :

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

- دكتوراه فى التاريخ الحديث من جامعة القاهرة سنة ١٩٨٠ .
- عمل أستاذًا مشاركًا للتاريخ فى بعض الجامعات العربية ، آخرها جامعة الملك سعود بالرياض .
- شارك فى ترجمة عدد من الموسوعات كما شارك فى الإشراف الأكاديمى على بعضها بالإضافة للترجمة (الموسوعة الإسلامية ، وموسوعة الطفل ، وموسوعة جينز ، ومجموعة أعمال محضير محمد رئيس وزراء ماليزيا عن الأمة الإسلامية) .
- ترجمة ودراسة مجموعة كتب منتجمرى وات عن الإسلام (مثل القضاء والقدر فى فجر الإسلام وضحاها ، والإسلام والمسيحية) .
- ترجمة ودراسة لموسوعة الأديان الحية التى حررها المستشرق / زينر .
- ترجمة ودراسة مجموعة كتب الرحلات إلى مصر والعالم (رحلة قارثيما ، ورحلة فاسكو ديجاما ، ورحلة بيرتون (٣ ج) بالإضافة إلى عشر رحلات أخرى .
- من الكتب المهمة التى ترجمها وحققها بتكليف من المجمع الثقافى فى أبو ظبى : السجل الكامل لأعمال أفوينو دابوكيرك ورحلة بنيامين التطيلي فى العالم الإسلامى .
- المصرية العامة للكتاب .
- من مؤلفاته : المدخل إلى علم التاريخ ، وحياسة الأرض فى نيجيريا .

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف يتم كتابة السيناريو	انجا كاريتتكوفنا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندروس، جودي	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد مقصم وعبد الجليل الأزني وعمر حلي
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨ - الشعر النسائي فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يعنى طريف الخولى / بدوي عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العناني
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصري
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كايين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصه إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	آلن تودين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزوج	أوكتايفيو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	يايلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلاوي ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل بمرdash
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجاتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكي
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمي
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمالكي في مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢
٧٨ - العولة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «ناقورة الدموع»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالتغرب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسباني مريكي المعاصر
٩٣ - محادثات العولة
٩٤ - الحب الأول والصحة
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (المجلد الأول)
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مساعلة العولة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجني
١٠٥ - منخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسي
١٠٧ - صورة الدائي في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إليوت
چين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
يوريس أوسينسكي
ألكسندر بوشكين
بندكت أندرسن
ميغيل دي أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي أقطاي
جمال مير صادقي
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنطوني جيندرز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغيل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بوירו بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روينسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليت
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤدب
برتوات بريشت
جيرارچينيت
د. ماريا خيسوس روبييرامتي
نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومي
ت : أحمد برويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الفانعي وناصر حلاوي
ت : مكارم الغمري
ت : محمد طارق الشرقاوي
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالي
ت : عبد الحميد شيخة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوي
ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
ت : إدوار الخراط
ت : بشير السباعي
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحدو
ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعفيدي

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكي
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادي	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيات حماد كرنجي وسكان المستنق	رول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا رولف	ت : سميرة رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلي أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلي أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيلز الكسندر وقنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بليغ
١٢٥ - التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديفي	ت : سمحة الخولي
١٢٦ - فعل القراءة	فولفغانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيث	ت : أميرة حسن نورية
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا بولورس أسيس جارتو	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندز فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كرونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيفلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريس فيال	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ - قضايا التطوير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدارة الطويلة	تاتكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبير
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسباني	الخواندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوجنا الأسويى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت : ياشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاکوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصايفة
١٦٦ - العلاقات بين المذنبين والطمانين في إسرائيل	يشعياهو ليتمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندراناث طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميفيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت ، ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حصه إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والتبوءة و . ب . بيتس
١٨٣ - چان كوكو على شاشة السينما رينيه چياسون
١٨٤ - القاهرة .. حاملة لا تنام هانز إيندورفر
١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
١٨٧ - الأرضة بزرّج علوى
١٨٨ - موت الأدب الثّين كرنان
١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١ - الكلام رأسال الحاج أبو بكر إمام
١٩٢ - ساحت نامة إبراهيم بك ج١ زين العابدين المراغى
١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
١٩٤ - مختارات من النقد الأثيو - أمريكى مجموعة من النقد
١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
١٩٦ - المهلة الأخيرة فالنتين راسبوتين
١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إديون إمري وآخرون
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العشانية يعقوب لاندوى
٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبوك
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
٢٠٢ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج١ رينيه ويليك
٢٠٣ - الشعر والشاعرية إلفاف حسين حالى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافالى - سفورزا
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
٢٠٧ - ليل إفريقى رامون خوتاسنديز
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوربان
٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
٢١١ - فرديناند بوسويسير جوناثان كلر
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
٢١٣ - مصر منذ تدمر نابليون حتى رجل عبد الناصر ريمون فلاور
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيدنز
٢١٥ - سياحت نامة إبراهيم بك ج٢ زين العابدين المراغى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت
٢١٨ - رايولا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
ت : فتحى العشرى
ت : دسوقي سعيد
ت : عبد الوهاب علوب
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : علاء منصور
ت : بدر النيب
ت : سعيد الغانمى
ت : محسن سيد فرجاني
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : محمود سلامة علاوى
ت : محمد عبد الواحد محمد
ت : ماهر شفيق فريد
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : أشرف الصباغ
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
ت : فخرى لبيب
ت : أحمد الأنصارى
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : أحمد محمود هويدى
ت : أحمد مستجير
ت : على يوسف على
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت : محمد أحمد صالح
ت : أشرف الصباغ
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : محمود حمدي عبد الغنى
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : سيد أحمد على الناصرى
ت : محمد محمود محى الدين
ت : محمود سلامة علاوى
ت : أشرف الصباغ
ت : نادية البنهاوى
ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نقادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارتيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البيرى
٢٢٧ - المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمن	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سينسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى منبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلاراف - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكييل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرتيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيرو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومتيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جورجون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - العجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : فاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوزا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزي ج٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريرف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريرف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بريار	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - س. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد قوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الألب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وأخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفريوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عثمان
٢٨٥ - رحلة الخواجه حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعزلة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج١	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج٢	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	يوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدرى
٢٩٧ - فن النحويين اليونانية والسورانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تافاريليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد قزاد
٣٠٠ - أسطورة برومتيوس مج ١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء جاهين
٣٠١ - أسطورة برومتيوس مج ٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب ويورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريسوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى التاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بايينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الاسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلاغ	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتير ياسييفاك وكريستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنتسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن العربى	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هاتم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كريستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

- ٢٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد
٢٣١ - عندما جاء السريدين ستيفن جراي
٢٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى نخبة
٢٣٣ - الإسلام في بريطانيا نبيل مطر
٢٣٤ - لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك
٢٣٥ - عصر الشك ناتالي ساروت
٢٣٦ - متون الأهرام نصوص قديمة
٢٣٧ - فلسفة الولاء جوزايا رويس
٢٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند نخبة
٢٣٩ - تاريخ الأدب في إيران ج٢ على أصغر حكمت
٢٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيربروجلو
٢٤١ - قصائد من ولكه راينر ماريا رلكه
٢٤٢ - سلمان وأبسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل نادين جورديمر
٢٤٤ - الموت في الشمس بيتر بلانجوه
٢٤٥ - الركض خلف الزمن بونه ندائى
٢٤٦ - سحر مصر رشاد رشدى
٢٤٧ - الصبية الطائشون جان كوكتو
٢٤٨ - التصوف الأولون في الأدب التركي جا محمد فؤاد كوبريلى
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والدرون وآخرين
٢٥٠ - بانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة
٢٥١ - مبادئ المنطق جوزايا رويس
٢٥٢ - قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس
٢٥٣ - الفن الإسلامى في الأندلس (متسبة) باسيلييو بابون مالدونالد
٢٥٤ - الفن الإسلامى في الأندلس (نباتية) باسيلييو بابون مالدونالد
٢٥٥ - التيارات السياسية في إيران حجت مرتضى
٢٥٦ - الميراث المر بول سالم
٢٥٧ - متون هيروميس بول سالم
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامية نصوص قديمة
٢٥٩ - محاورات بارمنيدس نخبة
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة أفلاطون
٢٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة أندريه جاكوب ونويلا باركان
٢٦٢ - تلميذ باينبرج آلان جرينجر
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقى هاينرش شوبرال
٢٦٤ - حادثة شكسبير ريتشارد جيبسون
٢٦٥ - سام باريس إسماعيل سراج الدين
٢٦٦ - نساء يركضن مع الذئب شارل بودلير
كلاريسا بنكولا
ت : سامى صلاح
ت : سامية دياب
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : بكر عباس
ت : مصطفى فهمى
ت : فتحى العشرى
ت : حسن صابر
ت : أحمد الأنصارى
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : فخرى لييب
ت : حسن حلمى
ت : عبد العزيز بقوش
ت : سمير عبد ربه
ت : سمير عبد ربه
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال الجزيرى
ت : بكر الطو
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : أحمد عمر شاهين
ت : عطية شحاتة
ت : أحمد الأنصارى
ت : نعيم عطية
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : محمود سلامة علاوى
ت : بدر الرفاعى
ت : عمر الفاروق عمر
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : حبيب الشارونى
ت : ليلي الشريينى
ت : عاطف معتمد وأمال شاور
ت : سيد أحمد فتح الله
ت : صبرى محمد حسن
ت : نجلاء أبو عجاج
ت : محمد أحمد حمد
ت : مصطفى محمود محمد

٢٦٧ - القلم الجريء	نخبة	ت : البراق عبد الهادي رضا
٢٦٨ - المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٢٦٩ - المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٢٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليلا لويت	ت : قاطمة عبد الله محمود
٢٧١ - المتصورة الأولى فى الأدب التركى ج٢	محمد فؤاد كويرلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٧٢ - عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٢٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على متوفى
٢٧٤ - اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٢٧٥ - الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٢٧٦ - الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٢٧٧ - تاريخ الأدب فى إيران ج٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٧٨ - المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح قرچ
٢٧٩ - ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٢٨٠ - حديث عن الخسارة	جوتتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٢٨١ - أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢ - تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٢٨٣ - هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٤ - القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٢٨٥ - مشتري العشق	محمد على بهزاداد	ت : يوسف عبد الفتاح قرچ
٢٨٦ - دفاعاً عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧ - أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٢٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٨٩ - من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٩٠ - الأرشيقات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٢٩١ - الحافلة الليلية	مايف بينشى	ت : منى الدروبي
٢٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٩٣ - فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٢٩٤ - القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٢٩٥ - آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٢٩٦ - السافاك	تقى نجارى راد	ت : محمود سلامة علاوى
٢٩٧ - نيتشه	لورانس جين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٩٨ - سارتر	فيليب تودى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٩٩ - كامى	ديفيد ميروفتس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ - مومو	مشتياثيل إنده	ت : باهر الجوهري
٤٠١ - الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ - هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ - ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ - تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ - إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ - الأدب الإشباني للعصر بقلم كتبه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر	جوان فوشركنج	ت : عنان الشهاوى

٤٠٩ - انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠ - خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزاوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ٢ج)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للأدب	باسكال كازانوف	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العشانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٠٥٣ / ٢٠٠٢



The Politics of Households in Ottoman Egypt (The rise of the Qazdaglis)

الفكرة السائدة لدى معظم المؤرخين الواعين هي أن النخبة العسكرية في مصر في العصر العثماني ليست إلا إحياء للمؤسسات التي كانت سائدة في عصر السلطنة المملوكية، لكن المؤلفة حين هاثواي تؤكد أن هذا لم يكن دائماً، أو بتعبير آخر لم يكن في كل الأحوال؛ فهي تسوق براهين قوية على أن الهيكل الأساسي الذي كانت النخبة العسكرية المصرية تعمل من خلاله في القرن ١٧ وأوائل القرن ١٨ هو «الزُمرة» المكوّنة من الرأس الراعي والتابعين له، وهذه «الزُمرة» قابلة للامتداد؛ بمعنى ضم أعضاء جدد عن طريق المشاركة التجارية والزواج والمصاهرة ومشاركة (أو رعاية) خصيان البلاط العثماني. وقد ركّزت المؤلفة على زُمرة علي بيك المعروف بالكبير، وهي زُمرة «القازدغلية»؛ لأنها اعتبرت لها نموذجاً مصغراً للمجتمع المصري كله.